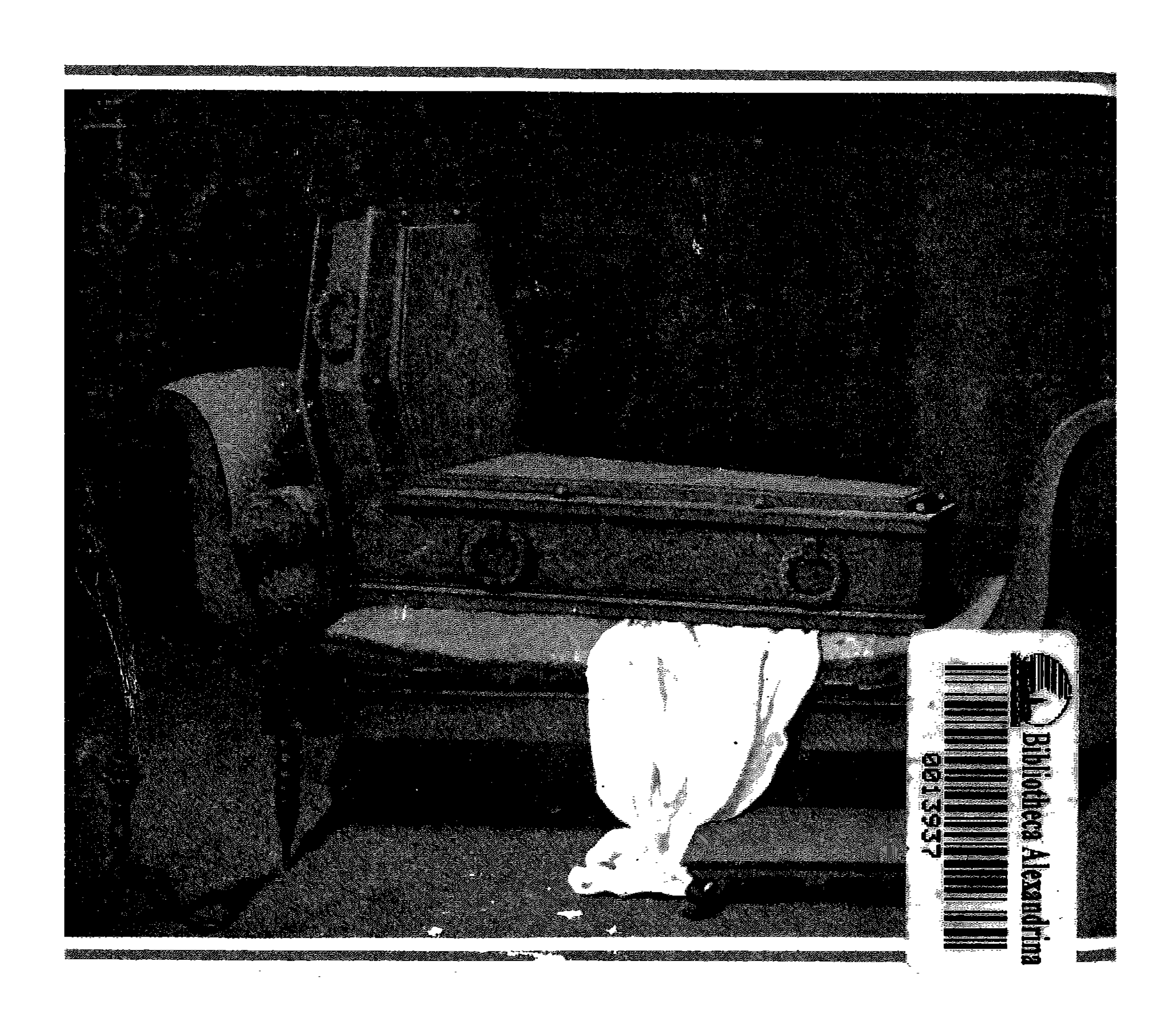
غادة السمّان

كوابيس بيروت



غادة السمان



كوابيس بيروت

ترجمت هذه الرواية إلى البولونية وصدرت عام ١٩٨٤ عن منشورات بوستواوي انستيتوت (الطبعة الأولى ٢٠ ألف نسخة)

ترجمت هذه الرواية إلى الروسية وصدرت عام ١٩٨٧ عن منشورات رادوغا (الطبعة الأولى ٥٠ ألف نسخة).

تترجم حالياً إلى الألمانية

ـ لوحة الغلاف الاول للفنان رينيه ماجريت .

ـ الخط للفنان حسين ماجد .

ـ تنفيذ الغلاف للفنان نبيل البقيلي

غادة السمان

كوابيس بيروت

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان

ص. ب ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩ / ٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى : تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٧٦ .

الطبعة الثانية : تموز (يوليو) ١٩٧٧ .

الطبعة الثالثة : نيسان (ابريل) ١٩٧٩ .

الطبعة الرابعة : تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨١ .

الطبعة الخامسة : أيار (مايو) ١٩٨٤ .

الطبعة السادسة : تموز (يوليو) ١٩٨٧ .

الاهداء

اهدي هذه الروايـــة ،
الى عمال المطبعة
الذين يصفون في هذه اللحظة حروفها
رغم زوبعة الصواريخ والقنابل
وهم يعرفون
ان الكتاب لن يحمل اسماءهم ...

اليهـــم ،
هم الكادحون المجهولون دونما ضوضاء ،
كسواهم من الأبطال الحقيقيين
الذين يعيشون ويموتون بصمت ،
ويصنعون تاريخنا
بصمود الانبياء ...

اليهـــم ،
هم الذين يكتبون الكتب كلها
دون ان تحمل تواقيعهم
إلى اصابعهم الشموع التي اوقدوها
من أجل ان يطلع الفجر
اهدي هذه السطور

غاده ٢ / ٩ / ٧٦

• بدأت كتابتها ليل ١٣ تشرين ثاني ١٩٧٥ .

• تمت كتابتها في ٢٧ شباط ١٩٧٦ .

• نشرت مسلسلة في احدى المجلات اللبنانية مع اوائل عام ١٩٧٦ .

• توقفت المجلة عن نشرها في آب ١٩٧٦ اعتباراً من كابوس ١٦٠ .

كابوس ١

حينما طلع ضوء الفجر ، كان كل منا يتأمل الآخر بدهشة : كيف بقينا أحياء ؟ كيف نجونا من تلك الليلة ...

فقد قضينا ليلة كانت القذائف والمتفجرات والصواريخ تركض فيها حول بيتنا كأنّ عوامل الطبيعة قد أصيبت بالجنون ... وكانت الانفجارات كثيفة كما في فيلم حربي سيء لكثرة مبالغاته ...

لم نكن قد صحونا جيداً من « عدم نومنا » حين اتخذنا قراراً سريعاً : إخراج الأطفال والعجائز من البيت وخلال عشر دقائق من الركض الهستيري بين غرف البيت — لجمع حوائج سيتبين لنا حتماً فيما بعد أنها غير ضرورية — ، كانت (القافلة) تهبط سلم البيت إلى الحديقة ومنها إلى سيارتي العتيقة ... وكان زجاجها الأمامي مثقوباً برصاصة عند موضع رأس السائق اي عند موضع رأسي والزجاج الخلفي محطماً ومتماسكاً في مكانه . تحسست رأسي وفرحت حين وجدته في مكانه دون اي ثقب اضافي . منظر الرصاص في الزجاج زاد من جنوننا لتهريب الصغار جداً والكبار جداً ، كأن لأصوات المتفجرات مفعول غامض كالمخدرات ... كأنها تطلق في الأعماق طاقة سرية مختزنة وتلجم في الوقت ذاته صوت المنطق اليومي والعقل العادي المتداول ...

يبدو أننا أغلقنا أبواب السيارة علينا بعنف ، فقد تساقط الزجاج المحطم الذي كان متماسكاً رغم شروخه ، وسقط فوقنا قطعاً بيضاء صغيرة كالثلج الشرير ...

كان خوفي الوحيد من ان تقرر سيارتي العتيقة ممارسة احدى ألاعيبها كأن تعتصم بأرض الشارع وتضرب اليوم عن العمل . كان قلبي يضرب كطبل افريقي مجنون وأنا

أدير مفتاح (الكونتاكت) .. تحركت السيارة . كالمنومة مغناطيسياً كنت اقودها ، وفي ذهني خاطر واحد : التخلص من حمولتها البشرية — الأقل صبراً على الرعب — والعودة إلى البيت .

أنزلتهم أمام بيت بعض الأقارب ، وعدت في الدرب نفسها مثل دمية ربط (زمبركها) وهي تؤدي دورها على الخط المرسوم لسيرها دونما توقف (وحتّى لو اصطدمت بطرف سجادة أو بساق الكرسي ، فانها ستظل تتابع حركتها الآلية) ... هذا ما حدث لي حين مررت بحواجز المسلحين الجدد الكثر ... لم اتوقف ولم اسرع ، ولم اشعر بأنني رأيتهم ، ولم تبد على وجوههم غير الدهشة ... كان من الواضح ان السيارة مصابة بزخات من الرصاص وخصوصاً عند موضع رأسي ، وكان المدهش انني ما زلت أحيا واقودها دون اي تعبير على وجهي ، وربما ظنوا انني مت حين أُطلقت النار على السيارة ، وها أنا اقودها في طريقي الى الآخرة ... ووحدها الدرب إلى الآخرة سالكة وآمنة وبلا حواجز ... وهكذا لم يستوقفني أحد .

* * *

كابوس ٢

حين غادرت سيارتي ذلك الصباح ، ودخلت إلى البيت سالمة — حتّى اشعار آخر — لم أكن أدري أنها المرة الأخيرة التي ساغادر فيها بيتي إلى ما بعد أيام طويلة ... وأنني منذ اللحظة التي أغلقت الباب خلفي ، اغلقته أيضاً بيني وبين الحياة والأمن ... وصرت سجينة كابوس سيطول ويطول ..

وانني عدت وأخي إلى البيت لنلعب دور السجناء ... ولو علمنا لتزودنا بشيء من الطعام في درب العودة ... ولو علمنا ربما لما عدنا ... ولو .. ولو ... وزرعنا « لو » في حقول الندم ، فنبتت كلمة يا « ليت » ! ...

* * *

كابوس ٣

لم نكن قد سمعنا الراديو بعد . فقط حينما عدت : تذكرت أنني للمرة الأولى منذ شهر غادرت البيت دون ان استمع إلى ارشادات المذيع شريف ، أو أغسل وجهي على الأقل ...

وحين انصت اليه، كان الأوان قد فات . كان المسلحون يحتلون فندق « هوليداي إن » المواجه لبيتنا الصغير العتيق والذي يطل فوق أعلى طوابقنا (الثالث) . كما يشرف جبل من الاسمنت والحديد فوق كوخ لفلاح مسالم في قعر الوادي ...

بعدها فقط استيقظت وأدركت انني كأعزل محكوم بالاقامة الجبرية وسط ساحة معركة ! ... فاتصلت بالبقال لاطلب مؤونة من الطعام . لا جواب . تلفنت لدكاكين الحي كلها . لا أحد يرد . تلفنت للجيران ، فرد ابنهم أمين مدهوشاً . أين تعيشين ؟ الا تعرفين ما يدور حولك ؟ ...

* * *

كابوس ٤

اين اعيش ؟

ردني سؤاله إلى واقع مروع . اعيش في ساحة حرب ولا أملك اي سلاح ولا اتقن استعمال أي شيء غير هذا النحيل الراكض على الورق بين أصابعي تاركاً سطوره المرتجفة كآثار دماء جريح يزحف فوق حقل مزروع بالقطن الأبيض ...

اين اعيش ؟ ...

يبدو انني اسكن بيتاً من الشعر (بكسر الشين) . وسادتي محشوة بالأساطير ، وغطائي مجلدات فلسفية . وكل ثوراتي وقتلاي تحدث في حقول الأبجدية وقذائف اللغة ...

أين تعيشين ؟

ودوى انفجار ... وشعرت بوخزة : لماذا لم اتعلم المقاتلة بالسلاح — لا بالقلم وحده — من أجل ما اؤمن به ... ؟ كم هو خافت صوت صرير قلمي على الورق حين يدوي صوت انفجار ما ... وقررت : ان الوقت ليس وقتاً لتقريع الذات على عادة الأدباء الذين يقعون في أزمة ضمير كلما شب قتال ويشعرون بلا جدوى القلم ... المهم ان أعيش ، فالحياة هي وحدها الضمان لتصليح اي خطأ إذا اقتنعت فيما بعد أنني على خطأ .. والوقت ليس وقت مراجعة ذاتية او حوارات فلسفية . كانت الانفجارات تتلاحق ، وقررت ان أواجه الواقع الملموس حالياً وأن أحدد موقعي من ساحة الحرب بطريقة (عسكرية) ، واحصائية ! ...

* * *

كابوس ٥

وجلست اكتب على ورقة : ١ ــ لا سلاح في البيت على الاطلاق . حتّى سكا كين المطبخ ليست حادة . اذن لا مجال للبحث في القتال إلا على طريقة غاندي ! .. (ملاحظة : هذه ليست بطاقة دعوة لاغتيالي !) ..

٢ ــ ليس في البيت سوى طفاية حريق واحدة صغيرة . بحثت عنها ووجدتها في المكتبة . لاحظت انها أصغر مما كنت أقدر ، وانها لا تصلح لأ كثر من اطفاء سيجارة ! ..

٣ ــ مخزون الطعام يكفي لخمسة أيام . هذا إذا أ كلنا على طريقة النحل ! ...

٤ ــ الماء الخاص بالشرب مقطوع ، أي أن عليّ غلي الماء الملوث قبل شربه ... شرط عدم انقطاع الغاز لاشعال النار ! ...

٥ ــ في البيت شمعتان شاءت الصدف أن تكون إحداهما سوداء . أي في حال انقطاع الكهرباء سيكون علي أن استعين بضوء الصواريخ والقذائف ! ..

٦ ــ أنا خائفة .

٧ ــ أنا خائفة جداً .

ومزقت الورقة إلى قطع صغيرة صغيرة ، ثم عدت أتسلى عن صوت الرصاص بمحاولة اعادتها كما كانت قبل أن أمزقها .. حرفاً لصق الآخر .. كانت محاولة صعبة جداً ، كمحاولة احياء علاقة أشبعناها تمزيقاً ... كمحاولة اعادة الفرح إلى قلب في (غشاء من نبال) ...

ضحكت من نفسي . ها أنا أسكن ساحة حرب وأدافع عن جسدي بتلاوة أشعار المتنبي كما لو كان تعويذتي ! ...

* * *

كابوس ٦

هدأ الرصاص قليلاً ...

اقتربت من النافذة ... كذلك فعلت الام التي تقطن في الدور الثالث من البناء المقابل لبيتي . وكان البقال العجوز يضع لها بعض أرغفة الخبز في سلة مربوطة بحبل وقد وقفت هي خلف خشب النافذة وأدلت اليه بالحبل دون أن تخرج حتّى يدها .. أما هو فقد احتمى بمدخل البناء .

كان الهدوء شاملاً ، وتخيلت ان المقاتلين يغسلون وجوههم ويبردون أسلحتهم ... وقررت أن انادي البقال — المغامر وأمارس الشيء ذاته ...

وبدأت السيدة ترفع السلة المربوطة بالحبل ببطء شديد . وقررت : لا بد أن يديها ترتعدان الآن ! ... ولكن السلة كانت ترتفع باستمرار وكان حبلها دقيقاً حتى بدت مثل سلة تصعد في الفضاء نحو الخائفين ، حاملة رغيف السلام ... لاحظت أن عيون بقية الجيران المختبئين خلف النوافذ كانت أيضاً تتابع طيران سلة الخبز في الفضاء ، وأحسست ان قلوبنا جميعاً مثل قلب واحد يصلي من أجلها .. كأن السلة صارت طفلاً .. طفل المحبة والأمان والتواصل مع عالم البسطاء ..

وظلت السلة تعلو حتى وصلت إلى حدود الطابق الثاني . والصمت المتوتر ما زال يسود ...

وفجأة انطلقت رصاصة .

لا أدري هل سمعنا صوتها أولاً أم شاهدنا السلة تهوي في الفراغ مثل رجل سقط من الشرفة .

وفهمنا جميعاً بومضة برق مدلول ما حدث : هنالك قناص ما أطلق رصاصة على الحبل الرفيع .

لقد عرض مهارته أمام أهل الحي جميعاً . لقد قال لنا جميعاً : انني قادر على إصابة أي هدف مهما كان دقيقاً ونحيلاً . قلوبكم كلها تحت مرماي . شرايينكم كلها أستطيع ان اثقبها شرياناً شرياناً . أستطيع أن أصوب داخل بؤبؤ عيونكم دون خطأ . استطيع أن أصوب رصاصتي إلى أي جزء يحلو لي من أجسادكم .

وحين هوت السلة ، شعرت بأن الحي كله تحول إلى قلب واحد يتنهد بغصة . وأدركنا أننا جميعاً سجناء ذلك الغول الغامض المختبىء في مكان ما والذي يتحكم بدورتنا الدموية والعقلية والنفسية لمجرد أنه يملك بندقية ذات منظار تدرب عليها بعض الوقت .. ولتذهب إلى الجحيم كل الساعات التي قضيناها في الجامعات والمختبرات لنتعلم ! ..

وحين سقطت السلة ، سقطت آمالنا معها وتكومت على الرصيف جثة تحتضر . حين سقطت السلة ، حزنا كما لو ان طفلاً سقط من على دولاب مدينة الملاهي وانطفأت الأضواء والضحكات كلها دفعة واحدة ...

كان واضحاً أننا فهمنا جميعاً رسالة القناص . ومن ساعتها أغلق خشب نوافذ الحي كلها باحكام .. ولم تفتح ! ...

وداعاً أيتها الشمس ! .

* * *

كابوس ٧

الرصاصة التي انطلقت من مكان ما لتقطع حبل سلة الخبز كانت تعني ببساطة أننا سجناء تماماً . ان الهرب من ساحة الحرب أضحى مستحيلاً ، والحصول حتى على رغيف خبز أضحى طموحاً مبالغاً فيه ! ..

خطوة واحدة إلى الشارع ويصيبنا ما أصاب أرغفة الخبز ...

ووجدتني أفكر بجسدي باعتباره مادة قابلة للخرق بالرصاص والكسر والحرق والتمزيق ، ولا أدري لماذا تذكرت الاعلانات عن الساعات التي هي (ضد الماء والكسر) ، وشعرت بالغيرة منها ... وأسفت لان الجسد البشري هش ، والحياة لا يمكن أن تتكرر ... إنها الخسارة الوحيدة التي يستحيل تعويضها ! تذكرت قولاً « الشيخوخة هي الجنازة الوحيدة التي يمشي فيها الفقيد على قدميه » وشعرت بشهية للشيخوخة ، وتخيلت نفسي واصدقائي وقد ابيَضّ شعرنا وتجاوزنا السبعين ونحن نروي ذكريات هذه الأيام المرّة ... كم هو مفجع أن تصير الشيخوخة طموحاً ! ...

أخي وأنا ، لم نتبادل أي حوار ... كأن صوت الرصاص يلغي اللغة ... كأنه يخلق جداراً عازلاً ، أو أنه يزيد من وعي الانسان بفرديته وعزلته حيث يسقط كل في بئره الخاصة ...

* * *

كابوس ٨

سقطت في بئري إلى الداخل حيث الكوابيس .. انفتح الباب ..

دخل صديقي بقامته المشدودة كسهم افريقي . أردت أن أقول له أنني افتقده ولكنني لم أفتح فمي ولم يصدر عني أي صوت ومع ذلك فَهِمَ ما أود قوله ورد علي دون أن يقول شيئاً : وأنا افتقدك وأحبك ...

كان جسده مغطى بالدم ، وفي صدره العاري بعض قطع الزجاج المكسر .. وكان

جسدي أيضاً قد بدأ ينزف من مساماته كلها . لا أدري إذا كان يؤلمني أم لا . كان مجيئه فرحة لا تصدق ... كنت قد ناديته : تعال أينما كنت .. تعال كيفما كنت ...

وها هو قد جاء . ضممته إلى صدري فانغرست قطع الزجاج المكسر في صدري أيضاً وشعرت أننا التحمنا وتواصلنا ...

ثم دوى انفجار ... وتمزق الكابوس ... لقد قذف بي الانفجار إلى الأرض ، وكنت خائفة ووحيدة ، وأنزف من الداخل فقط ! ...

* * *

كابوس ٩

قررت أن احارب الكوابيس بالعمل .

لكن الغروب كان قد بدأ يرمي بعباءته الرمادية فوق جراح الحي .

تلصصت من النافذة . السلة ما تزال في مكانها على الأرض كجثة بلا حراك ... وقطعة البحر المتبقية لي بعد بناء فندق « الهوليدي‌إن » لم تكن كالعادة أفقاً من الحمرة الجميلة ... كان هنالك دخان يعلو عند الأفق ويغطيه ..

* * *

كابوس ١٠

هدأ الرصاص قليلاً ...

لم يبق إلا الليل والصمت ... صمت غامض متوتر .. خيل إلي أنني اسمع اصواتاً خافتة .. أصوات استغاثة .. ظننتني واهمة ، ثم تذكرت دكان بائع الحيوانات الأليفة المجاور لنا ... لعل صاحبها يعمل قناصاً مثلاً ، وهو مشغول عن رعايتها واطعامها بصنع الدمار (ام تراه لا يستطيع الوصول اليها ؟) ...

وتخيلتها داخل اقفاصها ... تشم رائحة البارود والنار . وتلتقط كهارب الخطر ... لكنها عاجزة عن الهرب ، وعاجزة عن الدفاع عن نفسها ... اين صاحبها الذي اعتاش من الاتجار بها وببيعها وشرائها ؟ ..

ألم يسجنها باسم تأمين العيش (الكريم) لها ؟ ... ولماذا يغيب عنها مع غياب الزبائن والصفقات وقدوم الخطر ؟ ... اين صاحب دكان الحيوانات الاليفة ؟ تراه لملم ثروته التي جمعها من بيعها وهرب بها إلى أوروبا مع من هرب ؟

(اتذكره . في وجهه قسوة لا يخفيها تهذيبه البروتوكولي مع الزبائن . مرة رافقت زميلة إلى دكانه . كانت ترغب في شراء قط سيامي تعرف مواصفاته جيداً : ازرق العينين . بني الأذنين . أبيض الجسد . بني الذيل . وعبثاً حاولت اقناعها بأنها بحاجة إلى إنجاب طفل بدلاً من الهرب إلى تبني قط . كانت ما تزال تعشق صديقها المتزوج الذي لن يطلّق أم اولاده ولن يتزوجها . كان يغدق عليها النقود كتعويض (عطل وضرر) عن شبابها المهدور ، وكانت فيما يبدو راضية بالصفقة مع حبيبها الثري ، وقد قررت تتويج قصة الحب بتبني قط ، ما دام انجابه غير ممكن ! ..

دخلنا إلى الدكان ... الجزء الخاص بالغرباء — والقادمين من الخارج لاتمام صفقاتهم— نظيف وجميل ومرتب كأنك في دكان سويسري، وفيه كل ملاهي عصرنا الاستهلاكي كما في شارع الحمراء وطريق المطار وصالة الترانزيت والروشة والكازينو مثلاً ... وقفت صديقتي في هذا القسم النظيف العصري المفروش (بالستينلس ستيل) و (الموكيت) اما انا ، فتجاوزت أسوار الدكان (السياحية) إلى الداخل ... وكان صوت صديقتي يتناهى إلي وهي تعرض طلبها : اريد قطاً سيامياً — ابن عيلة — أزرق العينين أسود الشاربين بني الذنب أبيض الجسد .. وكان صاحب الدكان يرد : كل طلباتك موجودة ... والاسعار متهاودة .. سأحضر لك ثلاثة قطط تختارين منها بنفسك .. قالت : اترك اختيار القطط لذوقك ... ورن الهاتف .. وانشغل في حوار — صفقة حول كلاب للصيد وكنت اتسلل إلى ما وراء السور الديكور الذي يحجب حقيقة وضع بضاعته ..

خلف السور ، كانت الاقفاص المختلفة الاحجام والاشكال مرصوصة ومتلاصقة كما في مقابر الفقراء ... الشمس لا تطالها ولا الرياح ولا الندى ولا السماء الزرقاء .. وداخل الاقفاص كانت هناك مجموعة كائنات حية تشبه البشر في تنوعها : كلاب مختلفة الأنواع ... بودل وكانيش وكلاب صيد ... قطط رمادية وبلدية وشامية ... أرانب بيضاء حمر العيون ... أرانب رمادية وسوداء .. فئران بيض . فئران ملونة ... أسماك ملونة صغيرة تسبح في « الأكواريوم » المضيء كأنها فراشات مائية ... عصافير مكسورة الخاطر والجناح ... بلبل وحسون وببغاء وغيرها ... حيوانات من مختلف الألوان والأشكال والأمزجة يجمعها القفص ، والسجن ، والبؤس ... كانت متعبة ، فلا القطط تموء تماماً ولا الكلاب تعوي جيداً ولا العصافير تغني .. وتساءلت : تراه يضع دواء

مخدراً في أوعية الماء الخاصة بها ؟ ام انه لا يطعمها بما فيه الكفاية لتكون قوية فتثور وتضرب رأسها بالقفص وتعض يد السجان والزبون ، البائع والشاري ؟ ...

كانت عيناي قد الفتا الظلمة النسبية بالداخل ، ورغم موسيقى الجيرك العالية التي حرص صاحب الدكان على وضعها في (الجناح السياحي) من دكانه ، فقد استطعت ان اسمع الصوت الموحد الحزين لشعب الحيوانات الأليفة في الأقفاص ... كان يشبه صوتاً قادماً من مظاهرة للمرضى والجرحى والمتعبين ، لكنه صوت تهديدي شرس الوعيد ... كان من الواضح ان البائع يطعمها بما فيه الكفاية لتبقى على قيد الحياة فقط ، كي يظل قادراً على بيعها ، يسقيها مياهاً نصف ملوثة ، ويخرجها إلى النور حينما تكاد تحتضر ، وهمه الوحيد ابقاؤها حية كي لا تموت ويخسر تجارته .. ولكن ، أية حياة ؟ هذا موضوع آخر لا يهمه . علاقتها مع الشمس والغابات والبحار والليل والقمر وأفراح المواسم والحرية ، كل هذه أمور لا تعنيه مطلقاً ..

وفجأة وجدته خلفي . جاء ليحمل لصديقتي الحيوان المطلوب . فتح أحد الأقفاص . أخرج منها قطاً حشر حشراً في مجال حيوي ضيق مع سبعة قطط أخرى من نوعه . لاحظت ان بعضها جريح ، ولعلها في غمرة ضيقها بسجنها وبؤسها وسوء وضعها ، تقتتل فيما بينها ، ويعض بعضها بعضاً ، وصاحب الدكان يرحب دونما شك بهذه الظاهرة حيث يعض البؤساء كل منهم صاحبه ، بدلاً من ان يهجموا جميعاً عليه هو مرة واحدة .. هو العدو الحقيقي ...

أخرج القط من القفص وأغلقه بعناية . التقت نظرتنا . كان من الواضح انه فهم انني أفهم ما يدور وان ذلك لم يعجبه أبداً . قال بصلف : ممنوع دخول الزبائن إلى المخزن !

قلت : لست زبونة . انا من (الفريق الآخر) ..

وتمت الصفقة بين رفيقتي المدحورة عاطفياً المتلهية بهمومها الشخصية عن حقيقة ما يدور .. ودفعت ثمن القط ، وخرجت بعد ان زودها البائع باسم طبيب بيطري من المفروض ان تذهب اليه فوراً لتلقيح القط وقص اظافره ! ... البائع اولاً . ثم البيطري . وربما بعده الصيدلي . وبعده لا ادري ماذا من حلقة مافيا المنتفعين.. وحين خرجت صديقتي بالقط لاحظت ان (راعي) الدكان تنهد الصعداء . كان سعيداً بخلاصه من فم

اضافي يجب اطعامه . لم اشعر بأية عاطفة تربط بين صاحب الدكان وشعبه من الحيوانات الاليفة .. انه يخرجها من اقفاصها ويعيدها اليها دون ان يرف له قلب ! .. وحتى في السجون ، ثمة علاقة انسانية تنشأ بين السجان وسجينه (وكلاهما من طبقة مسحوقة واحدة) ، اما صاحب الدكان ، فلم ألحظ ان بينه وبين « رعيته » لمسة حنان واحدة ... لا جسر بينهما غير المصالح ...

وهو قادر على ترويضها جميعاً ، خانعها وشرسها ، بالتجويع والسجن والإذلال وشروط العيش الرديء بحيث.لا تقوم لها قائمة في وجه طغيانه ولامبالاته ...

وذهبنا إلى عيادة الطبيب البيطري وكانت فخمة ونظيفة وخاصة بطبقة القطط المرفهة .. ولا ادري لماذا تذكرت مشهد امرأة كانت تضع طفلها تحت خيمة في عكار وقد تمسكت بغصن شجرة وهي تصرخ دون طبيب او معين او قطعة قطن واحدة ... كنت قد ذهبت يومها لكتابة تحقيق صحفي عن مجاهل عكار ، وشاهدت يومها كيف يولد الاطفال ليتعمدوا بالتراب فوراً ... فقد وضعت طفلها الذي تلقته منها أرض الحقل وامتزج دمه بالأشواك ، ثم امسكت بحجر وقطعت به حبل الخلاص ، بينما وقفت انا مذهولة أمام وجهها المتجلد الصامد الشبيه تماماً بالصخرة التي كنت قد تحجرت قربها ! ..

ودخلنا بالقط إلى عيادة الطبيب . وبمساعدة الممرضة وصديقتي تم الامساك بالقط وقص أظافره ، وكان هو يصرخ بما تبقى له من قوة مناضلاً للابقاء على سلاحه الطبيعي بينما المجهول يحيط به من كل جانب ...

وبعد عملية قص الأظافر ، جاء الطبيب بابرة غرسها في فخذ القط ، وتذكرت أنا بهلع أن طفل الفلاحة العكارية قد يكون قد مات الآن لأنه لم يجد من يلقحه ... وبعد ذلك قرر الطبيب ان من الضروري إعطاء القطة جرعات محددة من الفاليوم كي لا تبحث عن قط تمارس معه ما تمارس ، وتحمل ، لانها ما زالت صغيرة السن ! .. والحمل خطر على صحتها العزيزة !

وهنا جنت رفيقتي . قطة لا قط ؟ كانت تريد قطاً ذكراً . وصاحب الدكان باعها الاخ القط على أنه ذكر لا انثى . تلقت النبأ بحزن شديد كأمرأة انجبت طفلتها السابعة وقد حلف زوجها بالطلاق في حال عدم إنجابها لِذَكَر ! ...

ثم قبلت ما هو « مكتوب عليها » وبدأت تشتم البائع الغشاش بينما البيطري يعطي

جرعات الفاليوم للقطة ، ثم بدأت تشتم الطبيب البيطري حين طالبتها الممرضة بالفاتورة.)

* * *

كابوس ١١

لا ... لست واهمة .. الصوت الذي اسمعه ، الشبيه باستغاثة جماعية قادم من دكان بائع الحيوانات الأليفة المجاور ...

انها لم تجع بعد ... لكنها خائفة ككل أهل هذا الحي السجناء . كل أسرة في قفصها .. كل أسرة لا ترى اين هو المسؤول الحقيقي عنها .. وماذا يفعل .. هل يرى الحرائق ؟ هل يسمع صوتها ؟ هل وهل وهل ؟ ... البيوت أقفاص ... ونحن رعيته البسطاء من غير المسلحين ... هل كانت غلطة أننا صدقنا ان هنالك فرقاً بين الغابة والدكان ؟ ...

وشعرت بجدران قفصي تضيق .. تضيق ... وبدأت أضرب رأسي بقضبانها ...

ودوى انفجار هائل ... وانكسر الصمت المتوتر الرهيب ، بسلسلة رهيبة من الانفجارات ...

وقررت : في المرة القادمة لن أسمح لأحد بقص أظافري . لن اصدق مزاعم صاحب الدكان . لن أكون عزلاء ! ...

* * *

كابوس ١٢

لم يتوقف شلال النار ..

لاحظت أنني جالسة على الأرض ، مكومة تحت مستوى النافذة . قررت أنني لا أعرف من أين ستأتي الرصاصة التي ستستقر في صدري ، وبالتالي لماذا لا أتمدد في فراشي وأتعلم النوم رغم الرصاص ؟ ..

لقد عشت في ظروف لا حدّ لقسوتها ... واضطررت إلى النوم في أمكنة مسكونة بالبرد والغربة والأشباح الرمادية ، وعلمت نفسي التكيف مع ما حولي من عذاب ... بل انني روضت نفسي ذات مرة على النوم ، وقد سلطت على وجهي مصباحاً كهربائياً ساطعاً .

اليوم علي ان أتعلم النوم في ساحة حرب ... استجمعت إرادتي ، وكل ما أعرفه من

اليوغا ، وبدأت أفكك أعضاء جسدي عني عضواً بعد الآخر كما لو كنت دمية عرض لواجهات المخازن . أمرت ساقي اليمنى بالنوم . ثم ساقي اليسرى . بدأت آمر أعضاء جسدي واحداً بعد الآخر بالسفر عن الزمان والمكان إلى براري النوم ... تأكدت ان التجربة ممكنة التحقيق ، لكنها تحتاج إلى كثير من المران ... فقد دوى انفجار شديد ؛ وانفرطت من يد دماغي جديلة الأعصاب التي كنت ألملمها خيطاً بعد الآخر واسيطر بها على جسدي عضواً بعد الآخر ...

وبعد فشلي هذا اصبت بنكسة . بدأت اسمع الانفجارات أعلى مما هي في حقيقتها (او هكذا خيل إلي) ،

ثم حدث شيء ، غريب .. دخل جسم غريب إلى الغرفة ، كائن ساخن الحيوية ، مروع النشاط ، سمعت صوته يضرب خشب الباب ثم المقعد فالسرير فالباب ... في البداية لم أفهم ما حدث بالضبط ، كانت رائحة حريق خاصة تفوح من الغرفة ... كانت رصاصة ما او شظية قد اخترقت طرف باب الغرفة وفجرت ساق الكرسي ثم اصطدمت بالسرير وارتدت عنه إلى الباب الآخر فخرقته ... ووقفت احدق مذهولة ... كانت شظايا الخشب تملأ أرض الغرفة والسرير وشعري وتغطي المجلات المتناثرة على الأرض .. وكنت أتأمل موضعها بهلع .. فقد حفرت الخشب تماماً على عمق ١٠ سنتمترات على الأقل ، أما الكرسي الواطىء الذي أصابته فقد تناثر بين شظاياه بعض قطع المسامير التي صهرت وانكسرت تماماً كما لو ان مطرقة جهنمية ضربتها ...

شيء آخر روعني ... كنت أظن الرصاص (وهذه أول مواجهة عملية بيننا) ينطلق في خط مستقيم ثم يصيب هدفه .. أما هذه الرصاصة (ام الشظية ؟) فقد تحركت في الغرفة كما لو كانت كرة بلياردو أو قطاً مذعوراً ... ركضت في الاتجاهات كلها هادمة نظرياتي (العسكرية) كلها عن السلامة في البقاء على مستوى الأرض او التمدد ، فالفظيع ان مستوى انفجار (الرصاصة أو الشظية) كان على مستوى خفيض جداً لا يزيد ارتفاعه اكثر من ٣٠ سم عن الأرض ... وذهلت . من اين دخلت الرصاصة إياها ؟ وكيف ؟ وحيرني الأمر حتى أنساني خوفي ، وخرجت إلى الغرفة المجاورة من حيث بدأت الشظية (نزهتها) وخيل إلي أنها ربما كانت قد انطلقت من داخل المنزل .. على الجدار المقابل لأول باب ضربته ، فوجئت بندبة وقد سقط بعض الكلس والتراب عن الجدار إلى

الأرض ... اذن من هنا مرت الرصاصة ... ولكن ، من اين دخلت والنوافذ كلها مغلقة بالخشب والزجاج غير مكسور .. وبدأت أحدق جيداً في النوافذ حين دوى انفجار ، فقررت وقف (تحقيقاتي العسكرية) ، واغلاق (ملف القضية) موقتاً والهرب إلى الطرف الآخر من البيت ...

هذه المرة كنت خائفة حقاً ... فقد وعيت للمرة الأولى ان الرصاص لا يمشي على الصراط المستقيم وانما قد يمشي في خط متعرج كجرذ يركض من جدار إلى آخر ...

ووعيت أيضاً أن الرصاص لا يمشي بالضرورة فوق مستوى النوافذ ، وان القضية أكثر تعقيداً بكثير ، من المعلومات السطحية التي كنت قد جمعتها من السينما البوليسية والروايات . وأدركت أنني أواجه عدواً أجهله تماماً ، وبهذا الشعور البائس تمددت باستسلام على اريكة في الصالون ...

* * *

كابوس ١٣

تمددت على الاريكة في الصالون ، وكان الظلام دامساً وجميع الأنوار مطفأة ... تعلقت نظراتي بشقوق النوافذ المحكمة الاغلاق المفتوحة الزجاج . كنت قد اغلقت خشبها وتركت النوافذ الزجاجية مفتوحة . هكذا قرأت في كتاب بوليسي انه من الأفضل في حال الانفجارات ترك زجاج الغرف مفتوحاً كي لا يحوله الضغط إلى سكاكين تتناثر في كل مكان وتنغرس في جسد الضحية . ارتعدت لهذا الخاطر . ظللت اتأمل شقوق النوافذ ، (والقمريات) اي النوافذ الصغيرة المستديرة الملاصقة للسقف والتي لا خشب يغطيها وتوجد في أكثر البيوت الدمشقية والبيروتية القديمة . كان الغرض الأساسي منها إدخال مزيد من النور نهاراً إلى الغرف الشاهقة الجدران ، والسماح بدخول ضوء القمر إليها ليلاً ...

اما الآن ، فقد بدت لي (القمريات) المزينة بالزجاج الملون مثل اسلحة فتاكة ... مثل عشرات الخناجر التي لا أدري متى يطلقها الانفجار من عقالها ....

هكذا تمددت وحيدة في قلب الظلام ، وخلف القمريات كان المنظر مذهلاً .. فقد كانت الصواريخ والقنابل المنفجرة في الجو تضيء الليل كالبرق ، وتلتمع خلف القمريات مثل عاصفة برقية رعدية جهنمية لا تهدأ ... احسست بخوف بالغ ... ولكنني ،

رغم كل شيء ، لم اتمالك نفسي من الاعجاب بجمال المشهد بينما القمريات بزجاجها الملون تسطع فجأة وتنطفىء ثم تسطع بتسارع « بسيكاديليك » ساحر الألوان ...

وقررت انني مثل رجل يهوي إلى قاع شلالات نياجارا بينما هو ما يزال مسحوراً بجمال المشهد ... او مثل شخص يسقط من الطابق الخمسين ويعجب بزهور الشرفات التي يمر بها في دربه إلى الموت ..

كان كابوساً جمالياً سادياً عجيباً ... ومع جنون البرق ، جاءني حبيبي القتيل ، وكان ما يزال مغطى بالدم والجراح ... فاحتضنته وقبلته ولم أبال بأن جسده بارد ودماءه متخثرة .. وكنا نتقلب معاً على أصوات الرصاص التي استحالت شفرات معدنية باردة .. وصرخت به : ما زلت احبك ...

* * *

كابوس ١٤

شاهدت الرجل يخرج من قلب الظلام . شاهدت الرجل يضع على وجهه قناعاً اسود . شاهدت الرجل يطرق الباب الكبير . شاهدت الرجل يقابل الرجل (الكبير) . شاهدت الصفقة تتم . شاهدت الرجل يخرج حاملاً معه « مسحوق الجنون » . شاهدت الرجل يقبض الثمن . شاهدت الرجل يتسلق الجبل . شاهدت الرجل يرمي « بمسحوق الجنون » في النبع الذي تشرب منه بيروت . شاهدت مسحوق الجنون يمس النبع ، فتشتعل النار في الماء ، وتفور فقاعات من جمر ... شاهدت الرجل ينحني على النبع ويشرب ، فتستحيل أصابعه العشر مخالب حيوانية ، ويطول شعره ، وتسقط عنه ملابسه كالقشرة الجافة ، ويخرج منها جسده ، وقد تحول إلى جسد غوريلا غاضبة ، يمد القرد يده فيكسر غصناً أخضر ويحمله مهتاجاً راكضاً نحو المدينة ... والنار تشتعل من موطىء قدميه وقد شب في داخله بركان حيواني لا يقاوم ، ونهم إلى الدم .. الدم ...

ويتدفق « نبع الجنون » ليسقي أهل المدينة ... بعضهم يشرب ولا يدري ... واستيقظت ، وانا لا أدري ما إذا كنت قد نمت ام لا ... شربت ام لا ..

* * *

كابوس ١٥

انه الخريف .. وأنا سجينة كبقية سجناء دكان بائع الحيوانات الأليفة .. تلك الجبال

الخضر ، لن أخترقها كسهم محشو بالفرح ... تلك الدروب القروية الجبلية ، تلك الوديان ، تلك المراعي والسهول قد أموت قبل أن أراها ثانية ... هذا هو يومي الثاني وانا سجينة (**ربما كنت دوماً سجينة دون ان ألحظ ذلك ، تماماً كمخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ... وربما كنت أعي سجني دوماً واحاول كسر قضباني ، وما شوقي الدائم إلى الأفق والسماء إلا من بعض شوقي إلى الحرية الداخلية ... الحرية الحقيقية لا حرية التنقل فقط في سجن كبير جدرانه هي حدوده ، واسمه الوطن !) ..**

تذكرت صديقي ... كأن الرعد يستنبت صورته في أعماقي كالكمأة .. كنا – هو وأنا – من رعايا الخريف ... كنا نمتلك البحر والجبل بعد انحسار الناس عنهما ، وكنا نركض مع الأغنام ونزعق مثلها : ماع ... ماع ... ونضحك طرباً لهذه اللغة غير الملوثـــة ...

انها تمطر . وقد هدأ القصف ، كأن مقاتلي الأرض يقفون دقائق حداداً على فصل الخريف الذي يهمون باغتياله ، لحظة وصوله من السماء ..

* * *

كابوس ١٦

لم يطل السكون ... بدأت الطلقات المتقطعة بايقاعها الخفيف ايذاناً بدخول العزف الأكثر شراسة وعنفاً ..

مع الانفجار الكبير الأول لملمت نفسي من موضعي على الأريكة حيث قضيت الليلة السابقة ..

حاولت السيطرة على أعصابي لقضاء يوم عادي قدر الإمكان كي لا أصاب بالجنون ! .. كان ذلك مستحيلاً . كنت فيما مضى ابدأ يومي بمطالعة الصحف ، ولم أجدها طبعاً خلف الباب .. (لا يمكن لهم توزيعها على البيوت بالمصفحات مثلاً ! وحتى لو ارتدى باعة الصحف ثياباً واقية من الرصاص لما استطاعوا الوصول إلى بابي حيث مركز القتال) ...

ورغم معرفتي الأكيدة بأن القطط نفسها لا تجرؤ على التجول في شارعنا ، لكني تلفنت إلى دكاكين البقالة المجاورة ... وطبعاً لم يرد أحد ... اقتربت من النافذة وشققتها قليلاً ...

كان المشهد مروعاً ... كانت النوافذ كلها مغلقة ... كأن الحي فرغ تماماً من سكانه .. كأنهم تسللوا جميعاً هاربين تحت جنح الظلام ..

وحين يهدأ الرصاص ، ويكف المطر عن السعال ، يسود سكون متوتر مخيف ... سكون كابوسي لا يصدق ، كالسكون داخل التوابيت المغلقة منذ قرون ، سكون يجعلك تحن إلى سماع اي صوت ، حتى ولو كان طلقة رصاصة .. اريد ان اسمع صوتاً حياً .. اي صوت .. كان أخي ما يزال نائماً (ام تراه مغلق العينين فقط ؟) قررت الاستماع إلى الراديو ، وهو أداة لا اتعامل معها عادة إلا مؤخراً وللاستماع إلى المذيع شريف فقط ، الذي يخاطبنا بصدق مباشر دونما حذلقات خطابية سمجة .. فأخفض صوت المذياع . بحيث لا اميز الغناء أو الموسيقى او الثرثرة ، ولكني اعرف نبرة صوت شريف ، وحين اسمعها ارفع صوته ، وحين ينتهي الكلام أعود إلى حشو القطن في فم المذياع .. وهكذا ..

اليوم ، لشدة وحشتي ، ادرت زر الراديو ، وكان المذيع يقول : قضت العاصمة ليلة هادئة ما عدا طلقات متقطعة في منطقة القنطاري وحول فندق « الهوليداي‌إن » ...

وصرخت به : الا تخجل من هذه الكذبة ؟

لم يرد علي وانما تابع قراءة نشرة الأخبار وانتقل فوراً للحديث باسهاب عن الحرب الأهلية في ... البرتغال ..

صرخت به : ولكنني لا ألومك ... انت مجرد حنجرة ، وهم يحشونها بالمعلومات الكاذبة ... انت مجرد أداة للجريمة ..

لم يرد المذيع عليّ وانما تابع قراءة الأخبار عن أنغولا ..

وصرخت به : انت المسدس ، وهم اليد والطلقة ... وحينما تقع جريمة ، يجب سجن القاتل لا المسدس ...

ولم يرد المذيع عليّ وإنما بدأ يتحدث باسهاب عن حالة الطقس في جزر الكناري ...

وبدأت الانفجارات تتوالى ... وتتعالى متلاحقة ... ونهض أخي مذعوراً يبحث عني ...

وقررت : نشرة الأخبار الحقيقية هي ما نسمعه من الريح ، لا من الراديو ..

* * *

كابوس ١٧

حاولت ان اتلهى عن صوت الرصاص باعداد وجبة طعام ... كان في المطبخ بعض ثمرات من البطاطا المنسية في ركن معتم . اخرجتها وغليت الماء تمهيداً لسلقها . حملت واحدة منها وقبل أن اغطسها في الماء المغلي فوجئت ببرعم أخضر وقد بدأ ينمو من أحد جوانبها . ذهلت . شعرت بأن البطاطا (التي اراها كتلة بنية جامدة) هي جسد حي ، يخفق بالحياة ويتوالد ويتكاثر ... وضحكت كثيراً من نفسي وانا أصرف النظر عن فكرة سلقها (حية) ! ... اعرف انني كنت دائماً عاجزة عن قتل حتى بعوضة أو ذبابة او نملة ، لكني أعرف أيضاً انني اذا جعت بما فيه الكفاية ، فقد أصير على استعداد لالتهام أول مخلوق أجده في طريقي حتى ولو كان رجلاً .

مأساتي اني اعتبر اي حادثة قتل مأساة كونية ... قطف زهرة هو بالنسبة إلي حادثة قتل ... وحينما يهديني أي انسان باقة من الزهور أشعر بحزن عظيم لأنهم أغتالوها لأجلي .. ... واذا أحاط أحدهم رقبتي بعقد من الياسمين فأن بدني يقشعر ، كما لو أحاطوه بحبل ربطت اليه عشرات الجثث ....

موقفي من الحياة يمثله البروفسور « لورين ايشلي » الذي صاح بعفوية مخاطباً الدم الذي تدفق من فمه حين زلّت به القدم على الرصيف : « أنا آسف لما سببته لكم .. آسف جداً » وكان البروفسور يعتذر من دمه ! وحين ظنه زميله مجنوناً قال له مفسراً : كل نقطة دم هي مجموعة لا متناهية من الخلايا الحية ... وانا حين سقطت وبالتالي نزفت ، سببت موت عدد كبير منها ، فخاطبتها وهي تحتضر على الرصيف مثل قبيلة من السمك المرمية على الرمل الحار لتموت .. لقد سببت للكون الذي اقطنه عدداً هائلاً من الوفيات (خلايا الدم) وهو عدد يفوق عدد الناس الذي قد يقضي عليهم انفجار ذري ! ... أجل ! إن مصرع أية حياة هي كارثة كونية لا بالنسبة لكوكبنا فحسب ، بل ولبقية الكواكب الأخرى أيضاً ، فالكون بمجمله يصح تشبيهه ببحر من الحياة ، وكل منا نقطة في هذا البحر الشاسع ، وموتها يؤثر على نحو ما بكل شيء ، والقتل جريمة بحق الحياة ، لا بحق القتيل فقط ... لذا ، وأياً كانت قناعاتي ، كان من الصعب جداً جرّي إلى الإقرار بالعنف وسيلة لاي شيء رغم معرفتي الأكيدة بان التبديلات الجذرية في تاريخ الكرة الأرضية لم تتم إلا عبر العنف .. كان ذلك يعذبني ... ذلك التناقض في

داخلي بين العنف واللاعنف، عليّ الوصول إلى قناعة عقلية بخصوصه ... ولكن، هل يمكن للعنف ان يولد من مجرد قناعة عقلية ؟ ام من حاجة جسدية للدفاع عن النفس ، وردة فعل عفوية لجائع أمام متخم مثلاً ؟ أم كلاهما معاً ؟ لا أدري . كل ما أدريه هو أن أخي يدور حولي في حالة غيظ بانتظار أن يستقر رأيي على ما سنأكله ، فقد كنت قد قلت له : لن نأكل البطاطا لانها (فاسدة) ولم أقل لأنها (حية) خوفاً من سخريته ... فتحت البراد من جديد اتأمل ما خلفته جدتي .. لا شيء يذكر غير مخزون جيد من اللحوم ... ومأساتي انني صرت عاجزة تماماً عن أكل اللحوم .. لكثرة ما شاهدت من جثث مرمية في الشوارع على طول الأشهر الستة الماضية – منذ استعرت الحرب الأهلية – صرت شبه قانعة بأن لحوم أسواقنا كلها هي لحوم بشرية .. ولم أكن قد تحولت إلى حيوان مفترس بعد ... ما زلت أطعم النمل الذي يقطن زوايا بيتنا ، وادافع بضراوة عن كل الكائنات التي تشاركنا مسكننا ، وأخفي دوماً المبيدات التي تتبنى جدتي استعمالها رغم غضب اسرتنا لتصرفي (غير الصحي) هذا ... أجل ! لم أذق طعم اللحم منذ شهور ، فالرصاص يسكن منطقة المسلخ حيث يفترض ذبح المواشي ، فمتى تسنح الفرصة لممارسة ذلك ؟ بينما اللحم البشري مكدس في الشوارع ومسلوخ الجلد مقطوع الرأس غالباً ... فكيف آكل اللحم ، ومن يقنعني انني لا آكل قطعة من ذراع صديقي التي طالما ضمني بها إلى ما قبل دقائق من مقتله أمام عيني ؟ ...

... عدت وفتحت الثلاجة فقد يكون فيها بعض الخضار المجلدة المحفوظة، لكنني فوجئت فيها برأس مقطوع متجلد مسلوخ الجلد ...

وبدأت اصرخ .. واصرخ .. واصرخ .. وعبثاً حاول شقيقي إقناعي بأن ما أراه هو رأس خروف مقطوع لا رأساً بشرياً .. وحمل الرأس المقطوع غاضباً ، وقال انه سيهبط إلى بيت جارنا العم فؤاد في الطابق الأول من البيت العتيق كي يتم طبخه هناك ودعاني للحاق به ..

حينما ذهب ، وجدتني أغلق باب الثلاجة باحكام ... كنت واثقة من انها مليئة بعشرات الجثث ، وبعضها لم يمت تماماً ، وما زال يصرخ ... وينتحب ويحتضر على أرصفتها .. أحسست ان جميع ثلاجات بيروت لم تعد صالحة لغير حفظ جثث القتلى المجهولين ... المرمين في الشوارع ..

كابوس ١٨

ساعتان من الهدوء الطويل ... لم اسمع خلالهما سوى انتحاب رعايا دكان بائع الحيوانات الاليفة .. وكانت أصواتهم تحمل إليّ الخوف والقلق والغضب والحيرة ... (تراها أصواتهم ام صوتي الداخلي) ... منطقياً ، ليس من الممكن أن أسمع أصواتهم ... دكانهم تقع على الناحية الأخرى لحديقة بيتنا ... وحديقة واسعة مهملة تفصل بين بابنا الخلفي وبين الجدار الخلفي لمخزنهم ... لم يحدث أن سمعت أصواتهم قط من قبل ... وربما كان ذلك يعود إلى جلبة الشارع عادة ، وزعيق السيارات التي كانت لا تهدأ ليل نهار وأحاديث المارة والباعة وسيمفونية الحياة الاعتيادية ... أما في هذا الهدوء المطلق — الذي كان يسود هذه المنطقة حين كانت حقولاً منذ نصف قرن ، أي قبل بنائها — فلعله من الممكن (علمياً) سماع أصواتهم ... ام تراها حاسة غامضة هي التي تلتقط كهاربهم ؟ ما الذي يربط بيني وبينهم ؟ ولماذا تعلو أصواتهم تدريجياً ، حتى اسمعها تغطي الحي بأكمله ، خارجة من كل قفص ، ومن كل حنجرة مسالمة ، جرحها الرعب والحذر والترقب ... تتعالى الأصوات فأسد اذني باصابعي واركض نحو النافذة بحثاً عن مربع في السماء ... السماء غطاء علبة فولاذية !

* * *

كابوس ١٩

هدأ المطر ... عادت السماء زرقاء صافية بعد انحسار مجزرة العاصفة ... انه طقس غير مناسب للموت ... والرصاص هادىء منذ أكثر من ساعتين . لعلهم ناموا تعباً (اي المقاتلين) خلف مدافعهم . لعل ذخيرتهم نفدت . لماذا لا نغادر هذا القفص قبل ان نموت خوفاً او حرقاً أو جوعاً ؟ ...

تأملت الشارع من النافذة وقررت : اذا مرت سيارة واحدة أو رجل واحد ولم يُطلَق الرصاص عليهما فسأغادر هذا المكان فوراً مع أخي أو بدونه .

كانت الساعة تشير إلى تمام الواحدة ، وحتى الواحدة والنصف لم تمر سيارة أو مخلوق ، ولم يخرج من النوافذ المقابلة رأس .. وغمرني جو من الرهبة والخوف والضيق ، وقررت مغادرة البيت ...

وفجأة ، ظهر كلب على الناصية ... اقترب من كومة القمامة يفتش عن رزقه

اليومي . ثم بدأ يسير على الرصيف ببطء شديد .. وتساءلت : أتراه يلحظ ان الشارع قد تبدل ؟ هل يلحظ خلوه من المارة والسيارات ؟ هل يضايقه ذلك أم يسعده أم انه لا يبالي ؟

وفجأة ، انطلقت رصاصة من مكان ما فأصابت الكلب ، وسقط على الرصيف وهو يزعق في ألم بهيمي مؤثر ، وكانت الشوارع الفارغة تردد صدى صيحاته وترددها الجدران كما لو كانت عشرات الميكروفونات ...

انه القناص نفسه .. البارحة قتل رغيفاً من الخبز ، واليوم عاد إلى توكيد وجوده بقتل الشيء الوحيد الحي الذي تجرأ على الحركة في شارعنا الميت !

* * *

كابوس ٢٠

كأن كل مخلوق على وجه الأرض حمل طبلاً وبدأ يقرعه .. كأن كل الزواحف الديناصورية المنقرضة مزقت صفحات التاريخ وخرجت تهدر وتصرخ ... كأن الفصول الأربعة تتشاجر ويخرب بعضها بعضاً ..

هكذا يجيئني صوت المتفجرات والقنابل إلى الطابق الثالث المرتفع على التلة التي شيد بيتنا فوقها ... هكذا تأتيني الأصوات موجة من العنف الذي لا يصدق ... كأن السماء انشبت أظافرها بالأرض ... وتحملني الموجة .. تصيبني بما يشبه الإغماء .. تطير بي إلى مراحل غير مألوفة من الوعي .. تذكرني بما فعله بي مخدر الـ (ال.اس.دي) يوم جربته ورحلت عبره إلى دنيا من حواسي المنسية ... حواس تقطن كل إنسان لكنه نسي استعمالها منذ قرون .. حواس تستطيع ان ترحل بي إلى أيامي في رحم امي ، وتمكنني من الانتقال إلى كواكب اخرى كونية ، حواس مذهلة القدرة على التقاط ما هو خارج دائرة الحياة الاجتماعية ، ما هو خارج اليومي والمألوف والمعتاد ..

وانا اقف الآن على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، اشعر بحواسي النائمة تستيقظ وتخرج إلى سطح الوعي كغواصة ينشق البحر عنها فجأة ، موجة العنف والصخب اللامتناهي تحملني إلى حيث لا أدري ... واغمض عيني كي ارى جيداً ... كي أراهم ..

* * *

كابوس ٢١

أرى دكان بائع القبعات . ارى الرصاص يثقب القبعات كلها . في كل قبعة عشرات الثقوب .. في مكان آخر ، أرى الرؤوس التي كان مقدراً لها ان تبتاع هذه القبعات وترتديها وهي تتابع حياتها في أمكنة بعيدة مختلفة ... ارى الرصاص يثقبها أيضاً ... كل رصاصة تخترق الرأس في الموقع ذاته الذي اخترقت فيه القبعة التي كان مقدراً للرأس ان يشتريها !

* * *

كابوس ٢٢

اراهم يقتادون الشاب إلى الرصيف . كل ذنبه انه مر في شارع توقفت فيه قبل دقائق سيارة تقل بعض المسلحين . شقيق احد المسلحين كان قد قتل ، وهو يفتش عن اي كبش فداء . اسمه ليس مهماً ... المهم دينه ... المهم ان يكون من دين مختلف عن دينه ...

امسك شقيق القتيل بالشاب الصغير كبش الفداء .. بدأ يشتم دينه . دهش الشاب فقد كان طالباً في الفلسفة وكان يؤمن بالله لكنه يجد الأديان كلها وسيلة لاقتراب الانسان من الله ، وحين تأتيه لحظة الحاجة إلى الاقتراب من خالقه ، كان يصلي في أول معبد يمر به كنيسة أو جامعاً ، وان كان يفضل الركوع على ركبتيه على شاطىء البحر ومناجاة خالقه بعيداً عن الجدران ... تاركاً للريح ذبذبات صلاته تنثرها في الكون الشاسع مضيفة بضع نقاط مضيئة ، تقتل شيئاً من ظلمة البغضاء والبهيمية المهيمنة على عالمنا سحابة شر .

جروه إلى الرصيف . قال لهم : ما ذنبي ؟ .. أخو القتيل كان غاضباً . رد عليه ببعض الشتائم . كاد المسلحون يتشاجرون . يقتلونه هنا ام ينقلونه معهم ؟ ... من سيقتله . كيف . سأله أحدهم : كيف تحب ان تموت . قال لهم : لا احب أن أموت . اقترح أحدهم اطلاق رصاصة سريعة على رأسه والتحرك فوراً قبل مرور جماعة أخرى . قال لهم : لا احب ان أموت . أصر الشقيق المفجوع على أن قتل الشاب من حقه هو . قال لهم : لا أحب ان أموت . سأله أحدهم : إلى أي حزب تنتمي ؟ قال انتمي إلى « حزب الحياة » . سألوه : ما اسمك ؟ قال : لبنان . اسرتك ؟ العربي . صرخوا به : هذا ليس وقت المزاح . من انت ؟ كرر :

(اسمي « لبنان العربي » ولا أريد أن أموت) .

قال أحد المسلحين « من الأفضل اختطافه والتحقيق معه أولاً ثم « تسويحه » (اي قتله) » . ودب الخلاف بين المسلحين حول قضية القتل الفوري ام المؤجل ووجهوا اسلحتهم ، كل منهم نحو الآخر ، وانتهز الشاب الفرصة . بدأ يمارس وسيلة القتال الوحيدة التي يعرفها : الركض ...

بدأ يركض على الرصيف كالمجنون ... ركض طويلاً طويلاً ولكنه كان يسمع وقع خطى تركض خلفه ... تعثر وسقط على الأرض ولم يكن الظلام دامساً ، فقد كان نور أحد مصابيح البلدية يسطع في الشارع وأدهشه ذلك فقد أحس بانه في غابة ، وقبل عصور اختراع الكهرباء ، وحتى النار ... والخطى الراكضة خلفه توقفت وشاهد وجه المسلح المصر على قتله .. شاهده بوضوح صاعق .. كان يبكي أيضاً مثله ... قال له : اخي اطفائي ذهب ليطفىء الحريق فقتلوه واعادوه لنا جثة .. ظنه الشاب يشكو له وكاد يرق قلبه لحاله ويسأله مزيداً من التفاصيل ، لكن وجه الاخ تحول فجأة إلى وجه جزار وهو يقول له : وانت ستموت ثمناً لذلك .. انهم من (ملتك) ..

اراد ان يرد عليه ... ان يقول له أشياء كثيرة .. ان يفسر له حكاية (الملة) ومعناها الحقيقي ... لكنه أيضاً أدرك ان الوقت ليس وقت (فلسفة) و (حوار) وانما (اسلحة) ولم يكن يملك اي سلاح .

كان ما يزال في موضع سقطته على الرصيف ، فبذل جهداً جباراً للخلاص من قبضة جزاره والوقوف ، ووجد نفسه يتعلق بافريز رخامي في الجدار ... وكانت حواسه في غاية الحدة والتنبه وعلى ضوء الشارع الشاحب قرأ كتابة محفورة على الرخام : سبيل لوجه الله . تقدمة سليم الفاخوري ١٩٥٥ . كان السبيل جافاً . لا قطرة ماء . لكن المسلح لوى له رقبته حتى الصقها على الحافة الرخامية للسبيل وبسرعة هوت سكينه على شريان الرقبة الكبير .. شهق وانتهى الأمر بالنسبة اليه ... وظل المسلح يجز عنقه حتى بعد ان تهاوى جسده ، وتدفق الدم من السبيل ، الجاف ربما منذ أعوام ... تدفق الدم .. تدفق .. تدفق ... غسل الشوارع .. صار يعلو .. يعلو .. يغطي الطرقات .. يصل إلى نوافذ البيوت .. كان مثل نبع اسطوري لا ينضب .. يتدفق إلى داخل البيوت .. إلى داخل الغرف ... إلى ركبتي ... خصري .. صدري .. عنقي .. اشهق وانا اختنق بالدم

واصرخ .. واستيقظ (ام تراني انام من جديد في دنيا الحواس المحدودة ؟) ...

* * *

كابوس ٢٣

الا يتعب الرجال ؟ ..

ألا تستريح أصابعهم المشدودة على الزناد ؟ .. فترات الهدوء لا تكاد تذكر .. وقررت : لا بد وان استبدال المقاتلين يتم خلال لحظات الصمت المتوتر العابرة ..

الآن عاد ذلك الصمت المتوتر المروع .. ارهفت السمع .. سمعت صراخ بعض الرجال ، لكنني لم استطع تمييز كلامهم .. فقط أصوات نداءات سريعة وحادة كصراخ الخطر لدى طيور الغابة .

كانت مأساتي ان بيتي يقع في منتصف الطريق تماماً بين المتقاتلين ... تماماً في الوسط .. تذكرت الذي قال « خير الأمور الوسط » وترحمت عليه ... لو كان يسكن بيتنا ، لقال شيئاً آخر ربما .. كنت أعرف ان المقاتلين في الشوارع خلفنا ، لا بد وأنهم يتصلون بالناس ، وربما يتقاسمون أرغفة (المناقيش) معاً ... أما موقع بيتنا في الوسط تماماً على تلة مكشوفة من كل الجهات ومحاطة بحدائق برية الأعشاب ، كل ذلك جعل الاقتراب منا أمراً مستحيلاً للطرفين ... وحتى للطرف الثالث من الغربان الذين احترفوا سرقة البيوت المنكوبة بالحرب ..

كنا كسكان وادي الجذام ، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منا .. حتى اللصوص !! ... وحدها القذائف تجرؤ على زيارتنا وقرع أبوابنا وجدراننا ...

* * *

كابوس ٢٤

انه الغروب ...

دوماً يأتيني حبيبي مع الغروب ... مع الفجر ... مع الرعد .. مع المطر .. مع كل ما هو مهيب وازلي ..

دوماً يأتيني حبيبي مع الخريف ، كأن الخريف هو آثار أقدامه على الأرض ... يهبط إلي من جنون سيمفونية الموت والمتفجرات ، ويدخل ممزقاً بالرصاص تماماً كما شاهدته آخر مرة .. وأركض إلى صدره المزروع بالزجاج المكسر المسنن ، فتنغرس قطعَهُ في

صدري أيضاً كلما زاد في ضمي إليه ، ونلتحم بالموت والوجع ، وتصير سكاكين الزجاج جسوراً ، بل وشرايين مشتركة لجسدينا ... وشيئاً فشيئاً يخيم الظلام .. ويتلاشى بين يدي وانا اصرخ به : ولكنني ما زلت احبك ...

* * *

كابوس ٢٥

« ولكنني احبك » ..

وكانت السيارة تركض بنا في شوارع بيروت في أواخر الربيع الماضي (ربيع ٧٥) يوم انفجار العنف .. — الجولة الأولى — ...

« ولكنني احبك » ...

وكنا نتحدث عن مهزلة اكتشفناها فيما بعد ، وهي ان الكلمة المكتوبة في خانة المذهب لديه هي غيرها لدي .. أي اننا باختصار من دينين مختلفين ...

« ولكنني احبك » ...

وكان يبلغني رفض والده القاطع لزواجنا ... بسبب الفارق في الدين ! .

« ولكنني احبك » ...

لم يكن بوسعي ان اصدق ان الأديان وجدت لتدمير الحب بدلاً من اشعال ناره ...

« ولكنني احبك » ...

قال : اذن سنتزوج على أية حال .. سنتزوج مرة في الصحراء أمام النجوم والكون وذاتينا والله الحاضر في داخلنا وفي كل مكان ... ومرة في كنيسة ... واخرى في جامع ، فقد نرضي الجميع ..

قلت : إرضاء الجميع مستحيل ، وعمل غير اخلاقي . من واجبنا ان نوقف جنون التقسيم داخل عقولهم ، بدلاً من مسايرتهم ..

وفجأة ، اوقفنا حاجز عجيب غريب ... كان هنالك خيط رفيع من (المصيص) وقد ربط من طرف الرصيف ، إلى الرصيف الآخر ، ... وأمام هذا الحاجز العجيب وقفت مجموعة من الأطفال قائدهم واكبرهم في العاشرة من عمره ...

كنا نضحك . عز علينا ان نمزق لهم خيطهم (الحربي) فتوقفنا لحاجزهم . كانوا جميعاً يحملون العصي كما لو كانت بنادق ، فازددنا ضحكاً ... وطلبوا مشاهدة تذاكرنا

(بطاقات الهوية الشخصية) فأخرجناها لهم وقد سلّتنا المسرحية وقال حبيبي : انهم يذكروني (بشقاوة) تلاميذي في المدرسة حين كنت ادرس في صفوف الصغار .. وقال لنا الصبي ابن العاشرة : يجب خطف المرأة وقتلها . انها من غير ديننا . اما انت فتستطيع ان تمر .

كان صوته مرعباً وحاداً مثل انياب قط صغير متوحش . وتأملنا وجوه الأطفال فبدت لنا مثل وجوه كبار مركبة على أجساد أطفال ... وبدأت لحاهم تطول ... واظافرهم تكبر ... ووجوههم تتجعد والعرق يتصبب من جباههم ... صاروا مجموعة من قطاع الطرق الأقزام ... خفت وصرخت بينما انطلق حبيبي بالسيارة وهو يسأل : ماذا دهاك ؟ ..

* * *

كابوس ٢٦

بعدها بأسابيع ، وكانت المعارك ما تزال مستعرة اوقفنا في المكان نفسه حاجز .. هذه المرة لم يكونوا أطفالاً أقزاماً .. هذه المرة كانت البنادق حقيقية .. هذه المرة كانوا من تلامذة حبيبي فعلاً .. تنهد يوسف بارتياح حين شاهد وجوههم وقال لي وهويفتح باب السيارة ليحدثهم : انهم تلاميذي فلا تخافي .. اما هم فتحدثوا الينا كأطفال الحاجز الأول . اللهجة نفسها ... العيون المنومة نفسها كأنما بفعل سحر شرير غامض ... طلبوا تذاكرنا . قال لهم : ولو .. الا تعرفون استاذكم .. انا يوسف ...

كرر تلميذه السؤال بصراحة أكثر . اعطيتهم تذكرتي وكذلك فعل استاذهم ، حبيبي . بدأ احدهم يشتمني لانني اخرج مع شاب من غير (ملّتي) ... وغضب يوسف ، وصرخ بتلميذه : حتّى انت يا ..

وفوجئت برد التلميذ . قال له ببرود معدني عجيب : كل ما نعرفه الآن هو انك من دين آخر .. دين الذين خطفوا ابن عمي وعذبوه وقتلوه .. صرخ بهم : ايها الأغبياء .. الا ترون انكم فقراء مثلي .. الفقر ملتنا الأولى ... الفقر يجعلنا حلفاء بوجه الذين لهم مصلحة في متابعة ابتزازنا عن طريق تخديرنا بخلاف ديني ... اسمعوا يا ابنائي ... ورد اصغرهم ، لم تكن لحيته قد نبتت بعد :

ــ سئمنا محاضراتك يا استاذ ... تفضل معي ..

ولم يكد حبيبي يدير ظهره ويخطو على الرصيف حتى دوى الرصاص ، وكان صوته في الليل عالياً وشبيهاً بزعيق طيور بحرية جائعة فوق جثة طافية ، وتمزق حبيبي أمام عيني ، تمزق كتفاه وذراعاه وظهره وصدره وكل موضع في جسده كنت قد قبلته ، دفعه الرصاص واخترقه فتهاوى فوق الواجهة الزجاجية لاحدى شركات الطيران وقد اخترقته سكاكين الزجاج أيضاً ...

لم اصرخ ... كنت مدهوشة ... كان كابوساً لا يصدق ... ركضت اليه ، وانحنيت فوقه ، ثم انفجرت اضحك اضحك واضحك ... كان موته نكتة غير معقولة ... وكان تصميم طائرة اعلانية ما يزال يضيء وينطفىء ... يضيء وينطفىء داخل الواجهة الزجاجية لمكتب شركة الطيران ... طالما حلمنا بالرحيل معاً ... لكن طائرات الحب من الورق ورصاص الواقع من نار ...

صفعني أحدهم مرات على وجهي قائلاً ان ذلك سيعيد لي رشدي ... وبسكينه حفر لي على ذراعي رمزي الديني .. وكان الألم مروعاً ، وقال لي : كي لا تنسي بعد اليوم ... انتماءك ... وتخرجي مع شاب من غير (ملتك) ... وركضت في دروب الليل صارخة : لكنني انتمي للحب وللحياة ... هذا محفور في قاع عظامي من الداخل ، لا فوق جلدي من الخارج ..

* * *

كابوس ٢٧

الباب يقرع ..

جارنا العجوز يسألني : هل عاد أخوك ؟ ..

— أخي ؟ ولكنه نزل اليكم !

قال بصوت حزين جداً : جاء الينا . لم نكن قد تزودنا بأية مؤونة ، فقرر الذهاب لاحضار نجدة غذائية .. قال اننا سنموت جوعاً فيما لو إستمرت المعارك يومين آخرين ! ..

صرخت : الذهاب ؟ ولكن كيف ؟ من أية طريق ؟ ألا ترى انهم اطلقوا الرصاص حتى على الكلب الذي تجرأ وعبر الشارع ؟

قال : لقد تسلل من الحديقة الخلفية حيث دكان بائع الحيوانات الأليفة ... انه شارع خلفي وضيق ، وفي مأمن نسبي عن العيون ...

صرخت : وكيف تركتموه يذهب ؟ انه غير مسلح .. قال العم فؤاد بأسى : لقد أصر على الذهاب وحمل معه مسدسي .

– ولكن مسدسك اثري ... مسدسك ينتمي إلى عصور الحرب العالمية وأيام (زمان) ... الدنيا تغيرت ... مسدسك أمام الأسلحة الحديثة مثل لسعة بعوضة امام ضربة اسد .

قال العم فؤاد بطمأنينة : ان البعوضة تدمي مقلة الأسد !

لعنت الشعر . واحترمت شيخوخته . كنت اعرف ان المناقشة معه ضرب من العبث ، فكل منا ينتمي إلى عالم بعيد بعيد ، والهوة شاسعة ...

ووجدتني اتساءل : ترى هل ذهب أخي حقاً لإحضار الطعام في عملية بطولية ، أم انه مثلي خائف حتّى الموت ، وقد فقد أعصابه وانتهز الفرصة للهرب دون ان يحمل مسؤولية (هربي) معه ؟ ...

ورجحت انه انتهز الفرصة للهرب . ولم ألمه . بل حسدته على شجاعته !! ... في مثل هذا الجحيم ، ربما كانت البطولة الوحيدة الممكنة للعزل امثالي هي أولاً : الهرب !... والبقاء أحياء ... أحياء .. أحياء ...

* * *

كابوس ٢٨

اقترب الغروب ، ولم يعد أخي ..

وانا اقرأ كوماً من الصحف القديمة وجدتها مكومة في زاوية المطبخ ... صحف عمرها شهران وثلاثة .. كلها تتحدث عن الموت والقتل والجثث والخطف وحربنا الاهلية المريرة ... كلها كوابيس كوابيس كوابيس ..

تنفتح أمامي دنيا من الرعب ... كأنني أخطو داخل سراديب الماضي .. كأنني اعيش أهوال الشهور الماضية دفعة واحدة ...

اقرأ واقرأ وتنبت الكوابيس داخل رأسي وتفرخ بوحشية نباتات ملعونة تتغذى بالدم ... تنمو كوابيس من الهول ..

للصحف العتيقة مذاق غريب ، كأنها تروي حكاية كل رصاصة اسمعها مُنذ البداية ... كأن كل كوابيس المدينة تعاود انزلاقها فوق صدري كحجر القبر ... كأنها

الحكواتي العتيق في مقهى مقفر ، وانا المستمع الوحيد ، وحكاية عنتر بن شداد والزير ، ويوسف والبئر تحولت إلى حكاية لا حد لهولها ...

ويوسف ... ها هي صورة جثته وشرح الصورة يقول ان حاجزاً مسلحاً قتله ... هكذا ببساطة ودونما معنى .. موته موتان في قلبي ، مرة لانه مات ، ومرة لانه مات دونما معنى ...

* * *

كابوس ٢٩

انه الليل ، ولم يعد أخي .

الفراش ليس فراشي . الغرفة ليست غرفتي . صرير باب الخزانة ليس مألوفاً لدي . لا اعرف كيف أعالج مزلاج النافذة الحديدي . الأثاث البني الكئيب ليس أثاثي والجدران ليست جدراني . لكنني سأنام الليلة في هذه الغرفة ، وسأبدأ صفحة جديدة في دفتر تشردي ...

لقد اصر جارنا العجوز العم فؤاد على ان أنام في بيتهم بالطابق الأرضي . قال ان بيتنا في الطابق الثالث أكثر تعرضاً للصواريخ والخطر وانهم لن يتركوني وحيدة في بيت الرعب ..

هبطت اليهم . بيتهم حزين حزين . ككل البيوت التي يقطنها « الذكور » وحيدين ، حيث لا لمسة حنان انثوية تدفىء الأشياء . منذ ثلاثة أعوام توفيت ابنته الصبية وهي تضع طفلها الأول ، وبعدها بأيام توفيت امها (اي زوجته) ومن يومها لم يعد البستاني العجوز يهتم بزراعة البنفسج والبانسيه (المرجاية) في الحديقة ... ومن يومها ذبل الاب الكبير ولم تعد ضحكته تضحك ... واكتفى بالحياة في شبه عزلة مع خادمه السوداني ، وابنه امين الشاب الوحيد ، والأعزب المزمن ...

ها انا من جديد اعلق ثيابي فوق (شماعة) لا تخصني .. اغسل وجهي في حمام لا أعرف بالضبط كيف افتح حنفيته ، وكم علي ان أديرها بحيث لا تنفجر أكثر مما يجب أو أقل مما يجب .. استعمل صابوناً ليس مألوفاً لدي ... امسح وجهي في منشفة أراها للمرة الأولى واكره رائحتها ... اتمدد في سرير لا أدري من نام به للمرة الأخيرة ... احدق في شقوق السقف ، المختلفة عن تلك التي ألفتها في بيتي ... كل هذه التفاصيل

الصغيرة هي برقيات خافتة من مملكة الغربة التي أخطو اليها ثانية ... انه التشرد من جديد ...

وغمرني غم لا حدود له ... ربما كان لون الاثاث البني العتيق المشبع بالكآبة ، وربما لانني شاهدت زوجة العم فؤاد تحتضر في هذه الغرفة وتموت على السرير ذاته ... كان رأسها في موضع رأسي تماماً ، ربما على الوسادة ذاتها ... وكان جسدها ممدداً في موضع جسدي ، وكانت أطول مني قليلاً لكن الموت جعل جسدها يتقلص ولعل موضع قدميها كان تماماً حيث اضع قدمي ... السرير باق ، وجثة تحل مكان جثة لتحل مكانها جثة أخرى ... والسرير يزداد كآبة . السرير يصير تابوتاً فور خروجه من المصنع واستعماله من قبل انسان ما لاول مرة ، ما دام كل منا مشروع جثة مكتملة ، ما دام كل انسان حي يحمل موته معه ! .. لماذا السرير ؟ لماذا لا ننام في توابيتنا منذ الولادة ، دونما لف او دوران او احتيال على بدهيات الحقيقة ؟ ... وشعرت بان الموت هو أمي الوحيدة والأولى والاخيرة ، وان أصوات الرصاص هي انشودتها وهي تهدهدني للنوم ... وبدأ شيء في داخلي يتزلق مني بعيداً ... بعيداً ... مخلفاً جسدي وحيداً ومكوماً على السرير ، وادركت انني ميتة مع وقف التنفيذ ..

* * *

كابوس ٣٠

آه اين انا ...

آه ماذا حدث ؟ ...

ايقظني انفجار رهيب ... صرخت .. سمعت صوتي وانا اصرخ حتى قبل ان استيقظ تماماً .. أخافتني صرختي أكثر من صوت الانفجار ... دفعة واحدة ، وعيت معنى ما يدور ...

كان انفجاراً شبيهاً بصوت الرعد تماماً ... ربما مدافع ميدان ١٦٠ ام تراها الكاتيوشا ام صواريخ غراد ؟ مدافع الهاون ١٢٠ او الهاون ٨٢ — يا للحسرة ... كانت اذني تعشق الموسيقى وتميز الطابع الخاص لكل عباقرة الكلاسيكيين وتعرف اسلوبهم بعد دقيقة من الانصات ... في كابوس بيروت ، الموسيقى رصاص ومتفجرات وها هي أذني تحفظ جدول نوطات أصوات الأسلحة ... بل انني اعرف من صوت الطلقات اي

الفريقين يطلق على الآخر واي الفريقين يملك هذا السلاح او لا يملكه ... لقد تخرجت من مدرسة « الحرب الاهلية » ، واعرف ان رعد البشر المدعو مدفع ١٦٠ يشبه رعد الالهة ، وان تلك الطلقة التي تشبه زعيق الغراب (الشوحة) هي طلقة بندقية فال وكال البلجيكية ، او إم ١٦ الاميركية ... اما تلك الطلقات المتدفقة كالمطر فهي قادمة من رشاشات ٥٠٠ الاوتوماتيكية الحديثة ، وإن كنت حين اسمعها اتذكر أفلام الكاوبوي التي شاهدتها في طفولتي واتخيل المقاتل يُدير دولاباً خشبياً ومع كل دورة تنطلق عشرات الطلقات ..

كانت الطلقات مستمرة دونما رحمة .. وكنت أحصيها كي لا أجن ، كما يحصي المرفهون الأغنام حين يعانون من الأرق ... كان النعاس يقتلني والنوم على مرمى رصاصة .. وهذه ليلتي الثالثة بلا نوم ..

بعد الطلقة الواحدة والعشرين ساد سكون عميق ... اية مصادفة .. هذه المدفعية ، كانما تطلق قذائفها حداداً على عظيم مات .... من الذي مات الليلة ؟ .. ما اسمه ؟ ... اية كوارث سرية تدور في هذا الليل الشاسع الاحزان والغموض ..

لم أنهض من سريري ولم ينهض أحد في البيت . لم يضأ اي نور. لم يقرع بابي مخلوق. ربما كانوا مثلي ، أكثر خوفاً من القدرة على مجرد الوقوف أو الحركة ...

بقيت وحدي في الظلام الدامس ارتجف . لم اعتب لان أخي مضى وتركني وحيدة . منذ مراهقتي وانا أعمل واعيل نفسي وامارس حياتي كأي (شاب) في الأسرة .. وانا الآن خائفة كما قد يخاف اي شاب أعزل في ليل الجنون ... الخوف (انساني) لا (انثوي) ... ومع ذلك لا استطيع ان انجاهل صورة حبيبي يوسف ، وصدره الشاسع الذي اقتحم وحشتي ... تمنيت باخلاص لو يضمني اليه واضمه إليّ ... لم اكن اريد ان اختبىء في صدره ... كنت أريد ان يحتمي أحدنا بالآخر مثل دفتي نافذة تنغلقان معاً في وجه العاصفة ... لم أكن أحلم بان يغمى علي مثلاً بين ذراعيه ... لكن الليل سيكون أقل ظلمة وصوت القنابل أقل هديراً بالنسبة له ولي لو كانت يدانا متعانقتين ... وحتى في الزلزال تلتصق الوحوش بعضها ببعض .. الموت الجماعي ليس مرعباً كالموت الفردي ... الذي يموت وحيداً يموت مرتين : مرة لانه وحيد ، واخرى لانـــه ... مات ! ...

كابوس ٣١

رغم ان القنابل توقفت .. والرصاص ... وعاد السكون الشامل يخيم على كل شيء . فقد عجزت عن العودة إلى النوم .

بدأ الصمت يخيفني أكثر من الانفجار ... في الصمت اسمع صوت قلبي .. في الصمت اسمع عضواً ما غير مرئي في جسدي ينزف باستمرار ، وعلى البلاط البارد تسيل قطرات الدم نقطة نقطة في الظلام ... نقطة نقطة ... (ام تراه صوت حنفية الماء غير المغلقة جيداً في الحمام الملاصق لغرفتي ؟) .. في الصمت اسمع صوت كائنات دكان بائع الحيوانات الاليفة .. وقد بدأت تجوع ، وتعطش . وتموت شوقاً للشمس . وينفد املها وصبرها ، اسمع بعضها يضرب رأسه بجدران القفص احتجاجاً وبعضها الآخر يجلس بهدوء منتظراً تطور الأمور ، ألبعض يصلي . والآخر يحلم أو يكفر أو يحاول الهرب أو يلقي بالخطب والمواعظ .. تماماً كالبشر ... تماماً مثلنا نحن سكان هذا الحي الأليف ..

كان صمتاً طويلاً حزيناً ... ثم عاد صوت الرصاص شيئاً فشيئاً ... كان قريبا جداً وحدست ان معركة ما تجري في الشارع امام بيتنا .. وفجأة انطلق بوق سيارة ما ...

بدا الصوت غريباً وطريفاً وسط صوت الرصاص .. بدا انسانياً مثل رجل يعول وقد اصابته رصاصة .. في الظلمة والرصاص وعتمة الانفجارات استأنست بهذا الصوت.. وحزنت أيضاً ... خمس دقائق وبوق السيارة يعول بأعلى صوته ثم بدأ الصوت يخفت تدريجياً تدريجياً كأنسان يحتضر مشرفاً على الموت النهائي .. ولعل الصوت ضايق احد المسلحين فقد انطلقت زخات شديدة من الرصاص وسكتت السيارة بعدها تماماً . ماتت تماماً .

افتقدت صوت بوق السيارة .. افتقدت الحياة .. زحام السير ... زعيق الأبواق على طريق الجبل . ويوسف إلى جانبي ... نضحك .. ونشعر بالشماتة كلما رأينا سيارة (رسمية) وقد انقلبت على جانب الطريق وقد اصابها حادث ما ..

ووجدتني اغني بصوت خافت :

جادك الغيث اذا الغيث همـا   يا زمان الوصـــل بالاندلس

وكانت صورته تملأ عيني ... والدموع أيضاً ... وفكرت بهلع . تراني بدأت أجن ؟

وهل هذه اغنية ام شهقة احتضار ؟ ...

* * *

كابوس ٣٢

حين استيقظت غمرني الهلع ...

كانت الغرفة غريبة ومألوفة في آن واحد . ثم تذكرت كل شيء ... ظللت وقتاً طويلاً ممددة كما أنا ، ارقب انزلاق البقعة المضيئة القادمة من ثقب بالنافذة التي اخترقتها رصاصة ما ... (هل يمكن ان تكون هذه هي الحقيقة بكل بساطة ؟ والنور لن يدخل إلا إذا خرقنا جدران سجوننا بالرصاص والمتفجرات ؟) .. انسللت من فراشي . كان البرد شديداً .. كان البرد ينسكب من كل قطع الأثاث غير الاليفة المحيطة بي ... غمرني بؤس عميق ... كم وكم ارتديت ثيابي في غرف غريبة باردة في بلاد نائية ، غرفة لكل يوم ، ووجبة من الكآبة والوحشة لكل صباح ...

خرجت إلى الردهة ... كان من الواضح ان العم فؤاد قد استيقظ منذ زمن طويل . لا يبدو عليه انه لم ينم في الليلة السابقة .. حسدته على سمعه غير القوي ... الطرشان وحدهم قادرون على معايشة كوابيس بيروت بعد ان تخلصوا من احدى حواسهم .. فحين تصير الحياة كابوساً ، تصير الحواس أدوات للتعذيب ..

كان يقف امام النافذة ، وحياني برقة منقرضة .. في الخارج كانت نبتة ياسمين كثيفة تلتمع في ضوء الشمس التي لم تشرق بعد (ام تراه سيكون يوماً غائماً ؟) ... لم يكن بيننا من يجرؤ على الخروج إلى الحديقة حتى للاستفسار عن صحة الشمس ... وتمنيت لو ادفن وجهي في الياسمين واغمض عيوني لأطير إلى ليل الحنان ... ليل يوسف .. (يا ميت مسا ، حي المضى ، ما بينتسى يا ميت مسا) وبدأت اترنم بها بصوت جنائزي .. لا ادري لماذا صار لكل اغاني الماضي طعم الرماد والدموع في فمي ، منذ مصرع يوسف .

قال لي العم فؤاد انه سيخرج ويقطف لي ياسمينة ، وتوسلت اليه ان لا يفعل حرصاً على حياته وحياتها . فبدل رأيه فوراً وبدا سعيداً لانني لم اتركه يدفع حياته ثمناً لنزوته الطيبة هذه ... او يضطر للتراجع كطفل مذعور ..

صار لمس الياسمين أمنية ، والوقوف تحت السماء طموحاً ... استيقظ امين أيضاً ووقف إلى جانب ابيه . بانا لي لوحة للخوف والبؤس . تبدو وكأنها ' ابة العالم حين لا

يحلق الرجال ذقونهم .. توسلت اليهما أن يفعلا ! ..

* * *

كابوس ٣٣

اصعد الدرج إلى بيتي في الطابق الثالث . للمرة الأولى ألحظ ان نوافذ الدرج كثيرة وكبيرة وكل من يمر امامها هو هدف جيد لقناص في اي بناء من الأبنية الحديثة الاسمنتية المحيطة ببيتنا البيروتي العتيق المبني من الحجر الرملي (كأكثر بيوت بيروت القديمة) .. وكنت كلما مررت بنافذة ، اخفض رأسي لا شعورياً ، رغم معرفتي المستجدة بان رصاص الاسلحة الحديثة لا يؤمن بان الخط المستقيم هو أقصر الطرق إلى الهدف وانما يؤمن باسلوب الجراذين في الركض من جدار إلى آخر ، او باسلوب كرة البلياردو .. سمعت الهاتف يرن ... ربما كان أخي ... سارعت افتح الباب .. لاحظت ان يدي ترتجف وانني عبثاً أدخل المفتاح في القفل . حين نجحت في فتح الباب كان الهاتف قد كف عن الرنين . حزنت حزناً عميقاً . كنت بحاجة إلى سماع صوت خارجي .. اي صوت، عاد الهاتف يرن. ركضت ملهوفة . كانت المتحدثة فتاة تدعى سلوى وهي شقيقة زميلة لي اسمها مريم .. سلوى بنت صغيرة وحلوة وطيبة . « أمر يا سلوى . ماذا تريدين . هل اختك مريم بخير ؟ » ... ردت : « أجل وقد اعطتني رقمك الهاتفي » ظننت سلوى بحاجة إلى رغيف خبز مثلي، او نجدة عسكرية تخرجها من مأزق مماثل. بالفعل. كانت بحاجة إلى خدمة . ماذا ؟ .. قالت : ارجو منك ان تتوسطي لي لدى صديقك الاستاذ صبري كي يضمني إلى فرقته للرقص الفولكلوري ! ! ... انني أعشق الرقص ! ! ...

* * *

كابوس ٣٤

كانت سلوى ما تزال تتوسل إلي كي اتوسط لها لترقص الدبكة . وكنت صامتة ، مذهولة ، وعبر القمرية الزجاجية العالية كنت ارى سحباً مروعة من الدخان . لا أدري كيف استطعت ان أكون مهذبة ، ولا أصرخ بها : المدينة تحترق وانت تتحرقين لرقص الدبكة . بدلاً من ذلك سألتها بلطف : اين اختك مريم ؟ ولماذا لم تتصل بي بنفسها ؟ ردت سلوى ساخرة جداً : لأنها حملت السلاح وذهبت لتقاتل مع الميليشيا .

لم أقل لها شيئاً . فقط وعدتها خيراً وودعتها على أن تتصل بي في الغد (!) وسارعت

أتلصص بحذر من النافذة .... كان هناك حريق يتصاعد من مبنى فندق « الهولبداي إن » المقابل لبيتنا ... بدأت أعد طبقات المبنى العملاق . وكان لسان النار يخرج من شرفة الطابق الثامن . كان لساناً كبيراً ما لبث ان دخل إلى فم الطابق التاسع فالعاشر ... كانت النار تستعر بسرعة لا تصدق والدخان الأسود يغطي وجه البحر والقذائف والانفجارات تتعالى والذهول يفترسني ... شيء يتحطم . انه زجاج النافذة في الغرفة المجاورة . ركضت بين غرف البيت ابحث عن غرفة بلا نوافذ ... صعقت ... اكتشفت ان ليس في البيت حتى ولا غرفة واحدة بلا نوافذ ... للمرة الأولى ألحظ ان واجهة بيتنا بأكملها من الزجاج . ونصفه من الزجاج الملون على الطراز القديم . الزجاج الملون قد يعني مناخاً بيزنطياً روحياً ساحراً في أيام السلم . أما في الحرب فالزجاج مرشح لان يصير قطعاً من الخناجر المتطايرة في كل الاتجاهات في حال حدوث انفجار ... لاحظت أيضاً ان نوافذ البيت كبيرة وشاسعة .. الرجل الذي بنى هذا البيت لم يكن يفكر بالحرب . كان يفكر بالحب والسلام والأفق . وكان حريصاً على ان يطل البحر من كل نافذة حتى من نوافذ الحمام ... الدهليز فقط كان بلا نوافذ ولكن ما الفائدة من استعماله كملجأ ، وثلاثة أبواب تنفتح عليه ؟ . وكانت الانفجارات ما تزال تزلزل البيت واصوات تكسر الزجاج في الحي تسمع بوضوح بين دوي وآخر ..

ووجدتني اجلس على الأرض وحيدة في الدهليز ... ثم نهضت . احضرت كرسياً وجلست عليه . ووضعت أمامي علبة سجائر وكبريت . واستسلمت لجنون المتفجرات ... كنت اعي جيداً انني ربما للمرة الثالثة أقف على الخط الدقيق الفاصل بين الموت والحياة . وغمرني صفاء عجيب . وفي ذلك الدهليز الضيق كانت انفجارات متلاحقة تضيء اعماقي ..

* * *

كابوس ٣٥

كانت أبواب مغلقة في داخلي تنفتح باباً تلو الآخر ... ووجدتني أحدق في الأشياء فأرى إلى أبعد منها ...

في الممشى أمامي على طول الجدار مكتبة تمتد من الأرض إلى السقف ... ليس الممشى آمناً بقدر ما كنت أظن . ففي حال انفجار داخل البيت قد تنهار الكتب كلها

فوقي وتقتلني ... اما البقية الباقية من الجدار فيغطيها ملصق (بوستر) فيه صورة خضراء كثيفة الأشجار .. وكان بوسعي ان أخطو إلى داخل اللوحة . هاربة إلى الغابة الاوروبية من جحيم عالمي ، وكان بوسعي ان اتسلق الاشجار وألتحف بالضباب وأنام قليلاً ... لكنني لم أفعل . لقد علمتني الحياة ان الهرب من انتمائي الحقيقي لا يجدي . انا ابنة هذه الأرض ، ابنة هذه المنطقة العربية المضطربة حتّى الغليان ، أنا ابنة هذه الحرب .. هذا قدري .. تعلقت عيوني بالرف الذي يضم كتبي التي ألفتها و. شرات من الكتب التي ترجمتها على طول عشرة أعوام من العمل في دار النشر الثورية ووجدتني اهمس : وانا أ ضاً قد شاركت في صنع هذه الحرب ... صحيح انني لم احمل سلاحاً قط . صحيح انني مذ..ورة كأي جرذ في دكان بائع الحيوانات الاليفة ، ولكن كانت سطوري تحمل دائماً صرخة من أجل التبديل ... صرخة من أجل مسح البشاعة عن وجه هذا الوطن وغسله بالعدالة والفرح والحرية والمساواة ... وكل ما يفعله المقاتلون هو انهم ينفذون ذلك على طريقتهم .. انها حروفي وقد خرجت من داخل الكتب لتتقمص بشراً ، يحملون السلاح ويقاتلون .. اكنت حقاً أريد ثورة بدون دم ؟ أجل ... مثل كل الفنانين أنا متناقضة ... أريد الثورة ولا أريد الدم ... أريد الطوفان ولا أريد الغرقى ..

ها قد عدت إلى معزوفة تأنيب الذات ..

— ولكن هذه مجرد كوابيس لا ثورة .

— كل الثورات تولد هكذا معمدة بالدم .. حتّى ولادة طفل لا تتم إلا معمدة بالدم ...

— ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت .

— لا أحد بريء في مجتمع مجرم ...

ما زالت انفجارات القنابل تتعالى .. ما زلت جالسة في الدهليز احتمي بجدرانه شبه المتلاصقة كرحم حجري . لم أعد مذعورة كجرذ . الكتب تحدق بي من رفوفها . وأنا احدق بالكتب ، ولا أحد يملك للآخر شيئاً . الكتب اغلفة فارغة والكلمات هربت من الصفحات لتصير رجالاً مقاتلين . اتناول كتاباً من تلك التي ترجمتها . افتحه . أجده كما حدست ، صفحات بيضاء . ان الحروف خرجت إلى الشوارع لتمارس حياتها الخاصة . صارت مقاتلين يحولون الأفكار إلى سلوك .. ما الذي يخيفني ؟

ما زالت انفجارات مضيئة تتلاحق في اعماقي وأبواب مغلقة في روحي تنفتح باباً

تلو الآخر ... ما زالت الأصوات تتعالى في داخلي ، وتتابع نقاشها داخل ذلك الصندوق الصغير المقفل جيداً المدعو دماغي ... تتلاحق الصرخات ويخيل إلي ان جدران الدهليز ورفوف المكتبة تردد اصداءها ..

ــ ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت ...

ــ لا أحد بريء في مجتمع مجرم .

ــ والواقفون على الحياد ؟

ــ لا حياد في مجتمع بلا عدالة ... لا حياد في مدينة العري والقيزون . مدينة الجوع والتخمة ... المحايدون هم المجرمون الأوائل ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ، انها ترى الظلم وتعانيه ، لكنها تؤثر السلامة الرخيصة على الكفاح الخطر النبيل ...

ــ بعض الناس غير مؤهلين نفسياً لرؤية الدم .

ــ حينما يحدقون جيداً في جرحهم الداخلي ودمهم النازف ، لا بد وان يتعلموا رؤية عدوهم ينزف تحت ضرباتهم هم ...

ــ من ضربك على خدك الايمن أدر له الخد الايسر ...

ــ بل العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم ..

ــ ولكن ، ما ذنب الأكثرية الصامتة الآمنة المسالمة ...

ــ ذنبها الصمت والمسالمة والعيش في وهم الامن ... كل عملية حياد هي مشاركة في عملية قتل يقوم بها ظالم ما ضد مظلوم ما ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ... انها تشكل إغراء لا يقاوم لممارسة الظلم عليها .. انها هي التي تثير غريزة الشر في نفوس الذئاب البشرية ... المسالمة هي تحريض على القتل ، وتلك جريمة . المسالمة هي شروع في الانتحار ، وتلك أيضاً جريمة .

ــ ولكنني لم أكن على الحياد . انني منحازة لطرف ضد آخر . انني منحازة للشمس والعدالة والحرية والفرح والمساواة .. وقد قضيت عمري أخدم هذه القضايا بالسلاح الوحيد الذي اتقن استعماله ..

ــ كان عليك ان تتقني استعمال اسلحة أخرى من أجل يوم كهذا ...

ــ ولكن قلماً جيداً خير من رصاصة طائشة ...

ــ ولكن ما جدوى القلم في دوامة النار الآن ؟ ...

— انتظر ريثما يصمت الرصاص فيعود للقلم صوته ..

— تعنين ان تجلسي في هذا الممشى المعتم كالجرذان . وحينما تنتهي الحرب تتابعين دورك السخيف : التصفيق أو التصفير من خلف طاولة مكتبك ... وحينما يدوي الانفجار تنزلين للاختباء تحت الطاولة ...

— ولكن ما جدوى ان يقتل الأدباء في الحرب ما دامت طبيعة أكثرهم لا تؤهلهم ليكونوا مقاتلين جيدين ؟ بايرون كان شاعراً عظيماً ومقاتلاً فاشلاً . وقد مات في الحرب الأهلية باليونان بعد ان كبد (فريقه) لا الفريق العدو خسائر كثيرة ... لو عاش وكتب من أجل المثل التي يؤمن بها لأفاد واستفاد بدلاً من ان يتعفن بعد ساعة من موته وتنطفىء يده التي هي مصباحه . من واجب الفنان ان يبقى على قيد الحياة كي يستمر في أداء رسالته : الكتابة ! .

— ولماذا تتمسكين بهذا المثال ؟ ماذا عن غيره من الفنانين المقاتلين ؟

— همنغواي كان مقاتلاً سيئاً أيضاً . لقد استفاد أدبه من تجربة المعركة ، اما (فريقه) فلا بد وانه دفع الثمن باهظاً من سوء استعماله للسلاح ولفنون القتال ... ولعل المرة الوحيدة التي أجاد فيها همنغواي استعمال سلاحه كانت لحظة انتحاره !

— ستجدين الآن عشرات الأمثلة لتبرير نفورك الفطري من مشهد الدم ، ومن العنف الجسدي ..

— لا أريد ان أسقط فريسة شعور بالذنب لانني لا أقاتل ... أعرف عشرات من المثقفين الفرنسيين الذين داهمهم هذا الشعور أيام الحرب الأهلية في اسبانيا وتطوعوا للقتال وكانت النتيجة انهم كانوا عبئاً على الثوار ، واحداهن (كانت شاعرة كبيرة) لم تكن تصلح في ميدان الحرب حتى لطبخ الطعام للجنود ... ان جر الفنان إلى القتال هو كجر ماري كوري من مختبرها إلى المطبخ بحجة ان البلاد تعاني نقصاً في الطباخين ! ..

— اذن ترين ان مهمة الفنان هي ان يصب البنزين ويشعل النار ثم ينسحب من المدينة هارباً ؟

— تقريباً ! ... هذا صحيح على نحو ما ... مهمته ان يخلق الثورة لا ان يمارسها ... لقد أعلن الرئيس جمال عبد الناصر ان كتاب « عودة الروح » لتوفيق الحكيم كان من العوامل الهامة التي ساهمت في تفجير ثورته والضباط الأحرار ، واشعال شرارتها ...

الفنان شرارة الثورة ونبوءتها ...

– ووقودها ! ..

– ان موته كجرذ لا يفيد أحداً ... ولكن ما يحدث عادة هو ان الفنان نوع فريد من الثوار ... انه يصنع الثورات ويجد نفسه بطريقة ما وقوداً لها لا محالة ... انه يشعلها وهو يعرف انه أول من سيحترق بنارها ... وحتى اذا لم يقتل الفنان أثناء الثورة فانه سيفقد ادوات عمله : مكتبته ومراجعه وكتبه وارشيفه وسلامه النفسي الداخلي النسبي الذي سيمزقه تماماً التشرد الجسدي ، هذا بالاضافة إلى تشرده الروحي المستمر ...

– ولماذا لا يقاتل الفنان حين تشب الحرب كأي فرد آخر في المجتمع ؟ هنالك مقاتلون جيدون ومقاتلون سيئون ، فلماذا لا يكون مقاتلاً سيئاً ؟ ان ذلك سيحميه على الأقل من الموت وحيداً ... ومن عذاب الأصوات المتناقضة في داخله ..

– لان تركيبة الفنان النفسية التي تجعل منه فناناً جيداً هي نفسها التي تحول بينه وبين ان يكون مقاتلاً جيداً ! ... لا استطيع ان اقتل اي انسان او اعذبه ... سأفكر بأنه كان ذات يوم طفلاً بريئاً . سأفكر بأنه لم يصنع من نفسه الوحش الذي هو أمامي وانما هي عوامل كثيرة خارجة عن ارادته ساهمت في صنع ذلك الوغد امامي .. سأفكر أيضاً بأمه .. بحبيبته .. سأعجز عن تعذيبه .. سأتذكر كيف قد يبدو وجهه وهو يضحك ، وهو يصلي ، وهو يمارس الحب ... سأحس بانه كوكب قائم بذاته ، وان قتله مجزرة كونية ...

أصوات ... اصوات ... اصوات ... تتفجر داخل رأسي وتتناقش بصوت عال ، ومع كل صوت أشعر بأن امرأة جديدة خرجت من داخلي ، ولم اعد امرأة واحدة في الدهليز . بل تناسلت وتكاثرت وازدحم بنا الدهليز ، ودوى انفجار رهيب وكنت واثقة انه داخل بيتي في مكان ما . وعدت امرأة واحدة . وحيدة في الدهليز على الخط الفاصل بين الموت والحياة . أواجه مكتبتي الكبيرة . والمح عبارة « الثورة » في اكثر عناوينها .. وصرخ صوت في داخلي : هذا كابوس لا ثورة ... هذه « كوابيس سادية » لا « حرب تحريرية » ...

ورد صوت آخر : كل الثورات في التاريخ كانت تبدو من الداخل هكذا ... المهم في الثورة هو الجيل الذي سيحصدها ... لا بد لكل ثورة من جيل ضحية ...

سمعت جيداً صوت سقوط جدار ما ... اخمد الانفجار الأصوات في رأسي ... ركضت ... للوهلة الأولى ، بدا لي أن دخاناً كثيفاً يتصاعد من غرفة جدتي .. لم أكن أدري انني استطيع ان أكون شجاعة ... دونما وعي حملت (طفاية الحريق) الصغيرة وسارعت إلى الغرفة ... كان السقف محفوراً والجدار المقابل للنافذة ... في البداية ظننت قذيفة ما سقطت على السطح ، وركضت نحو المطبخ اتسلق السلم الخشي إلى السطح ففوجئت بأن القرميد الذي يغطي سقف بيتنا سليم ولا ثقب فيه ... عدت إلى الغرفة . كانت سحب الغبار قد استقرت على الأرض والأثاث ، وحين حدقت جيداً اكتشفت ان شيئاً ما قد اخترق زجاج النافذة وثقبه دون ان يكسره مصطدماً بالسقف ومرتداً إلى الجدار وأن ما توهمته دخاناً كان مجرد غبار تساقط من السقف والجدار المشروخين ... وبحثت على الأرض فوجدت ثلاث قطع معدنية ما تزال ساخنة ، واحدة منها مدببة ، وكانت بصورة عامة صغيرة واذهلني أنها قادرة على إحداث هذا الخراب كله ...

حينئذ فقط لاحظت ان ركبتي ترتجفان كأنهما انفصلتا تماماً عن جسدي ورغباتي . وركعت على الأرض ودفنت وجهي بين يدي وبدأت أبكي ..

* * *

كابوس ٣٦

أكره صوتي حين أبكي ...

يبدأ دماغي بالعمل فوراً ضد ضعفي وبملاحقة عناصر جسدي المتمردة . قررت : اعصابي متعبة لانني لم آكل شيئاً .

دخلت إلى المطبخ . اشعلت نار الغاز وكانت يدي ترتجف حتى انني احرقت أحد اظافري ... لقد اشتعل بسرعة عجيبة وفاحت رائحة خاصة . لم اشعر بأي ألم لكنني غرقت في ذعر مروع .. كم الجسد البشري قابل للالتهاب بسهولة ! وحينما كسرت البيضة في المقلاة أذهلني ان بياضها كان وردياً وأن صفارها كان من الدم ... لم تكن حواسي تخدعني . كانت البيضة مليئة بالدم ... قد تكون للأمر تفسيرات علمية لكنني واثقة من انه حتى الدجاج في مدينتنا لم يعد يبيض من الرعب . صار ينزف !

صار البيض قطعاً من الدم المخثر ...

ومع ذلك أكلت . وابتلعت فطوري الدامي دون تذمر . كانت إرادتي قد امسكت

براسي من جديد . وكنت اعرف معنى ارادتي .

(كنت في الرابعة عشرة من عمري حين امسكت بالابرة وبيد لا ترتجف ثقبت شحمة اذني . اليمنى أولاً . ثم اليسرى . شعرت بألم خارق . لكن يدي لم ترتجف . ولم اتردد في ثقب اليسرى بعدها بثوان ، حتى قبل ان تهدأ ضربات قلبي واندفاع الدم إلى رأسي لشدة الألم . كنت قد وضعت الابرة بالنار وعقمتها . ولم اربط في ثقب أذني خيطاً ريثما يلتئم الجرح ، بل عقمت القرطين الذهبيين الصغيرين وتحليت بهما فوراً. تألمت أياماً ثم شفي الجرح . ومن يومها تعلمت تلك القوة الجبارة في أعماق كل انسان المسماة الارادة ... ربما كانت مأساتي أنني طالما استعملت ارادتي ضد رغبات قلبي حتى صار العداء بينهما مستحكماً ! ...) ...

* * *

كابوس ٣٧

بعد وجبة الدم المخثر ، قررت (إرادتي) ان عليّ ان أتابع حياتي (العادية) كي لا أصاب بالانهيار والجنون ... العمل أولاً . كتبت مذكراتي ، ثم تذكرت ان اليوم هو الاثنين وعلي ان اكتب (عمودي) الاسبوعي للمجلة التي اعمل بها . كان الرصاص مستمراً ، ولكنني حين امسكت بالقلم وجلست على الأرض بالقرب من طاولتي « اي تحت الطاولة !) لأكتب ، ازداد اطلاق الرصاص شراسة وضراوة .. كأن المعركة تدور بين قلمي والرصاص .. كأن كلاً منهما يتحدى الآخر ... كأنهما مصارعان في إحدى حلبات روما القديمة .. ربما كنا ، هم وانا نعمل لهدف واحد في وقت واحد .. انا اكتب ، وهم يطلقون الرصاص ، لاجل هدف واحد .. ربما كان كلانا يحارب على طريقته ولكن للاسباب ذاتها .. ومع ذلك احسست بأن القلم والرصاصة هما في أفضل الحالات كالأخوة الأعداء ... كان من الصعب ان يركض قلمي براحة بينما الرصاص يدق مساميره داخل جمجمتي .. ولكنني صرت اكتب واكتب ، واشعر بأن الكتابة تحيطني كدرع ، وتصفحني ، وتجعلني قوية مثل صخرة عتيقة تواجه العاصفة ، وبعد قليل لم أعد اسمع صوت الرصاص وانما فقط صوت قلبي وضميري وصرخة اعماقي على الورق البريء . وكنت اكتب بحرقة عن حكامنا الذين يحاولون مداواة السرطان بحبة اسبرو .. عن تلك الطبقة الفاسدة التي تظن الوطن حقيبة تستطيع ان تحمل فيها ثروتها

وتهرب ... ولم أعد احس بشيء ، غير اني اكتب ... واكتب .. واكتب ... انتهيت من الكتابة وكان ألم حاد قد بدأ يخترق رأسي ... كان التركيز مهمة مروعة وسط حرب الشوارع التي لا بد انها تدور حول بيتي ..

ووجدتني انفجر ضاحكة ... لقد كتبت مقالي ولكن كيف أوصله إلى المطبعة ، وانا عاجزة حتى عن فتح نافذة ؟ ..

تذكرت الأساطير ... سأربط المقال بشعري الطويل وادليه من النافذة ، وسيأتي فارس على حصان لا يخترقه الرصاص ، وسيتسلق جدائلي حتى نافذتي ، ليسألني اذا كنت بحاجة إلى شيء ثم سيعاود هبوطه على جدائلي ليفك المقال ويطير به إلى المطبعة ... ووجدتني أضحك . الحصان الذي لا يخترقه الرصاص في عصرنا هو المصفحة ، ولكن مصفحات هذا الوطن الحزين لا تستطيع ان تتولى مهمة ساعي البريد ... والتاكسي معاً ! ..

وتذكرت طاقية الاخفاء ...

لعل الذي اخترع فكرتها لم يكن يفكر بظروف كاتبة في حرب أهلية .. كانت ، دونما شك أغراض أخرى .. ولكن ، لو كنت املك « طاقية الاخفاء » لارتديتها ولخرجت دون ان يقوى اي قناص على إيذائي أياً كان المنظار الذي يستعمله .. ولكن .. من يدري ؟ لعلهم اخترعوا فيما اخترعوا مناظير بأشعة أكس تضبط حتى لابسي « قبعات الاخفاء » .. وذهبت إلى غرفة نومي ... وبدأت أجرب امام المرآة قبعاتي واحدة تلو الأخرى ، وكلما ارتديت قبعة توقعت ان تكون هي المنشودة وان تختفي صورتي عن المرآة ... ولم يحدث ذلك .. اذن لا املك طاقية الاخفاء ! ..

وتذكرت أيضاً حكايا الساحرات اللواتي يتحولن إلى خرفان او قطط سود . لو كان بوسعي ان اتحول إلى كائن آخر ، إلى اي مخلوق من مخلوقات الطبيعة إلا صورتي الآدمية لنجوت .. ولكنني تذكرت ان القناص عدو الحياة بكل صورها ... الم يطلق النار البارحة على الكلب المسكين ؟ ترى هل كان ذلك الكلب آدمياً سجيناً مثلي حول نفسه وبدل صورته متقمصاً جسداً آخر ، ومع ذلك لم ينجه سحره من القناص الرهيب ؟ ..

تخيلت رأس القناص ، له عين واحدة فقط في منتصف جبينه مثل غيلان الأساطير وله جسد انسان آلي مثل غيلان العصور الحديثة ! ! ..

كيف اوصل مقالي ؟ ..

ورن جرس الهاتف . وكان يحمل إلي الجواب عبر صوت الصديقة بلقيس .

* * *

كابوس ٣٨

كأني سجين زندا ... كأني الكونت دي مونت كريستو وهو يقرع على جدار سجنه ليفهم جاره السجين صرخته ... كأني كل أولئك الذين صار تواصلهم مع العالم الخارجي يحتاج إلى مجهود خارق ومبتكر ... كأني فراشة سجينة في شرنقة من نار ..

وأنا أملي مقالي الأسبوعي على الصديقة بلقيس كانت اسلاك الهاتف التي تصلنا هي جدران سجن الكونت دي مونت كريستو ... لكنه كان يقرع الجدار في دنيا من الصمت .. أما أنا فكان علي ان أصرخ باعلى صوتي كي تسمع بلقيس ما اقوله وتنقله على ورقة أمامها بخطها (الهيروغليفي) الشهير ... كان صوت الرصاص عالياً جداً ... كانت معركة ما تجري دونما ريب في الشارع تحت النافذة . كأن الرصاص يريد ان يقطع اسلاك الهاتف واسلاك التعاطف والمشاركة ..

حين كتبت ذلك المقال لم أكن قد قطعت الأمل نهائياً من إمكانية إيصاله إلى المطبعة .. اما الآن . وانا أمليه عليها لتتولى إيصاله عني . فقد لاحظت انه سيكون علينا بعد اليوم ان نختصر .. ان نكتب البرقيات لا المعلقات .. طوال خمس واربعين دقيقة ظلت بلقيس تكتب . كنا نضحك أحياناً بمرارة حين يعلو الرصاص إلى حد يجعل حتى قرع الجدران والأسلاك وسيلة مستحيلة ... انتهت المخابرة .

تخيلت بلقيس حمامة بيضاء زاجلة ، تطير في سماء بيروت الملوثة بجنون الدمار : تطير إلى المطبعة حاملة رسالتي ... صليت من أجل اجنحتها البيضاء ومنقارها الذهبي ... صحيح انها تقطن في حي أكثر أماناً (نسبياً) . لكن مجرد الخروج إلى الشارع في بيروت مغامرة . بعد ان صارت (الأحياء) تسمى ببساطة (جبهات قتال) .. ووجدتني أفكر جدياً « بالحمام الزاجل » وسيلة لنقل المقالات والرسائل والخطابات اذا دامت الحال على ما هي عليه ... وتخيلت أهل بيروت جميعاً يتخلون عن قططهم وكلابهم وهواتفهم وسياراتهم ويربون الحمام الزاجل ...

أيها المسلحون .. اذا شاهدتم حمامة بيضاء الجناحين ذهبية المنقار . خضراء العينين .

تطير صوب مطبعة (بالزيدانية) وفي فمها رسالة ، لا تطلقوا النار عليها .. فهي صديقتي بلقيس !

* * *

كابوس ٣٩

من جديد ، عاودني ذلك الاحساس الغامض بالخطر ... بأن حضوراً حاراً قد اخترق الغرفة .. شعرت بشيء حار يمس أذني اليمنى ثم يصطدم بالجدار خلفي بينما يتكسر زجاج ما ... هذه الأمور تحدث بسرعة ، بسرعة مذهلة ... بعدها بقليل أدركت ان رصاصة مـــا قد مرت بي جارحة طرف أذني ، مصطدمة بالجدار خلفي . الغريب انني لم أكن أشعر بأي ألم ، فقط بشعور حار جـــداً في جسدي كله ... بيقظة في كل خلية وجارحة من جوارحي ، وانتعـــاش فاجر ... لم أفهم المعنى الحقيقي لما حدث إلا حينما شاهدت بضع قطرات من الدم على يدي .. كانت الرصاصة قد اصطدمت بالجدار ، ودخلت بالضبط في شهادتي الجامعية (المبروزة) داخل إطار فضي ومزقتها عند عبارة : « نشهد بأن ... تحمل شهادة كذا وكذا في الأدب » ... بعد ان كسرت زجاج الاطار ..

وقفت أحدق مذهولة . كأن الرصاصة تريد ان تقول لي شيئاً . كأنها اختارت عمداً مسح (مواصفاتي) العلمية التي اباهي بتعليقها على جداري ... كأنها دعوة لي لحمل (شهادة) من نوع آخر قبل فوات الأوان ... الشهادة المطلوبة حالياً للبقاء هي شهادة القدرة على القتل والإبادة ... شيء آخر أذهلني في الرصاصة هو أسلوبها في الحركة ... تلك السرعة الخرافية التي يتم الأمر بها ... بل انني شعرت بالنار تستعر في اذني قبل ان أعي ان رصاصة تسللت ... وقدرت ان جميع الذين يموتون مقتولين بالرصاص لا يعون ان ذلك قد حدث لهم ، فهم يموتون بأسرع مما يعمل الدماغ لتعميم (بلاغه) عن الحادث !

* * *

كابوس ٤٠

دقائق ، ثم زاولني الحس بالدفء والانتعاش الفاجر في جسدي كله .. بدأ الجرح يبرد ، ومع البرد يأتي الألم والهبوط ... كان جرحاً بسيطاً عابراً ، لكنه كان أيضاً انذاراً جديداً بمدى هشاشة الجسد البشري المسكين الذي اخترعوا له أدوات التدمير

هذه كلها ... حزنت ، لا لانني مجروحة ، بل لانني قابلة للجرح ، وللقتل ، هكذا بكل بساطة ، ودونما اي مبرر .. لو مرت ذبابة في لحظة دخول الرصاصة مثلاً ، وأزحت رأسي بضعة ستيمترات عنها ، لدخلت الرصاصة في منتصف جبيني ، ماسحة معها ذاكرتي ودنيا من الحب وعوالم من المخاوف والآمال تسكن ذلك الصندوق الصغير كعلبة سردين ، المسمى دماغي !! ..

امسكت بالرصاصة ، ووضعتها إلى جانب قلمي . (ضع رصاصة إلى جانب القلم ، تجد أن القلم أكبر حجماً) .. ولكن هذه الرصاصة بالذات ، بدت لي للوهلة الاولى معادلة لطول قلمي .. ثم كبرت فصارت عموداً من نار ، في حين ارتجف قلمي أمامها ونحل ، فصار مثل ريشة طائر مجروح ... لا حيلة لها أمام عاصفة النار ...

* * *

كابوس ٤١

هدأ الرصاص قليلاً ... وكما في كل فترة هدنة (تدوم عادة حوالي ربع ساعة) سمعت نداءات الرجال دون ان أفهم بالضبط ماذا يقولون .. قدرت انه يجري استبدال المقاتلين المتعبين بآخرين ... سيذهبون ليناموا وقد يحدثون حبيباتهم القلقات على الهاتف او يمرون بهن ... أما انا فحبيبي قد مضى إلى الأبد ، والنوم لم يحتلني جيداً منذ ليال ثلاث .. هذا هو الشيء الوحيد الأساسي الذي يقلقني . من لا ينام جيداً لا يفكر ولا يتصرف جيداً ، واذا اختار ان يموت او ان يهرب فستكون غرائزه هي التي تختار ... وأكره لغرائزي ان تقرر مصيري ...

أصوات نداءات المقاتلين تؤنسني ... وحين تغيب يسود صمت متوتر مروع أعرف ان الانفجارات آتية بعده لا ريب فيها ... وريثما تبدأ ، ... يعلو صوت كائنات دكان بائع الحيوانات (الاليفة) ... اسمعها بوضوح تصرخ في اقفاصها ، تجوع ، تخاف ، تتساءل بحيرة عما دهى صاحبها الذي طالما اعتاش من بيعها ثم هرب إلى مكان آمن حين حاق بها الخطر ... اسمع صوتها يتحد وهمهمات سجناء الحي من الأسر (الاليفة) ويصير كورساً واحداً ، مثل كورس اغريقي في مسرحية تروي حكاية مدينة ضربها طاعون الجنون ...

وشعرت برغبة عجيبة في التسلل إلى الدكان ، ومشاهدة كائناتها ... اقنعت نفسي

في البداية بالذهاب لاطعامها وإنقاذ حياتها ، ثم كان لا بد لي من الاعتراف ! لست ذاهبة لانقاذ حياة أحد . ولا أدري أية جاذبية تشدني اليها ... ربما كان هو الفضول ، أو (وحدة المصير) التي تربطنا .. أو الحاجة إلى الاستئناس بها أنا الوحيدة الغريبة في عالم البشر – الذئاب ... ثم انها (بيت الجيران) الوحيد الذي استطيع التسلل اليه بسلام بالاضافة إلى بيت العم فؤاد ... قررت ان احمل لها شيئاً من الماء على أية حال ، والانتظار حتى يحل الظلام ..

لم أكن أدري أن (منظار) القناص المعاصر كعيون البوم ... ترى في الظلام ! ..

* * *

كابوس ٤٢

رن الهاتف . ركضت على أمل ان يكون أخي . الصقت السماعة جيداً بأذني ، فشعرت بألم خارق في جرحي الذي كنت قد نسيته .. وشعرت بألم أيضاً لأنه لم يكن أخي ! .. كانت صديقتي مريم ، تسأل عن أحوالي ، وتعتذر عن أحوال أختها سلوى المصرة على رقص الدبكة حتى في هذه الأيام ... قلت لها أن أختها معذورة . انها ما تزال مراهقة وطفلة . ولكن المجرمين الكبار هم المصرون على رقص الدبكة فوق جثثنا منذ نصف قرن دون ان تتبدل وجوههم .. وان تبدلت فان الأبناء يرثون (مملكة) الآباء متقمصين عقلياتهم العثمانية المتعفنة عتقاً ، وعصورهم وسلوكهم ... وهكذا لا أحد يموت غير الشعب ... لا يوجد شيء اسمه (الشعب البريء) ... شعبنا مجرم بحق نفسه حين ارتضى حمل جلاديه على اكتافه عشرات السنين ..

قالت مريم بصوت مليء بالقناعة : أما أنا فقد حملت السلاح لاقاتل . ولن أعود إلى العمل الصحفي الآن . القلم عنين في مواجهة ظروف كهذه . لماذا لا تنضمين الينا ؟

* * *

كابوس ٤٣

ارى الخروف يحمل جلاده على كتفيه ، ويمضي به إلى المسلخ . يغسل السكين . يعطيها للجلاد . ينحني ويقبل قدميه . ثم يركض ويمد له عنقه كي يقطعه ! ... وحينما يمسك الجلاد بالسكين ليجز عنقه ، يبتسم له الخروف ويقول له : « اتمنى ان أكون وجبة طيبة لك يا سيدي . باسم العشائرية . باسم الطائفية . باسم الجهل . باسم ما ورثته

عن أجدادي من قيود أحلل لك أكل لحمي » .

اری المحكوم بالشنق ، يسير وجلاده . تمطر . يحمل المحكوم جلاده على كتفيه كي لا تتسخ قدماه بالوحل . ارى المحكوم ينصب مشنقته بنفسه . يقطع شجرة من بستانه ويحول بنفسه اخشابها إلى مشنقة . يدقها بمسامير انتزعها من سرير عرسه . يأتي بالحبل من أرجوحة أطفاله . يعلق الحبل . يحيط به عنقه .. الجلاد نائم . ينتظره حتى يستيقظ كي لا يزعجه ، ثم يقول له : « سيدنا انا جاهز للشنق . (يا بيك انا زلمتك) ! ».

* * *

كابوس ٤٤

ما تزال مريم تعتذر عن اختها التي ترغب برقص الدبكة .

(اراهم هناك يرقصون الدبكة فوق التلة المشرفة على بيروت التي تحترق ... مرة كان أحدهم ما يزال يباهي بسيارته الفخمة ذات النمرة الزرقاء ، (اي انه من مجلس النواب !) . وذهلت حين شاهدت نمرة سيارته ... كانت من الذهب الخالص !! ... كانوا قد بعثوا بي اليه لاجراء حديث صحفي .. وكان فخوراً بفكرته الجديدة لاستعراض (قوته الشرائية) ... فالزوجات المسخّرات لعرض القوة الشرائية للازواج على أجسادهن ، ابتداء من ارتداء معطف الفيزون وانتهاء بالخواتم الماسية ، صرن (موضة) قديمة . الشاليه الشتوي في الأرز ، والشاليه الصيفي على البحر ، واليخت في نادي اليخوت ، كلها صارت وسائل (مبتذلة) لاستعراض الثراء والجاه .. وهو رجل ذكي (مبتكر) ... وها هو يبتكر فكرة الصاق لوحة من فضة عليها أرقام سيارته بحروف من ذهب وعما قريب تقلده فئة الأثرياء اي ان سيارات حوالي اربعة بالمئة من الناس هنا ستحمل هذا الاعلان الجديد عن الاثراء . غضبت ، ولانني اغضب بصمت يظنني الناس مذهولة ... سره كثيراً أنني ذهلت . كان هذا غرضه من الفكرة .. بل انه كان قد اعد محاضرة خاصة بهذه المناسبة يلقيها على « المذهولين » . قال لي : « وماذا في ان أضع لوحة ذهبية لسيارتي ؟ انها لا تكلف مبلغاً كبيراً . اي رجل متوسط الحال يستطيع تنفيذها . ثمن كيلو الذهب حوالي ١١ الف ليرة لبنانية ، وهو ليس بالثمن الباهظ لرجل يحب الجمال في كل شيء ... ثم انني انفقت مثل هذا الرقم ثمناً لزجاجة نبيذ معتق نادر شربتها ليلة البارحة ، واصابتني بصداع هذا الصباح ! .. » .

كنت ارافقه إلى مزرعته حيث اختار ان (نجري) الحديث الصحفي كي يتسنى له ان (يتصور) مع خيوله واحصنته وبين رجاله وازلامه وكلاب صيده ... توقفت السيارة أمام إحدى شارات المرور ... هاجمتنا قبيلة من المتسولين والجائعين الذين أثار جنونهم مشهد الذهب على لوحة السيارة ... كانوا يصرخون به من أجل (حسنة لله) ... وكانت صرخاتهم تهديداً لا تسولاً .. قدرت أنهم في الجولة القادمة سيمرون بالسيارة وصاحبها زوبعة من نار .. لكنه لم يلحظ ذلك وانما تابع حديثه عن عظمته الشخصية وأمجاده ... في مزرعته ، وقف أمام الكاميرا وقد شد عضلاته المهترئة العجوز وابتلع كرشه قدر الامكان ، وبدا لي جسده (الرياضي) الاثري مثل دولاب سيارة نصف منفوخ ... لكن (زلمه) احاطوا به وقد رفعوا اسلحتهم بكل فخر وقد صوبوها نحو الكاميرا ... كانت رقة الحال والفقر الفكري واضحين على وجوههم ... وكدت أصرخ بهم : أيها الحمقى ... انكم تصوبون نحو الهدف الخاطىء ... ايها الحاملون جلاديهم ، غيروا هدف البنادق .. تنفتح لكم دنيا جديدة) ..

انهت مريم مكالمتها واعتذارها الرقيق . هكذا نحن في هذا الوطن . نعتذر عن القشة ونمر بحياد أمام الخشبة التي تقلع عيوننا !! .

انتزعت سماعة الهاتف عن أذني ... كان الألم قد صار حاداً ..

* * *

كابوس ٤٥

اكتشفت انه ليس في بيتي شاش معقم ولا (سبيرتو) للتطهير ، فقط دواء أحمر (ميركر كروم) وبعض القطن .. بدل الكتب التي انفق عليها نقودي كلها كان علي تزويد البيت بأدوات مستشفى كامل التجهيز !! ... وبدلاً من السيارة المخلوعة الأبواب كان عليّ الادخار لشراء سيارة مصفحة تنغلق علي وتحميني كالدرع .. وبدلاً من البيت كان علي أن أسكن ملجأً ذرياً . وبدلاً من شهادة « الأدب » الجامعية كان عليّ ان أحمل شهادة من مدرسة (عسكرية) ...

وقفت امسح جرحي ... كان طفيفاً جداً وسطحياً . وقدرت أنها ليست أذني هي التي تؤلمني ... بل آذان أخرى .. اغمضت عيني كي أرى جيداً ...

شاهدتهم وقد شربوا من النبع المسمم بمسحوق الجنون ... شاهدتهم يقطعون أذني

بائع الصحف الذي كان يقف أمام بيتنا كل صباح كي يدع أقساطه المدرسية كل مساء .. شاهدت الآذان تتقطع في كل زاوية معتمة بالمدينة .. شاهدت النار والسكاكين ترسم على الأجساد رموزاً من المفروض أنها رموز دينية ... أي إله هو هذا الذي يرضى بأن يدق اسمه بالمسامير في الجماجم ويحفر بلهيب (لحام الاوكسجين) فوق أجساد العباد .. اذهبوا إلى الكنائس والجوامع وإلى شاطىء البحر وسافروا إلى اعماق الكون واسألوه هل يرضى ؟ شاهدت الآذان تتكوم في الشوارع أمام الأبواب وتسدها مثل أكوام الثلج في الشتاء .. شاهدت العيون المفقوءة تعوم فوق فنجان القهوة الذي أعده ... شاهدت أشلاء الأجساد الممزقة تنهال على الشوارع وتتكوم تلالاً أكثر ارتفاعاً من القمامة .. شاهدت السيقان المقطعة تركض هاربة من دون أجسادها ... شاهدت السواعد المقطعة تلوح في الدروب بلا أجساد حاملة الأعلام البيض أو مادة أيديها بحثاً عن طوق نجاة ... شاهدت الأصابع المقطعة تعوم في الشوارع الفارغة متجهة بالاتهام نحو جلاديها ... شاهدت رجالا سحبت الدماء من عروقهم لتنقل إلى سواهم يركضون جثثاً ممزقة .. شاهدت رجالاً بلا رؤوس يركضون على أرصفة هذا الوطن الحزين بحثاً عن رؤوسهم التي تم جزها في ليلة مظلمة ... شاهدت الرؤوس الممسوحة الملامح لشدة التعذيب ، الرؤوس المقطوعة تعوم فوق بحر الدم والظلمة باحثة عن ألسنتها التي انتزعت بالكماشات من داخلها ... شاهدت الخارجين من أفران التعذيب والنار وهم يركضون مشتعلين ورائحة اللحم المحروق تفوح .. شاهدت المدينة تستحيل مرجلاً من مراجل الساحرات ويغلي المرجل ويغلي ويدور ويدور بكل ما يحويه في دوامة من الزعيق الدامي .. والرصاص يخترق كل حنجرة تريد ان تقول شيئاً غير منطق الرصاص ... شاهدت الفقراء يموتون . الفقراء الأبرياء وحدهم ماتوا ، الجزارون هربوا من مدينة الكوابيس والجنون إلى كباريهات باريس ولندن وجنيف .

وشاهدت حبيبي يطلع إليّ من المرجل ... يجيئوني بجسده المثقوب بالرصاص كالمنخل .. وأضمه إلي واصرخ به : ما زلت أحبك ...

* * *

كابوس ٤٦

آه كوابيس كوابيس ...

تنبت داخل رأسي وتتسلق جدران دماغي كنبات اسطوري شرير ..

آه كوابيس كوابيس ...

تتفجر داخل رأسي (ام تراها تقع خارجة أيضاً ؟) ... كنت في البداية أراها حين أغمض عيني – خصوصاً بعد قراءة أكوام الصحف العتيقة للاشهر الأخيرة – منذ بدأت الحرب – كوابيس تهاجمني من وقت إلى آخر كالجراد الموسمي ... الآن أراها باستمرار ... حتى وانا مفتوحة العينين ... وحين أقف أمام المرآة .. أرى النمل يخرج من فمي وانفي وعيوني ويأكلني كما لو كنت قد مت منذ زمن طويل ... اليوم تمنيت لو أرسم بالكحل خطاً فوق عيني لكنني فوجئت بأن رأسي تحول إلى جمجمة عظمية ... ثم لم أعد أرى نفسي في المرآة ، وانما سحابة من النار والدخان ... وصغرت حتى صرت بحجم ذبابة وكبرت المرآة فصارت مثل ستارة شفافة لمسرح مجنون ومددت قدمي فدخلت إلى المرآة .. وتجولت داخل المرآة ، وفيها ، شاهدت حقلاً شاسعاً أغصانه من البنادق ، وشاهدت الرجال المقنعين يقطفون البنادق عن الأشجار ... ويلملمون الرصاص عن الأرض كما لو كان أكواماً من الثمار الناضجة ... وكانوا يصهرون حديد المحاريث والمعاول والمناجل ويحولونها أيضاً إلى رصاص .. رصاص كثير كثير .. كانت بيادر الرصاص تمتد إلى ما لا نهاية ... تذكرت القمح والصيف والبيادر ، وجلستي على اللوح الخشبي الذي يجره البغل فوق القمح في البيدر ، وكان البغل يدور والسنابل الذهبية تضيء تحت أشعة الشمس ... وانا مصرة على الاستمتاع بذلك الركوب الأسطوري في حقل البركة ، واغاني الفلاحين تمتزج مع شهقاتي الطفولية . هذه المرة ، كانت البيادر مغطاة بالبارود ورائحة الغضب ، والسماء حقلاً من الحديد الصدىء ... والغناء ؟ لا غناء . فقط صيحات الويل والثبور و (صغائر الأمور) ! ...

وخرج الرجال من حقل الجنون حاملين معهم موسم صيف بيروت ٧٥ المر ، وحصاد الدم ...

* * *

كابوس ٤٧

حمل الأب لطفله هدية في عيد ميلاده . كانت الهدية ملفوفة بشريط ذهبي وعلبة زاهية الألوان . فتحها الطفل بفرح . وجد بندقية . سكت . سأله

أبوه : ألم تعجبك البندقية ؟

ــ كنت اريد دراجة لاركب بها على (اتوستراد) قوس القزح ، ولأكتشف دروب ألوانه لوناً لوناً .

في عيد ميلاده الثاني جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل متلهفاً فوجد فيها مدفع هاون صغيراً ... سأله أبوه : ألم يعجبك المدفع ؟

قال الطفل : كنت أريد طائرة من الورق لأركبها وأطير بها مع الطيور والعصافير ...

في عيد ميلاده الثالث ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد مسدساً . قال له أبوه : هذا أحدث أنواع المسدسات. طلقاته تنفجر كالقنبلة . ألم يعجبك ؟

قال الطفل : كنت أريد غيتاراً أعزف عليه لشروق الشمس وموج البحر وفراشات المحبة ..

في عيد ميلاده الرابع ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد قنبلة يدوية . سأله أبوه : هل اعجبتك . انها كافية لقتل قبيلة .

تبدلت ملامح الطفل . وانتزع الصمام فوراً ، وقذف بها أمه وأباه ، وانفجرت ، وقتلوا جميعاً ، وتداعت اركان البيت .

لم يسأل الجيران ماذا حدث . كانوا يعرفون ، فقد كان الأمر نفسه يحدث في كل بيت تقريباً ..

بحث الأحياء القلائل المتبقون ، عن صانع التوابيت الذي ازدهرت تجارته في الأشهر الأخيرة ... أدهشهم انهم لم يجدوه في دكانه ... بحثوا عنه في كل مكان ، وأخيراً وجدوه جالساً على شاطىء البحر ..

ــ ماذا تفعل يا صانع التوابيت ؟

ــ انتظر البضاعة ؟

ــ ما هي بضاعتك يا صانع التوابيت غير صنع التوابيت ؟

ــ لقد افتتحت فرعاً لبيع لعب الأطفال ! ..

ووصلت الباخرة المحملة بلعب الأطفال ، وانزل العمال منها صناديق كثيرة محملة بالمسدسات والرشاشات والقنابل والبنادق !! ..

* * *

كابوس ٤٨

أتذكر ...

(كان السلام الربيعي يهيمن على تلك الضاحية في إحدى المدن اللبنانية ، بينما كنت افتش عن مكان قيل لي انه سيكون مركزاً لانشاء جامعة ، كنت في مهمة صحفية للكتابة عن الجامعة ــ الحلم ، وكنت كالعادة ضائعة بين طرقات اجهلها وكان ضياعي يمتعني ما دامت الدرب جميلة ترقص فيها الحياة بكل ألوانها المتجددة الغضة ...

سمعت صوت اطلاق رصاصة ...

بدا صوت الرصاص نشازاً في هذه الحقول المتفجرة حياة وتجدداً ... رصاصة ثانية ... وثالثة ... وانهمر الرصاص وكان صدى الطلقات يطول ، كأنها ترتد بشراسة عن كل غصن أخضر ، عن عيون الخرفان والطيور والسحالي والقطط وجميع كائنات هذه الطبيعة المذهلة ... وكنت ما أزال ضائعة افتش عن مقر الجامعة ــ الحلم ... وفوجئت بهم ... خمسة من المسلحين ، يلعبون بمسدساتهم ... بعضهم يقذفها في الهواء ثم يعيد التقاطها كما يفعل رجال السيرك بكراتهم ... سألوني : عم تبحثين ؟ . رجوتهم ان يزيحوا الأنابيب السود الموجهة إليّ المحملة برسل الموت ، فضحكوا بجذل لخوفي من السلاح ... قلت لهم ابحث عن مقر الجامعة التي يشاع انها ستؤسس هنا . سخر مني احدهم . الآخر الذي سألني عن اسمي والمجلة التي اعمل بها لم يسخر ، وانما أشار بفوهة مسدسه إلى الدرب التي علي ان أسلكها . لاحظت ان في يده الاخرى عصفوراً صغيراً مجروحاً . سألته بالمقابل عن اسمه وعمله . قالوا انهم حراس (....) الشخصية الهامة .

قلت : لماذا تطلقون الرصاص ؟

ــ الافندي في زيارة ونحن نتسلى ! ... ولكن العصافير قليلة كما ترين .

اذهلني ان يكون هنالك من يستطيع ان يتسلى بالقتـــل ، حتى ولو كان القتيل عصفوراً ...

ظللت طوال النهار حزينة ... لم أكن أدري ان موسم الصيد المقبل ... لن تكون أهدافه العصافير .. وانما .. نحن ! ..)

* * *

كابوس ٤٩

لم تقل المرأة لزوجها شيئاً ، لكنه نهض من الفراش مع الفجر وفي قلبه حسرة عميقة.. ماذا تعني هذه العضلات التي يملكها ، كل هذه القامة الفارعة ، و (الشارب) الصالح لوقوف الصقر ، وشعر صدره المنبوش ، كل هذه المظاهر الخارجية لا تجدي شيئاً في معركته مع ... جسدها ..

تلك المرأة الطرية الصغيرة السن التي أضافها إلى زوجتيه السابقتين ، ما يزال عاجزاً عن احتلال قلاعها البضة .. خمسة عشر يوماً ، ويده التي تضرب رؤوس الخرفان لتذبحها بضربة واحدة ، تتراخى أمام جسدها كما يتراخى كل عضو فيه ... لا يدري ماذا دهاه ... صحيح انه في السابعة والأربعين ، ولكن والده تزوج امرأته الخامسة حين كان في الستين .. ما يزيد في عذابه هو صمت الصغيرة الفقيرة — الأكثر فقراً حتى منه — التي (اشتراها) ... انها لا تقول شيئاً . لا تحتج . لا تفسر . لا تشكو لكنه يلمح في عينيها نظرة انثوية مروعة القسوة والسخرية ... بل أنه صار في الأيام الأخيرة ، يرى للخرفان رأسها ، فيقبل على قطعها بضربة واحدة ، وبشهية لا حدود لها ...

ذلك الفجر ، كانت مرارته تتحول إلى بركان من العنف الجسدي حتى انه فكر بأن يقطع رأسها هي شخصياً ، ويتهمها بسوء الأخلاق وبخيانته ... لكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك بعد ، فهي ما زالت عذراء ... في هذه الفوضى ، لن تجد طبيباً شرعياً يكشف على جثتها .. ولكن ، لماذا لا يطلق عليها الرصاص وهي عائدة من السوق وستلصق التهمة بقناص ما طبعاً ؟؟ . أجل .. من الأفضل قتلها في الطريق ، وستموت كما يموت الآلاف في بيروت دون ان يبالي بهم أحد ... بل ان جثتها ستبقى في موضعها أياماً وستتعفن ... لن تكون من المحظوظين الذين تضم جثثهم البرادات الحكومية ..

أيقظه من أفكاره رنين الهاتف . ان البيك الكبير يريد منه (خدمة) في (المكان الذي يعرفه) : « أمرك يا بيك . سأكون هناك بعد ربع ساعة » .

بعد ربع ساعة ، سلموه خمسة شباب لا يزيد عمرهم على ست عشرة سنة وطلبوا اليه (تربيتهم) ثم (تسويحهم) . فرح بالمهمة كثيراً . خلع قميصه . ابرز عضلاته . خلع حزامه ...

بعد ثلاث ساعات وجدت خمس جثث في إحدى الطرق الجانبية مقطوعة الرأس

وقد تعرضت لتعذيب وحشي تنطق به بقاياها ...

وعاد الجزار إلى بيته . نام جيداً كما لو أنـــه امتلك خمس عذارى واحدة تلو الأخرى ... نام من ظهيرة ذلك اليوم حتّى صباح اليوم التالي ... ولم تعد زوجته الصغيرة تقلقه . كان عمله الجديد يملأ عليه (حياته) كلها ... وجيوبه أيضاً .

* * *

كابوس ٥٠

(لم تكن مفاجأة بالنسبة لي على الأقل ان يعلن أخي عن عزمه على الهجرة تلك الليلة بالذات ... ليلة عيد ميلاده ... فجميع رفاقه الذين جاؤوا كانوا مسلحين .. وكان السلاح - حديث السهرة .. وكان أخي موضع سخرية الجميع لانه لا يقتني قطعة سلاح واحدة ، والسلاح زينة الرجال ... فقال لهم : السلاح زينة الرجال لا الصبيان والخصيان والحمقى والأولاد ... وكاد يدب شجار لو لم يسارع أحدهم بالسخرية حتّى من سكاكين بيتنا غير الحادة ، والقريبة من الملاعق أكثر منها من السكاكين ! ... كان أخي قد تخرج مؤخراً من إحدى الجامعات بعد ان استطاع الحصول على منحة دراسية . كان ذكياً جداً في حقله : الهندسة الالكترونية . غبياً جداً في الحقول الأخرى التي تتطلب جهداً جسدياً ... وكان يكره الأسلحة ، وأفلام العنف تسبب له قيئاً لاإرادياً ...

قال لي ليلتها : لا مكان لنا في هذه المدينة .

— بل هي مدينتنا وسنصمد وسنقاتل ، كل بسلاحه ...

— أما زلت تصدقين ان القلم أكبر من الرصاصة .

— أحد معارفي الفلسطينيين قال لي : المهم هو الصمود . حذار من مغادرة بيروت .. وحين سألته : وانت هل ستغادر بيروت ؟ رد بسخرية : لن تجدي فلسطينياً واحداً يخلي بيته بعد اليوم إلا يوم العودة إلى .. فلسطين .

ويومها كف أخي عن حديث الهجرة وان كان قد ولد في وجهه تعبير ناء .. كأنه سافر وانتهى الأمر .. كأنه هاجر ولم يعد هنا) ...

ولكن ترى اين هو الآن ؟ هل خرج حقاً لاحضار طعام ، ام تراه رحل إلى الأبد ؟.. ام تراه يرقد على رصيف (الكليمنصو) القريب وفي رأسه رصاصة قناص ؟

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كابوس ٥١

وقف رئيس المخفر على النافذة بائساً . رغم الرصاص والمتفجرات التي تمزق كل ما حوله ، كانت قد صدرت اليه الأوامر بعدم التدخل ! ... شاهدهم من النافذة يأتون مسلحين مقنعين . شاهدهم يسرقون السيارات الخاصة بالمخفر . شاهدهم يعودون . يدخلون اليه . يجردونه من سلاحه ورفاقه . فلم يتدخل ... هكذا صدرت إليه الأوامر ... ثم لماذا يتدخل ؟؟ ولمصلحة من ؟ ومع من ضد من ؟ ... كان المهم هو ان يتوقف هذا الجنون سريعاً وإلا مات بالتسمم ...

كليته الأولى معطلة والثانية لا تعمل جيداً . انه مضطر للذهاب إلى مركز غسيل الدم في أوقات محددة ، وإلا مات بالتسمم . الأمر يكلّفه ثروة لا حدّ لها ، وهو حين ينفذ بعض الأوامر (الجانبية) لا يشعر بانه يحنث بقسمه العسكري ... فهو لم يقسم على الانتحار ... وعدم قبول هذه النقود (الجانبية) يعني الانتحار ... راتبه بائس ، وهو بائس ، وقد سر ضمناً حين جردوه من سلاحه وأراحوه من مجرد مهمة التفكير ...

ولكن ما يدور أمامه الآن يعذبه ...

منذ نصب المسلحون متاريسهم تحت نافذة المخفر تماماً وهو يشعر بالبؤس ... منذ اوقفوا ذلك الشاب الغض وصفعوه لم يتوقف صوت في داخله عن الصراخ .....

كان الشاب صغيراً وبريء العينين ، وقد رفع عينيه إلى نافذة المخفر وصرخ بايمان مطلق بالنجاة : يا بوليس .. تعال خلصني (ارجوك) ...

وكان واضحاً ان الشاب ما يزال يصدق كل ما تعلمه في المدرسة من أن الشرطي يحفظ الأمن ويدافع عن المظلوم ويلقي القبض على الظالم ... وظل واقفاً على الشرفة مشدوهاً وقد ايقظت الصرخة شخصاً نائماً في اعماقه ... وانفجر المسلحون يضحكون للنكتة ! رجل يستجير برجال الأمن !! اية نكتة !! ... وعاد الشاب ينادي الشرطي بصوت فيه كل طفولة صبي يستنجد بأبيه ... بدأوا صفع الشاب .. ضربه أحدهم بالبندقية على كتفه فسقط أرضاً وبدأ يبكي ... لكن نظراته ظلت معلقة برجل الأمن المطل من النافذة وبالعلم اللبناني نصف المحروق على المخفر ... كان لا يريد ان يصدق الكابوس الذي يراه ... ضربوه فاستحالت صرخاته إلى حشرجات لكنه ظل يصرخ : • يا بوليس ...

ووجد الشرطي نفسه يندفع من المخفر كالمجنون دفاعاً عن ... عن ما لا يدريه تماماً ...

ولم يشعر بعدها بشيء .. ولم يشعر حين نقلته إحدى المصفحات إلى براد الجثث ....

ولم يقرأ الصحف في اليوم التالي ليرى فيها صورته في عمود الوفيات !! .

* * *

كابوس ٥٢

رن الهاتف ..

ركضت كالمجنونة ... ربما كان أخي ... لم يكن هو ... كان صوتاً غريباً ، وكان الصوت يقول : طلب مني شقيقك الاتصال بهذا الرقم وابلاغك أنه في السجن ! ..

ـ في السجن ؟ لماذا ؟ ماذا فعل ؟ ...

ـ لقد القي القبض عليه بتهمة حمل سلاح غير مرخص به !! ....

وانفجرت اضحك واضحك واشهق بدموعي .. يا بيروت .. يا مسرح اللامعقول !! ...

* * *

كابوس ٥٣

ـ ولكنه مسدس أثري ... مجرد قطعة نادرة يجمعها الهواة كما يجمعون الطوابع . انه غير صالح للاستعمال ، ولا اعتقد ان رصاصته يمكن ان تنطلق .. لا ريب وان بارودها العتيق قد اصابته الرطوبة على طول ربع قرن من عدم الاستعمال ...

هكذا قال لي جارنا العم فؤاد حين سألته عن المسدس الذي زود به أخي قبل خروجه ! ... أضاف بحرارة : « انه مسدس مسكين ومضحك ... مضحك اذا قورن بالسلاح الحديث وبنادق م ١٦ ورشاشات ٥٠٠ ومسدسات كولت وماغنوم .. لقد اعطيته إياه لمجرد رفع روحه المعنوية فقط ! » ... وهنا كان لا بد من ان افضي اليه بالنبأ : أخي الآن في السجن . لقد استطاع الهرب حياً من الحي ، ونجا من المسلحين والقناصين ، ولكن القي القبض عليه ... بتهمة حيازة سلاح غير مرخص !! ...

لم يبد على العم فؤاد انه يصدق . في البداية انفجر ضاحكاً وقال أن (دمي خفيف) ! ثم بدت على وجهه امارات التعب والارهاق ، واغمض عينيه نصف اغماضة ، وبدا

انه يحاول ان يتذكر بيتاً من الشعر ... واستطاع التقاط أول الخيط في (المعلقة !) وصار يردد : ومن يدرك الدهر ... ومن يدرك الدهر ... وصار يكررها وقد ثقل لسانه تدريجياً ، ثم راح في اغفاءة عميقة ! ...

اتأمله . احسده . ليس صحيحاً ما يقال عن هشاشة الشيوخ . انهم كالسنديان ، يتمتعون بصلابة داخلية مدهشة . منذ البداية أعلن : لن يغادر أحد بيته ... جميع شيوخ الحي قرروا ذلك ... أما شباب الحي وشاباته فقد سقطوا في الحيرة ... ولكن الحيرة أيضاً علامة عافية ... انها علامة حياة وانفتاح على تيارات الأفكار كلها ، وتفجير للأصوات الداخلية وبالتالي لمزيد من معرفة الذات وموقعها من ذلك كله ... ما جدوى تحويل البيت إلى وثن والالتصاق به ، او إلى قبر نموت فيه موتاً جباناً كسولاً متوهمين أننا أدينا قسطنا للعلى ؟ .

في الليل حين تدوي الانفجارات يظل نائماً ، ربما ليس لانه شجاع وانما لمجرد انه ثقيل السمع ! ...

* * *

كابوس ٥٤

سرقت مذياع أمين ابن العم فؤاد .

لم اسرقه بالضبط وانما استبدلته بالترانزيستور الذي املكه . لنقل انني قمت بعملية (مبادلة ارغامية) . فمذياع أمين فيه إمكانية للاستماع إلى الموجات المحلية القصيرة ، اي إلى المخابرات اللاسلكية الرسمية بين الحكام ورجالهم ، بين قوى الأمن الداخلي وقياداتهم ، وحتى المخابرات الهاتفية بين المجهولين والمعلومين ! ... وهو لا يستمع اليها تنفيذاً لأوامر الوالد . أما انا فارغب في الاستماع اليها ومعرفة المزيد عن الحقيقة ... هكذا بررت لنفسي هذا العمل . بالاحرى قمت به براحة ضمير كاملة . كأن المقاييس الاخلاقية في زمن الحرب تتبدل تماماً . ثم انه لا يستمع إلا إلى الموجات (الشرعية) ولم اسمعه مرة يحاول ضبط الابرة على الموجات السرية الممنوع الاستماع اليها ...

أمين نسخة عن والده العم فؤاد ، رغم ان نصف قرن يفصل بينهما ، وهذا هو اسوأ ما في الأمر ... ففي زمنه ، كان العم فؤاد مناضلاً ومقاتلاً ثم رجلاً مهماً من رجالات الدولة ، ومن أبرز جوانب أهميته (الثروة) الكبيرة التي جمعها بوسائل لم تكن

لا أخلاقية جداً بمقاييس عصره ، قبل ان يتقاعد تحت وطأة أعوامه الخمسة والثمانين ...
أما أمين ، فهو نسخة عن والده ولكن كما هو الآن ! .. انه يرافقه إلى حد العزوف عن الزواج ، ويبر به إلى حد الانقطاع عن عصره ... يبدو لي ان الخيط الفاصل بين الوفاء العائلي ، والوفاء للذات وللعصر رفيع جداً ... وأحياناً يضيعه بعض الأولاد فيفقدون ذاتهم في وهم « الوفاق العائلي » ! ...
أمين مثلاً لا يستمع إلى الموجات المحرمة ، فوالده لا يسمح بذلك . والده ما يزال يعتبر الدولة دولة ، والحاكم حاكماً ، وما زال يعيش في عالم ذهبي من المثل التي تربى عليها ومارسها في مرحلة ما من حياته ، لكن امين الذي يقلده ، لا يلحظ أن العصر قد تبدل ... وهذا ينطبق على كل شيء ... أما أنا فمن فصيلة أخرى ، كأنني من نسل ذلك الاعرابي الذي أكل إلهه التمري حين جاع ! .. وأمين يكرهني كرهاً سرياً كأكثر أفراد أسرتي ! . انه يحس إحساساً غامضاً بأنني « رجل الأسرة » ويصدمه ان يلحظ من خلالي ان الفروق الفيزيولوجية لم تعد بالغة الاهمية ، وان الصلابة الداخلية لا تسكن بالضرورة شاربين مفتولين .. وانها قد تقبع تحت الملمس الناعم لامرأة هشة المظهر .. وكانت (رجولتي) تتحدى انوثته ، وحريتي تتحدى استرخاءه العقلي ! .
حملت غنيمتي (مذياعه) وصعدت إلى (كهفي) في الطابق الثالث ...
السلم الطويل المليء بالنوافذ لم يضايقني كما في الأيام الأولى ... الرصاصة التي انطلقت لتحرق الجدار خلفي مرتدة إلى الأرض لم تثر ذعري كما في المرات الماضية ، وانما تابعت صعود الدرج بالسرعة نفسها .. (الالم في اذني عاودني ... صرت أشعر به كلما مرت رصاصة بالقرب مني) ما عدا ذلك تابعت صعودي ببرود . تراني بدأت اعتاد صوت الرصاص وآلفه ، ام انني أكثر إنهياراً من أن أخاف ؟ ...
هل يمكن للانسان ان يعتاد صوت الرصاص ؟ ...

* * *

كابوس ٥٥

تنفتح لي دنيا من الأسرار وانا استمع إلى الموجة القصيرة ، والتقط الأحاديث الطائرة في فضاء هذا الوطن الحزين ..
ها قد شف جسدي وصار ريحاً خفيفة ، تسري بسرعة البرق ، تتنقل بين البيوت ،

من قرية إلى أخرى ، من مكان إلى آخر .. تسمع ما تقوله امرأة لحبيبها على الهاتف ، وتنتقل بعدها بثوان إلى غرفة الحبيب لتسمع جوابه .. ها أنا أطير فوق الأراضي اللبنانية كلها ، أنصت إلى ما شئت من حوار وكل ذلك بفضل هذا الجهاز العجيب المذهل ...

طالما حسدت عاملات الهاتف ... لو كنت عاملة هاتف لأقدمت على الاستماع إلى جميع مخابرات الناس ، و « لتلصصت » على اسرارهم دون اي شعور بالذنب .. فأنا كاتبة .. اي انني مهووسة من نوع خاص ... هوس الكاتب اسمه الحقيقة ، وهو يدفع اي ثمن كي يعرفها ضارباً عرض الحائط (والباب أيضاً) بكل القيم الاخلاقية الصغيرة السائدة ...

احياناً أجلس وحيدة في مقهى ارقب اثنين يتحاوران .. وبصعوبة أقاوم رغبتي في الجلوس خلفهما لاستراق السمع أو للجلوس مباشرة معهما وأنا أقول لهما بصراحة : « ارجو أن تسمحا لي بسماع ما يدور ... وبالنفاذ إلى اعماقكما .. لن اؤذيكما .. لن تخسرا شيئاً .. أما أنا فسأتعلم الكثير . » .

ولكنني كنت احجم في اللحظة الأخيرة . سيظنونني جاسوسة تعمل لحساب منظمة ما . لن يفهموا ان الفنان هو مؤسسة للتجسس على الحقيقة ! ..

حوار ١

ارفع صوت المذياع قليلاً واسمع الحوار التالي :

— إلى سمير ١ بدل ... هنالك بناء على سطحه قناص مقابل جاليري .. اذهبوا وحاصروه . إلى سمير ١ بدل .

يأتيه الجواب شبه ساخر : « سيدنا ، (مش عم بسمعك) اي لا اسمع ما تقول جيداً ... »

يكرر المسؤول صراخه : « إلى سمير ١ بدل .. حاصروا البناء الذي يتواجد على سطحه أكثر من قناص ، قتلوا أكثر من عشرة من المارة اليوم ... دكوهم بالمدفعية ... »

رد الصوت اللئيم ساخراً : « سيدنا مش عم بسمعك » !

وانقطع الاتصال ...

وتخيلت القناص يتابع قتله للأبرياء ، تحت حماية أحد العسكريين الذين نسوا قسمهم بالانتماء إلى الوطن العصري وعادوا إلى انتماءاتهم الأخرى : الدينية — العشائرية ...

وغيرها ... يكرر القائد بحرقة : « إلى سمير ١ اقتلوا القناص ... » .

يتكرر الجواب : « سيدنا .. لا اسمعك !! ... »

وكيف يسمع الأوامر ، اذا كان يتلقى أوامره من مصدر آخر .. يا للرعب حين يصير الحكم (بفتح الكاف) طرفاً ! ... كأن المتنبي كان يعيش حربنا الأهلية حين صرخ : وانت الخصم والحَكَم ! ...

حوار ٢

تتوالى الأصوات المختلفة ، وتسقط الأقنعة ...

— اين وصلت ؟

— وصلنا وحاصرنا البناء ...

— ماذا حدث ؟

— صعدنا إلى البناء وفتشنا ، ولم نجد أحداً !! ...

حوار ٣

— سيدنا عندنا سيارة اطفاء معطلة قرب المخفر بعد اطلاق النار عليها ... سيدنا نريد نجدة ... نريد نجدة ... انهم يطلقون النار و .. بدل

— لا أحد يطلق النار عليكم ... هذا رصاص طائش ...

— سيدنا ، قتل اطفائي ...

— رصاص طائش ...

— سيدنا عطلوا الملالة ، وهنالك ثلاثة جرحى ...

— قلت لك « رصاص طائش » . بدل .

حوار ٤

— سيدنا هناك ثلاث جثث على الرصيف ... بدل

— احملهم معك .. بدل

— سيدنا السيارة لم تتسع للجثث كلها .. بدل ..

— ضع الباقي بينك وبين السائق ... بدل ..

حوار ٥

— سيدنا الاطفائية اللي جاية تطفي النار ببيت..قرب معمل...خطفها مسلحون...بدل

ـ تابعوا الدورية في الجهة الثانية من الشارع ... بدل ..
ـ سيدنا خطفوا سيارة الاسعاف أيضاً .. بدل ...
ـ لم يخطفها أحد ... تابعوا مهمة الدورية بدون تدخل .. بدل ..
ـ سيدنا هنالك حاجز من المسلحين يأمرنا بالتوقف .. هل نقاوم .. بدل ..
ـ لا يوجد حاجز .. لا يوجد خطف .. بدل ...
ـ سيدنا خطفونا ... يطلبون منا تسليم المصفحة واسلحتنا .. بدل .. سيدنا هل تسمعني ؟ خطفونا ! ...
ـ . . . . . .

حوار ٦

ـ من ٧٢٥ أوكي ، ماذا وجدتم ؟
ـ من الحازمية وما فوق لا يوجد شيء ...
ـ ابلغونا عن وجود حاجز خطف عشرة أحدهم جريح ... تحقق من الأمر .. بدل ...
ـ سيدنا لا يوجد خطف ... اخوان (بين بعض) ، وسوء تفاهم بسيط ..
ـ آمركم بالقاء القبض على الخاطفين واعادة المخطوفين .. بدل ..
ـ سيدنا (ما بتحرز) ... انهم فقط يسألونهم بعض الاسئلة ... الحالة هادئة ...
ـ نفذوا الأوامر فوراً .. بدل
ـ سيدنا لا نستطيع ... قالوا انهم سيخطفوننا .. اذا عدنا لمضايقتهم .. بدل ..

حوار هاتفي ١

ـ الو ... سوسو
ـ أهلاً ... كوكو
ـ ما الأخبار ؟
ـ لا شيء ... مجرد كوارث وقرف .. تصوري البارحة تركني الطباخ المصري وال (فام دي شامبر) والمربية الفرنسية ستترك الأولاد لترجع إلى بلادها ...
ـ يا للهول .. وماذا ستفعلين يا سوسو ؟ ..
ـ سنسافر معها ! ...

ـ معك الحق كله .. لم نعد نستطيع العيش في هذا البلد .. تصوري ، البارحة ذهبنا إلى (الوايت واو) للسهر ، وكنت ارتدي (الروب لونغ) والفرو الفيزون الجديد ، ومع ذلك أصر صاحب المطعم على أن ننهي عشاءنا قبل الساعة ١٢ لانه خائف ... تصوري يا كوكو رجعنا للبيت الساعة ١٢/٣٠ ولم نجد اي مكان آخر للسهر ...

ـ انها « حياة كلاب » فعلاً .. يجب أن نهاجر ...

ـ على ذكر الكلاب ، سنحمل معنا القطة ماري انطوانيت ، أما القط عنتر فقد هرب .. كما قلت لك ، سنرافق جميعاً المربية الفرنسية إلى باريس .. الفلوس حولناها ... ماذا يربطنا بهذا البلد ... وبكل اولئك المتوحشين والأغراب (السوفاج) ...

ـ يقولون ان هنالك جوعاً في البلد ...

ـ عيب هذا الكذب .. لم ينقطع (السومون فوميه) يوماً واحداً عن البلد ... اين الجوع ؟ كلبي وحده يأكل كل يوم كيلو من اللحم ...

ـ زوجي يقول انها مؤامرة صهيونية شيوعية عالمية وان الدنيا لولا ذلك بألف خير ...

ـ طبعاً ... زوجك يفهم في كل شيء ... اسأليني أنا عنه ! ...

حوار هاتفي ٢

ـ ألو .. اسمع يا أخي ... لن نتخلى عن مطالبنا لمجرد ان الشيوعيين يتبنونها ، ويناضلون لاجل تحقيقها . هنالك جوع في البلد . هنالك بطالة وبؤس ومرارة . العدالة الاجتماعية يجب ان تتحقق وإلا فلا مفر من سقوط المقصلة عاجلاً أو آجلاً ...

ـ أنا معك ... لكن ما يدور هو مجرد قتال مجنون .. وما كل قتال ثورة .

ـ أحياناً تبدأ الأمور هكذا ... يذهب جيل من الضحايا كي تتبلور ثورة واحدة ... لو يفهم الحكام ذلك لوفروا علينا وعلى أنفسهم هذا القربان الباهظ ...

ـ ولكن ما يحدث الآن هو مجرد كوابيس ...

ـ ربما ... ولكن كوابيس الجياع ليست اضغاث احلام ... انها انفجارات هوجاء لقضية عادلة ...

ـ بين جنون الدم وصرخة الحق خيط رفيع وقد ضيعته الأطراف كلها ..

ـ ربما مرحلياً ... ومطلوب من المتقاتلين مراجعة ذاتية كي يتوقف شلال الدم عن الانهمار عبثاً .. ليس الموت هو المرعب اذا كنا نموت من أجل بناء حياة أفضل

لاطفالنا ... المرعب هو ان نموت عبثاً ودونما معنى ...

حوار هاتفي ٣

ــ هل ستأتي الليلة ؟ الأولاد يفتقدونك ...

ــ لا استطيع ، المستشفى تغص بالجرحى ... وبجثث الذين يموتون ساعة وصولهم ...

ــ ولكننا لم نرك منذ ثلاثة أسابيع .. وقد وعدت بالحضور الليلة مهما كانت الأحوال ...

ــ آسف يا منى . لا استطيع ..

ــ في صوتك شيء غير عادي .. ماذا حدث الليلة ...

ــ لا شيء ...

ــ أريد ان أعرف ... انني واثقة من أن شيئاً غير عادي قد حصل .. ما هو ؟ ..

ــ جاؤوني برجل اطفائي برتبة عريف، قالوا انه كان يسحب مياهاً تسربت إلى بعض المستودعات ، وكان قد لفظ انفاسه ، فقد اطلق عليه الرصاص مسلحون ..

ــ ما الجديد في ذلك ؟ انهم يطلقون الرصاص باستمرار على رجال الاسعاف والاطفائيين ... ويأتونك كل يوم بعشرات !

ــ الجديد في ذلك أن الاطفائي كان مبتور الذراع اليمنى والقدمين ! .. هنالك من لم يكتف بمنعه عن العمل ، بل هنالك من عذبه قبل القتل وتلذذ بذلك . هنالك من استخدم فأساً و (حطّب) أعضاء جسده .. اسمعي يا منى .. أنني أشعر بالخوف .. هل تفهمين ؟ أشعر بالخوف لاول مرة ... ما يجري في هذه المدينة له طعم الجنون .. لهذا القتال لذعة السادية ، وهذا ما يرعبني ...

اشعر بحاجة إلى الرحيل ...

ــ هذه أول مرة تتحدث فيها بهذه اللهجة ، وانت الذي كنت تعيب على اضدقائنا سفرهم ومغادرتهم البلاد بينما هي تنزف بدلاً من العمل لوقف النزيف ...

ــ صارت يدي ترتجف وأنا أجري العمليات .. البارحة لاحظت الممرضة ذلك بينما كنت أخيط جراح صبي في الرابعة عشرة من عمره ... تصوري انهم خطفوه وعذبوه ... والذين عذبوه لا يزيد عمرهم عن عمره بكثير كما ذكر لي .. لقد خطت جرحه بأسوأ مما يفعل اي تلميذ طب مبتدىء ..

ـ تعال فانت متعب ...
ـ سأعترف لك . لا أجرؤ على الخروج من باب المستشفى . صرت أخاف من الشوارع . وقد علقوا بعد الظهر أمام باب المستشفى لافتة مكتوب عليها : انتبه . قناص يرحب بكم .
ـ ماذا ستفعل ...
ـ سأصعد إلى سطح مستشفاي واعمل قناصاً ... انني خائف خوف الحمل الطفل . لن ينقذني سوى ان اتحول إلى ذئب ...
وانفجر يضحك كما لو أنه القى بنكتة . لكنني سمعت منى تصرخ :
« ارجوك تعال قبل أن تجن » ...
كان واضحاً انها تعرفه جيداً ... وانها تعرف انه كان جاداً فيما قاله ، وانه بعد اقفال الهاتف بدقائق سيكون واقفاً على سطح مستشفاه ... تراه سيطلق النار على رأسه بعد أول عابر سبيل يصطاده ؟ ...

* * *

كابوس ٥٦

لقد انهدم الجدار ... صارت الريح مملكتي ، وصرت قادرة على الاستماع إلى أي حوار يدور في هذا الوطن الحزين ، بفضل ذلك الجهاز العجيب : الموجة القصيرة في ترانزستور أمين ...
ارهقني الانصات بصورة لم اكن اتوقعها .. نهضت أبحث عن شيء آكله .. وجدت بقايا علبة فيتامين وفرحت بها ... لا أحد يدري حتام يطول سجني ... ها أنا اشرف على نهاية اليوم الثالث ولم يقرع بابي مخلوق ولم يمر على الرصيف المقابل انسان ...
حين يهدأ دوي الرصاص ، تأتيني من جديد أصوات اولئك المساكين : مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة القريب ...
انه اليوم الثالث وهي معزولة وسجينة لم تر الشمس .
لعلها بدأت تجوع . لعل الطعام في اقفاصها قد نفد . والماء أيضاً . حتى ولو أراد صاحب الدكان إطعامها لعجز عن ذلك في مثل هذه الظروف ... لا اعتقد أن أحداً يمكنه الوصول اليها .. ربما كنت قادرة على ذلك ، إذا تسللت من باب بيتنا إلى الحديقة ومنها

إلى نافذة المخزن الخلفية التي يوازي ارتفاعها سطح الأرض عند سور حديقتنا ... ولكنني الآن هدف ممتع لعشرات القناصين المحيطين بنا ... عليّ ان انتظر حتى الغروب ...

ما الذي يشدني اليها ؟ ما الذي يجعل أصواتها تسكنني ؟ ما الشيء المشترك بيننا ؟ لقد أحببت دوماً جميع مخلوقات الطبيعة من بوم وسنجاب وسحالى وضفادع ولكن ما احسه الآن يختلف تماماً . اشعر برابطة بيني وبين سجناء ذلك المخزن المرتعدين خوفاً في اقفاصهم ، عزلاً وحائرين ! تراها رابطة وحدة المصير ؟ ..

تراني واحدة منهم دون ان أدري ؟ .

* * *

كابوس ٥٧

عادت الصواريخ ... اشعر بالاعياء ... أحتمي بالدهليز ، مهددة بالموت مطمورة تحت رف الكتب الكبير ... أتذكر الجاحظ الذي مات مطموراً بكتبه أثر سقوطها عليه . اتذكر الشاعر توفيق صايغ الذي طالما ابدى لي خوفه من الموت تحت رف كتبه . كانت غرفة نومه مليئة بالرفوف الخشبية ، ولو سقطت فوقه لقضت عليه . ظل يخافها ولا يفارقها . لكنه لم يمت تحتها . مات بعيداً عن بيته وأهله ، في أميركا داخل مصعد ... ترى هل كان المصعد خشبياً كرفوف كتبه ؟ وهل كان مقدراً لإخشابها ان تصير مكتبة ، ثم بدلت في آخر لحظة إلى جدران مصعد ؟

آه الدهليز يحيط بي من كل جانب .. تراه قبري ؟ اغمض عيني ... ينفتح جدار الدهليز ... اتذكر ابن الرابعة عشرة الذي سمعت الطبيب يتحدث عن جرحه المفتوح ...

أرى أطفال هذا الوطن الحزين وهم يرقبون فيلم العنف الذي يدور على شاشات نوافذ بيوتهم التي تحولت إلى تلفزيونات لا تبث غير مشاهد العنف .

أرى كريم ، عمره ١١ سنة أو أكثر قليلاً . كل ليلة يعود والده مغطى اليدين بالدم وكريم يرى ... كل ليلة يتحدث والده إلى بقية رجال الحي عن عدد الذين قتلهم وعذبهم وكريم ينصت ... الجار يتحدث عن عدد المحلات التي نهبها وكريم ينصت ... الشوارع خالية ، وأهل المدينة قد اختبأوا في بيوتهم التي تحولت إلى أقفاص مهددين بالموت جوعاً أو حرقاً ، تماماً كمخلوقات بائع الحيوانات الأليفة السجينة في المخزن وكريم يرتجف . المدينة مخزن كبير لبيع الحيوانات الاليفة . الشوارع يملكها من يجرؤ على الخروج اليها

وكريم يختنق .. الجار يذهب إلى أي مخزن يختاره مع عدد من رفاقه .. يكسرون الباب يدخلون يحملون ما يشاؤون من حاجيات : برادات ، غسالات ، تلفزيونات ... كل ما تريده ملك لك اذا كنت تجرؤ على الذهاب لاحضاره وكريم يتعلم .

وكريم يحلم . يحلم منذ طفولته بأنه يمتلك مخزناً كاملاً للألعاب ، يطلقونه فيه طوال النهار دون حسيب أو رقيب . هذه الليلة نام كريم كعادته وهو يستعجل قدوم الحلم . استيقظ في الصباح وقد هجره الحلم . لم يحلم . لم يدخل مخزن الألعاب الكبير القريب من بيتهم . لم يركب السيارات الشبيهة بسيارات الكبار والمحرمة عليه لفقره . لم يلمس البسكليتات البراقة الألوان . لم يتحسس شعر الدمى ويكشف ثيابها عن سيقانها ليكتشف جسدها . لم ينفخ فقاعات البالونات الملونة . لم يعزف على البيانو الصغير . لم يضع عينه على الميكرسكوب النموذج . لم يعمر بيتاً من الميكانو . استيقظ وقد أحس أنه خسر شيئاً ما ... لكن شعوراً جديداً غمره ...

جمع أولاد الحي . كان أكبرهم . لقب نفسه بالزعيم ، « ابو العتمة » ، تماماً كما يحلو لوالده وللجار ان يناديهم أصحابهم ...

وهمس بخطته للأطفال ، فوافقوه فوراً ... كان قفل دكان بائع الألعاب حديدياً لكنهم استطاعوا باجسادهم الدقيقة الانسلال من الفجوة التي أحدثوها في زجاج الواجهة.. قفزوا داخل مخزن الألعاب مثل الف قط متوحش أطلقوا فجأة على الطعام بعد طول جوع ... كان أكثرهم حفاة ، هاجموا الألعاب التي نموا عاماً بعد عام وهم يرقبونها من خلف الواجهة الزجاجية بحسرة ، ويرونها أحياناً في أيدي الأطفال الآخرين الذين يركبون السيارات ويرتدون الأحذية ... لعبوا كما لم يلعبوا في حياتهم ... لم يتركوا دمية لم يجربوها ... لم يتركوا دمية لم يقطعوا رأسها في محاولة منهم لاكتشافها ... لعبوا طوال النهار ، وكانت الشوارع خاوية تماماً ، ولم يلحظوا الرجل الذي سقط قتيلاً برصاص قناص على الرصيف في الخارج .. ولم يعودوا يسمعون صوت الرصاص ... كان هجومهم مركزاً على الأسلحة القتالية في مخزن الألعاب ... المسدسات والرشاشات والسيارات الجيب والمدرعات والمصفحات والمدافع والطائرات وقلائل منهم اهتموا بسيارات الاسعاف أو الحريق ، فقد سمعوا آباءهم يتحدثون عنها بازدراء كأهداف سهلة لا تقدر على الدفاع عن نفسها ... ثم تعبوا وجاعوا ، ومع الجوع شعروا بشيء

من الخوف فقرروا العودة إلى البيت بعد ان يحمل كل منهم ما يقدر عليه من غنائم ... طفل واحد منهم فقط ، قرر أنه يكره الأسلحة وصوتها ، فقد شاهد المسلحين يقتلون والده أمام عينيه ، وفضل معانقة دمية كبيرة زرقاء العينين حريرية الشعر ، تغمض عينيها وتفتحهما ، وتنطق بلغة لا يفهمها حين يضغط على زر معين تحت ابطها ... كان أول الأطفال إلى الخروج من المخزن ، وكان يرتجف ، فتعثر وسقط على زجاج الفجوة التي تسللوا منها ، واخترقت جسده كخنجر حاد .. خاف بقية الأطفال حين شاهدوا الدم يتدفق والطفل لا يصرخ ، وتجمعوا حول كريم بصفته زعيم الحملة ، لكن كريم كان مذعوراً ، وأراد ان يرمي بالرشاش الذي اختاره والمدرعة والمسدسين ويهرب ، لكن الطفل كان ينزف وقد سد الفجوة بجسده .. وعبثاً يزيحونه من الدرب ... وتعالى صراخ الأطفال ، وتشاجروا وصاروا يطلقون النار بعضهم على بعض وسقط منهم بعض القتلى والجرحى ثم تدافع الناجون فوق جسد الصغير النازف الذي ظل ممسكاً بدميته ، وكان عليهم ان يدوسوه كي يخرجوا ، وكانوا يتدفقون على الأرض واحداً بعد الآخر ، والزجاج يمزق أجسادهم الطرية ...

الأطفال الذين عادوا تلك الليلة إلى بيوتهم كانوا ينزفون ، لكنهم كانوا ما زالوا يقبضون على اسلحتهم بشدة ! ... طفل آخر كان يرقـد على الرصيف إلى جانب جثة الرجـل .. كان آخر طفل خرج من الفجوة وقـد اعتبره القناص عصفوراً .. فاصطاده !

* * *

كابوس ٥٨

هدأت الانفجارات قليلاً ...

غادرت الدهليز ، مقري (الحربي) ... ذهبت إلى فراشي ، وكان الرصاص قد مزق الوسادة ... غمرتني لا مبالاة يائسة ... تمددت فوق الفراش المليء بشظايا الخشب والحديد والرصاص وحاولت ان استرخي .. قليلاً ... ففككت رأسي من مكانه ووضعته إلى جانبي على الوسادة .. عبثاً أنام ... تعلقت عيوني بالساعة الرملية التي كان قد أهداني اياها حبيبي يوسف ... كانت تتألف من كرتين من الزجاج الشفاف يفصل بينهما مضيق يسمح بانتقال الرمل من كرة إلى أخرى ... وكان انتقال الرمل من كرة إلى أخرى

يستغرق نصف ساعة بلغة الساعات العصرية ... كان رملها فضي الزرقة ، اثيري اللون كما لو كان لون الزمن ... قال لي يومها : سيظل حبي لك متدفقاً كهذا الرمل .. كلما شككت في حبي ، اقلبي الكرتين ، واذا تدفق الرمل فهذا معناه أنني أحبك .. لم أشك لحظة في حب يوسف حتى الآن وهو ممزق (دوماً يأتيني والريح تهوم عبر ثقوب جسده فاضمه إلى قلبي بكل ما في روحي من طاقة على الحنان والاتحاد بروح أخرى) ... ولكنني قلبت الكرتين .. وبدأ الرمل يتدفق من الكرة العليا إلى الكرة السفلى ببطء ولكن باستمرار ... باستمرار ... أتأمله ينزلق ... ينزف ... دونما توقف ... لا شيء يستطيع إيقاف إنزلاق رمل الزمن ... لا فجيعة ، ولا فرحة ، ولا زلزال ، ولا حرب أهلية ، ولا موت يوسف ... ولا موتي أنا ، واذا أصابتني في هذه اللحظة رصاصة فجرت رأسي فسوف يتابع الرمل جريانه المحتوم ... لعلي مرهقة وقد هدتني الانفجارات المتتابعة ، فقد نفدت الكرة العليا من الرمل وتكوم الرمل في الأسفل وان كنت أعرف ان رمل الزمن اللامرئي ما يزال يتابع جريانه في كرة الكون اللامتناهية الاتساع ...

تأملت الرمل الفضي الأزرق المكوم في قاع الكرة السفلى ... وفجأة حدث شيء عجيب ... بدأ الرمل يصعد من الكرة السفلى إلى الكرة العليا بالسرعة ذاتها التي يتدفق بها عادة ... كأن الزمن يعود إلى الوراء ... ثم بدأ تدفق الرمل من الأسفل إلى الأعلى يتسارع ... يتسارع .. يتسارع .

ها أنا ويوسف معاً على شاطىء البحر ، وجسده ليس مثقوباً بالرصاص ... ها نحن نعيش أيامنا الحلوة ... كل شيء يتكرر ... تماماً كما كان .

* * *

كابوس ٥٩

ها أنا ويوسف معاً على شاطىء البحر نجلس على الصخور ... كنا بريئين ونقيين كالاسماك ، والحب يتدفق من انحناءة جسده نحوي كرحم .. كان حضوره يحيط بي كدائرة حول نقطة ... احسست به كياناً من كهارب الضوء والمغناطيس ، وكنت منجذبة اليه ومسحورة بحضوره ... انه الشاطىء حيث كنا ... وحبنا يكتمل دائماً خارج الجدران ، خارج المقاهي ، خارج الاسمنت .. لم تكن علاقتنا قد انقطعت مع نباتات الأرض ومخلوقات البحر والطيور والريح والفصول وزنابق الصخور ، لم نكن قد قطعنا

(الحبل السري) الذي يربطنا بالكل الواحد ، وكان لقاؤنا يمنحنا ذلك الحس المذهل بالسلام ، وبأن الكون متناغم مع دوران الدم في عروقنا .. ذلك الحس الرائع بأن ايقاعك استطاع أخيراً التواصل مع ايقاع الوجود ، وانك لا تشعر بخلل بين صوتك الداخلي وصوت الكون الكلي البهاء المحيط بك ... وبأنك بطريقة ما امتداد للرب الكوني العظيم ، وضربات قلبك متناسقة مع ضربات قلبه ، وقلب البحر ، وقلب الشجر ، وقلب الحجر ، وقلب الريح ، وقلب الليل ، وقلب النجوم ...

(انه الشاطىء حيث كنا ..

وكنا رعايا لمملكة الحب ، وكان علينا ان نلتفت إلى الوراء لنرى بيروت تتربص بنا كالوحش ... بيروت التي كل ما فيها قائم على مناصبة العداء العدالة والحق والرب ، اي على مناصبة العداء للحب ..

كان علينا ان نفهم ان بيروت تقف خلفنا كالقناص لتصطاد حبنا ..

كان علينا ان نفهم ان العمل من اجل إنقاذ حبنا يحتم علينا العمل من أجل إنقاذ بيروت .. لانك لا تستطيع ان تزرع غابة على سفح بركان هائج .. لا تستطيع ان تبني بيتك داخل قنبلة موقوتة ...

قال لي يوسف : كل ما في هذه المدينة ضدنا ، لا لأننا ننتمي إلى دينين مختلفين ، ولكن لمجرد اننا .. نحب .

والتفت خلفي . شاهدت بعض الرؤوس تختبىء وراء الصخور .. قلت : هناك من يراقبنا .. كانت الرؤوس تتكاثر ... خلف كل صخرة كان هناك من يراقبنا كالحراس ..

مد يده ليمسك بيدي ، ليتوحد شريان ما بيننا ويسري الدم من جسده إلى جسدي ، والانفعالات والارتعاشات ، ولنصير كتوأم في رحم الحب . قلت له : ارجوك ... لا تمسك بيدي ... ذلك سيشجعهم على الاقتراب منا وربما الاعتداء علينا ...

كانت الاحتمالات كلها ممكنة .. كأن نتعرض لرصاص قناص .. أو لمسلح يسطو على ما نملك ، او لكل صور الاعتداءات الاخرى الباقية ...

وما دمنا نجلس هكذا ، واحدنا بعيد عن الآخر ، فأنهم سيكتفون بمراقبتنا متحفزين . واول بادرة حب نعبر عنها جسدياً ستكون بمثابة اشارة الانقضاض ، لانها ستحرمنا من

(حماية الرأي العام) التي ما نزال ننعم ببركتها ، بحيث قد يتبرع البعض للدفاع عنا في حال (الهجوم) علينا ...

قال لي : غريب امر البشر في هذه المدينة . لوضممتك إلى صدري وقبلتك لصار كل الذين يرقبوننا من خلف الصخور شبه اعداء لنا ... واذا اعتدى احدهم علينا فسيغض الباقون الطرف ... اما اذا صفعتك مثلاً فإن أحداً لن يتدخل لا لأنهم سيظنونك زوجتي بل لأن مظاهر الكره لا تثير البشر في هذه المدينة بقدر مظاهر الحب ... الكره مشهد عادي بالنسبة اليهم . الحب مشهد خطر .. تهديد لهم . لو تشاجرنا الآن لكفوا عن مراقبتنا ، لأنهم سيطمئنون إلى اننا مثلهم !! الحب يثير الانتباه والفضول والرغبة بالاستغلال والرفض الجماعي ، اما الكره فانهم يمرون به كظاهرة عادية ..

قال لي : احبك فعلاً ... لو اتى مسلح وبلغني انه يريد ان يقتل احداً منا لقدمت له نفسي فداء لك ...

– احبك .. ولو رمى احدهم الآن باصبع ديناميت لابتلعته فوراً لاحميك بجسدي ...

– لو مرروا فوقي مصفحة جيئة وذهاباً كي اهجرك لما فعلت ..

– لو انتزعوا لساني من فمي بكماشة وقطعوه لظللت اردد اسمك .

– لو خيروني بين فراقك اسبوعاً واحداً او قطع اذني لتركتهم يقطعون اذني دونما تردد ...

وفجأة وجمنا معاً . لاحظنا اللغة التي نتبادل الهوى عبرها .. كأن الطيور بدلاً من ان تغني صارت تعول .. كأن البلابل لا تزقزق وانما تولول .. لاحظنا الى اي مدى تشوهنا ، حتى صارت لغة الحب هي نفسها لغة القتل والعنف والارهاب ... ضحكنا من انفسنا لكن كلا منا كان يشعر في اعماقه بغصة لا متناهية ...

اقترب منا رجل يحمل سلة وقصبة طويلة للصيد . كان حافي القدمين تبدو عليه رقة الحال . تأملنا بعينيه الضيقتين اللتين ازدادتا ضيقاً حتى صارتا اشبه بثقبين حادين تخرج منهما اشعة شريرة ...

قال يوسف : حتى الفقراء ضد انفسهم لأنهم ضد الحب كالاغنياء .. لقد ربوهم على ذلك لقتل غريزة الحق في نفوسهم .. انهم منذ الصغر يلقحونهم ضد الحب تحت

ستار القيم المتوارثة والدين والاخلاق والفضيلة .. وحين تتعطل حاسة الحب تتعطل معها حاسة الثورة ... اولئك الساسة المحنكون يلوثون قمح الجماهير بالمفاهيم الخاطئة ويخدرون حاسة الحب فيهم ، كما تخــدر حاسة الجنس لدى المساجــين بدس الخشخاش في مأبهم ...

وكنت اتأمل الصياد العاري القدمين . بدا لي حائراً بقدر ما هو جائع .. لم يعد الانهيار العصبي مرض المترفين فقط . انه الآن مرض اضافي لامراض الكادحين (في التاكسي ما تكاد تغلق الباب حتى يفتح السائق فمه . يباشر بالشكوى . بالصراخ من حال البلد . حياته مهددة في كل لحظة بالموت والاختطاف . ترفع سماعة التلفون لتطلب مخابرة . عاملة الهاتف تقول لك : لا ضرورة لهذه المخابرة فستكون على اية حال مجرد ثرثرة ، فالعمل متوقف في هذه المدينة .. دعني انا اثرثر لك . ان مجرد حضوري لممارسة عملي مغامرة لا تصدق ... دعني احكي لك ما حدث لي في طريقي اليوم ...

واذا ذهبت الى البقال لتشتري شيئاً فستجد نفسك كأنك في ردهة لاحد مستشفيات المجانين . سيكون هنالك شخص ما فقد اعصابه اكثر من الباقين ، وسيجد وسيلة لفتح حوار مع احد الزبائن ، سيدور الحوار بصوت عال بما فيه الكفاية ليشارك فيه الجميع لأنهم متعبون وخائفون وحائرون ، وهم يشترون حاجياتهم دونما بهجة لأنهم يعرفون انها مجرد مؤن لسجن لا يدرون إلى متى يطول ، ثم ان احداً منهم ليس واثقاً من انه سيصل إلى البيت سالماً باشيائه كلها ... اية سوبر ماركت في المدينة هي ردهة من ردهات احد مستشفيات المجانين ... ايقاع الحوار ونبض المدينة كلها هو نبض مصــح عقلي شاسع ... ترى اين قرأت ان احد المجانين فر من مستشفاه حاملاً معه اللافتة المكتوب عليها « مستشفى المجانين » ، حيث انتزع لافتة « بــيروت ترحب بكم » وغرسها مكانها ؟ ...

كنت اتأمل الصياد ، وقد شردت مع افكاري ... وكنت سعيدة لانني عاشقة ، فالحب درع في زمن الحروب الاهلية ، يحمي من الجنون على الاقل ، وان كان يجعل العلاقة اكثر مرارة وصعوبة ... كان زواجنا في مثل هذا الزمن الرديء سيتحول إلى فضيحة (قومية) في اجوائنا العائلية لمجرد ان العبارة المكتوبة في خانة (المذهب) في بطاقتي الشخصية ، مختلفة عن العبارة المكتوبة في بطاقته الشخصية ! .. ان (بطاقتي

الشخصية) ليست (هويتي) ولا ادري سبب توهم الناس انهما عبارتان مترادفتان ...

وفجأة ، سقط الصياد على الارض ... ركضنا اليه ، يوسف وانا و (حراسنا) من الفضوليين . كان ما يزال حاراً ، وعيناه ما تزالان مفتوحتين ، لكنه كان يحدق في نقطة غير مرئية بالنسبة الينا .. ومن مؤخرة رأسه بدأ قليل من الدم اللزج يتبدى بوضوح فوق شعره الاشيب خارجاً من ثقب كبير .. والتفتنا إلى الخلف بهلع ، هنالك قناص ما ، رابض خلف بندقية ما ، هنالك رصاصة ما يمكن ان تنطلق في اية لحظة لتصيب رأساً من رؤوسنا ولم نر شيئاً سوى مئات النوافذ المشقوقة في عشرات الابنية الشاهقة المحيطة بفندق الكارلتون .. وحدث ما توقعناه . انطلقت الرصاصة الثانية ، واصابت الارض قرب اقدامنا راسمة حدوداً نارية غير مرئية . فهمنا ان القناص لا يريد ان نتجاوزها ... وفهمنا انه مطلوب منا ترك الرجل يموت اذا لم يكن قد مات .. مطلوب منا العودة إلى الاقفاص المعدة لنا كأي قطيع من الحيوانات التي تم ترويضها على الخوف وسجن نفسها تلقائياً . رصاصة واحدة في اي شارع صارت كافية ليهرع كل من يسمعها أو يسمع بها راكضاً إلى قفص وقد احكم على نفسه اغلاق الباب ! ...

خمس دقائق ، وفرغ الشاطىء ... كان علينا منذ تلك اللحظة ان نفهم ان « الحياد » او (المسالمة) هي الجريمة الاولى ... كان علينا ما دمنا قد رفضنا الرحيل ان يكون بقاؤنا (فعلاً) ، لا كبقاء الاشجار التي لا تغادر المدينة لمجرد انها زرعت هناك ... كان علينا ان نعمل كي يكون البقاء مجدياً وجميلاً ... كان الحياد هو خطيئتنا ، ولذا فقد دفع حبيبي حياته ثمناً بأن مات عبثاً ... دونما معنى ولا جدوى ! ...) وها انا الآن ممددة على فراشي المكسو بآثار القصف ورائحة البارود انتظر ان أموت او أنجو كما ينتظر ذلك اي حيوان أليف في قفص من حيوانات الدكان المجاورة ...

توقفت حبات الرمل الاثيري عن الصعود من الكرة السفلى إلى العليا ، وتوقف الماضي عن التكرار ... عادت حبات الرمل لتنزلق إلى الاسفل ... إلى هاوية اللاتكرار ... كل لحظة عشناها كانت فريدة ، كل لمسة ، كل كلمة ، كل شجار ، لانها كلها تستعصي على التكرار ... إلا في الكوابيس .

اظل اتأمل هدية يوسف إلي ... الساعة الرملية المدهشة .. حين منحها لي كنت اعتقد ان رملها سيجري دوماً من الأعلى إلى الأسفل .. كما تقول قوانين الفيزياء جميعاً ..

لم اكن أدري انه ستمر لحظات يصهر ألمي فيها كل منطق ، وتسوس أوجاعي أحصنة الزمن لتركض بحوافرها إلى الوراء ... معيدة الي يوسف وزمن يوسف ولو للحظات ...

ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه سنوات حياتي لو كان رملها ينزلق من ثقب دقيق كالثقب بين هاتين الكرتين ، وبالسرعة ذاتها ؟ ... وكم فرغ منها ؟ وهل فرغ منها أكثر مما بقي ؟ ... ترى هل تصيبها رصاصة أو شظية من تلك التي تمطر الآن فوق بيتي فيتدفق الرمل دفعة واحدة في دقائق موجزة وينتهي الأمر ؟ . ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه حياة اي انسان ؟ ولماذا لا يقال لنا منذ البداية « هذا نصيبكم ، فلا تنسوا أن الرمل لا يكف ثانية واحدة عن الانزلاق » ... وحياتي ، اكياس الرمل التي لا اعرف كم عددها ، لماذا لم تكن قط كافية لبنـــاء متراس يحميني من سطوة الغربة والتشرد ، والوعي الدائم بأن وجودي عابر ، وما الفرح فيه سوى رقصة مسكينة فوق متراس بحي مقفر ؟ ... -

اولئك الجالسون فوق اكياس الرمل ، وفي ايديهم الرشاشات ، الا يعلمون ان وجودهم أقل ثباتاً من أكياس الرمل المحكمة الاغلاق التي يجلسون فوقها ؟ كأن جسد كل منا محشو بالرمل ، وفيه ثقب صغير اسمه الزمن ، ينزلق منه الرمل باستمرار ، ويحرمنا في كل لحظة من بعض حصتنا بالشمس والريح ومتع الحواس ؟ .. ولماذا يخلقون في أجساد بعضهم بعضاً مزيداً من الثقوب لمجرد أن (البيك) امرهم بذلك او اقنعهم بذلك عبر خطبة لغوية بليغة يغطي بها صفقاته ومصالحه المشتركة مع (بيك) الفئة الأخرى التي يتقاتلون وصغارها ؟ ... اولئك الأبرياء الذين يموتون كمجرد أكياس محشوة بالرمل ، متى يرون الرابطة الحقيقية بين متراسهم والمتراس المقابل ؟ رابطة الذل المشترك والقهر المشترك ، والحرمان المشترك من الحب .. اي الفقر على كل صعيد ؟ .. متى ترفض الضحية في بلادي حمل الجلاد على كتفيها ؟ ...

* * *

كابوس ٦٠

ما زلت انتظر الغروب لأزور جيراني ، مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة . اتابع قراءة الصحف العتيقة المكدسة في بيتنا ... تبدو لي التسلية الوحيدة الممكنة وفي الوقت ذاته تبدو لي تعذيباً ... اقرأ ... واقرأ ... من أول يوم سجنت فيها وأنا أعيد قراءتها ...

أراها بعين جديدة .. كل خبر فيها صار له مغزى جديد ودلالة مختلفة .

قرأت الاعلان التالي : من مسلماني وسمير إلى أهلهم في منطقة النبطية . نحن بخير فاطمئنوا !!! ..

غمرني رعب لا حدود له . إنها الغابة . لا أثر للحضارة بعد اليوم حولنا . الهاتف اختراع تم بعد العصر الحجري ونحن عدنا إلى العصر الحجري، ولعلي اقرأ الصحف القديمة واتمسح بكتبي كي اؤكد لنفسي انني اعيش في هذا العصر المفروض انه عصر الفضاء .. ربما كانت هنالك مركبة فضائية تنطلق في هذه اللحظة من الأرض إلى كوكب ما لاكتشافه ومع ذلك ما يزال في كوكبنا من يحيا عذابات العصر الحجري ! ... الصحف وحدها تجعلني اصدق لدقائق انني ما زلت في عصري نفسه ولم تختل عجلة الزمن ببيروت وتعيدها فجأة آلاف السنين إلى الوراء . . أية مأساة ان نعيش في وطن يصبح فيه بقاؤنا على قيد الحياة خبراً يستحق الاعلان عنه ؟ ... لو توقفت الصحف عن الصدور — كما سيحدث اذا تابعوا تدميرها — كيف سيتصل حسن وسمير ومحمد بأسرهم ؟ كيف سيوصلون نبأ نجاتهم من الوحوش إلى أهلهم في الطرف الثاني من الغابة ؟ أبالدخان على طريقة الهنود الحمر ؟ بقرع الطبول ؟ .. بالحمام الزاجل ؟ ...

اقرأ : جاءنا ما يلي : « علي فادي يوسف من عرمتى وهو غير علي يوسف الذي عثر عليه مذبوحاً بأيدي (......) » ، اعجبتني صيغة الاعلان .. اذا نجوت فسأنشر اعلاناً اقول فيه : اعلن انا انني لست غير التي وجدت مذبوحة في مراحل مختلفة من حياتها والتي توفيت عدة مرات وقامت من رمادها ، واعلن انني ما زلت على قيد الحياة وقادرة على ان اذبح مرات عديدة أيضاً في المستقبل ! ...

ها هي الشمس وقد بدأت تلملم عباءتها الذهبية وعما قريب تلقي الطبيعة رداء الليل الأسود .. حان وقت زيارتي لدكان بائع الحيوانات الاليفة ...

انه الليـــل ...

ليل المتفجرات والرعب .. ليل الأرواح الهائمة ، الغاضبة ، التي صارت صرخاتها مكتوبة بلغة الحديد والنار على وجه السماء ..

وانا اتسلل خارجة من بيتي . اهبط درجات السلم . الحظ بأسى انني احني قامتي ، ليس فقط عند النوافذ بل على طول السلم ... حتى حينما اتحرك داخل البيت صرت احني

قامتي . صحيح ان تجربة الرصاصة (البلياردو) علمتني ان الانخفاض تحت مستوى النوافذ لا يجدي مع الاسلحة الحديثة ، لكنني رغم كل شيء صرت أحني هامتي إلى ما تحت مستوى النوافذ .. كأنني أنحني لا للرصاص وانما لمنطق الرصاص .. كم هو مذل ان يتحرك الانسان أياماً وأياماً وقد أحنى قامته كالأحدب ... حتى ولو عاد السلام إلى هذه المدينة ، فأنه سيجدنا قد نسينا المشي منتصبين ، وصارت مشيتنا أقرب إلى مشية القردة ...

انه الليل ...

ليل الوحشية والموت المختبيء حتى تحت اظافرك ... انه ليل الدمار .. وانا وصلت إلى الحديقة وانعطفت إلى خلف المنزل ...

في البداية أخافني العراء .. وأخافني ان اسمع صوت الرصاص في العراء للمرة الاولى .. طوال الأيام السابقة كنت اسمع صوت الرصاص وانا محتمية بالجدران او بالاثاث أو ملتصقة باي شيء ... اما الآن وانا اقف في الحديقة تحت السماء بجسدي الهش دونما اي نوع من الدروع والمظلات واسمع مطر الرصاص ، تعتريني رجفة مخيفة ..

صوت الرصاص في العراء شيء مختلف ... انه الموت وقد خلع قناعه وتقدم منك .. انك انت تلك النملة في مملكة الليل الشاسعة ... ركضت إلى أقرب شجرة — وكانت نخلة — والتصقت بجذعها ... دفنت نفسي في صدرها العاري وخيل إلي انني اسمع دقات قلبها ... اسمع النسغ يركض في عروقها ... اسمع الخوف يدق طبوله داخل خشبها ... ازداد التصاقاً بها .. نصير شجرتين مذعورتين ... نصير انسانين مذعورين .. نصير حياتين مذعورتين ... ولكنها ستظل مكانها حتى تصيبها قنبلة او لا تصيبها ... انها لا تستطيع مثلي ان تطلق ساقيها للريح ... احسست بشيء من العزاء لانني انثى لا شجرة ، ولانني استطيع ان أركض ...

آه صوت الرصاص في العراء وانا وحيدة ... في البداية اخافني إلى أبعد مدى ... كانت كل رصاصة تستقر في جسدي انا شخصياً وكل قذيفة تنسفني انا شخصياً ثم قررت : الرصاصة التي ستصيبني لن أسمع صوتها . والقنبلة التي ستطيح بي لن ترعبني لانني سأكون ممزقة قبل ان أجد وقتاً للرعب ... فلم الخوف اذن ؟ ... كل ما أسمعه لا يمكن ان يؤذيني ما دام كل ما سيؤذيني لا يمكن ان أسمعه . أمدني هذا الخاطر ببعض

القوة ، لكنني على الرغم مني ظللت ارتجف كلما دوى انفجار ... سرت في الظلام باتجاه الجدار الخلفي لدكان بائع الحيوانات الاليفة ... كنت اعرف جيداً مكان الاشجار والنباتات في الحديقة ، لكنني تعثرت أكثر من مرة رغم ان الظلام لم يكن دامساً تماماً ... رفعت رأسي إلى السماء . لا قمر . هنالك فقط بقايا مصابيح الشارع التي ما زال أكثرها يضيء ... اصل إلى النافذة . ضيقة وعلى مستوى الأرض من ناحية الحديقة ، لكنها قد تكون مرتفعة جداً بالنسبة لأرض المخزن ، فكيف أهبط منها ؟ ... ربما كان علي أن آتي معي بحبل . لكنني لم اتسلق حبلاً من قبل . ترى هل الأمر سهل كما في الافلام ؟ كل ما يحدث لي هذه الأيام سبق لي ان شاهدته في الأفلام واكتشفت كم الحياة المعاشة تختلف عن تلك المغامرات التي تزيف الحياة على الشاشة . قد يكون تحت النافذة كرسي أهبط عليها ... او صندوق .. او أحد أقفاص الحيوانات .. ولكن لماذا استبق الأشياء ؟ فلنحل المشكلة خطوة خطوة . المهم أولاً أن افتح النافذة قبل ان أفكر بكيفية الهبوط منها ...

تحسستها في الظلام .. شعرت أنها مكسوة بالأوساخ وبطين جاف ، وان بعض الحشرات او الديدان الصغيرة تركض فوقها مذعورة لوقع اصابعي ... كانت النافذة مغطاة بشريط من (المنخل) داخل إطار من الخشب .. ترى هل خلفه قضبان ؟ سأعود إلى البيت لأحضر مقصاً وأقص به (شريط المنخل) الحديدي الذي يبدو من ملمسه المتقعر ان الصدأ قد أكله ... اهز الاطار بيدي فيذهلني كم هو مخلخل ، ويذهلني ان النافذة كلها قد خرجت في يدي ... وخلفها لم تكن هنالك أية قضبان ... اي سجن هو هذا ؟ ولماذا لا يحتاط صاحب الدكان خوفاً من هرب رعاياه وعصيانهم ؟ ام ان السجن ليس قفصاً فحسب بل هو أولاً رعايا اذلاء .. ورعاياه من الببغاوات والقطط والفئران والكلاب والحساسين والطواويس لا يستحقون عناء كبيراً لسجنهم والاتجار بهم ؟ ..

مددت رأسي داخل المخزن عبر النافذة ... كان الظلام دامساً ورائحة كريهة تفوح.. والصمت التام مخيماً على المكان .. تساءلت : هربوا جميعاً ؟ ام ماتوا جميعاً ؟ ام تراهم مثل بقية أهل الحي يقبعون في الظلام في مخابئهم مذعورين صامتين حائرين ، خائري القوى ؟؟ ... بعد قليل ألفتْ عيناي الظلمة ، ولم أعد أشمّ الرائحة الكريهة

كثيراً ... لاحظت ان سقف المخزن ليس مرتفعاً بقدر ما كنت اتصور ، وانني استطيع ان أدلي بجسدي من النافذة ثم اقفز على الأرض بسهولة ... ولماذا السقف المرتفع ، وهل تهم صاحب الدكان الشروط المعيشية الصحية الجيدة لحيواناته ، ام أن كل ما يعنيه هو ان يبقيهم على قيد الحياة كي يتابع إتجاره بهم ؟ ..

انه الليل ...

وانا قد قفزت إلى داخل الدكان ... قفزتي أثارت همهمات واصواتاً غريبة ... اذن لم يموتوا ولم يهربوا ، ولكنهم مثل بقية أهل الحي تماماً ... في حالة ذعر وخوف ... وها هم يحسون بوجود جسم غريب داخل المكان ، ويحاولون عبر قلقهم وخوفهم الغريزي تحديد كنهه .. هل هو حيوان من فصيلتهم (صديق) ام من فصيلة اخرى (عدو) ؟ وما نتيجة دخوله إلى سجنهم ؟ .. لعل كل حيوان منهم يفكر بي ، انا ذلك الكائن (الغريب) الذي دخل دكانهم ... لعل الببغاوات متضايقة الآن ، فقد حفظت ثرثرة صاحب الدكان عن (السيادة) ، اي عن (سيادته) هو عليها وهي الآن بحكم (ببغائية) ما حفظته تعلن بأن دخولي إلى الدكان تحد للسيادة (!) ... ولكن ، اية (سيادة) هذه ؟ اية سيادة لمن يسكن قفصه ، ويقضي وجوده سلعة تباع وتشرى لاصحاب النزوات والأثرياء من اي مكان جاءوا ؟ ... اية سيادة لمن حياته سجن بلا نهاية ؟ ...

وصحيح أن بعضها الذي يعرض في الواجهة الخارجية يعيش في ظروف نموذجية تلفت أنظار الزبائن ، وتجعل الحيوانات في المزارع الأخرى المجاورة تشعر بالغيرة من ترف تلك القاطنة في شروط عصرية نموذجية ، لكن الأكثرية الساحقة من مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة تعيش هنا خلف جدار التنك المرتفع الذي لونه رجل الديكور ورسم عليه مناظر طبيعية بديعة لشاطىء ساحر تعلوه الغابات المزروعة بالأرز والقمم المتوجة بالثلوج ! ... اية (سيادة) هي هذه ؟! .. كانت الببغاوات أول من واجه دخولي بشكل عدائي . كانت اصواتها غاضبة ومتحدية في البداية ، ثم صارت خافتة ... صحيح انها بحكم طبيعتها الببغائية لا تملك إلا ان تكرر الأسطوانة التي حفظها إياها سيدها ، لكنها أيضاً بحكم بؤسها وارهاقها لا تملك إلا أن تصمت أو على الأقل تكف عن تكرارها بحماس ... ببغاء واحد ظل يصيح : مرحبا يا ضيف . انا نحبك ... اشتريني (تماماً كما قد ينطق بها فرنسي سائح) ويقول بعدها على التوالي : اطلع يا غريب .. السيادة

اولاً ... وكان الببغاء يكرر العبارتين كما لو كا تا وجهين لعملة واحدة ...

ووسط هذا الليل الخطر المرعب وجدت صوت الببغاوات مضحكاً ... وانفجرت أضحك بصوت عال ، فأنا لست من (جماعة الزبائن) أصحاب الثراء ولا أجد سبباً يدعو لاعتباري (الغريب) غير المرغوب فيه ... أليس بؤسنا واحداً ؟ خوفنا واحداً ؟ قلقنا وحيرتنا ومخاوفنا وبالتالي مصيرنا واحداً ؟ ..

سكتت الببغاوات ... لم تبق غير همهمة جماعية كبقايا صوت مظاهرة مقهورة أمام هراوات رجال الشرطة ... مزيج عجيب من مواء وعواء و « هسيس » .. أجل لم تكن العصافير تغرد أو تزقزق بل كان صوتها أشبه بغمغمات محتضر .. كان الصوت رهيباً مخيفاً مليئاً بالهول ، بل كان كالصوت البعيد القادم من قبيلة من الجرحى والمحتضرين الذين ادمتهم الحرب وحرقت اطراف ثيابهم واهدابهم واقدامهم ...

وحينما عادت الانفجارات شعرت ببعض الراحة ... فصوت العذاب الحيواني أشد إيلاماً لقلبي حتى من صوت الرصاص المصهور في فوهات البنادق ...

هدأ الرصاص ... عادت الهمهمات .. وسمعت نفسي أقول لهم بصوت عال : شعبي الكريم ! ... (سمعت صوتي وخفت منه وخيل الي انني بدأت أصاب بمس من الجنون) ... ولكنني تابعت : يا شعبي الكريم ... بلاغ رقم واحد ... جئت احمل لكم الخلاص ... وردت علي الحيوانات بارتفاع همهمتها التي كانت تحمل كثيراً من الخوف .. صرخت بهم : صفقوا لي .. وانفجرت أبكي ... شعرت بانني ممثل صغير بائس مهزوم يمثل وحيداً على مسرح بائس مهزوم مثله ...

كانت عيناي قد ألفتا الظلام النسبي تماماً ... تذكرت انني هنا لأحضر لهم الطعام والماء ولأتفقد حالهم ، لا لأصاب بجنون العظمة وأنصّب نفسي أميرة على مملكة البائسين .. الأسياد لا ينقصونهم ولكن ينقصهم الماء .. والغذاء ... وكل شيء آخر ما عدا (الزعماء)..

فوجئت بالطعام في أقفاصهم ... وبالماء أيضاً ... لم يكن قد نقص ولا زاد ... كان في الأقفاص ما فيه الكفاية ليعيشوا أياماً ... ترى هل غامر صاحب الدكان وجاء لاطعامهم ؟ اشك في ذلك . لعل الشاب الصغير الذي قتله القناص هذا الصباح كان من (المتحمسين) لصاحب الدكان ومن اتباعه وقد غامر بحياته ليؤدي هذه الخدمة ! ... كم هو مفجع مصير اولئك الشبان الصغار الذين يتوهمون انهم يقومون بعمل (اخلاقي)

ويموتون وهم في حالة قناعة بأن لموتهم معنى ... والمعنى الوحيد لموتهم هو زيادة تسلط صاحب الدكان واستمرار تجارته ، وهم من بعض ضحاياها دون ان يدروا .. كم يفجعني مصير اولئك الصغار خلف متاريسهم الذين اقنعهم أصحاب الدكاكين بالموت من اجل (مثل عليا) ليست أكثر من زبد لغوي يخفي خلفه مصالح أصحاب الدكاكين ، المتنافسة في حالة السلم ، ولكن المتضامنة المصالح في حالة الاضطراب والحرب ..

المهم ، لم يكن ينقص الطعام في الاقفاص كثيراً . كانت نوعيته طبعاً سيئة ، ولكن أحداً فيما يبدو لم يمت بعد (إلا إذا كان أتباع صاحب الدكان يتولون أمر نقل الجثث أولاً بأول ورميها في الشوارع وتحت الجسور) ... والماء أيضاً كان ملوثاً ، رغم الظلام شاهدت لونه الكالح وشممت رائحته المقرفة لكنه كان موجوداً على أية حال ..

ودوى انفجار ... وعلى ضوء التماع الصاروخ الذي أضاء كالبرق لوهلة ، شاهدت كل شيء في نظرة واحدة شاملة انطبعت في ذاكرتي كوشم من جمر .. وإلى الأبد ... شاهدت أن بعض الحيوانات جريح ... كأنها تقضي نصف وقتها في الذعر ، والنصف الآخر في الشجار فيما بينها ... هذا السجن المروع البؤس يشحنها بعدوانية تحتاج إلى تفريغ ... والتفريغ يحدث للأسف عن طريق الاقتتال فيما بينها بدلاً من الهجوم الموحد على صاحب الدكان ، سجانها ... وشاهدت أحد الطواويس فارشاً ذيله ، وخيل إلي أنه يتباهى على ما تبقى من حيوانات ، وان الكلاب الكبيرة (تتمرجل) على الكلاب الصغيرة ، والقط الكبير يفرض (الخوة) على القط الصغير ... خيل الي انهم مشغولون بسفاسف فروقهم البيولوجية دون ان يلحظوا انهم يشتركون في شيء واحد : هو انهم جميعاً عبيد وسجناء ... آه الحمقى ، ألا يرون حقيقة الأمر ؟ .. بلى .. ربما كانوا يرون ذلك ، فقد لاحظت في عيونهم جميعاً نظرة موحدة ... كل العيون .. العيون الحمر للأرانب ، والعيون البنية للكلاب والخضر للقطط ، والصفر للطيور ، كل العيون على اختلاف ألوانها كانت فيها نظرة واحدة . نظرة دامعة مليئة بالذل والانكسار والذعر ... ولمسة من الغضب القلق ...

أتجول بين مخلوقات دكان بائع الحيوانات الاليفة ، وضوء الشارع يرتجف مع كل انفجار ، والليل الحزين يسيل من أقفاص الحيوانات السجينة المكسورة النظرات ... أتجول بينها مثل ملك اسطوري مجنون في قرية خرافية جميع سكانها من الجرحى

والمشوهين والبؤساء ، وهو أشدّ الجميع بؤساً ...

أعاود مخاطبتهم : يا شعبي الكريم ... قررنا منحكم اثمن ما في الوجود ... الحرية ...

وكأن صوتي يقلقهم أكثر مما يرعبني (يرعبني ان أكون مشرفة حقاً على الجنون) ...

وخلف كل جملة أصرخ بها ، تعلو همهماتهم الموحدة ... العواء المتعب للكلاب .. عواء أقرب إلى المواء .. ومواء القطط الشبيه بالأنين .. وصوت العصافير الذي لا يشبه الزقزقة ، بل هو أقرب إلى أصوات شخير شيوخ محتضرين .. وشهقات الأرانب ونعيب الفئران الأقرب إلى صوت البوم منه إلى صوت العصافير . وامتلأت ألماً لحال تلك المخلوقات السجينة البائسة (أم كنت ارى وجهي في مرآة ؟ أم كنت أرى حيّنا بأكمله ؟ مدينتنا ؟) ... وقررت : سوف أطلق سراحها ... سوف أمنحها الحرية والفرح .. وغداً حين يأتي صاحب الدكان الذي يعتاش من بيعها ، لن يجدها ... سأحررها من البؤس الذي تحياه ...

لحظات وأفتح أبواب الأقفاص كلها ... لحظات وأسمع خفق أجنحة العصافير وهي تطير عبر النافذة وفوق الأشجار إلى البحر الذي لا بد وأنها تفتقده في سجنها المعدني ، وتهرب من هذه المدينة المجنونة إلى الغابات ... لحظات وافتح باب سجن كلاب الصيد ، لتنطلق مجنونة تشم رائحة الزعتر البري والليل النقي هاربة من جحيم الاسر ... لحظات وتخرج القطط وهي تموء كما لو كانت تزغرد ، وقد تمشي على قائمتين بدلاً من أربع لشدة الفرح ... لحظات وتنطلق الفئران البيض وتتسلق الأغصان وتنام ملتفة بأوراق الأشجار ... لحظات ويخرج الطاووس ليفرد ذيله بأكمله دون ان يتقصف ريشه بين قضبان السجن ويترك المطر يغسل ألوان رياشه الصدئة والفجر يلمعها والريح تركض عبرها ، فيزهو وينتعش ويحيا ... وحتى السلاحف التي لا تستطيع تسلّق النافذة فسأحملها بيدي إلى النافذة ، وارقبها تخلع صدفتها وتركض بأسرع مما يركض الأرنب ... لحظات وتتحول كآبة هذا السجن إلى مهرجان حين تمسه يد الحرية ... ولكن بمن أبدأ او اي الأقفاص أفتح أولاً ؟ .. خشيت ان افتح قفص القطط قبل الفئران فتنتظر القطط الفئران عند النافذة وتلتهمها .. خشيت ان افتح قفص الكلاب قبل القطط ، فتطارد الكلاب القطط وتؤذيها ... وكان من المهم أيضاً اطلاق الطيور قبل الكلاب والقطط معاً لئلا تنشأ معركة جوية — أرضية بينها ..

قررت ان تتم عملية (تحرير) مخلوقات باتع الحيوانات الاليفة على الوجه التالي :
اطلاق سراح الطيور أولاً ثم الفئران . فالطواويس . فالقطط . فالكلاب . كان لا بد من (التخطيط المرحلي) للعملية ، وقد فوجئت بذلك ، والا لخططت له طوال النهار . يدي ترتعد وانا افتح اقفاص الطيور كلها من حساسين وبلابل وببغاوات . شيء رائع ان نصنع الحرية ... كان الباب صدئاً ، لكنه لم يكن محكم الاغلاق .. صرير حاد صدر عن مزلاجه ، وبدا لي ان الطيور اجفلت قليلاً كانما أخافها صوته ... فتحت الباب على مصراعيه ، وفوجئت بأنها لم تتجه اليه لتطير هاربة صوب الحرية والليل والرياح والسماوات ودروب المجرة ، وإنما سارت تلقائياً نحو المكان المعد لطعامها كما لو كانت عمياء او منومة مغناطيسياً .. لقد اعتادت ان يتم فتح باب السجن لمجرد اطعامها ، ولعلها تظن انه اعيد اغلاقه ... فتحت أبواب أقفاص الطيور ، وهالني ان عصفوراً منها لم يطر ... كأنها نسيت الحرية ... كأن خيوطاً لامرئية تربطها بجدران سجنها .. جلست ارقبها مذهولة . لم تعد المتفجرات ترعبني . لم تعد أصوات الرصاص تخيفني ... مشهد الطيور القابعة في سجنها رغم بابها المفتوح ملأني بذهول وخوف لم أعرف لهما مثيلا طوال حياتي ... دوماً تخيلت الطائر جائعاً للحرية ، يقضي لياليه وهو يضرب جدران القفص بجناحيه وبابه برأسه ... دوماً تخيلت انني ما أكاد افتح الباب للعصافير حتى تنطلق فوراً طائرة نحو شمس الحرية ... ولكن ، في هذا الليل الذليل الطويل ، تبدت لي صورة مروعة للطبيعة (الحيوانية) ... تقدمت منها ، وحملت في يدي بطائر ، واحسست بجسده ينبض داخل يدي دافئاً وربما خائفاً ، بل خيل إلي انني أحس بضربات قلبه ، حملته وقذفت به نحو النافذة ... فرد جناحيه قليلاً ، قليلاً جداً بما فيه الكفاية ليكون سقوطه على الأرض متوازناً وأقل إيلاماً .. واستوى واقفاً على قدميه وعاد فمشى باتجاه قفصه وطار بجناحين مضطربين ليستقر على مدخله ، ثم مشى إلى داخله واختبأ بين بقية زملائه السجناء . صعقني المشهد ... فانطلقت كالمجنونة افتح أبواب الأقفاص جميعاً ... واصرخ بها جميعاً .. فكانت تهرب من موقع الباب وتمعن هرباً إلى أبعد بقعة داخل السجن وبعضها يحتمي ببعض ... كأن الحرية غول قابع بانتظارها ... كأنها نسيت كل شيء عن الطبيعة والسماء والركض والتحليق والسباحة ، نسيت كل شيء عن الحرية والفرح وتحصيل رزقها ومتع الصيد في دروب الفصول الأربعة ، مكتفية بنصيب يقيم أودها بينما هي

مختبئة داخل أوكارها مذعورة من الرصاص راضية بهذا السجن الخامل مسلمة أمرها إلى الأقدار .. وإلى سيدها صاحب الدكان .. ذكرتني بحال أهل حينا ، حيث يهدأ القتال في أوائل كل شهر ، فيذهب كل واحد لقبض راتبه او نصف راتبه أو ربعه كما يشاء له رب عمله ، ويعود بعدها راكضاً إلى بيته — القفص — حاملاً ما استطاع تخزينه من طعام ، قابعاً في عاصفة الريح والنار والجنون مكتفياً من حياته بأحط أنواع الوجـــود البيولوجي ! ...

كانت أبواب سجون دكان بائع الحيوانات الاليفة كلها مفتوحة ، ولم يهرب أحد عبر النافذة ... بعض القطط مد برأسه من باب السجن دون ان يُخرِج جسده منها .. كلب خرج وتجول قليلاً في أرض الدكان — السجن — ثم عاد إلى القفص المعد له بالذات . لم يفكر حتى بالدخول إلى قفص آخر على الأقل ... شعرت بأن المشهد يثير جنوني ، فتركت الدكان وانطلقت هاربة .. تسلقت النافذة ، وخرجت منها كما دخلت ، وأعدت إطارها إلى مكانه ، ولم أحكم إقفالها بحيث تستطيع الحيوانات الخروج منها فيما لو حاولت او رغبت حقاً بذلك ... في الخارج كان الليل بانتظاري ، بارداً وكئيباً ، والرصاص لا يهدأ ...

ركضت إلى النخلة ، ودفنت وجهي في جذعها الرطب وفاحت في أنفي رائحة الأرض ... وبكيت طويلاً طويلاً وقد الصقت صدري بصدرها ... وخيل إلي انها لم تعد خشباً ، وان جذعها رق لي ، وهززت إليّ بجذع النخلة ، وخيل إلي ان شيئاً رطباً نقياً يتساقط علي .. وشعرت ببعض السلام يغمر روحي الممزقة ..

* * *

كابوس ٦١

لملمت نفسي عن جذع النخلة . عبرت الحديقة ركضاً وقد حنيت هامتي كالقرود : انها مشية البشر في زمن الحرب الأهلية ! .. وصلت إلى مدخل البيت .. سمعت صوت انسان يتنفس عند المدخل . كان الظلام دامساً . تحولت إلى اذن واحدة كبيرة متحفزة وأرهفت السمع ... شممت رائحة خاصة ، رائحة الخوف ، ولم أكن أدري هل تفوح مني أم من ذلك المجهول القابع في الظلمة ... تراه خائف كخوفي ؟ ام ينتظرني وفي يده سكين ؟ تراه الموت ؟ تراها رصاصة ؟ ترى هل يحس الموتى بالرصاصة التي تقتلهم

كما لو كانت شخصاً له قدمان ينتظرهم في الظلام ؟ إن أحداً لم يعد من الموت ليروي لنا بالضبط ماذا يحدث في تلك اللحظة الحادة الرفيعة الفاصلة بين الموت والحياة . تراني اواجهها ؟ ... وكانت صرخة قد تجمعت في صدري وبدأت تأخذ طريقها إلى حنجرتي .. وقبل ان اصرخ صرخ هو ... وعرفت صوته .. انه الخادم نصف العجوز للعم فؤاد ... صرخت معه في آن واحد تقريباً : لقد ارعبتني ... وقال ، وكاد يغمى عليـه : لقد ارعبتني ! ... وأضيء النور . وعلى العتبة ظهر العم فؤاد : اين كنت ؟ لقد قلقنا عليك ...

قلت له محاولة تجنب اي حوار : لقد عدت وأنا بخير ...

كان من الواضح أنهم بحثوا عني طويلاً وقلقوا فعلاً وكانوا متلهفين لتلاوة التفاصيل عليّ ، كموضوع للحوار في بحر الضجر والخوف الذي نعوم فيه . كان جوابي حاسماً وقاطعاً ، كجواب عائد من جنازة دفن فيها أحب الناس اليه .

كنت أعرف انه لا مفر لي من النوم في دارهم .. فالطابق الأرضي أكثر أماناً من بيتي بالطابق الثالث في ليل الصواريخ .. اتجهت نحو الغرفة التي نمت فيها بالليلة السابقة وانا أقول بصعوبة : تصبحون على خير ... سألني أمين بالفرنسية : ألا تأكلين شيئاً معنا ؟ .. لم أجب ! ...

* * *

كابوس ٦٢

الغربة قدري ...

رائحة الغرف غير المألوفة ... الأثاث الكئيب الذي أحسه يرفضني .. لا أدري لماذا أشعر بالانقباض الشديد وسط هذا الديكور الجنائزي ، ففي هذه الغرفة ماتت زوجة صاحب الدار بين يدي .

(كنت أهبط الدرج ذاهبة للقاء يوسف . فتح أمين الباب وكان يرتجف والحيرة تقطر من وجهه ... بصوت باك قال كلمة واحدة : أمي ...

دخلت اليهم ... كان العم فؤاد يحتضنها ويناديها : ليلى .. ماذا بك ..

تقدمت منها .. كانت بلا حراك ويدها نصف باردة وقد تسللت زرقة خفيفة الى أظافرها ... وفي عينيها كانت هناك نظرة لن أنساها في حياتي ، كان هنالك شعاع الحسر

ولم يعد مصوباً الى الخارج ، الى عالمنا ، بل كأنه عكس اتجاهه الى الداخل أو الى عالم نجهله . نظرة عينيها جعلتني أتأكد في لمحة كالبرق : انها ميتة ...

لم أجرؤ على اعلان ذلك . ربما أيضاً كانوا يعرفون ذلك ولا يواجهونه . قلت لهم : هل اتصلتم بطبيب ؟ بدوا وكأنهم يسمعون عبارة « طبيب » للمرة الأولى في حياتهم . كانوا يرفضون تصديق أن حالتها تستدعي حتى التفكير بجلب طبيب صرخت بأمين : اتصل بالاسعاف .

نهض العم فؤاد وتركها بين ذراعي جثة هامدة ... وغمرني الذعر كما لو أنهم دفنوني حية تحت جسدها الميت ، لكنني بقيت بلا حراك حتى جاء من رفعها عني ...

ذلك اليوم ، ركضت الى بيت يوسف متأخرة عن موعدي . بدا لي غاضباً لكنني لم أفسّر . لم أعتذر لم أبرّر . أغلقت باب الدار خلفي وباشرت خلع ثيابي فوراً ... كانت أول مرة أتعرى من ثيابي كلها أمامه ... كومتها على الأرض ، وتمددت على البلاط في الدهليز ورأسي متجه صوب باب الخروج وناديته : تعال !) ...

ولكن ، لماذا أتهم ذكرى هذه المرأة التعسة بما أحسه الآن من خوف ؟ .. لماذا اتهم الماضي ؟ ام تراني هاربة من مواجهة عذابات الحاضر المروع إلى ماض أقل فظاعة ؟ ..

لماذا لا اعترف انني وحيدة وخائفة في هذا الليل الجهنمي الذي يحيق بي من كل جانب ؟ لماذا لا اعترف بانني يائسة لموت يوسف ، لا أجد لغيابه تعويضاً ولا عزاء ؟ وقلقة أيضاً لسجن أخي ، غاضبة منه وآسفة لأجله في آن معاً ... لماذا لا اعترف انني أحس بالفجيعة بينما الحرب الأهلية تعري أمام عيني اكذوبة الاستقرار التي كدت اسقط في فخها ...

لقد كنت دوماً وحيدة ، مشردة بين القارات والمدن والشوارع والرفاق ، مما سبب شبه قطيعة بيني وبين اخوالي السوريين ... لقد كنت دوماً غجرية المدن ، ما أكاد استقر في مدينة أوروبية حتى أرحل إلى أخرى بعد ان أخلف ورائي بيتاً ومهنة ومكتبة وحلقة صغيرة من الأحباب والأعداء .. لقد كنت دوماً راحلة بين الدروب ، شعري وسادتي ، وجسدي حقيبتي ، ولقائي بيوسف وحده جعلني أحس أحياناً بالحاجة إلى كهف أضع فيه طفلي منه بعد الحمل ... لكنني لم أحمل ولم أضع ومضى يوسف . ورغم كل شيء حاولت ان أتابع حياتي إنطلاقاً من الاستقرار الداخلي الذي خلفته علاقتنا في

نفسي ، والتزامي بأرضي الذي جاء كردة فعل واعية رافضة لإرتباط مزيف باوروبا ... أية مهزلة ! انني يوم انتقلت من بيت اللامعقول إلى بيت الاستقرار ، جاءت الحرب الأهلية لتكشف لي انني بنيت بيتي في مركز الزلزال ... أتراها كانت صدفة أنني يوم قررت أن أنظم مكتبتي ، واكتب لها ارشيفاً والتصق بها حتى أموت ، اندلعت الحرب في بيتي وجاءت أول رصاصة لتستقر في رف مكتبتي بالذات ؟ أتراها صدفة ، أم ان القدر أراد ان يذكرني بالدرس الذي كدت أنساه ... بأن الحقيقة الانسانية الأولى هي التشرد ، وان الاستقرار ليس أكثر من محطات أنس عابرة . وان الاستقرار مستحيل في وطن غير مستقر ! ..

آه يا يوسف ... يا عيناك ، يا صدرك يا صوتك يا أنت ... تقدم ... ها أنا أفتح ذراعي لك في ليل الصواريخ والمتفجرات .. تقدم فالموتى لا يخشون رصاصة اضافية .. تعال الي واتحد بي ، ها أنا ممددة على البلاط في مملكة الغربة ، وقد وجهت رأسي صوب « باب الخروج » من هذا العالم ... صوب الموت ، قبلة المشردين ... فتعال إلى غجريتك يا يوسف ...

* * *

كابوس ٦٣

نعم . يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم رغم طلقاته ...

ورغم المعركة التي كانت تدور بالرشاشات في « شارع الحوراني » المجاور لوسادتي ، وجدتني انزلق إلى بئر النوم والكوابيس ، بدلاً من التحليق في سحب الأحلام ...

منذ الأيام الأولى لسجني وسط هذه المعركة المجنونة وأنا لم أذق طعم النوم .. وكنت أتساءل : ترى هل ستأتي لحظة أستطيع النوم فيها رغم الرصاص ؟ ..

وقد أتت اللحظة .. وجسدي الذي اتوهمه هشاً ، يحوي طاقات سرية مذهلة على التكيف . ولكن الألفة مع الرصاص تشبه ألفة المريض مع سرطانه ... ونوم ليل الرصاص يشبه نوم الجريح المتوجع الذي أتخم بالمورفين ...

انه ليل الكوابيس ...

لا أحس بسرير تحتي ... اشعر بانني ممددة في الفضاء ، تحيط بي رياح الليل والمجهول

من كل جانب ، تحملني وتطير بي عبر غابات أشجارها أجساد بشرية ممزقة تنزف وتصرخ ، تطير بي فوق سهوب محروقة يركض أطفالها كالقطط الصغيرة المفترسة المكشرة عن انياب دقيقة وحادة ، تطير بي فوق بحار تغلي مياهها السود بفقاعات الكبريت والملح والزرنيخ ، وفي جزرها القليلة تسكن قبائل مصابة بالجذام ... وانا أسبح في ليل الكوابيس اللامتناهي ، ويمد المجذومون أصابعهم المتآكلة فيمسكون بشعري ، ويشدونني إلى الأرض ... ويبدأون بالتهامي ... واصرخ .. ثم اتابع طيراني ، عائمة في الفراغ فوق فراش الليل والمجهول والكوابيس .

* * *

كابوس ٦٤

القناص يجلس فوق سطح العمارة المواجهة للبحر ، وله عين واحدة كبيرة في منتصف وجهه ...

منذ أشهر وهو لا يبدل جلسته ، ويؤدي مهمته التي لم يعد يذكر كيف ولماذا بدأ يمارسها ... كل ما يعرفه الآن هو أن عليه ان يقتل أكبر عدد ممكن من الناس ...

كان في البداية يتوهم ان مهمته ستكون أكثر صعوبة ، وأنه سيضطر إلى الركض كثيراً حول أطراف سطح العمارة كي يستطيع صيد الناس .. كان يظن صيد البشر أكثر صعوبة من صيد العصافير . لكن ما أدهشه هو ان الناس كانوا يأتونه طائعين ... حينما صارت عمارته مركزاً لإطلاق النار ، ظن أن الناس سوف يتجنبونه ، وسيكون عليه ان ينتقل إلى عمارة أخرى . لكن المذهل ان الناس كانوا يقبلون إقبالاً عظيماً على الوقوف داخل مرماه طائعين ... كانوا يأتونه كل يوم أسرة بعد أخرى ... تأتيه الأسرة بكل أفرادها الشيوخ والأطفال ، وهو يطلق الرصاص عليهم . وحين يصابون بالرصاص، يلوحون له شاكرين ثم يسيرون خطوات قليلة نحو البحر حيث يسقطون .. بعدها بلحظات تأتي موجة تكنسهم عن الشاطىء وتفرغ المكان للأسرة اللاحقة بهم .. وهكذا ...

انه يشعر بأن أهل بيروت يمارسون انتحاراً جماعياً ارادياً ما داموا يأتونه طائعين هكذا ... لقد حرموه لذة الصيد ، وحولوه من قناص مزاجي إلى جلاد مثقل بالعمل ... كان يشتهي لذة مطاردة الرجل ، وتخويفه ، وإطلاق الرصاص أمام قدميه أولاً ، ثم جرحه في يده كي يتابع ركضه ، ثم اطلاق الرصاص على بطنه ليموت ميتة مؤلمة طويلة

الاحتضار ... ولكن أهل بيروت يفاجئونه بشهيتهم للموت ، وبانتحارهم الجماعي المثير ...

انهم يأتونه حاملين مرضاهم على النقالات المصنوعة من الخرق الرثة ، وعلى العكازات ، وعلى ظهورهم ، ويطرحونهم أمامه كما لو كان يملك لمسة الشفاء ... ويحملون أطفالهم الرضّع على ظهورهم ويجيئون ... ويقفون في مرمى محدد بحيث يسهلون مهمته إلى أقصى الحدود ... لا يتحركون .. وكل ما عليه هو أن يطلق النار ...

بل انهم رسموا ديكوراً لمكان اطلاق النار شبيهاً بتلك الديكورات الكرتونية التي يستعملها المصورون في مدن الملاهي والألعاب ... وقد ظهرت في الكرتون الملون صورة لنخلة ولأرزة مرسومتين برداءة .. كانوا يقفون أمامه كما يقفون أمام المصور لالتقاط صورة ، صورتهم الأخيرة . ولم يكونوا ليبتسموا أو يبكوا .. كانت ملامحهم جامدة وغامضة كملامح الذين يقفون أمام الكاميرا لالتقاط صورتهم الأمامية والجانبية قبل الدخول إلى السجن ...

كانوا يمارسون انتحاراً جماعياً مذهلاً ... والقناص غاضب يشعر بأنه مغبون في الصفقة . إنه الآن مجرد موظف محترف ، ولم يعد يستمتع بعمله بعد ان حرم من نشوة القنص .. بل انه ذات يوم ، ضجر من تلك العائلات المنهمرة عليه للانتحار ، وسئم من قتل هدف لا يتحرك ولا يهرب ولا يشكو ، فحول بندقيته إلى السماء ليطارد طيراً ابيض كان يحلق بنشوة صوب البحر الأزرق الشاسع ... وأطلق الرصاص على الطائر فأخطأه ... كانت أول مرة في حياته يخطىء هدفاً حياً .. لكنه لاحظ ان يده صارت ترتجف وان أصابعه فقدت مرونتها ومهارتها ، وان عينه الواحدة الكبيرة صارت ترمش وهي تحدق من خلال عدسة التصويب ... كانت نشوة الصيد حياته ، وقد خسرها .. لقد قتله ضحاياه ... قتلوه ولم يقتلهم .. كانوا ينتحرون وكأنه يسدي لهم خدمة ! ...

ها هي أسرة جديدة تصل . تصطف أمامه . يطلق الرصاص . كل منهم يتلقى رصاصته في جبينه ثم يمشي صوب البحر ليموت بعد ان ينحني شكراً له ... ولكن شيئاً غريباً حدث ... لقد انقضت ساعات ولم يأت أحد ليموت ... لم يعد يسمع صوتاً .. لقد توقف كل شيء . مات كل شيء حتى الريح .. ماتت الأصوات . وجثث الرياح ممددة على الأرصفة .. جثة السماء ممددة على الأفق وقد سرت فيها زرقة رمادية داكنة ...

جثث الألوان مكومة تحت الأشجار كأوراق الخريف .. لا صوت .. لا حركة .. لا طائر يحلق ، ولا طائرة تعبر السماء .. جثة الرحيل منسية ، والزوارق على الشاطىء مقلوبة وباطنها نحو الأرض وقعرها الذي تغمره المياه عادة متجه نحو الأعلى كرجل ممدد على بطنه ، ووجهه إلى الأرض وقد فارق الحياة ..

ها هو رجل قادم من آخر الزقاق ... انه يسير بحذر . انه يبدو مذعوراً .. خائفاً قلقاً كطريدة ... لعله آخر رجل في المدينة ، ومن الأفضل أن يُبقي عليه ليتحدثا معاً ولا يبقى وحيداً . لكن الدم تدفق حاراً في جسد القناص ... نسي خوفه ... عاوده عطشه إلى القنص والدم .. حمل بندقيته وجمع كل ما في جسده من طاقة وشهية للافتراس وأطلق النار ... كانت الطلقة محكمة ... أصابت الأرض على بعد خطوة من الرجل ... كان ذلك بالضبط ما يريده ... كان يريد تخويفه وقد نجح .. طلقة أخرى محكمة اصابت الرجل في يده .. وبدأ الدم ينزف منها ، وفرح القناص ولم يلحظ أن الدم كان ينزف من يده هو أيضاً وفي الموضع نفسه ... طلقة ثالثة محكمة في الفخذ .. سقط الرجل أرضاً وبدأ ينزف ولم يلحظ القناص أن الدم كان ينزف من فخذه هو أيضاً ... طلقة رابعة محكمة ، في البطن ... لم يعد الرجل يزحف وإنما استسلم للإحتضار البطيء ، ولم يلحظ القناص أنه كان قد بدأ ينزف من بطنه أيضاً ... وفي الموضع نفسه ... لكنه يشعر بتعب شديد ، فيقرر الاجهاز على ضحيته برصاصة الرحمة ، لكنه يشعر برغبة في رؤية وجهه يركض إليه ، وحين يقلبه على ظهره يرى ان له وجهه هو .. كما لو كان يحدق في مرآة ! ... بعدها فقط أحس بالألم المروع في أحشائه ، وعرف أنه سيموت ميتة بطيئة مؤلمة طويلة ... ولم يكن بوسعه ان يطلق النار على رأسه ليختصر عذابه ، فقد كانت بندقيته طويلة ... أطول من ان يلصقها برأسه ثم تصل أصبعه إلى زنادها .

* * *

كابوس ٦٥

نعم ، يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم الكابوسي رغم طلقاته .. أما الصواريخ فلا ... أما القنابل فلا .. خصوصاً اذا كانت تسقط على بعد أمتار منك ...

كان الدوي الذي ايقظني مروعاً ... قفزت عن السرير ، وركضت إلى النافذة ...

كان من المفروض أن أركض إلى ما تحت السرير ، ولكن وجدتني أمام النافذة ، كأن الحس بالفضول يعادل الحس بالخطر ان لم يكن يفوقه ..

كانت النار تندلع في فندق « الهوليداي إن » المقابل ... والانفجارات تتوالى ورقعة النار والدخان تتسع .. والفجر الرمادي الشاحب بدأ يتوغل في المرئيات أمامي ، وخلف النافذة في الحديقة كانت شجيرة الياسمين ما تزال مزدهرة ، وأزهارها البيض تبدو كالنقاط المضيئة وسط هذا العالم الرمادي القاحل ...

شعرت بالحقد على الفندق ، وعليه (شخصياً) كبناء ... قبل ان يشيدوه ، كنت استطيع ان أرى البحر ، والمراكب البيض ، ثم فجأة صبوه أمام عيني مثل جبل من الاسمنت والحديد ... ومن يومها (ازدهر) الحي ، بمعنى ان الأسعار ارتفعت وحركة السير تضاعفت ولم أعد أجد مكاناً أوقف فيه سيارتي ظهراً حين أعود من عملي مرهقة كعجينة تحت أصابع فلاحة .. وها هو اليوم مركز للدخان والنار ...

كان هنالك صوت خافت في داخلي يدافع عن المبنى ، ويقول لي ان عشرات الأسر ترتزق منه ، وانه لا يحق لي ان أحقد على مبنى لمجرد انه يحجب عني الشمس والبحر ، ولمجرد انه يقصف ويسبب لي الرعب .. لكنني في تلك الساعة من الفجر المبكر ، والخوف يقرض أطراف عظامي ، لم أكن على استعداد للمحاكمات العقلية الطويلة .. وكانت هنالك مشكلات عملية أخرى تواجهني ، ابرزها ان الخبز يكاد ينفد تماماً لدينا ، وانني عاجزة عن أكل ولو قطعة لحم واحدة لكثرة ما شاهدت من الجثث وصورها وحكاياها — على أية حال نفد اللحم أيضاً — وصرت شبه قانعة بأن كل ما نأكله هذه الأيام هو لحم بشري ! . وقررت الصعود إلى بيتي في الطابق الثالث وتفقد أحواله (العسكرية) ، وتفقد خطوطه (التموينية) أيضاً ...

توقف القصف وساد من جديد ذلك السكون المتوتر ... سكون ساحات الحرب الذي يختلف عن اي سكون آخر .. انك تستطيع الانصات اليه ، واذا استمعت جيداً إلى صوت السكون فستسمع أشياء كثيرة ... سمعت همهمات مخلوقات دكان الحيوانات الاليفة ... اذن لم تهرب بعد . ترى هل هرب بقية أهل الحي . كانت النوافذ كلها موصدة كنوافذي ، وعلى إحدى الشرفات ثياب طفل ما تزال منشورة على الحبل منذ تحول إلى جبهة حرب ، ولم تجرؤ أم الطفل على جمعها .. ام تراهم غادروا المنزل ؟ ...

كان هنالك قميص ابيض كبير منشور على الحبل بين ثياب الطفل (ربما كان قميص والده) ، ولا أدري لماذا بدا لي مثل علم أبيض كبير مرفوع وسط فجر الدخان ... انشق باب الشرفة ببطء . امتد رأس مذعور ثم اختفى . امتدت يد من الداخل تتحسس الغسيل لترى ما اذا كان قد جف ام لا . تسللت امرأة لتجمعه بسرعة . تبدو خائفة . يدها ترتجف وتسقط منها ملاقط الغسيل وبطنها الكبير يتقدمها . المرأة الحامل تتابع جمع ثياب الطفل المنشورة وتبدو كما لو كانت تسرقها ! فجأة تنطلق رصاصة . تُراها استقرت في بطنها في قلب الجنين ام في قلبها هي ؟ سقطت المرأة على أرض الشرفة ولم أعد أراها . انه القناص يقول لأهل الحي « صباح الخير » على طريقته ، لم يخرج أحد إلى الشرفة . لا ريب وأن زوجها لا يجرؤ حتّى على جرها إلى الداخل . سمعت صوت طفل يبكي بحرقة .. لعله طفلها الذي لن تغسل له ثيابه ثانية !

كان العم فؤاد واهل البيت ما زالوا راقدين ... تسللت إلى بيتي محنية الهامة ، مرتجفة ، كما لو كنت لصاً في طريقه إلى السرقة ، لا مواطناً عائداً إلى بيته ، وكنت مثقلة بالحزن حتّى الغثيان .

* * *

كابوس ٦٦

لماذا يختار الرصاص الطائش رف مكتبتي باستمرار ؟ ما سر تلك العداوة الغامضة بين الكتاب والرصاصة ؟ تفقدت غرف البيت كلها ، ووجدت ان الليلة الماضية مرت بسلام على جدراني ما عدا أربع رصاصات استقرت في رف « الكتب الثورية » بمكتبتي . والمضحك انني أجلس بأمان فيه ما دامت الشمس مشرقة ، وأهرب منه إلى بيت العم فؤاد متى حل الظلام ، كأن الرصاص لا يمكن ان يصيب مني مقتلاً إلا في الليل ! .. (تأثير آخر فاسد لافلام المغامرات السيئة على أدمغتنا ، حيث لا يقتل الممثلون إلا ليلاً ، ولا تتم الجرائم إلا في الظلمة !) ...

كان علي ان اتصل بأحد المحامين لاخراج أخي من السجن . الوقت ما يزال مبكراً ..

هذا يومي الرابع وانا مقطوعة تماماً عن العالم الخارجي . لا صحف . لا باعة . لا مخلوق يعبر شارعنا . لا صوت سوى صرخات المسلحين الغامضة . شعرت بالحنين حتّى إلى صوت الحفارة التي كانت فيما مضى تنغص عليّ حياتي . الحفارة رغم صوتها المروع

تعني على الأقل العمل . تعني الحياة الطبيعية . افتقد حتّى صوت جارنا جاك الذي كان يضحك كما لو كان يتشاجر ، ويتشاجر كما لو ان مذبحة قد وقعت ... وافتقد موسيقى بناته والستريو ذا الأبواق الثمانية ، الذي كان لا يهدأ ليل نهار ... افتقد كل الأشياء التي كنت أكرهها ... اي شيء خير من هذا السكون المروع والعزلة القاتلة . تمنيت لو يأتي أي مخلوق .. لو يفتح الباب في هذه اللحظة وتدخل عصابة للسرقة ، لرحبت بافرادها ولرجوتهم ان يجلسوا معي قليلاً لنتحدث معاً ولآنس بهم قبل ذهابهم ... بدأت اتخيل ان الأمر يحدث حقاً . يفتح الباب . يدخل ثلاثة من السارقين شاهرين مسدساتهم . بل رشاشاتهم . لنقل مسدساً ورشاشين . سيدخلون مقنعين ويصرخون بي : ارفعي يديك إلى الأعلى ...

سأمد يدي اليهم مرحبة مصافحة وسأقول لهم : أهلاً وسهلاً بكم . لقد تأخرتم طويلاً وانا انتظركم منذ أيام . الوقت ما زال مبكراً ولا ريب في أنكم لم تشربوا قهوة الصباح بعد ! .. سأعد لهم القهوة واسألهم كيف يحبونها (سكر وسط – زيادة) . سيقول أحدهم انه يفضل السكر كثيراً والثاني متوسطاً والثالث قليلاً من السكر في قهوته .. سأضحك وسأقول لهم : انكم لا تستطيعون الاتفاق حتّى على قهوتكم الصباحية ، فكيف تتفقون على اي أمر آخر ؟ ...

وحين آتيهم بالقهوة ، سيضطرون إلى رفع أقنعتهم كي يشربوها ... سأرى وجوههم ، متعبة ، ومصفرة ، ويشكون من فقر الدم . وسنتحدث قليلاً عن الطقس والأسعار والغلاء ورائحة القمامة المحترقة التي تفوح من شوارع بيروت كلها ، وخطر انتشار الاوبئة ، وسأنبههم إلى ضرورة تطعيم اولادهم ، ثم سأساعدهم على حزم ما يختارونه من مسروقات من بيتنا ... لن يضايقني ان يأخذوا اي شيء ما عدا الكتب ، ولكنني لم اسمع بعد عن سارق حوكم بتهمة سرقة كتاب .. فالكتاب ثقيل الوزن ، ثم انه بضاعة كاسدة لا أحد يشتريها . أجل ! لن يسرق أحد كتبي وهذا هو كل ما يهمني . وحين يمضون سأقف على الشرفة والوح لهم بمنديل ابيض مودعة ... وقد يكتبون لي عناوينهم – اذا كانت لهم عناوين – لنتزاور في المناسبات القادمة .

رنين الهاتف يوقظني من كابوسي ... ترى من يطلبني في هذا الصباح المبكر ؟ .. مزيد من الأنباء السيئة ؟ .. انها سلوى تريد ان تعرف هل وافق الاستاذ صبري على

ضمها إلى فرقته للرقص ؟ ومتى يقابلها ! ... تقول انها لم تنم الليلة الماضية قلقاً . انها خائفة من ان ترفض ! .. أختها مريم ؟ آه .. نسيت أن تخبرني أن مريم قتلت ! ..

* * *

كابوس ٦٧

اخرجت لفافة ، ووضعتها في (الاكوافيلتر) الذي يمتص النيكوتين ثم انفجرت اضحك ... لمن اوفر رئتي ؟ للرصاص ؟ انني كمحكوم بالاعدام يرفض تدخين لفافة لانها تؤذي صحته ! ... اشعر بانني مبعثرة ومشتتة ، ولكن عليّ ألا انسى الاتصال بمحام من أجل الافراج عن أخي . لم يضايقني انه في السجن ، فالسجن اليوم هو المكان الوحيد الأمين في بيروت . ولم تقع فيه حادثة قنص واحدة ، ولا حادثة خطف ! حتى مستشفيات المجانين لم تسلم من الخطف ، أما السجن فلم يتذكره أحد بعد ... (لا أدري لماذا دهش الناس لخطف بعض نزلاء مستشفى المجانين ، الم تستحل بيروت كلها إلى (عصفورية) واحدة ؟ .. فلم هذا التمييز (العنصري) بين نزلاء المصحات ونزلاء بعض المتاريس ؟ ...)

قرأت قليلاً في كوم الصحف العتيقة ، ثم قررت التوقف عن ذلك لأنها تحرض مزيداً من الكوابيس ، وتجمع أهوال الشهور الماضية في كوم أمام عيني .. وتحولها إلى شريط ينزلق داخل رأسي مليئاً بالصخب والعنف والكوابيس .

كان لا مفرّ من الاستماع إلى اذاعتنا الكريمة ، وهو عمل لم اقترفه منذ زمن بعيد ... وهكذا بدأت استمع في الساعة السادسة والنصف إلى اغنية :

(ما أحلى الصبحية — نحنا والجيران — والعيشة هنية — والقلب فرحان) .. وذهلت .. كيف تتحدث اذاعتنا الكريمة عن (العيش الهانىء) مع الجيران والبؤس جارنا الوحيد ؟ ..

ولم أكن أدري ان امامي المزيد من المفاجئات ... فقد استيقظت هذا الفجر على دوي متفجرات مدينتنا المشلولة ، لكن الأغنية التي اسمعها الآن تقول (مع طلة صباح النور دولاب العمل يدور) .. ولم يكن هنالك ما يدور غير امشاط الرصاص داخل المدافع ! ...

السابعة والنصف صدحت انغام (قصة حب) وكانت قصة الحب الوحيدة التي تدور في بيروت هي بين الجرح والخنجر ! ...

الثامنة إلا الربع كان هنالك من لا يخجل من بث اغنية تقول : بلدي ، يا رقصة الجداول ... يا ملعب عصافير .. يا درب السنابل وكروم الذهب .. ودروبها حكايات وسطوحها مرايات .. ثم يكرر المطرب مؤكدا : والمجد معمرها .. العز مزنرها .. عليانة عالريح .. وكان الامر مروعاً ...

هل الاذاعة ببغاء من ببغاوات دكان بائع الحيوانات الاليفة ؟ ما هذا الهذيان عن (المجد) والبلاد على حافة الأنهيار ؟ ما هذا الهذيان عن كروم الذهب ، والفقراء والعاطلون عن العمل يفرشون كرومها بالدمع والغضب ؟ .. (يا ملعب عصافير) ؟ اية عصافير ؟ لقد احرقوا اجنحتنا فخرجنا من بيوتنا شاهرين غضبنا ومخلبنا ، وخرجت الفئران أيضاً من أوكارها جائعة تقرض عيون الجثث التي تغطي الأرصفة ...

وكانت الكارثة الحقيقية حين بدأ المذيع بتلاوة نشرة الأخبار مؤكداً ان الحالة في بيروت هادئة لم يعكرها سوى بعض (طلقات متفرقة) ! ...

وتساءلت : من يخدعون ؟ وهل تعد نشرة الأخبار خصيصاً لابهاج (أبانا) الذي فوق قمة الهرم ، ام ان الاذاعة التي ننفق عليها من أموالنا ، مرغمة على نقل الحقيقة لنا ؟..

بعد الأخبار الكاذبة — تحت ستار تهدئة الرأي العام ، كأن الرأي العام صبي قاصر — عادت الاسطوانات العتيقة نفسها والأغاني المزيفة نفسها (لبنان نسمة ارز للدنيا هناء وللعز اغنية .. ارض شوكها زهور .. لبنان دنيا حب ومواسم جنى وآيات مضوية ولبنان شو لبنان) ..

ولبنان يا سيدي المذيع (الذي لم يطلق على رأسه النار قبل ان يرضى باذاعة هراء كهذا) ، لبنان يبدو عبر هذه الاغاني المزيفة هزلياً كرموش اصطناعية على عين عوراء .. كل هذه الأغاني تبدو هزلية بينما القتال يدور في فضاء الوطن .. هزلية ومؤسفة مثل اسطوانة تانغو رومانتيكي في ستيريو ، وقد توقف الناس عن الرقص وبدأوا يتضاربون فيما بينهم بالسكاكين والفؤوس وينزفون وقد تعالى الصراخ وبلغ الدم الركب ، لكن الأسطوانة الرومانتيكية البلهاء نفسها ما تزال مستمرة في العزف لان يداً واحدة شجاعة لم تمتد لايقافها .. انك لا تستطيع تغطية أصوات الثورة الصلبة بأغنيات (الستمنتالية) السمجة الجوفاء ..

في العاشرة تماماً حين بدأ بث اغنية (... بلاد النعيم لبنان) ، نقلت ابرة المذيع من

المحطة الشرعية الكاذبة ، إلى المحطة غير الشرعية الممنوع الاستماع اليها ... اي الموجة القصيرة ... وبدأت استمع إلى حقيقة ما يدور فعلاً .. (من طارق إلى واحد بدل .. المكتبة الوطنية تحترق ..)

انها النقلة نفسها التي يقوم بها المواطن حين يتعرض لاعتداء ، فلا يصرخ « يا بوليس » وانما يشتري سلاحاً ...

كانت الهوة مروعة بين ما يدور وراء الكواليس ، وما يقدمه لنا المسرح الرسمي ... ولن يلوم أحد الجمهور اذا انقض على المسرح ليحرق الديكور ويشنق القائمين عليه ، ويعري بؤس الكواليس لشمس الحقيقة ..

* * *

كابوس ٦٨

الهاتف .. ناديا تودعني . انها راحلة واطفالها . لم أقل لها ان الوطن ليس شيكاً يمكن تجييره على بنوك أوروبا . لم أقل لها ان الوطن ليس حقيبة . لم أقل لها اي شيء .. فالخطأ لم يكن خطأ اللحظة .. بل كان ثمرة خطيئة نضجت في رحم اللامبالاة عاماً بعد عام ... حتى ولو قلت لها ذلك كله لأجابتني ببساطة : ما معنى البقاء كالجرذان السجينة في جحورها ؟ ولماذا يقتل طفلي بالصدفة لمجرد انه وقف على الشرفة ؟ .

منذ البداية كان علينا ان لا نكتفي بالحياد . كانت (المسالمة) جريمتنا ، وهكذا ، حين دار حوار الرصاص وجدنا انفسنا خارج اللعبة ، وضحايا لها في آن واحد . (نحن المجرم الأول الحقيقي لاننا سمحنا لذلك كله بأن يحدث تحت ستار الحياد !) ... هكذا يصرخ صوت في داخلي وانا أتمتم : وداعاً يا ناديا ...

تذكرت ناديا الأخرى صديقتي الفلسطينية ..

سألتها منذ أيام هل سترحلين عن بيروت مع النازحين ؟ .. قالت تصف ساخرة : « نحن لن نغادر بيوتنا ... فقد تعلمنا درساً في فلسطين . الآن جاء دوركم لتتعلموا هذا الدرس ! ... وثمنه دوماً باهظ » .. سعيد من له مرقد عنزة في لبنان ؟ لا .. بل مرقد سلاح . ومرقد جثة ..

فالأرض لمن هو على استعداد للموت من أجلها ... دوماً ...

* * *

كابوس ٦٩

ضحك المحامي الاستاذ انيس طويلاً وهو يستمع إلى حكاية إلقاء القبض على أخي بتهمة حمل سلاح غير مرخص ! ... ضحك أكثر من حجم النكتة ، وعبثاً حاولت افهامه انها قد تكون نكتة لكن أخي حالياً في السجن ... أصر على الضحك ، فقط ...

اي جنون يجتاح هذه المدينة ؟ صار من الصعب ان يدور اي حوار منطقي سليم بينك وبين اي انسان .. كأن الحرب الأهلية طوال الأشهر الأخيرة أصابت أهلها جميعاً بمس ما .. كأننا جميعاً شربنا من نبع الجنون .. بعضنا يرحل .. بعضنا يضحك .. بعضنا ينتحر .. بعضنا يريد ان يرقص الدبكة .. بعضنا ما زال متضايقاً من الأحداث بسبب تأثيرها على (الحركة السياحية) ! ...

غمرني حزن عميق .. ليست مأساتي انني حيادية .. فأنا منحازة .. مأساتي انني لا اقدر على معاقرة السلاح واكره العنف ... اما الآن فأتمنى لو كانت كتبي كلها مطافىء حريق وقطناً وشاشاً معقماً ، ولو كانت رسائل القراء إليّ مكتوبة على ارغفة الخبز ، اذن لاكلتها على الأقل ! ...

* * *

كابوس ٧٠

صراخ حاد ...

رغم شلال الرصاص والمتفجرات ، فأنك لا تملك إلا أن تميز الصوت الانساني مهما كان خافتاً ...

ركضت إلى النافذة وتلصصت على الشارع الذي يفصل بيني وبين فندق « الهوليداي إن » على الرصيف المقابل ...

وعلى الرصيف ثمة رجل مصاب برصاصة ، وهو ممسك بكيس ...

أتأمله ، والشارع بامتاره الخمسة يصير دهراً وأزماناً تفصلني عن الجريح .. انه يتوجع ويصرخ بصوت حاد ... وانا ارقبه عاجزة عن مد رأسي من النافذة ... وكنت اعرف انه سيظل يصرخ حتى يموت ، تماماً كتلك السيارة التي انطلق بوقها في الليل وظلت تعول وصوتها يخفت تدريجياً حتى فرغت بطاريتها ... سيظل يعول ، في البداية بصوت مرتفع كما يفعل الآن ثم سيخفت صوته ، ويغرق شيئاً فشيئاً في اسفلت الرصيف

الذي صار مستنقع رمل متحرك اسمه الموت ... وسينطفىء صوته حين تفرغ بطارية الحياة في جوفه ... كان مروعاً ان أرقب انساناً يموت دون ان اقوى على ان أفعل اي شيء لاجله غير مراقبته من خلف النافذة ، اتألم ، وفي الوقت ذاته أفرح فرحاً شريراً لانه هو الذي يموت وليس انا ! .. ها هو صوته قد بدأ يخفت .. انه يتوجع واتمنى لأجله ان يموت سريعاً ، مرة قلت لحبيبي يوسف : « اريد منك هدية لعيد ميلادي .. اريد ان تحضر لي ذلك السم الذي يكفي ان تضعه على لسانك حتى تموت فوراً . انه اعظم هدية يمكن ان يقدمها عاشق لحبيبته . انه يهديها القدرة على الموت متى شاءت » .

اذكر انه ضحك يومها طويلاً . واعتبرها نكتة سمجة ! لماذا لا يستطيع العشاق ان يلحظوا كم الموت قريب والوجع ممكن ؟ ... لو كان هذا المسكين يحمل السم في جيبه ، لانطفأت صيحاته ولاستراح ، ولأراح ... لعل أهل الحي يرقبونه مثلي من خلف النوافذ ، ويموتون معه ... يتوجعون معه .. كلما مات حيّ أمام اعيننا متنا معه جميعاً ..

منذ مات يوسف وفكرة الانتحار تراودني .. حسناً .. كل ما علي ان افعله الآن هو ان اقطع الشارع أمام بيتي ، من الرصيف إلى الرصيف الآخر ... سأموت موتاً مجانياً مضموناً ، وستستقر في رأسي عشرات القذائف .. كأن الرصيف المقابل صار رصيف العالم الآخر ، واسفلت الشارع صار نهر الموت الرمادي ... نهر اللاعودة .. فلماذا لا أقطع الخطوات الباقية اليه بكل هدوء ودونما تردد ، ولماذا لا أموت مع هذا الرجل الذي لم أر له وجهاً من قبل؟ ستكون رحلة الموت أقل غربة على الأقل... رحلته ورحلتي .. سأضمه إلى صدري وسأقول له : جئت اليك يا يوسف فخذني . في لحظة الاحتضار يصير أي رجل حبيبي ما دام يمثل لي رجال العالم أجمع ، كيوسف ! لست جادة . فكرة الانتحار تراودني فقط . اتعامل معها بترف غير جاد . اعترف .

لا . لن اقطع الشارع . لن اذهب إلى الرصيف الآخر . اريد ان اعيش .. يجب ان أنجو من هذا الجحيم .. وبعدها سأعيد النظر فيما اذا كانت القنبلة اليدوية أكبر من المحبرة ، والرصاصة أكبر من القلم أم لا ... ووجدتني ابحث بعيني عن سيارتي واقدر إمكانية الهرب بها ... وكان الزجاج المكسر يغطيها ! . ولعل صوت احتضار السيارة الذي ملأ الحي بزعيق بوقه كان صوت احتضارها .

* * *

كابوس ٧١

.. أن أهرب من هذا الجحيم ...

ما دمت لست مقاتلة (حتّى اشعار آخر) ، ولا أعرف كيفية استعمال السلاح ، وما دام بيتي مليئاً بالنوافذ وليس ملجأ ذرياً ، وما دامت سيارتي عادية وليست مصفحة ، فعليّ محاولة الخروج من ساحة الحرب هذه حية ..

الهــاتف .

انه العم فؤاد . قال انهم قلقون فقد استيقظوا ولم يجدوني . طلبوا مني الهبوط وتناول طعام الغداء معهم . لماذا استعمال التلفون بين بيتهم وبيتي وسلم قصير يفصل بيننا ؟ . كنت اعرف ان ذلك يعني ببساطة ان أحداً بينهم لا يجرؤ على الصعود لبيتي المعرض جداً للرصاص ، ولا يريدون ان أموت كي لا تفوح رائحة جثتي . تكفينا الجثتان المرميتان في عرض الشارع . لم يجرؤ أحد على الاقتراب منهما حتى الآن ، وحتى القطة التي جلست البارحة أمام الجثة الأولى كأنما تندبها ، هربت اليوم من رائحتها ! ...

نزلت اليهم . امين في حالة هياج ضد الذباب . كان دائماً شاباً مطيعاً ومثالاً للابن البار ، ولذا بدا لي هياجه ضد الذباب مضخماً كأنه تفريغ لرفضه الداخلي أو كأنه التوكيد الوحيد لوجوده ...

كان يقفز خلف الذباب الذي بدا لي كبيراً ومفترساً ... قتل حتى الآن خمس ذبابات وما زال يقفز داخل البيت الذي تهزه الانفجارات وهو يطاردها ... كانت عملية قتل الذباب لامتناهية فقد كانت النوافذ مفتوحة (من الخطر اغلاقها خوفاً من الانفجارات وتطاير الزجاج ، وهكذا كان بوسعه ان يتابع معركته الدونكيشوتية إلى ما لا نهاية ...)

اما انا فقد جلست والعم فؤاد . الح علي بمشاركته في شرب العرق . رفضت . قال : « ستندمين ندامة الكسعي » . اقتنعت . ولم اسأله حكاية الكسعي وانما بدأت اشاركه شرب العرق . كنا صامتين واجمين إلا من تثاؤبه بين حين وآخر ... بعد قليل عاد يحاول تذكر ذلك البيت الشعري المنسي وصار يكرر : « ومن يدرك الدهر ... ومن يدرك الدهر » .. وكالعادة (أدركه) النوم وراح في اغفاءة عميقة ... أمين ما زال مستغرقاً في شن حربه على الذباب ... اشعر بوحدة لا حدود لها تغمرني ممزوجة بأصوات القنابل التي

تتهددني في كل لحظة ... قررت : يجب ان اخرج من هذا الجحيم ، بأي ثمن . لن اقتل بالضرورة ، ها هو أخي قد استطاع النجاة .. كان هنالك سيف عربي عتيق معلق على الجدار كتعويذة خرافية . حملته ، وشهرته وفتحت الباب . الخادم يتأملني بهلع وفي عينيه قرأت عبارة : انت ثملـــة ...

وتذكرت انني شربت كثيراً من (العرق) لكنني في تلك اللحظة كنت واثقة من انني صاحية (ككل الثملين !) ..

خرجت إلى الحديقة وصوت العم فؤاد يلاحقني : « ستندمين ندامة الكسعي » ، وكانت الأبنية الشاهقة تحيط بنا من كل جانب « والهوليداي‌إن » كغول خرافي وانا احمل سيفي العربي العتيق في وجهه .. تذكرت الأساطير العربية القديمة ، وتخيلت سيفي مسحوراً أستطيع ان أشطر به الفندق نصفين ، وتابعت تقدمي نحو باب الحديقة لأخطو إلى الرصيف فالشارع .. قررت ان اجرب سيارتي في البداية ، وان تحركت هربت بها ، وان خذلتني فليس أمامي سوى السير في الشارع شاهرة سيفي ! .. لم يخرج ورائي لا أمين ولا الخادم ... لم يحاول أحد منعي . كنت في مرمى الرصاص ، والاقتراب مني مغامرة ! .. وصوت العم فؤاد يرن في اذني « ستندمين ندامة الكسعي » واقهقه بصوت عال كالمعتوهة ... احمل السيف العربي الصدىء وامشي به نحو باب الحديقة ..

قررت ان القناص لن يقتلني فوراً . سيثير منظري فضوله على الأقل . لقد شاهد أشخاصاً يحملون العلم الأبيض او كيس الخبز أو طفلاً وقتلهم جميعاً ، لكنه لم يشاهد بعد مجنوناً يخرج عليه شاهراً سيفه ! كان أملي في الحياة معلقاً بالروح (الفكاهية) لدى القناص ! رغم هلعي شممت رائحة شجيرة الياسمين وكان عدد من القذائف الفارغة قد استقر تحتها .. رغم هلعي فرحت (بأن الشمس تلسعني) وكانت هذه أول مرة أقف فيها تحت السماء الزرقاء منذ أربعة أيام .. أو أكثر ؟ ..

وصلت إلى الباب الحديدي للحديقة دون ان تستقر في رأسي رصاصة . كان ذلك بحد ذاته انتصاراً كبيراً . ظللت شاهرة سيفي الدونكيشوتي بيد ، محاولة فتح باب سور الحديقة باليد الأخرى .. فوجئت به مقفلاً بسلسلة حديدية ! ...

وهنا فقط بدأ الرصاص ينهمر عليَّ من ناحية فندق « الهوليداي‌إن » اللعين . التصقت بالعمود احتمي به ، وتوقف اطلاق النار ... وقررت العودة إلى البيت لاحضار المفتاح ..

ولم أكد أخطو خطوة واحدة حتّى عاد وانهمر الرصاص . وعدت إذن موقعي من العمود .. بعد دقائق أحسستها عمراً عاودت الكرة ، وكان الرصاص يتطاير عن الأرض في الاتجاهات كلها .. وفهمت اللعبة .. قناص « الهوليداي‌إن » يريد ان يتسلى ، وها أنا الآن سجينة العمود والباب المقفل .. أية خطوة مني إلى الخارج أو إلى الداخل عقابها الموت .. كانت الشمس تحدق بي عبر السماء الزرقاء ، وبدا لي الأمر مضحكاً ... ها أنا سجينة ، دونما جدران ولا قيد .. سجينة هذه السماء الشاسعة والضـوء والأشجار والتراب ... لا أحد قيدني إلى العمود لكنني ملتصقة به .. وشعرت بذل لا حدود له ... ذل سجين بلا قيد .. سجين غرفة لا مرئية اسمها الخوف . شفافة الجدران حتّى لا ترى ، تأتيك عبرها أشعة الشمس وزرقة السماء ورياح الخريف ، ولكن طعمها كلها قد تبدل ... صار له طعم الذل ... طعم السجون الشفافة الجدران ، اللامرئية القيود : أبشع السجون!..

ووعيت حقيقة مروعة : اذا لم أقتل حيث أنا ، فسيكون عليّ ان أنتظر غروب الشمس حتّى أستطيع التسلل إلى بيتي بمأمن من القناصين . ووعيت كم انا نملة ، ومضحكة ... وغسلت السيف العربي بدموعي وقد الصقت رأسي إلى حده غير الحاد وأناأبكي كمن يبكي على صدر والده العجوز المشلول ... وندمت (ندامة الكسعي) الذي لا أعرف ما حكاية ندمه ...

لم استطع الانتظار حتّى حلول الظلام . صربت متوترة ومتضايقة ومفترسة ... وركضت باتجـاه البيت كأي حيوان في الغابة غلبته غريزته على حكمته ، ولم تنهمر حتّى رصاصة واحدة ! ..

لعل القناص قرر عدم قتلي اليوم ، ليتابع اللعب بي ومعي في الأسابيع التالية ! .. حين بلغت باب العم فؤاد كنت قد صحوت تماماً من آثار ما شربت . لم اقل شيئاً وانما تابعت الصعود إلى بيتي ... واقسمت الا أذوق الخمر ثانية ، وكنت اعرف انني سأحنث بوعدي في اليوم التالي ...

* * *

كابوس ٧٢

أدور في البيت كما يدور حيوان سقط في فخ مميت . أئن ، واسمع صوتي يمتزج مع أنين مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة ... كلنا في الفخ ، وصاحب الدكان في مكان

أمين ... ولعله في هذه اللحظة يرقبنا من بعيد بمنظاره المكبر .

الهاتف . صوت المذيع شريف . أستقبله بلهفة . يقول لي انه أخبر مركز الارتباط بوضعي (العسكري) ، وسيتم انقاذي الليلة برفقة آل جنبلاط الذين يبعد بيتهم عن بيتنا حوالي مئتي متر (بعيداً عن « الهوليداي‌إن » ولكنه في منعطف الطريق ، اي ان رصاص قناصة « الهوليداي‌إن » لا يطالهم .. وستأتي مصفحة ، تحملني واياهم ، واسرة حسين شقيق المذيع شريف الذي يقطن في البناء المقابل لآل جنبلاط .. بناء الدكتور ادريس) .

متى ؟ بعد الغروب ... سيتصل بي ثانية . اعطيته رقم هاتف العم فؤاد وقلت له انني سأكون بانتظارهم هناك في الطابق الأول ...

انه الأمل ... يبرعم فجأة وسط الجليد كنبتة خضراء تشق دربها في القلب البشري مهما تراكم الحزن .. نبهني إلى ان داخل المصفحة لا يتسع لحقائب وغيرها ، ونبهته إلى انني سأخرج إليها كالذاهب إلى الحج ... ملتفاً بكفنه ! ...

* * *

كابوس ٧٣

الانتظار ... الرمل الأزرق الفضي لا يريد ان يركض عبر كراته الاثيرية .

الانتظار ... حقل من الساعات المكسورة العقارب ... انظر إلى ساعة يدي فأجد ان عقربيها قد ماتا واختفت جثتهما .. هنالك داخل الساعة أرقام ، مجرد أرقام ، ولكن لا عقارب ...

الانتظـــار ...

قلب مطاطي معلق في الفراغ ، يزداد ثقلاً وانحداراً نحو الأسفل مع كل لحظة ...

الانتظـــار ...

حقل من الألغام اطلقوك فيه مربوطاً إلى حصان يركض على غير هدى ..

عدت إلى العم فؤاد ازف اليه النبأ . فوجئت به يقول لي بقرف : « ستندمين ندامة الكسعي » ...

ولم اسأله من هو الكسعي المشؤوم ولماذا ندم وماذا فعل أو لم يفعل ، ولم يحاول هو ان يشرح لي حكاية الكسعي هذا وانما ظل يردد : ستندمين ندامة الكسعي ..

أما أمين فقد لاح في عينيه ظل حسد ... يحسد حريتي ، فأنا بطريقة ما (شاب) حر

في اسرتي ، وهو رغم ذكورته يلعب في حياة والده دور (الانثى) الشرقية في بيت رجعي ... كل الرجال في المجتمعات العشائرية يلعبون دور (الانثى الشرقية) في حياة والدهم ولا يدرون ! ..

كنت اعرف انه يتمنى الهرب مثلي . لكنه مضطر لتبني موقف والده ، ووالده قرر الموت مع تحفه وأوسمته وأحجار بيته ... أم تراه هو أيضاً يفضل الموت مع ارثه الموعود من تحف ورياش فخمة واوان ذهبية ؟ تراهم غسلوا دماغه حتى من حب الحياة ، وصارت الحياة لديه مرادفة للممتلكات ؟

* * *

كابوس ٧٤

الهاتف . النقيب فتحي يحدثني اعطاه رقم هاتفي المذيع شريف . يقول الملالة المصفحة قادمة خلال دقائق .

ارهف السمع . هاتف آخر . انه حسين شقيق المذيع شريف . يسألني كم عددنا ؟ اقول له : شخص واحد (**كنا اثنين انا ويوسف ، لكن يوسف لا يحتاج إلى احتلال مكان في المصفحة ، لانه يحتلني انا) ...**

هذه المرة لا اكرر غلطة الظهر . اطلب من أمين مفتاح باب الحديقة لأحمله معي . أمين يعارض قليلاً متذمراً بالفرنسية ثم يرضخ . أتفق مع أمين على ان اتركه في القفل . (هذا اذا لم يقتلني قناص « الموليداي إن » وانا اجتاز الحديقة المكشوفة الممر بين الدخل وباب البيت) ...

الانتظـــار ...

وأخيراً أسمع صوت مصفحة .. اسمعها تهدر من بعيد .. من بعيد .. تزداد النبتة الخضراء في قلبي نمواً وهي تشق ابجليد وتخرج رأسها .. اخرج إلى الليل ، والمجهول ، لانتظارهم امام الباب كما اتفقنا ... اسمع صوت المصفحة رغم الطلقات المتقطعة ، لكنه صوت ثابت العلو ، لا يخفت ولا يرتفع . كأنما المصفحة واقفة في مكانها .. ماذا حدث ؟ . ارسل ببصري في الظلام فلا أرى شيئاً ، واقرر انها ربما كانت متوقفة لإصعاد آل جنبلاط وجيرانهم قبل المجيء إلي ..

ولكن ذلك غير ممكن ... بيتي يقع في مركز الخطر ، في منتصف الطريق تماماً بين

المتقاتلين ، والمنطقي هو محاولة إحضاري أولاً بدلاً من تعريض حياة الباقين لمزيد من الخطر ...

هكذا كنت افكر وانا انصت ، واحاول ان اتخيل ما يدور ، وازداد التصاقاً بالعمود الذي أحتمي به ..

وفجأة انفتحت أبواب الجحيم دفعة واحدة . سمعت انفجارات مروعة ، وتمزقت النبتة الخضراء في صدري .. وجدتني التصق بالعمود الذي أحتمي به ، كتلة من اليأس ، مثل وحيد في جزيرة وقد خلفته آخر سفينة نجاة .. والرصاص يلفني كالزوبعة .. والانفجارات تزلزلني .. والليل مظلم وموحش كما لم يكن أبداً .. وانا مذعورة ووحيدة ومهجورة وعاجزة حتى عن الصراخ .. كان فمي مليئاً بالرماد والدم والبارود .. والدمع .

لم يعد الظلام دامساً ... كان هنالك شيء يحترق عند المنعطف الملاصق لقصر آل جنبلاط على بعد ٢٠٠ متر مني .. وكنت استطيع ان ارى وهج النار منعكساً على الرصيف المقابل ... وكانت الريح تحمل إليّ رائحة الهشيم وتمسح وجهي بالهباب الأسود .

وقفزت إلى رأسي دفعة واحدة جميع صور الحروب الاهلية التي قرأتها في الكتب .. وتذكرت مشهد الحريق في رواية (ذهب مع الريح) .. ووجدتني اسقط على الأرض شبه راكعة ... ووجدتني اصلي لإله هذا الكون الشاسع ... ووجدتني حرة في ان اناديه من هذا القفر المحترق ، لا بالضرورة من مئذنة جامع او ساحة كنيسة ...

هل يمكن ان يحدث هذا كله لمجرد شجار بين الذين يفضلون مناداته عبر مئذنة أو كنيسة ؟ .

لا .. لا .. لا ...

هذا قناع للشجار الحقيقي ... لماذا لا يواجهون الحقيقة كما هي بدلاً من اتهام محمد وعيسى بالشجار ؟ ... لماذا لا يعترفون بان الشجار ليس على امتلاك قصر من سحاب في السماء وانما على امتلاك ناطحة سحاب في الأرض تعلو حتى السماء !

* * *

كابوس ٧٥

بحدسي ، أدركت انه لا نجاة لي ، الليلة على الأقل . وان شيئاً مروعاً قد حدث ... وعدت إلى بيت العم فؤاد صامتة . لم يسألني أحد شيئاً ، لكن نظرات العم فؤاد كانت

تصرخ بي : ها انت نادمة ندامة الكسعي . ألم اقل لك ؟ . أما أمين فرمقني بنظرة مليئة بالشماتة . واتخذت مقعداً قرب التلفزيون حيث كان وابنه يتابعان برنامجاً ما ورميت بجسدي المنهك ... عبثاً أتابع البرنامج .. عبثاً اركز نظراتي على الشاشة ، لا ارى داخلها الا وقفتي أمام الباب ، والانتظار ، وصوت المصفحة . ثم أبواب الجحيم التي انفتحت ، والانفجارات ، والحريق ، وصوت المصفحة الذي اختفى ...

نشرة الأخبار . المذيع يتحدث والصورة تتضح لعيني . لقد وصلت المصفحة ولم اكن واهمة حين سمعتها ، ولكن القذائف التي اطلقت عليها اشعلت النار فيها ، وفي محطة البنزين المجاورة : محطة جنبلاط ..

واستسلمت لمصيدة الفئران المشتعلة التي اتقلب في فكها منذ أيام كاستسلام مخلوقات دكان بائع الحيوانات الاليفة ... وتساءلت : ترى كم سيستغرق مني الأمر حتى أصير مثلها ... متى أصير مثلها ؟ متى يفتح امامي باب الحرية فلا أخرج ؟ متى يصير الذل والجبن طبيعة ثانية في اعماقي ؟ متى يسكن اليأس سهولي وحقولي فلا تنبت في قحطها نبتة الأمل الخضراء ؟ هل يمكن ان يحدث ذلك لي ؟ متى تدجنني الحرب الاهلية ؟ وأهل بيروت ، ألم تدجنهم هذه الحرب الشرسة ام العكس ؟ ألسنا جميعاً في الدرب إلى التدجين ، البعض أكثر من الآخرين ، ولكننا جميعاً نمشي في الدرب نفسها ام بعضنا فقط ؟ .. ولكن ، ألسنا جميعاً منذ أعوام مثل كائنات دكان الحيوانات وكل ما في الأمر هو أننا كنا نتوهم أننا أحرار لمجرد أننا قادرون على التحرك الجغرافي ؟ . وماذا عن التحرك التاريخي ؟ واذا كانت حرية الحيوان تتوقف على الحرية الجغرافية ، أليست حرية الانسان جغرافية وتاريخية في آن واحد ؟ إلى أي مدى شاركنا في صنع مصيرنا ومصير الآخرين ؟ ...

كانت هذه الهواجس تنتابني ، وبمرارة اتساءل : ترى كم تجربة فاشلة من هذا النوع سأمر بها قبل ان استسلم لليأس وارفض أية محاولة لانقاذي او استسلم لنداء الثورة حتى عبر العنف لا عبر القلم وحده ؟ هل يمكن تدجيني أنا الفرس البرية المفترسة ، انا غجرية الحرية والقرى والجبال والفجر ... هل يمكن لقناص « الموليداي إن » ان يفلح في تدجيني ؟

* * *

كابوس ٧٦

انتظر شخير العم فؤاد كي أزور رفاق المصير : جيراني في دكان بائع الحيوانات الاليفة ..

لم اجرؤ على الخروج أمامه فهو وأمين والخادم سيعتقدون بعد (خضات) هذا النهار اني جننت (بالاحرى سيكتشفون ذلك !) وسوف يقيدونني بالحبال بكل راحة ضمير معتقدين انهم بذلك يسدون خدمة لي ولأسرتي ! .. ويحافظون على حياتي ...

أخيراً ، غرق الجميع في النوم .

أنزلق من فراشي البائس . الفراش نفسه الذي ماتت فيه زوجة صاحب الدار .. بين ذراعي ! ..

ها انا ثانية أمام نافذة المخزن ... انها في موضعها حيث تركتها البارحة ... أحاول انتزاعها فأجد صعوبة في ذلك ... ألحظ انها مثبتة باحكام . اذن هناك من جاء بعدي وأعاد تثبيتها ... اضربها ضربات أجهد في ان تكون خافتة كي لا توقظ أحداً ... وحين يتعالى اطلاق الرصاص اضرب بالحجر بشدة منتهزة فرصة الضوضاء التي صارت مألوفة ...

انفصلت الشبكة ذات الشبك المعدني عن إطارها ... وتدليت إلى الداخل ، وقفزت كما في الليلة السابقة ، وانا اتساءل بلهفة وحرقة .. ترى هل هربوا ؟ ...

لقد تركتهم البارحة وأبواب أقفاصهم مفتوحة للحرية والفضاء والكواكب ، وكسرت لهم نافذة المخزن ، فهل هربوا ؟ .. صحيح انني كنت اسمع اصواتهم طوال النهار ، ولكن ربما كانت هذه أصوات بقية سكان الحي السجناء .

كانت قفزتي الليلة مؤلمة .. ربما كنت أشد اضطراباً من البارحة واسأت تقدير ارتفاع النافذة في الظلام ... شعرت بألم متوسط الشدة في قدمي اليمنى ، فجلست على الأرض ريثما تألف عيناي الظلمة وأرى محتويات الدكان ...

ولكن أصواتهم افهمتني كل شيء .. ولعل صوت سقطتي أيقظ النائمين منهم .. عادت صرخاتهم المرتاعة ، البائسة ، الذليلة الشاكية تتعالى ... تلفني كأغصان أشجار مسحورة ... أشعر انني سقطت داخل وردة وحشية نصف حيوانية وها هي قد أنشبت أشواكها في شراييني لتمتص دمائي ، فقد شاهدت في النور القادم من الشارع الأقفال وقد أعيد إغلاقها ... ترى هل اغلقتها الحيوانات بنفسها ؟ هذا طبعاً غير منطقي . المنطقي

هو ان صاحب الدكان ، او من ينوب عنه قد جاء كالعادة يتفقدها ويطعمها لقمتها الذليلة (كي لا تموت ويخسر صفقة بيعها) وشاهد أبواب اقفاصها مفتوحة والنافذة مخلوعة .. فأعاد إقفال الأبواب ، وأحكم سد النافذة .. ولعله أيضاً ظن سارقاً قد حاول سرقتها وفشل في آخر لحظة لسبب ما .. كالخوف من قذيفة مفاجئة أو مقدم سارق آخر يحمل سلاحاً أكثر تطوراً .. كان هذا هو التفسير الوحيد المنطقي .. ومع ذلك لم أكن قانعة به . تخيلتهم بعدما غادرت الدكان البارحة ، والببغاء يخطب فيهم مهاجماً عمل (الغريب) التخريبي الذي قام به — أي عملي أنا — ويقول لهم ان طردي من الدكان أمر حيوي لاجل تعايشهم وسلامتهم وراحة بالهم ورضى صاحب الدكان عنه ورضى الزبائن ... وتخيلت البعض يهتف بسقوط (الغريب) ، اي بسقوطي ، ثم يخرجون من اقفاصهم إلى النافذة مستبسلين لاعادة اغلاقها في وجهي ، كي لا تتسلل اليهم افكاري (الهدامة) واعمالي (التخريبية) ، وبعد ذلك يعود كل منهم إلى قفصه ليغلقه خلفه ! ..

ادور بين الاقفاص مذهولة ... لم يهرب أحد ... بل ان نظرات المخلوقات توحي لي بأنها قد نسيت كل شيء عن تجربة البارحة ... لقد عادت إلى انينها الموجع ، كأنها ترغب في مجرد الشكوى لكنها ليست على استعداد للثورة ... لم يقتلوا فيها غريزة الألم وانما غريزة التبديل ... إنها غاضبة ، لكنها نسيت الطريق إلى الغابات ...

ووجدتني أركض من جديد بين الأقفاص .. هذه المرة لم اكتف بفتح أبواب الاقفاص ، بل وطردت الحيوانات منها ... اخرجتها بالقوة ... كان واضحاً ان القط لن يأكل الفأر ، وان الكلب لن يعض القط ، وان البؤس المشترك هو القاسم الأساسي لسلوكهم ... لم يعودوا أرانب وقططاً وعصافير وكلاباً وانما مجرد نوع واحد حيواني أكل ملامحه الذل والهوان ... تركتهم خارج أقفاصهم ، وتسلقت النافذة وجلست إلى جانبها في ظلام الحديقة اتلصص ... ماذا يمكن ان يفعلوا ؟ ...

وكما في الكوابيس التي لا يصدر عنها صوت ، أذهلني ان كل حيوان عاد إلى قفصه بهدوء ، دون ان يسمع وقع اقدامه على الأرض ، كأن ساحراً شريراً غامضاً يتحكم من بعيد بمصائرها ! ... وعاودت القفز إلى الدكان وأغلقت أبواب الأقفاص ... لا لسجن الحيوانات ، فهي سجينة أقفاصها اللامرئية ، ولكن كي لا يلحظ صاحب الدكان حين يأتي لتفقدها في الغد ان يدأ (غريبة) تحاول انقاذها ... وكي لا يُحكم بالتالي إقفال

النافذة ، ويفوت علي فرصة محاولات أخرى .. كان مصير مخلوقات الدكان قد بدأ يستولي على تفكيري واهتمامي ... لا على فضولي فحسب .. كنا شعباً واحداً ! ..

* * *

كابوس ٧٧

هل هو خنوع الحيوانات وعودتها الذليلة إلى أقفاصها هو الذي أبعد النوم عن عيوني ؟

أم أنه أنينها الذي عاد يتصاعد .. إنها تشكو لكنها لا تصنع شيئاً لتبديل أسباب شكواها ... كأن خللاً ما قد حدث في داخلها .. كأن الشريط الذي يوصل الألم بالارادة قد انقطع منذ زمن بعيد وهي قد تعلمت ان تتألم وان تتقبل هذا الألم كأمر واقع وقضاء لا يرد ...

ام انه صوت المتفجرات التي لم تهدأ طول الليل ؟ ..

ام انها الذكرى الحارة لمحاولة هربي الليلة من هذا الجحيم وفشلي في ذلك ؟ ..

كان بعض الانفجارات عنيفاً بما فيه الكفاية لتحريك المنزل بأكمله ، وقد استيقظت أكثر من مرة من نومي الكابوسي ورأسي يصطدم بالجدار الملاصق ... وقبعت في قعر العتمة والدوي وقررت : لعل الرصاص والقنابل التي سمعتها في الأيام الأخيرة تكفي لتحرير فلسطين ! ... وانطلق صوت من داخلي : ولكن تحرير فلسطين بحاجة إلى تحرير الانسان العربي أولاً .. وتحرير مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة يحتاج إلى ثورة ... ولكن ، هل هذه هي الثورة ؟ ام تحضير لها ؟ تحديد أكثر وضوحاً لملامحها ؟ والثورة بحاجة إلى ضحايا ووقود ... ولكن هل من الضروري ان أموت هكذا ، عزلاء وخائفة ومثقلة بالحيرة ؟ واذا قتلت الآن ، فسأكون مجرد قتيلة لا شهيدة ! ... المهم ان يكون في موتي ما يجعل الكون أكثر انسانية . وفي هذه اللحظة ، موتي سيجعل الشارع أكثر عفونة ! هذا كل ما في الأمر . سأموت الآن كخروف لا كانسان . الموت بدون جدوى يجعل من الانسان ضحية غبية لا أكثر . ولن أموت هكذا ! اختيار الموت لمجرد الموت ليس خدمة بل هو هرب . انه مجرد ضعف أمام (الرأي العام) الذي يمجد القتيل غالباً — أي قتيل — ويجد في مجرد الموت بطولة ويجد في رفض العنف الغبي عاهة !! ... وما كل موت ببطولة .. المهم ان يموت الانسان موتاً له معنى ، والأهم ان يسبق ذلك الموت

حياة لها معنى .. الانسان الذي يموت صدفة ، يصبح قتيلاً أو قاتلاً — كأي خروف — وليس شهيداً .

موت الانسان كي يصير العالم أكثر انسانية هو الذي يميز بين (القتل) و (الجهاد) وبين (الضحية) و (الشهيد).

شيء آخر يقلقني وهو قتال الحيوانات فيما بينها بدلاً من تمزيق العدو الأول والحقيقي . الأمر ذاته نمارسه نحن . قتالنا فيما بيننا أكثر بكثير من قتالنا مع عدونا الحقيقي : اسرائيل . يهدر في داخلي صوت : ان العدو حين يكون من بعضنا فقتاله هو المرحلة المحتومة لقتال العدو فيما بعد . هذا يبدو لي صحيحاً ومع ذلك يظل قتال جيراني واحبائي هو أبغض الحلال إلى قلبي مهما كانت المبررات العقلية لذلك .

* * *

كابوس ٧٨

بدأ الممثل يبكي بكاءً مراً غير مسرحي ، وهو واقف أمام المرآة يحدق في صورته ... انه لم يعد يحتمل مأساته وهو يفكر جدياً بالانتحار .. او الهرب ...

مأساته هي ببساطة : وجهه ...

انه ليس مشوهاً ... بل ان الأمر أسوأ من ذلك .. انه ببساطة يشبه الحاكم ... بل ان وجهه يكاد يكون نسخة (طبق الأصل) عن وجه الحاكم ..

كان ذلك في البداية مدعاة لنجاح نانو بعد ان ظل أعواماً طويلة مغموراً على المسرح..

لكن شبهه بالحاكم دفعه إلى تقليده في مسرحيات فكاهية أقبل عليها الجمهور إقبالاً كبيراً ... وطار صيته ، وصار وجهه باباً للنجاح .. بل ان الحاكم نفسه دعاه لتقديم إحدى مسرحياته في قصره المنيف ، وهناك ظنه حرس القصر الحاكم نفسه — شخصياً ... أما الحاكم فظن انه أمام مرآة وطرب للتشابه وضحك خصوصاً حين قلده أمام عينيه ، وأثار إعجاب الجميع وذهولهم بالتشابه الذي لا يصدق بينهما ... وضحك أفراد أسرة الحاكم واصهره وحاشيته لذلك ، وربتوا على أكتافه ، ونفحوه بمئة دينار ومدفع رشاش وكانت ليلة من ليالي الف ليلة إلا ليلة ... ولكن عجلة الزمان دارت ، واشتعلت الحرب الأهلية والحاكم صامت لا يقول شيئاً ولا يظهر أمام شعبه وصارت الدماء تسيل أنهاراً في المملكة السعيدة دون ان يقوى أحد على وقفها ... وركض الناس فباتوا ستة

أشهر بلياليها تحت شرفة الحاكم على أمل أن يفتح نافذته ويخاطبهم ، لكن النافذة ظلت موصدة وجاءت الأوبئة والأمراض وهجم الشتاء ولم تنفتح نوافذ الحاكم وكانوا كل يوم يسألون عنه فيقول لهم الحرس : انه نائم ..

وأخيراً تعبوا وتفرقوا ...

وكان نانو ، الممثل المسكين طوال هذه الأيام مختبئاً في بيته ... في البداية كان لا يكاد يخرج لشراء الخبز حتى يحيط الناس به ظانين انه الحاكم ، حاملين له شكاواهم ومظالمهم ، عارضين عليه جروحهم النازفة والسكاكين المغروزة في أجسادهم في كل موضع ... وهكذا فقد لازم داره ... وبعد إنقضاء ستة أشهر على نوم الحاكم ، وازدياد النقمة عليه ، لم يعد نانو يجرؤ على الخروج من بيته ... وصار يخاف على حياته ، فالشبه الكبير بينه وبين الحاكم وهو الذي كان مدعاة لسعادته وحظه فيما مضى ، صار اليوم تهديداً جدياً لبقائه ... لو لمحه أحد في الشارع لسارع إلى قتله ، متوهماً أنه الحاكم ، الغافل عن بؤس المملكة ... لن يتركوا له مجالاً للتوضيح أو التفسير . سوف يقتلونه فوراً وينتهي الأمر ..

وهكذا صار عليه ان يرتدي جورباً فوق وجهه أو قناعاً كي يذهب لزيارة حبيبته التي لم تعد راغبة في الزواج منه . ورغم انها لم تعلن ذلك بوضوح ، إلا أن اشارتها إلى « وجهه النحس » تكررت مؤخراً أكثر مما يجب ، وكانت تعزو تأجيل الزواج إلى سوء الأحوال ...

في البداية كان يلجأ إلى الماكياج المسرحي ، وباروكة شعر هيبية كي لا يذهب ضحية شبهه بالحاكم النائم ، إلا أن هذه الحيلة لم تعد تنفع في الخريف مع تساقط الأمطار وغسيل الماكياجات كلها ...

ولكن الأقنعة الأخرى لم تكن مأمونة ... فالمسلحون وحدهم هم الذين يرتدونها ... وكان حين يرتديها يصير بحكم المسلح ... وصحيح ان ذلك وفر عليه أجرة التاكسي عدة مرات ، حيث كان يكفي ان يصعد في اي تاكسي ويأمره بالانطلاق إلى بيت حبيبته لينال توصيلة مجانية ودعوات بطول العمر لأنه أبقى على حياة السائق ولم يخطف سيارته ! ... إلا أن قناع المسلح سبب اطلاق الرصاص عليه من مصدر مجهول أكثر من مرة ، وقد نجا باعجوبة ... كان ذلك كله محتملاً حتى بدأ الكابوس الحقيقي ، يوم

قرع بابه مقنعون حقيقيون وتم اختطافه إلى ... القصر .. وهنــاك اطلعوه على سر مروع ... لقد قتلوا الحاكم منذ زمن بعيد ، وبما ان الشعب المسلح يلح إلحاحاً مروعاً لرؤية حاكمه وسماع صوته ، فقد جيء به ليلعب دور البديل ! ... وإذا رفض فسيقتل ..

وهكذا قَبِلَ...والليلة،عليه ان يطل على (شعبه)...وان يحدثهم من الشرفة...ويقول لهم شيئاً ما ... في البداية كتبوا له خطابا طويلاً جداً وفوجئوا في آخر لحظة بأنه لا يعرف القراءة . وأُلغي موعد إلقاء الخطاب وتم تأجيله من ليلة عيدهم القومي إلى موعد آخر ... وجرت كتابة خطاب موجز كي يستطيع نانو حفظه غيباً .. آه لتلك اللغة العربية ، كم مخارجها صعبة الالقاء وخصوصاً حرف (القاف) في كلمة (القتل) .. وكانت ترد في خطابه أكثر من مرة ! ...

بعد لحظات يساق إلى الشرفة ليلقي بعبارات حفظها كالببغاء ، ولا يعي حرفاً منها ... تراه يستطيع ؟ ... عليه ان يكف أولاً عن البكاء ، ولكنه حتى ولو لم يفعل سيظنه الشعب (مزكوماً) ...

آه لبؤسه ...

حتى ولو استطاع الهرب الآن ، فسينقض عليه الشعب ويمزقه متى رأى وجهه ..

لقد سقط نهائياً في الفخ إلا إذا أنقذه ساحر المملكة الذي استدعاه سراً ووعده بسرقة الجوهرة الكبيرة في سيف الحكم الذي يحمله موقتاً ريثما تنتهي مسرحية الليلة واعطائها له مقابل تحويله إلى سمكة ..

وحين يصير سمكة ، سيهرب إلى أعماق البحر ، وسيظل راكضاً بين الصخور حتى يخرج من البحر المتوسط بأكمله ، وحين يخرج إلى المحيط سينام قليلاً ويستريح ... ولكنه سيعود . يعرف انه لا مفر من العودة ومواجهة الأشياء بأسلوب جديد .

وتذكر بأسى ان الأسماك تنام مفتوحة العيون ، وكان بحاجة ماسة إلى إغلاق عينيه ! ... ولكنه – على أية حال – لن يغلق عينيه طويلاً . سيغلقهما قليلاً ليريحهما ، ثم سيفتحهما إلى أقصى مداهما ليرى ...

* * *

كابوس ٧٩

ها أنا اتحرك ضمن روتيني الصغير الجديد ، روتين الحرب الأهلية ... اقضي ليلي

في الطابق الأرضي ببيت العم فؤاد خوفاً من أخطار بيتي في الطابق الثالث ... مع الفجر أصعد إلى بيتي كأن الموت لا يأتي إلا ليلاً ، والصواريخ لا تنطلق إلا في الظلام ! ... اقضي نهاري كالروح الهائمة في الدار وحيدة ... اقرأ الصحف العتيقة ... ادون مذكراتي ... استسلم للكوابيس ... أرد على هواتف الصديقات والأصدقاء ، القلقين على مصيري بصدق ، والشامتين منهم . الجأ إلى الممشى حين يشتد القصف ... استمع إلى الموجة القصيرة (الاذاعة المحرمة) حيث تتدفق حقيقة ما يدور كالنهر الاسود الجارف .. اركض إلى النافذة حين أسمع صوت استغاثة ... أهبط إلى العم فؤاد حاملة اليهم بقايا ما تبقى من أكل لدينا وباحثة عن (النشويات) المتبقية لديهم . اتصل ببعض الأصدقاء لإخراجي من هذا الجحيم ... أحاول .. أفشل .. افكر بيوسف واتعذب . أفكر بأخي واتعذب . انتظر الليل لزيارة جيراني حيوانات الدكان ... ثم أعود إلى تابوتي بالطابق الأرضي لأنام ... وهكذا ...

هذا الصباح كان يومي الخامس وانا سجينة .. ام السادس ؟ لم أعد أدري .. كل ما أدريه هو أن شيئاً لم يكسر في روتيني .. وحتى فندق « الهوليداي إن » كانت النار مشتعلة فيه هذا الفجر أيضاً ... وشجرة الياسمين ما تزال مزدهرة ، رغم ان أكوام القذائف الفارغة تحتها قد تضاعفت مختلطة بجثث بعض أزهارها البيض .. والجرذان تتمشى أمامها كل فجر كأن الخوف قد أخرجها من أوكارها ...

كالعادة ، الهاتف يستقبلني . انه المحامي . يقول إنه لا جديد . الدوائر الرسمية مقفلة وأخي سيبقى في السجن حتى إشعار آخر ! ..

هاتف آخر . أحد أصدقائي يريد (الاطمئنان) عليّ ... كان في صوته شيء من شماتة خفية أو هكذا خيل اليّ . لم أحرمه من متعته . أكّدت له أنني في أسوأ حال ، ولم أكن أكذب !

* * *

كابوس ٨٠

على الخط الفاصل بين الموت والحياة أقف ، وأشعر بسلام غامض يلف روحي ، السلام نفسه الذي يحس به المجانين ... سلام ما وراء الألم ... هذا ما أحس به حينما أجلس لأكتب ، ولأدون « كوابيس بيروت » ..

صوت الرصاص والمعركة الدائرة في الشارع يتعالى .. يصير كقرع عصي على آنية نحاسية في مدينة خرج أهلها جميعاً يقرعون بشدة كي لا يبتلع الحوت الشمس ... يصير قرعاً فوق رأسي .. اشتهي ان أرى ما يدور ... لكني لا أجرؤ على الاقتراب من أية نافذة .. انه فيلم المغامرات الوحيد الذي علي أن أسمع صوته دون ان أراه ... إن مجرد النهوض عن الأرض حيث أتمدد ، – واكتب منبطحة على بطني – والاقتراب من النافذة مغامرة رهيبة ... قرع الآنية النحاسية يكاد يمزق جمجمتي. انقطع التيار الكهربائي. انهض ألملم أوراقي . أشعل الشمعة السوداء . امضي إلى الدهليز لأعاود جلستي نفسها ، منبطحة على الأرض واتابع الكتابة على ضوء الشمعة السوداء ... هل هي مجرد صدفة ان لون الشمعة أسود ، كأن الضوء لا يولد إلا من الظلمة ، والشمس لا تشرق إلا بعد مرورها بدهاليز الألم المعتمة ... انقطاع التيار الكهربائي يعني أشياء مروعة – إذا كان نهائياً .. ولكنني ، وأصوات الرصاص تفترسني – لا استطيع احصاءها الآن ولا أدري ما اذا كنت سأبقى على قيد الحياة لأعاني منها .. أم لا ...

* * *

كابوس ٨١

المعركة ما تزال تدور ...

لا بد وان قتلى كثيرين يتمددون الآن على الأرصفة المحيطة ببيتي ... بعضهم يتعذب ولم يمت بعد ... لا سيارة اسعاف تجرؤ على الاقتراب من هذا المكان الرجيم ... سيتألمون طويلاً ، وهم على مرمى حجر مني ، وانا عاجزة عن بَلِّ وجوههم بقطرة ماء أو لمسة حنان .. أشعر بالألم في أذني .. في الموضع الذي (مسحته) الرصاصة ... كلما اشتدت المعركة يعاودني ألمها ، كما لو كانت جرح المدينة لا جرحي ! ..

اتجول في غرف البيت كلها بحثاً عن أكثر غرفها هدوءاً – نسبياً طبعاً – .. كيفما تجولت تبدو الانفجارات والطلقات كما لو أنها قادمة من الغرفة التي انا فيها ...

وفجأة ، صمت كل شيء تماماً وفهمت ربما للمرة الأولى ما تعنيه عبارة « صمت المقابر » .. انه صمت عدواني خطر ، لا يشبه صمت القرى الوادعة ولا صمت باحات لعب الأطفال في المدارس الداخلية بعد رحيلهم عنها للنوم ... شعرت بخوف لا حدود له . خوف من نوع آخر ، غير ذلك الخوف الذي كنت أحسه بينما الرصاص يجلد

المدينة ... وعبر الصمت تأتيني أصوات مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ... وفيها نبرة غضب جديدة ، مثل إيقاع طبول بدأت تتعالى في سيمفونية الحيرة والإنكسار واليأس ... تُراها مثلي ، بدأت تجوع ؟ ..

ثمة ملالة مصفحة تمر في الشارع ، واسمع صوتها بوضوح فأشير بيدي علامة (اوتوستوب) لاستوقفها ، علها تحملني من هذا الجحيم .. ومع ان النوافذ كلها محكمة الاغلاق وبيني وبينها عشرات الجدران ، لكن يدي ما تزال تشير بعلامة (اوتوستوب) .. وانفجر ضاحكة .. يخيفني صوتي .. تراها بداية الجنون ؟

ثمة صوت سيارة اسعاف ... صوت سيارة الاسعاف ... انه صوت الفراق .. صوت فراق جسد لعضو فيه .. صوت فراق إنسان لذاته .. صوتها يعلو ويخفت ويخيل إلي أنها تحوم حول الحي عاجزة عن الاقتراب . وتتابع نواحها .. لا أدري لماذا تذكرني بصوت الزغاريد في الأعراس ، وأكثر الأعراس التي تطلق فيها الزغاريد مزيفة .. كأن الزغاريد قناع لدموع الرفض السرية .. صوت الزغردة وصوت العويل . صوتان اكرههما .. ربما لانني أكره الأصوات العالية كلها ، إلا حين تصدرها الطبيعة ، كالرعد وصوت الريح ... الأصوات العالية التي يصنعها الانسان مقترنة في ذهني باستمرار بالشر ... بالأقنعة ... بالخطابة في الجماهير ، وبالأكاذيب التاريخية الكبيرة ... الأصوات الخافتة تقترن في ذهني بالصلاة والحب والسلام .

ثمة شجار ينطلق من بيت مجاور ... الرجل يصيح بأعلى صوته ، والمرأة أيضاً ، ومع ذلك تبدو أصواتهما هزيلة وهشة بعد سيمفونية الانفجارات ، كما لو كانت فاصلاً هزلياً في مسرحية مليئة بالعنف والغضب .

اتعثر بمصباح صغير وانا اتابع دوراني على غير هدى في غرف البيت المسكون بالزلزال . انه مصباح خاص بقتل البعوض كنت أضيئه كل ليلة قبل نومي لأبعد عني غاراتها ... اتذكر أنني لم استعمله منذ زمن بعيد ... منذ صار لسع الرصاص هو الذي يتهدد نومي لا لسع البعوض .. اضيئه وأنا أضحك بصوت عال ... لا يعمل ، فالتيار الكهربائي ما زال مقطوعاً ...

مصباح قتل البعوض ، وكل الأشياء المنزلية الأليفة التي تستعمل لتأمين راحة إضافية كالساعة وكسارة اللوز وفيلتر السجائر والنظارات « وماء الزهر » وورق الكلينكس

والخف المنزلي غير الصالح للركض ومنفضة السجائر ودبابيس الشعر وغيرها من مئات الأشياء التي تزخر بها بيوتنا ، تبدو لي الآن سخيفة ومضحكة ولا ضرورة لها ... وحتى النوافذ الشاسعة أجدها الآن مجرد أماكن (خطرة) واتذكر نوافذ القلاع القديمة ، الضيقة والمحفورة في الجدران السميكة بشكل مائل ، واتمنى لو ان الذي عمّر هذا البيت فكر بتشييده على طراز قلعة صيدا أو قلعة الحصن مثلاً ، ليته بنى غرفة واحدة منه على الأقل على هذا النحو احتمي بها ... واحس بحزن عميق : من زمان كنت ارفع اصبعي باشارة (اوتوستوب) لاية أسرة في سيارة ، كي تحملني مجاناً إلى بلاد جديدة ، فقد كنت دائماً سائحة مفلسة اعشق الاكتشاف ، وافرح لان أجمل ما في الحياة من أشياء هي مجانية لا تحتاج إلى « رسم دخول » : كالشمس والبحر والليل والقمر والضحك والحرية والحب والجنس ... وكنت أحلم بان يكون بيتي خيمة على شاطىء رملي شاسع صيفاً ، وغرفة من الزجاج فوق الصخور العالية المشرفة على الأمواج العالية شتاء ... وها هي أحلامي الشفافة تتحول تحت طرقات الرصاص إلى قلاع حجرية لا يدخلها الرصاص ..

يصرخ صوت في رأسي :

ما أبشع الحرب ..

يرد صوت آخر :

بل ما أبشع الذين يجعلون من الحرب السبيل الوحيدة المتبقية للحياة .. والسبيل الوحيدة لإستعادة شاطىء الفرح حيث تبنى خيام الحرية وبيوت الصفاء الزجاجية الجدران ... دون أن نخشى حجارة اولئك المحتكرين للشمس والحياة ...

* * *

كابوس ٨٢

كفاني دوراناً بين غرف البيت ، كشبح معذب حتى في قبره .. كفاني تشاغلاً عن الغرض الرئيسي من صعودي هذا الصباح إلى بيتي ، ألا وهو جمع صور يوسف ورسائله وتذكاراته وحملها مع أوراق « كوابيس بيروت » اذا حدثت معجزة وجاءت مصفحة لإخراجي من موقعي الحربي ، أنا العزلاء ! ... اتساءل مع كل حرف أخطه في « كوابيس بيروت » ، ترى هل سأنجو وتتحول هذه الكلمات إلى حروف مطبوعة ، أم سأحترق واياها تحت ركام هذا البيت، ولن يدري أحد بالصرخات التي اطلقتها وانا اعيش

كوابيسي وحيدة وهشة كدمعة يتيم ؟ ...
كفاني تشاغلاً عن أشيائه وأوراقه وأيامه ... لا مفر من مواجهة الألم الحاد الذي يسببه لي أي تماس حسي مع ذكراه ... كأن البقايا المادية لأيامنا ، تنفي عنها صفة الحلم المعزية قليلاً ، وتعيد اليها نبض الحياة والحقيقة والواقع الذي كانته ... والذي كان يمكن ان يستمر لو لم ... لو لم ... لو لم يقتله فقراء مثله ، أوهموهم بانه عدوهم لمجرد ان ما هو مكتوب في خـــانة « المذهب » ببطاقة هويته مختلف عما هو مكتوب في بطاقاتهم ... الا يقرأون عند كلمة المذهب كلمة « الفقر » المكتوبة بحروف من جمر ؟ ...
قررت : الليلة ، اذا جاءت ملالة مصفحة لإخراجي فسأحمل معي أوراقي .... وبعض أشيائه ... سأضعها في حقيبة صغيرة أعلقها بكتفي ، واذا اعترض الضابط وقال ان لا مكان للحقائب فسأقول له ان يعتبرني امرأة بدينة ... فأنا نحيلة .. وانا وحقيبتي لا نشغل حيزاً أكبر من الذي تشغله امرأة بدينة .. ولو كنت بدينة لما طلبوا مني ترك بعض أجزاء جسدي خارج الملالة ، أو اقتطاع الزيادة في لحمي لان الملالة لا تتسع لها ... وصوره ورسائله هي جزء من لحمي ، وسأحملها معي ..
ولكن ، اين اشياؤه ؟ ..
اذكر كما يذكر النائم حلماً موجعاً ، انني ليلة مصرعه عدت إلى بيتي ، وبصمت مروع لا تخفف من توتره حتى دمعة ، جمعت صورد ، ورسائله وكرة من الزجاج الشفاف طلب مني ان انظر إلى داخلها حين افتقده لأراه .. كالساحرات .. واشياؤنا الصغيرة : شمعة نصف منتهية عاشت معنا لحظات حلوة ... عود كبريت اشعلنا به لفافة الفراق ذات شجار ... غليونه الذي كان يحتفظ به باستمرار بين شفتيه قبل ان يقلع عن التدخين بسبب تكاليفه الباهظة (للجيب قبل الرئتين) .. بعض الكتب الثقافية ... موسيقاه .. وأشياء أخرى صغيرة كثيرة لا تعني شيئاً لسوانا ولكنها تحمل إليّ رائحة كوكب كنت أحيا وإياه في مداراته الخاصة المضيئة ، قبل ان تقذف بي الأيام بقسوة إلى رصيفي القديم ، وإلى موتي العادي اليومي .. أذكر انني جمعت من أشيائه ما استطعت (وكانت تحيط بي صغيرة وموجعة كالدبابيس ، وأكثر من ان تلملم) ، ومع ذلك ، حملتها واخفيتها في مكان ما ... والغريب أنني لم أعد اتذكر ذلك المكان ... كنت قد نسيته ، ولم أنسه ، كنت اعرف اين هو ، ولا استطيع التذكر ! ... إلى اين اتجهت

باشيائه ؟ .. ارى نفسي وانا أحملها بقسوة قطة قررت افتراس أطفالها ، ولكن إلى أين مضيت بها وأسلمتها لانياب النسيان تفترسها ؟ إلى اين ؟ أجل ! خرجت من غرفتي وسرت باتجاه الدهليز حيث المطبخ والسطح وغرفة المكتبة والشرفة .. إلى أين مضيت بالضبط ؟ ارى نفسي أدخل في ضبابة بيضاء كثيفة ، ولا أدري بعدها إلى أين مضيت بهـــا ..

وقررت البحث في غرفة مكتبي .

ساعة من البحث المضني وانا متوترة رعباً ، ولم أجد شيئاً . ساعة اضطررت خلالها لفتح النوافذ كلها كي يدخل ضوء النهار (لانقطاع التيار الكهربائي) وتعرضت لوابل من مطر السماء ومطر الأرض الرصاصي المحرق ، ورياح الشتاء التي بدأت تطلق صرخات الوصول إلى محطتنا الحزينة ... ساعة ، قلبت فيها أدرجي كلها ... تطايرت أوراقي ... تطايرت حواسي .. تطايرت قدرتي على التركيز ... ولم أجد شيئاً ...

ها أنا أجلس في منتصف الغرفة ، محاطة بنوافذ ثلاث وبأصوات المعارك المتجددة ، وبالشتاء الذي أطل بشراسة من النوافذ كلها ، أحدق بذهول في الجدران واتساءل : ترى أين أخفيتها ؟ وهل أحرقتها ؟ احتمال واحد منطقي قد تبقى : هو ان أكون قد أخفيتها خلف الكتب في أحد رفوف مكتبتي التي تغطي جدران الغرفة والممشى المجاور (الذي صار مخبأي الرسمي !) ...

أعاود بحثي اليائس ... ارمي بالكتب عن الرفوف إلى الأرض ، رفاً بعد الآخر ... بعد نصف ساعة تصير الغرفة أكواماً هائلة من الكتب اتعثر بها ، لكن لا أثر لأشيائه .. لم أجدها ... لم تفح منها رائحته ... لم ترتسم صورته في الكرة ... لم يعل صوته من اسطواناته ... لم تقهقه ابتسامته في صوره ... لم أجد شيئاً ... يا يوسف يا حبيبي اين ذهبت باشيائك ؟

وخلفت غرفة المكتبة كما لو ان طوفاناً قد مر بها وحمل كل ما فيها في كومة من الفوضى ثم قذف بها إلى الأرض قبل انحساره ...

ولكنني لم أنس إقفال النوافذ بإحكام ... كنت أحب كتبي كما يحب المقاتل سلاحه وأعرفها كما يعرفه ، وكانت وأوراقي الأشياء الوحيدة التي أتمنى ألا يصيبها أذى .. وحزنت من أجل الكتب ... انها كالجسد البشري إحراقها ممكن .... اي أن قتلها بالنار

وبالماء ممكن ... انها هشة ، لم تصنع لاجل ساحة الحرب ... وصحيح ان إحراق الكتب لا يستطيع إلغاء الفكر ، تماماً كما ان قتل الرجل لا يلغي الانسانية ، لكن مصرع الانسان دراما صغيرة : كمصرع مكتبة بيتية صغيرة انتقاها صاحبها كتاباً كتاباً .

كان عزائي الوحيد هو ان اللصوص لا يسرقون الكتب . وهكذا فستنجو كتبي في حال النهب ، والخطر الذي يتهددها هو فقط خطر الحريق ... وتذكرت أيام كانت الكتب تحفر على الألواح الفخارية التي لا تؤذيها النار ، او تنقش على الحجارة والصخور... لماذا صدّق الانسان أكذوبة التمدن ورضي باستخدام (المطبعة) والورق وحتّى البردي ، ولم ينتظر انصرام الزمن الرديء ، وقدوم عصر تصير الحرب فيه عاراً واستعمال الأسلحة فضيحة مخجلة تستحق الغضب العام ؟ .. لماذا تطبع الكلمات على جسد الورق الهش في عصر النار والحديد ؟ ... وتمنيت لو كانت مسودات أعمالي كلها محفورة على الحجر في كهف ما ، بدلاً من ان تكون مكتوبة بالحبر على أوراق رقيقة كورق سجائر اللف ، وورق الورد ، واجنحة « فرس الشيطان » ...

ولكن ، اين دفنت أشياء يوسف ؟ .. وكيف اختفت ؟ تراها حين مات ، استحالت تدريجياً إلى رماد وطارت في عتمة الليل ، وماتت تلقائياً مع موته ، كأنها تحاول ان تقول لي : الذكريات ليست جسد رجل ، ومعايشتها أمر غير ممكن ... كمحاولة السكن مع جثة رجل كان قبل موته أثمن لدينا من حياتنا نفسها ... لكنه مات ... والموت لا يخلف غير جثة ! ... والجثة لا بد من ان تتعفن وتهترىء .. ونهرب منها عاجلاً أو آجلاً .

حين تسللت رصاصة اصطدمت بالجدار وارتدت عنه إلى كوم الكتب ، غادرت الغرفة وانا اتساءل عن سر تلك العداوة بين الرصاص والكتب ، ام انها مجرد مصادفة ؟

* * *

كابوس ٨٣

رغم بحثي عن أشياء يوسف لم أجدها ! ... تخيلتها وقد طارت في الليل عائمة كالرأس المقطوع فوق بحاره السود ، ذاهبة بعيداً عني إلى أعماق البحر ، إلى حيث ترحل أشياء العشاق بعد فراقهم ... لملمت (أوراقي) ، وكانت كلها مكتوبة على أوراق الرسائل الخاصة بالبريد الجوي ، مما مكنني من حمل أهمها وأكثرها دون مواجهة مشكلة

الوزن والحجم ! .. وهبطت إلى بيت العم فؤاد ، فوجدته وابنه امين يلملمان (فضيّات) البيت وتحفه وآنيته الثمينة ويضعانها في حقائب كبيرة .. ما أغرب هذا العالم ... لكل كنوزه . وكنوزي هي أوراقي الشفافة ، المعدة خصيصاً للتنقل . فانا لم أصدق أكذوبة الاستقرار ولذا فقد ظللت دوماً أكتب أشيائي على أوراق الرحيل ... (أوراق البريد الجوي) وملعقة واحدة فضيّة من كنوزهم توازي من حيث الوزن وصعوبة النقل نصف أوراقي .. بكل كنوزه وعالمه ..

* * *

كابوس ٨٤

تعب العم فؤاد وابنه من لملمة فضياتهما ، وايداعها في حقائب خاصة فجاءا يجلسان معي للراحة من عناء هذا العمل ، قلت مداعبة : سيشكر لكما السارقون هذا الجهد ، حين يجدون كل شيء ثمين مرتباً في حقائب جلدية ثمينة أيضاً ، لا تحتاج إلا لمن يحملها ويمضي بها ..

لم تعجبهما نكتتي فيما يبدو فقد كشّر أمين وقال : هل تعنين انه من الممكن ان نتعرض لسرقة ؟ قلت له : ولماذا لا ؟ ... وتذكرت كتبي بغصة ثم قررت ان السارق لا يمكن ان يحمل كتبي ويترك فضياتهما وثرواتهما ! ..

نهض وغاب قليلاً في إحدى الغرف الجانبية ثم عاد وبين يديه عدة علب سوداء مخملية يكسوها غبار العتق .. تبينت فيما بعد انها ليست علباً وانما (ألبومات) صور العائلة التذكارية ... فقد كانت أسرة أمين ثرية ورثت أموالها أباً عن جد ، لا كأسرتي المتوسطة الحال ، والمرحوم والدي الذي كان قاضياً نزيهاً (اي رقيق الحال) والذي أجّروه الطابق الثالث من بيتهم منذ أعوام طويلة وتمسكنا بالبقاء فيه فيما بعد لايجاره البخس بالنسبة لزمننا المرعب الغلاء ...

وبدأ أمين يقلب ألبومات الأسرة ... كانت تمثل صور بنات شخصية لبنانية كبيرة ، تزوجن كلهن من أمراء عرب ! ... وفي الصور لقطات تذكارية لأعراسهن ، وتبدو فيها زوجة العم فؤاد المتوفاة إلى جانب العرسان . فقد كانت صداقة قديمة تربط بين الاسرتين ... لم اتأمل وجوه العرائس او بقية النساء اللواتي هن بلا ريب من (سيدات المجتمع) اللواتي تحتل صورهن الصفحات الخاصة به ... وانما تأملت المجوهرات التي

تتدلى من الرقاب كجثث الطيور ، وكانت تتدلى من عنق العروس جوهرة كبيرة (ذكرتني بجثة الألباتروس في قصيدة الملاح العتيق لكولريدج) ... آه كل تلك الثروات المهدورة ... كل تلك الآرائك المخملية الأرجوانية والثراء الفاحش الذي يعلن عن نفسه حتى في أكواب الشراب المذهبة التي يحملونها بأيديهم ... أحسست بضيق غامض وانا أراها . يتأملها امين بألفة ، كأنه يهرب اليها من حاضره المظلم ... وحين عرض عليّ (الاستمتاع) بتأمل أحد الألبومات رفضت .. أحسست بان هذا الماضي (الارستقراطي) هو الذي يصنع الآن هذا الحاضر المتفجر الدامي ...

* * *

كابوس ٨٥

قال لي .مين وهو يناولني الكأس الثالثة كما لو كانت كأس النسيان الأسطورية : هذه آخر زجاجة بيرة في البيت ! ...

كانت ساخنة قليلاً . تذكرت ان التيار الكهربائي قد قضى نحبه . هذا معناه فساد الأطعمة المحفوظة في البراد . والجوع . الجوع الحقيقي (كذات ليلة في لندن ، وانا واخي قد دفعنا للجامعة آخر قرش معنا كأقساط . قررنا ان نزور حبيبته وقت العشاء فقد تطعمنا شيئاً ... واستقبلتنا بكل الحرارة البريطانية ، وسكبت لكل منا بضع قطرات من « الروم » » وحين جاءت اللحظة الفاصلة ، لحظة العشاء ، (سكبت) لنفسها قطعتين من لحم الخنزير وجزرة ونصف حبة بطاطا وجلست تلتهمها امامنا دون اي حس بالذنب او (بواجب الضيافة) الذي فطرنا عليه . وهكذا كان علينا ان نتعذب مرتين ، مرة لجوعنا ، ومرة لشبعها ...

في صبيحة اليوم بعد التالي حدثت المعجزة على طريقة الافلام المصرية – يبدو ان هذه الامور تقع أحياناً حقاً – وجاءني عرض للعمل كمترجمة في احدى السفارات العربية ، وكانوا يتمنون عليّ ان أوافق ، وكان التمني مشفوعاً بمئة جنيه كسلفة . كان صوتي خافتاً وانا اوافق ، ظنوني اتمنع ولم يكونوا يدرون انه كان خافتاً .. لجوعي) ولكنني الآن هنا ، في بيتي الذي صار « كصحراء العلمين » أثناء الحرب ، مهددة بالموت جوعاً أو رصاصاً ، ولي الخيار ! ..

مجموعة من الانفجارات . خيل إليّ انني أسمع صوت زجاج يتحطم ممتزجاً بها ..

تخيلت واجهة فندق « الهوليداي إن » اللعين ، لا ريب في انها تحوي مساحة شاسعة من الزجاج ، ما يكفي لتغطية ملعب اولمبي كبير ، تخيلتها لوحاً كبيراً واحداً شفافاً منتصباً نحو الغيوم ، وها هو يهوي فوق حيّنا ويتكسر على قرميدنا ...

هدوء مفاجىء ...

هدنة من تلك التي لا تطول عادة أكثر من ربع ساعة ، وتحمل صمتاً هو « صمت القبور » بكل رهبته وتوتره وخطره الغامض ...

طارت ذبابة امام وجهي وحاولت ان تحط على كأس بيرتي . صوتها اكثر ارتفاعاً من صوت مدفع رشاش . كدت أجن من إصرارها على التحليق امام وجهي . كانت كبيرة وسمينة ولعلها كانت للتو تشرب من جرح انسان ما ...

... امام النافذة وقفت اتأمل القطط البرية في الحديقة وأراها بعين جديدة : هل هي سمينة ؟ وكم يوماً تكفينا اذا اضطررنا لذبحها وأكلها ؟ ما طعم لحم القطط ؟ ...

أمين يروي لي نكتة بالفرنسية .. للمرة الأولى في حياتي اسمعه يروي نكتة . زواها كما لو كانت مأساة شكسبيرية ، فشعرت بانقباض عميق وكدت أبكي للنكتة ... ناولني كراساً عتيقاً للنكت بالفرنسية ، وحين لاحظ انني ارمقه بشيء من الفتور ، نهض متابعاً حملته على الذباب اللامتناهي العدد ... وقلت له ملاطفة : « قتل الذباب جريمة ، لكن عدم قتله جريمة أكبر » ... وايضاً لم يفهم .

ونهضنا للأكل . ارتدى الطباخ جاكيتة بيضاء ذهبية الأزرار (حسب الأصول) ، وفرش المنضدة بآنية الطعام الفضية (ايضاً حسب الأصول) ، وبدأ يدور علينا بالأكل (الرمزي) الذي لا يكفي لاشباع طفل ، ولكنه مقدم (حسب الأصول) ...

رغم بؤسي وجوعي كدت لا أتمالك نفسي من الضحك ... هنالك من نومهم عميق إلى حد ان الزلزال نفسه لا يوقظهم ! .. كانت عشرات الأواني الفضية والملاعق المذهبة تلتمع على مفرش المائدة المخملي الأرجواني ولكن لم يكن فيها من الطعام ما يسد رمقنا ! ... ولكن ، المهم الأكل (حسب الأصول) وحتى الجوع (حسب الأصول) ! .

* * *

كابوس ٨٦

العم فؤاد وابنه سينامان بعد الغداء (حسب الأصول) . لا شيء يستطيع تبديل

عاداتهما ... حتى اشعار آخر على الأقل ...

أصعد إلى بيتي في الطابق الثالث . اركض عند نوافذ السلم رغم قناعتي النهائية بان الرصاص الحديث يتحرك بين الجدران ككرة البلياردو مصيباً حتى الأهداف اللامرئية لمطلق النار . عند الطابق الثاني ، ألحظ ان نباتات الجيران المزروعة في اصص فخارية مصطفة أمام مدخل بيتهم قد بدأت بالذبول ... لقد سافر جيران الطابق الأوسط منذ بدء الأحداث ، وكلفوني برعاية نباتاتهم . تذكرت انني نسيتها . شعرت بالخجل . أيّ تقصير في مجال المحافظة على الحياة ، اي حياة ، يشعرني بالالم ... سارعت إلى بيتنا لاحمل اليها الماء . شهقت الحنفية ثم انقطع الماء نهائياً .. انها كارثة جديدة علي ان أواجهها : انقطاع الماء بعد انقطاع الكهرباء ... ولكن ، هل أعيش بما فيه الكفاية لأواجهها ؟ .. وبعد ان عرضت نفسي للرصاص كي أحافظ على حياتها ، وجدتني اتأملها واتساءل والجوع ما زال يسكنني : تراها صالحة للأكل ؟ وهل سابدأ بأكلها أولاً أم بقطط الحديقة ، وبعدها بجرذان البيت ؟ ...

* * *

كابوس ٨٧

الهاتف يرن . صار مؤنساً . انه الشيء الوحيد الحي الذي ينطق حولي هذه الأيام ... وحتى قطط الحديقة ، لم أعد أسمع مواءها ... حتى الكلاب الضالة لم تعد تعوي .. كل الحيوانات أخرسها الرعب وبدت في دقائق الهدنة المرجزة وكأنها تتحرك في فيلم صامت عتيق ..

انه المحامي .

إطلاق سراح أخي غير ممكن حالياً ، لأن الدوائر الحكومية معطلة .. انها تعمل في حالات السجن وتتوقف في حالات اطلاق السراح . لم يضايقني الخبر . فرحت . يبدو ان السجن هو المكان الوحيد الآمن هذه الأيام ، وحتى صحبة (مجرميه) الصغار المساكين خير من التعرض لاعتى المجرمين الذين يسكنون هذه الأيام شوارعنا ... كأننا احفاد فرنكشتاين والمركيز دي ساد ، لا من نسل آدم ! ..

وعاودت من جديد بحثي عن أشياء يوسف ... في حال حدوث المعجزة الموعودة ، ووصول ملالة مصفحة لانقاذي ، اتمنى ان احملها معي ... لا استطيع ان أخلفها للنار

او للعبث ... عدت إلى غرفة المكتبة . جلست فوق كوم الكتب الحزينة واغمضت عيوني في محاولة فاشلة للتذكر . جئت بكرتي الرمل الأزرق – ساعتي الرملية – وجلست أمامها . كنت قد قرأت في مكان ما ان أفضل وسيلة للبحث عن شيء ما ، ليس في الركض من مكان إلى آخر والتفتيش عنه ، وانما بالجلوس في مكان معين ومحاولة تذكر أين يمكن أن يكون قد وضع ...

وجلست أحدق في انسكاب الرمل المستمر في محاولة مني للتركيز ... كان الرمل يتدفق من الكرة العليا إلى السفلى ، شفافاً لا مرئياً اثيري اللون لا يتوقف كالزمن ... وبعد دقائق بدأت أرى الرمل يتدفق من الكرة السفلى إلى العليا ، والزمن يعود ، وها هي تلك اللحظة المريرة تعود ، وها أنا أدور في البيت الملم من أشيائه ما استطعت ، واحملها بقسوة قطة قررت افتراس أطفالها ، وامضي بها ناحية الدهليز المؤدي إلى المكتبة ، ثم .. ثم أدخل في ضبابة بيضاء كثيفة ... ولا أرى بعدها إلى أين تمضي بي أمواجها ...

وقررت : انني عاجزة عن تذكر المكان الذي اخفيتها فيه . شيء ما في دماغي تعطل ساعتها . خيط ما قد انقطع ، ربما ليحميني من الجنون ! ..

* * *

كابوس ٨٨

حينما يتعانق غضب الطبيعة وغضب الانسان ، يحس الكائن الوحيد مثلي بانه ساقط في شرك مصيدة الحياة ... وان نافذة الخروج الوحيدة المتبقية في هذا السجن هي نافذة الموت المطلة على الأبدية وأفقها الغامض ...

ها هو الغروب يهجم على بيروت ، كئيباً ، تحمل الريح الغاضبة ذراته الرمادية الدامية وتنثرها في العيون ... وها هي أصوات الصواريخ والقنابل تأتيني داخل ذرات البرد القارس الذي اشتد عصفه ...

انها تمطر ... تمطر ناراً وماء ودماء .. تمطر رصاصاً وغيثاً ودمعاً .. النوافذ يعصف بها الرصاص والمطر معاً ... انه صقيع الشتاء المبكر وصقيع الخوف والوحدة .. **(يوسف كان يقول لي باستمرار : آه كم انت وحيدة . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً في تلك اللحظات . معه لم اكن وحيدة ابداً .. لكن قوله تحقق الآن حتى نخاع عظام حروف هذه العبارة . وحيدة .) ..**

الشمعة السوداء شارفت على الانتهاء ، والتيار الكهربائي قد اغمي عليه منذ الصباح .. وذهب ولم يعد .. ذبالة الشمعة تتوهج قبل ان تنطفىء تماماً ، وتخلفني للظلمة الزاحفة مبكراً في هذا اليوم الخريفي الشتائي والبرد ، وصوت الرصاص الوحشي الانطلاق ... واسمع صوت يوسف « كم انت وحيدة » ... آه معك وحدك كان الدفء والفرح (كنا نحب الدفء ، ونحول غرفتنا في الشتاء إلى مكان استوائي حار صالح لتربية التماسيح). هذا لا يعني ان علاقتنا كانت –كعلاقة روميو وجولييت– غراماً مستمراً دونما شجار . ولكن ربما أحب كل منا الآخر بعمق أكثر من عمق حبهما ... وحين نتشاجر ، كان يحدث أمر غريب بيننا ... كان كل منا يضم صاحبه إلى صدره ، بينما نتابع شجارنا وألفاظنا الجارحة وتهمنا المتبادلة ، كما لو أننا نتلمس القرب عن طريق اللمس على الأقل ... آه يا لها من أيام (كتبت له على جبينه بالحبر كلمة : احبك . وقلت له: حتى بعد ان تغسلها ، ستظل تقرأها حين تقف امام أية مرآة . كان حبه صادقاً بطريقة لم اعرفها في حياتي أو حياة المحيطين بي او حياة ابطال الروايات وابطال قصصي ... حين وعدني بأن يقرأ كلمة « أحبك » كلما حدق بالمرآة كان صادقاً واكثر صدقاً مني انا صاحبة الفكرة ، والدليل انه تمثلها عملياً ولذا ذكرني بضرورة كتابة العبارة « بالمقلوب » .. انه لم يقل لي مرة كلمة كذب واحدة ... حتى عبارات الحب التي يغدقها علي كانت كلها غير مزيفة .. مرة همس : اطمئن اليـك واحس بالسلام معك . وكنت احمل في يدي زجاجة فيتامين ، فتظاهرت بانني اقذفه بها ، لكن عينه (لم ترمش) ولم يرف له هدب ولم يحرك يده في اتجاه وجهه لحمايته من القذيفة . كان صادقاً حين قال انه يطمئن الي ..

آه شؤون صغيرة تهاجمني ... تذكرني به ... شؤون صغيرة هي الحب في جوهره ...

ولكنه لم يكن على حق في اطمئنانه إليّ .. مرة كنت غاضبة منه ، وساكتة على مضض ، اتابع نزهتنا ، وبين يدي الكاميرا التقط له صورة بعدسة خاصة مكبرة ، حين شاهدت وجهه في العدسة وانا الصقها على عيني استعداداً لتصويره ، تذكرت دون ان أدري لماذا عدسات بنادق القناصين ... صارت الكاميرا في يدي بندقية ، وصرت أتأمله من منظارها الخاص بالقنص ... وقررت ان لحظة الضغط على الزر لإلتقاط الصورة ستكون لحظة الضغط على الزناد لإطلاق الرصاص عليه ... كنت أصوبها

عليه ... كنت أصوبها نحو رأسه (اي كنت التقط له صورة بورتريه !) .
وأحسست انني لست غاضبة بمقدار يكفي لأطلق الرصاص على رأسه ،وانما على قدميه فقط ... وغيرت الهدف وشددت الزناد ... ضحك كثيراً يوم تم تحميض الصور واكتشف انني صورت قدميه ، ولم اعترف له بأنني كدت أغتاله يومها ، ثم اكتفيت باطلاق الرصاص على رجله تشفياً !)

آه شؤوننا الصغيرة تهاجمني ... شؤون صغيرة هي الحب في جوهره ...
ولكنها لم تكن دوماً شؤوناً صغيرة ، على الأقل في نظر الآخرين ..

(غاظتنا صعوبة الاتصالات الهاتفية في بيروت كلما امطرت السماء في وجه شوقنا ، فقررنا شراء جهاز (توكي ووكي) .. واوصينا أحد اصدقائنا بحمل الجهاز معه من سفرته الأخيرة ... وحين صودر منه في الجمارك بصفته جهازاً يحرم استعماله للمدنيين قال انه بريء وان استعمال الجهاز محرم على المدنيين ولكن ليس على العاشقين . لم تعجب الضابط هذه النكتة ، ولم يبد عليه انه يصدق حكاية حبنا ، بل انه كان ميالاً إلى اتهامنا بالعمل في منظمة (هدامة) شيوعية طبعاً لمجرد اننا فقراء ، وبدا خائفاً منا وغاضباً في الوقت ذاته ..

في زمن البغضاء من الصعب ان تقنع الناس بانك عاشق .. في زمن الكراهية يصير استعمال الآلات الحديثة مكرساً لاجهزة القمع والقتل) ...

كل أجهزة اللاسلكي التي تبث في هذه اللحظة أوامر القتل والتدمير ، لماذا لا تمنح موجاتها ليبث منها العشاق ؟ ولماذا لا يوضع شرط أساسي للحكام ، هو ان يكونوا عشاقاً .. العاشق انسان غير مؤذ ، وهو وحده القادر على فهم معنى المحبة والحنان والمساواة والفرح والشمس والطفولة وكل العبارات التي يتشدق بها حكامنا العاجزون فكرياً وجنسياً ... إنه لن يقتل دونما مبرر ، وسيكون مقاتلاً لا قاتلاً ...

* * *

كابوس ٨٩

رغم العاصفة ، استطيع ان أسمع أصوات كائنات دكان بائع الحيوانات الأليفة .. في أنينها الخائر الخائف ، نبرة غضب جديدة ... كغضبي لجوعي ... تراها بدأت تجوع مثلي ؟ ...

ارتدي معطفاً واقياً من المطر ثم أخلعه حين اتذكر انه غير واق من الرصاص .. واهبط درجات السلم ، والعتمة نور يؤذن لي كل مساء بزيارتها ..

ها أنا في الحديقة المعتمة من جديد ... أحاول استنشاق الهواء النقي كما يفعل المساجين في لحظات خروجهم الوجيزة إلى باحة السجن ، لكن هواء الليل لم يعد نقياً ، والريح تحمل معها رائحة جثث بدأت تتعفن ، لعلها جثتا الرجل والكلب اللذين قتلهما القناص أو الجثث الأخرى الكثيرة الممددة في الشوارع المحيطة بي أو في غرف الفنادق التي يدور القتال فيما بين الذين احتلوها .. تأتيني رائحة الموت الكريهة ممزوجة بدخان حريق هائل شب في المبنى الكبير المقابل ، مبنى فندق « الهوليداي‌إن » ... الظلمة ليست دامسة ، وألسنة النار العالية تكاد تحيل ظلمة الحي إلى غروب ناري لا ينتهي .. كأن الشمس توقفت لصق أفق البحر ، لصق أفق الغابات وبدأت تحرق الأشجار وتبخر الأمواج ... توقف المطر قليلاً لكن الرصاص ما يزال يهطل ... البرق يلتمع من شعري المرسل على ساق الليل في توسل لامتناه ، والرعد يتابع تهديداته الغاضبة ...

واحس بأنني صغيرة ووحيدة كفراشة ضالة في قارة الغربة ... اركض والتصق بصدر النخلة السامقة الطول ، ثم اتابع ركضي نحو نافذة المخزن ... النافذة كما تركتها البارحة ، نصف مخلخلة .. انتزعها من مكانها كالعادة .. تهب الريح ضارية إلى الداخل .. ويتعالى صراخ الحيوانات وحوارها وهي تشم رائحة الدخان والحريق ، ورائحة الشتاء والمطر ...

اقفز إلى الداخل ... الرائحة الكريهة تهاجمني ... رغم البرد ، الرائحة نفاذة أكثر من العادة ... أجلس قليلاً على الأرض ريثما تألف عيناي الظلمة ثم احدق بما حولي ... الأقفاص مغلقة كما تركتها البارحة ، ولكنها فارغة تماماً من الأكل الزهيد والماء ... من الواضح ان صاحب الدكان او من ينوب عنه ، لم يستطع الوصول اليوم اليها ... ان اللعبة بدأت تخرج من يده ولم يعد بوسعه أن يتحكم في جعل الطريق آمنة متى شاء ... وهو لم يحمل اليها بالتالي (راتبها) اليومي البسيط الذي يمنعها من الموت (وليس من المرض) كي يظل قادراً على بيعها والإتجار بها ...

انه الجوع ... له رائحته الخاصة ... له حضوره الخاص ... اعرفه جيداً كما تعرفه هي .. واميزه من رائحته ومن صوته ... انه صوت يتجمع في الحنجرة ، يبدأ متذمراً

ثم يستحيل إلى أنياب إضافية في فم الجائع ...

في البداية قررت أن أركض لاحضار طعام لها . كان ذلك رد فعلي العفوي ثم تذكرت انه لم يبق من الطعام ما يسد رمقي لأكثر من يوم ، فاقنعت نفسي عقلياً بان عليّ ان أتركها تجوع بما فيه الكفاية لتستيقظ غريزة الحياة فيها وتغادر أقفاصها إلى الصيد من أجل البقاء ... ثم فكرت : ربما كان عدم هربها لحكمة لا أعيها .. تذكرت الكلب الذي قتله القناص منذ يومين . ربما كانت تلزم أقفاصها بفعل أصوات الرصاص كأنها تعي أن الخروج الآن يعني الموت ... لعلها لا ترفض الخروج كمبدأ ، لكنها ترفض « التوقيت » ... ولكن ، من أين لها ان تعلم بوجود القناص ، ربما كانت تحس إحساساً غامضاً بان الخارج ليس آمناً ، وعلى أية حال لن أعرف أبداً ما يجول في رؤوسها بالضبط . كانت الكلاب أكثر الجميع جوعاً أو أكثرها تعبيراً عن ذلك ... قررت : سأفتح أقفاصها وأرى ما إذا كانت ستهرب أم لا ... وانا أرفع مزلاج بابها ، وكان القفص يضم خمسة كلاب كبيرة ، شاهدتها تقترب مني وتحوم حولي وتعوي بغضب جائع مفترس .. وخشيت ان تهاجمني اذا أطلقت سراحها ، وتأكدت مخاوفي حين ضربني أكبرها بيده ، فدخلت أظافره المدببة في لحمي كالسكاكين وخلفت في يدي أربعة شقوق كآثار المحراث في التربة وتركت المزلاج وهربت متسلقة نافذة المخزن .. حينئذ فقط تذكرت أنني لم أعد إقفال المزلاج ... صحيح انني لم أفتح لها الباب لكنها ستكتشف إمكانية ذلك عاجلاً أو آجلاً ... ولكن ذلك لا يهددني ما دمت قادرة على إحكام إقفال نافذة المخزن ، وبالتالي سجنها في الداخل ...

كنت ارتجف خوفاً وانا أحكم إعادة إطار نافذة المخزن إلى موضعه .. بل انني دحرجت حجراً كبيراً اسندته على المنخل الحديدي للنافذة ... وكان جرح يدي يؤلمني بإلحاح متزايد ...

وفي ضوء الشارع الشبحي ، كنت ارى عبر الثقوب الدقيقة لمنخل النافذة ، باب قفص الكلاب يفتح ، والكلب الأول يخرج ، غاضباً مزمجراً كالريح وفي صوته نبرة جديدة ، مخيفة وجميلة ، كلوحة مرسومة بالدم ... كانت له حركات انسان خرج على الناس شاهراً سيفه لانه لم يجد في القفص قوتاً لابنائه ...

ودوت الانفجارات ، وانكسر ضوء الشارع ، وغرق المخزن في ظلام دامس ...

لكنني كنت اسمع أصوات الكلاب وهم يخرجون من القفص واحداً بعد الآخر ... وحين التمع البرق ، شاهدتهم في ايماضته السريعة وقد خرجوا يتجولون في الدكان كخمسة عمالقة غاضبين ...

تدفق المطر ، وشعرت بالبرد حتى قاع عظامي ، وفكرت بهلع ، ها أنا اتسبب في مجزرة ... فقد تهاجم الكلاب بقية الجياع في الدكان ... وتأكلها .

.. إذن ... عليّ إحضار الطعام لها ...

وركضت إلى البيت وانا أعرف انه لم يتبق فيه ما يسد رمقنا ... وانني عاجزة عن إطعام الكلاب ، وعاجزة عن إعادتها إلى سجنها ! ..

* * *

كابوس ٩٠

الضوء الأحمر لحريق الفندق العملاق المواجه لنا ينعكس من نوافذ السلم .. لكنه ضوء من النوع المخيف أكثر مما يخيف الظلام . دخلت إلى أول باب صادفني : باب العم فؤاد ...

كان وابنه يستمعان إلى إحدى الاذاعات وقد رفعا صوت المذياع حتى اقصى مداه .. ركضت نحو الهاتف وجدته بين الموت والحياة . انتظرت حوالي نصف الساعة قبل ان أنجح في إجراء مخابرة ، اتصلت بالصديقة يمن زوجة المذيع شريف المقيم ليلاً ونهاراً في غرفة العمليات بلجنة الارتباط العسكرية ... قلت لها انني في خطر ، لا لأن القصف قد اشتد عما كان عليه في الأيام السابقة (إذ لم يكن بوسعه ان يكون أكثر شدة إلا إذا رموا بالقنبلة الذرية مثلاً !) ولكن لان اعصابي بدأت تهترىء وتستحيل إلى خيوط متآكلة كشبكة صياد عجوز ... وهنالك شبح الجوع أيضاً .

اتصلت بأمل وهدى وبلقيس وبكل من خطر ببالي من صديقاتي الحميمات ... ولم اتصل بفاطمة فقد كنت أعرف انها تقاسي ما اقاسي وبيتها في رأس النبع جبهة ملتهبة كجبهتنا ... كنت تماماً مثل سفينة مشرفة على الغرق تطلق صرخة استغاثتها الأخيرة في الاتجاهات كلها ... وكان عليّ ان أصبر أكثر من نصف ساعة قبل كل مخابرة .

وانقضت عصور قبل ان يرن جرس الهاتف ، جاءني صوت يقول ان النقيب أيوبي ، يطلب مني وصف موقع البيت لتحضر ملالة لانقاذي ... حين سمع الوصف قال لي :

المكان خطر جداً لكننا سنحاول .. وفهمت من لهجته ان عبارة « سنحاول » هي المرادف اللطيف لعبارة « مستحيل » ولكنه اشفق من قول الثانية ... بدأت استميت في إقناعه .. قلت له انني سانتظرهم في الشارع الجانبي خلف بيتنا ، اي شارع الحوراني ، أمام دكان بائع الحيوانات الأليفة . قال لي ان المصفحة لا تستطيع المرور بذلك الشارع لضيقه وشدة انحداره وخطورة انزلاقها في المطر ، وان مصفحة كادت (تعلق) البارحة فيه ، وصدقته ، فقد كنت قد سمعت ليلاً وانا بين النوم واليقظة صوت مصفحة تروح وتجيء لكن ظنتني واهمة ، كالظمآن في الصحراء يرى السراب ، أو كالعاشقة يأتيها شبح حبيبها ، وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف ان لا أحلم بغير المصفحات ... إذن لم يكن حلماً . كانت هنالك مصفحة متورطة تناضل لتخرج من درب الانحدار والمطر . لم ايأس . قلت له ان بوسعي انتظار الملالة في الشارع المنحدر من كليمنصو إلى مخفر ميناء الحصن (كنا نسميه — يوسف وانا — شارع التنهدات .. وحين كان يوصلني إلى بيتي مروراً بهذا الشارع ، كنا نبدأ بتنهدات عاشقة لاننا سنفترق .. وسيطول غيابنا لمدة ساعة مثلاً !) ، ولم أقل للنقيب أيوبي « شارع التنهدات » وإنما قلت له : شارع المخفر .. سأنتظركم أمام المخفر ...

رد بضيق : انه مكان يستحيل الوصول اليه ، فقد عجزنا حتى عن ايصال الخبز لرجالنا فيه ! ... تمتمت محاولة قول أي شيء كي لا نختم المحادثة هكذا وينقطع شريط الأمل نهائياً مع انقطاعها : هل تريد ان أحمل بعض الخبز إلى رجالك في المخفر ؟ استطيع التسلل من الحديقة الخلفية في الظلام ... (لم اكن أعني ما اقوله طبعاً إذ لم يكن لدينا كسرة خبز إضافية واحدة) وكأنه فهم فقال : خذي هذا الرقم ، واتصلي بالمعاون أول حيدر الذي سيقود الملالة فقد تجدان درباً تستطيعان الوصول اليها او تتفقان على مكان اللقاء .... وانتهت المكالمة ... وسادت الظلمة الدامسة قلبي .. ورغم انني سجلت الرقم إلا انني لم اتصل بالمعاون الأول حيدر ، فقد كنت أعرف سلفاً أنه سيرفض المجيء إلى قلب ساحة حرب الفنادق ! ... ثم ان الهاتف كان قد قضى نحبه تقريباً .

شعرت بصدري ممزقاً ، وأحسست المساء ثقيلاً يجرجر نفسه فوق جسدي وكأنه (مدحلة) تعبيد الطرقات وقد مرت للتو فوق جيئة وذهاباً ، ظللت مرمية في مكاني ، على الكرسي الملاصق للهاتف ... الشمعة إلى جانبي ترتجف في الريح الباردة القادمة من

النوافذ .. لم نكن نجرؤ على إغلاق النوافذ خوفاً من تناثر الزجاج في الانفجارات ، وها هو « السيد الشتاء » يتجول ويدخل البيوت ...

استطيع ان أسمع زعيق مذياع العم فؤاد وابنه ، لكنني لا أبذل اي جهد لفهم ما يقال ... صرت قانعة بأن نشرة الأخبار الوحيدة الصادقة هي ما يحمله إليّ صوت الريح .. وكان صوت الريح لا يحمل غير زعيق الدمار ، ورائحته الشتائية الحزينة ممزوجة بالدخان وعفن جثث الموتى المفروشة على الأرصفة ...

* * *

كابوس ٩١

انه الهاتف . يبدو انه ما زال بوسعنا ان نتلقى المخابرات لكننا عاجزون عن إجرائها .. صوت جارنا حسين الذي يسكن بناية ادريس المقابلة لقصر آل جنبلاط و (طلعة جنبلاط) يسألني : هل أنت جاهزة للخروج؟

— طبعاً جاهزة . من لا يرغب في الهرب من هذا الجحيم ؟ .. قال : ستأتي مصفحة بعد قليل . انتظرينا عند الباب ..

* * *

إذن لم يهرب البارحة أحد . والمصفحة أصيبت دون أن تنقذ أحداً .

من جديد خرجت إلى الليل المرعب . من جديد جلست ملتصقة بالعمود البارد استرق السمع لصوت قدوم طوق النجاة الحديدي الضخم المسمى مصفحة . من جديد شتمت مذياع العم فؤاد المرتفع الصوت الذي يشوش طاقتي على الإنصات . بدأت تمطر ، وشعرت بألم مرير في يدي ثم تذكرت ان الكلب الجائع كان قد ضربني بأظافره الغاضبة . في البلدان السعيدة يذهب الناس للطبيب للتزود بلقاح ضد « مرض الكلب » حين يحدث ذلك لهم . هنا نسيت حتى ان أغسل جرحي . هنا ، في وسط ليل الموت ، يمكن ان تصيبني رصاصة وأظل أنزف حتى أموت دون أن تمتد يد لرفعي عن الأرض ! ... عالجت قفل باب الحديقة الحديدي وانتزعت عنه السلسلة المحيطة به ، وكان صوت الحديد بارداً وكئيباً يذكر بانتزاع السلاسل عن سيقان المساجين في باخرة تغرق ... وأخيراً يأتي صوتها ... من بعيد أميزه ... صوت المصفحة صار عندي صوت الحياة والهرب .. تقترب .. تقترب .. يتوقف هديرها .. أمد رأسي قليلاً ، وأحاول أن أراها عند نهاية

الشارع ... لا أرى شيئاً . مصابيح الطريق مطفأة أو مصابة بالرصاص ، وضوء الحريق الأحمر القادم من « الهوليداي‌إن » لا يستطيع خرق حجب الظلام في المنعطف حيث قصر جنبلاط وعمارة ادريس .

اغمض عينيَ وأحاول عبر حاسة السمع تخيل ما يدور . أراهم يهبطون من بيوتهم فرحين بالنجاة ، يدخلون إلى رحمها المعدني ويتنهدون بارتياح ، هذا بينما ما زلت أنا في بطن الحوت الذي ابتلعني : حوت الخوف والوحشة .. من جديد اسمع صوت المصفحة ، هديرها يقترب قليلاً . مطر الرصاص القادم من ناحية فندق « الهوليداي‌إن » يشتد ويمازجه رعد جهنمي أرضي ، رعد القنابل ... ولا أعود أسمع شيئاً ... بعدها بقليل يصمت كل شيء ، وأعرف ان المصفحة قد انسحبت ، ولكنني انتظر وانتظر أملاً مني في أن يعودوا لانقاذي ... لا أدري كم طال انتظاري ، لكنني أحسست بالمطر يخترقني حتى الجلد ، ويسيل من شعري على وجهي مختلطاً بدموعي ... وكان الألم في اذني ويدي قد صار مريراً ... فانسحبت بدوري راجعة إلى بيت العم فؤاد ... كنت أكثر تعباً وأعجز عن أن أعيد إقفال الباب الحديدي بالسلسلة .. ولماذا أقفل الباب ؟ ومن يجرؤ على الوصول إلى هنا ، إذا كانت المصفحة نفسها قد لملمت جسدها الحديدي هاربة من هذا الجحيم ؟ .

حين دخلت التفت إلي العم فؤاد وابنه امين وحدقا بي ، فأدركت كم انا مبتلة ومزرقة اللون ، ومرتجفة كشبح خارج للتو من قبره في قاع البحر ... ثم تابعا الانصات إلى نشرة الأخبار ... وخيل إلي انني أرى في عيني امين ظل شماتة .. انه مستسلم لارادة والده ، وها هي الأيام تثبت له – حتى الآن على الأقل – انه على حق وها هو جاف ومستريح في مقعده بينما اتحطم انا كل ليلة على سلالم الأمل الدامسة السوداء ... ومع ذلك اتابع محاولة الصعود ! ...

* * *

كابوس ٩٢

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

وأشهد كيف يخفق القلب الأعزل بالرعب والأسى ، حين يكون مرمياً مثلي على أرصفة النار ...

ولكن ، ألم أقض عشر سنوات من عمري أكتب وأنادي الثورة ؟ ألم أقض خمس سنوات من عمري موظفة في إحدى دور النشر أساهم في إعداد الكتب « الثورية » للطبع وأعمل على تصحيحها ، أكان ذلك خطأً ؟ أم ان الخطأ الحقيقي هو في موقعي الجغرافي الخاطىء ؟ في انني أقطن حياً لا انتمي إليه ؟ في أنني أسكن بيتاً لا معسكراً ؟ .. الكتاب أمثالي الذين يحرضون البركان على الانفجار ، كيف يبنون بيوتهم على سفحه ؟ القلم المقاتل يجب ان يقطن معسكراً ؟

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد كيف يدمى القلب الأعزل حين تصرخ داخله عشرات الأصوات ويخطو عبر عتبة الهواجس .. هذا يوم آخر يسعدني ان أنفيه ، ويوجعني انه لن يتكرر ... لقد انزلق رمل الساعات المقررة لي في هذا اليوم ، ولن تعود ذرة رمل واحدة منه ..: ليتكرر انزلاقها .

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

انها الثامنة والنصف ... والكهرباء ما زالت ميتة داخل اسلاكها الباردة او المقطوعة نهائياً ... هذا معناه انني لن اتمكن من التقاط تلفزيون اسرائيل الليلة .:. المفجع انني مضطرة لمراقبة تلفزيون اسرائيل لمعرفة ما يدور عندنا ... العدو يعرض شريطاً مصوراً مفصلاً عن أحداثنا الدامية ، القصد منه طبعاً التشفي والشماتة ، ولكن المروع هو اننا مضطرون لاستقاء المعلومات عن انفسنا من الاذاعات العدوة ، لان تلفزيوننا الكريم يقدم لنا كل شيء إلا ما نريد حقاً معرفته .. وقد سئمنا من سماع أخبار استقبالات (أبانا) الذي فوق قمة الهرم ! ...

واعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد كيف يدمى القلب الأعزل ، البعيد عن مناخه الحقيقي كسمكة اخرجوها من مياهها الاقليمية ...

حروفي اليوم والحروف التي اعددتها للطبع خرجت من الكتب وتحولت إلى مقاتلين .. كان من المفروض ان أكون معهم لاحس بالطمأنينة ، والقدرة على الحوار ، والقدرة على الموت الجميل ، الموت (عن سابق تصميم وتصور) لا الموت الغبي بالصدفة ودونما معنى ... ولكن ، كيف أكون معهم وانا اكتب عن الجرح الذي ينبت منه الفرح ،

والألم الذي هو مخاض الشمس الآتية ، لكنني في الوقت نفسه أصاب بالاغماء أمام مشهد الدم ، اي دم ، وبالحسرة أمام القتيل ، اي قتيل ؟! ... وأؤمن بأن الموت جريمة كونية في حق الوجود ، وان اسلحة الدمار بشاعة مرحلية يجب ان تنتهي عن كوكبنا يوم ينتهي من عصره الحجري الثاني : عصر الفضاء ، ليدخل في عصر العدالة ومعرفة الله والحق ...

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ...

واشهد انه لو كان يوسف إلى جانبي ، لكان الحوار ممكناً ، والخروج من قاع زجاجة الحزن طموحاً غير مبالغ فيه ... أما الآن ، فكل ما أملكه هو ان اكتب فقط ... ان أتابع تسطير مسودات « كوابيس بيروت » ..

ضوء الشمعة ذابل ... الجرح في يدي يؤلمني كلما حاولت ان أخط سطراً .. مرهقة .. أشعر بابطال الرواية – الحقيقيين منهم والذين رسمهم خيالي – ينزلقون مني في العتمة ... وأصواتهم تخفت وهم يمعنون انزلاقاً في بئر عميقة سوداء لامتناهية القاع ... أفكاري تهرب مني مثل قطار سريع وأنا متعبة لا أقوى على اللحاق به ويدي تؤلمني وأعجز عن التعلق به وتسلقه وامتلاكه من جديد ...

وأعرف كيف يمكن للمساء ان يكون حزيناً ..

وأشهد كيف يتحول الجسد الحي إلى كومة من الأعصاب النازفة المرية على سرير بارد في الظلام ، بينما تزدهر نبتة الكوابيس الوحشية وتنمو وتخرج من الاذنين والعينين والأنف والفم كما تنمو الديدان والطحالب على فوهات الجماجم والهياكل نصف المتآكلة في المقابر ...

لم أنم جيداً منذ عصور .. طموحي الوحيد نوم بلا أحلام ولا كوابيس ..

* * *

كابوس ٩٣

ظهر المذيع على شاشة التلفزيون وبدأ يقرأ نشرة الأخبار . كان يرتدي ابتسامة منشاة وثياباً كثياب رجال المافيا ويضع على رأسه قناعاً أسود ، ولا يظهر من وجهه غير ابتسامة وثقبين في موضع العينين يطلقان أشعة شريرة ...

كنت جالسة على أرض الكهف – الملجأ ، وحولي مئات من الحفاة المتعبين أمثالي ... والتلفزيون موضوع فوق صخرة عالية تشبه المذبح الوثني . كان المذيع ما يزال يتحدث

وقد وضع أمامه على الطاولة مدفعاً رشاشاً ، وكان يحيط به خمسة من المذيعين الذين يشاركونه قراءة الأخبار ، وكانوا جميعاً مقنعين مثله ، ويحملون أوراق النشرة بيد ، ويدهم الأخرى على زناد المدفع الرشاش . إلى جانبي طفل بدأ يصرخ باكياً جائعاً . كانت أمه عبثاً تدفع إلى فمه بثديٍ ذابل أفرغه الجوع من الحليب ولم يخلف فيه إلا سائلاً من المرارة الصفراء ... تضايق مذيع التلفزيون من بكاء الطفل . صرخ به ينتهره من داخل شاشته . لم يسكت الطفل . اطلق المذيع عليه رصاصة اصابته في الحنجرة تماماً فسكت ... !

تابع المذيع ثرثرته : مولانا الذي فوق قمة الهرم يبلغكم وصول أكياس الجواهر والياقوت على متن سفننا الخالدة ...

لم يصفق أحد للنبأ . لم يبتهج أحد . كانوا يعرفون ما تحمله السفن التي ترسو هذه الأيام .

تابع المذيع : الحالة هادئة في هذا البلد السعيد ذي العمر المديد والطقس الرغيد ....

تثاءب عجوز وراح في سبات عميق على صرته التي كانت تضم دجاجة يعتاش من بيضها . صرخت الدجاجة . صفر شاب وأشار إلى التلفزيون مهدداً بقبضته بينما تابع مذيع آخر النشرة : اقيمت احتفالات بمناسبة عيد التتويج ، سنعرض عليكم أجزاء منها والمطلوب منكم ان تقفوا خشوعاً للمشهد . لم يقف أحد ... كانوا جياعاً ومتعبين وجرحى ، وكان الألم في يدي قد صار حاداً وأذني تنزف وخيل إليَّ ان المذيع يصوب مدفعه نحوي فحاولت النهوض واكتشفت ان ساقي خشبية ... ولم يجرؤ أحد على الخروج من الكهف إلى الليل النقي فقد كنا نعرف ان القناصين يترصدون أبواب الكهوف .. « قفوا فوراً » ، صاح المذيع . صرخ شاب : اغلقوا التلفزيون سئمنا هذه الأكاذيب والهذر والطقوس . نريد ان ننام . تقدم من الشاشة صبي ربيعي في الرابعة عشرة من عمره كان مولوداً في نيسان ، ومد أصابعه البريئة ليضغط زر التلفزيون ويخرسه . فجأة بدأ المذيعون باطلاق الرصاص . نهضوا وقوفاً وبدأوا يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة على الجميع ...

وانا أتلاشى ، شاهدت الصبي الربيعي المولود في نيسان يضغط زر النهاية في التلفزيون وشاهدت انفجاراً مضيئاً،وحريقاً عظيماً اشرقت من بعده شمس حمراء.... وانا أتلاشى

كنت ارى — وانا مغمضة العينين — المذيعين يطلقون النار في الوقت نفسه من شاشاتهم كلها على جميع الناس في البيوت كلها .. وفي كل بيت كان هناك صبي نيساني يفلح في تفجير مندوب (أبانا الذي فوق الهرم) ...

* * *

كابوس ٩٤

وصل السائح المغترب إلى الفندق الفخم المطل على البحر ... كان قد غاب زمناً طويلاً . يوم سافر حفظوه في مدرسة القرية انه من سلالة المردة ، وان مرقد عنزة جدّه مكان فريد وتحت روثها توجد أحجار الاشعاع مطمورة كالكنز ... ولكنه كان صبياً فقيراً ، وكلما حاول ان يسأل استاذ مدرسة الايتام عن سر افتقاره إلى الخبز ذكّره الاستاذ بانه من سلالة المردة والمردة لا يجوعون ...

ولكن للمعدة منطقاً آخر ... وذهب ذات ليلة إلى مرقد عنزة جدّه ، وحفر تحت روثها فلم يجد غير مزيد من الروث ... وهاجر ... وشقي ... واغترب ... واعوج لسانه ونطقه ... ولكنه ظل يحلم بحجر الاشعاع المسحور ، وباجداده المردة ...

وحينما زارتهم الفرقة اللبنانية الفولكلورية في دار الاغتراب نسي كم من النقود ابتزت منه راقصتها الأولى « تفاحة » ومطربها الأول ... لقد غنوا له عن بلاده ، بلاد المجد ، والنجوم التي هي غبار مقالعها ، والشموس التي تنبت في كرومها ، فيقطفونها ويرشقون بعضها في السماء ، ويعصرون البعض الآخر ويعبئونه في زجاجات ويشربون رحيقه فيحلقون في مدارات النجوم راكبين مراكب شمسية عتيقة ... مطلين على الكرة الأرضية من علٍ ، ضاحكين من صغر رقعة العالم العربي وكل عوالم الشعوب الأخرى ...

أما الراقصة فقد اغرته باللحاق بها إلى لبنان لقضاء فترة الأعياد على الأقل هناك ، حدثته عن الكبة النية والتبولة والعرق وجعيتا والأرز وبعلبك وكل تلك الأشياء والأماكن (الخالدة) ، ووعدته بان تكون دليله اليها ، وقبضت الدفعة الأولى مقدماً .

وصل إلى الفندق الفخم مع الخيوط الأولى للفجر وقد قرر قضاء شهر الأعياد بلبنان .. لاحظ ان بعض أقسام البناء يغطيه الهباب الأسود ، بعض النوافذ تتدلى محروقة ، أكثر الزجاج يبدو محطماً ، والمدخل الرخامي مكسر الدرجات ، فقدر ان هذا لا بد وان يكون آخر ما توصل اليه فن الديكور الحديث ، اليست بيروت أول من يحتضن كل تجديد

في العالم ؟ لم يركض أحد لاستقباله ، وادهشه ذلك ، خصوصاً بعد الاستقبال الهائل الذي حظي به في طريقه من المطار إلى الفندق ... فقد كان الناس طوال الطريق يطلقون الرصاص ابتهاجاً بوصوله ... وخيل إليه في لحظة ما ان رصاصة اصابته في رأسه إلا أنه تأكد من انه كان واهماً . ولم ير مخلوقاً في الشارع من المرحبين به ، فقط سمع اطلاق الرصاص وسره ذلك جداً . صحيح انه كان يتمنى ان يرى وجوههم على جانبي الطريق يلوحون له بالاعلام كما وعدته الراقصة تفاحة ، إلا أنه قد وصل في الرابعة صباحاً ، ولا ريب في أنهم كانوا قد ضبطوا ساعاتهم على موعد وصوله كي يطلقوا النار من النوافذ ابتهاجاً وهم في أسرتهم .. كم هو عظيم ومضياف هذ الشعب ! ...

لم يتقدم منه أحد . قرر ان المستخدمين قد يكونون الآن في إجازة فترة الأعياد ، أو أنه ضل الطريق . قرأ لافتة الفندق فوجدها صحيحة : فندق لبنان .. كان هنالك تبديل بسيط في ترتيب الكلمات ، فقد انزلقت حروف الكلمة الثانية وبدا له اسم المكان : لبنان الفندق .

تقدم منه كيس من الرمل كان واقفاً في متراس وقال له ضاحكاً : « ولكم تو ليبانون » وضحكت بقية الأكياس . الأكياس تمشي وتتكلم ؟ يا للعبقرية السياحية .. ولكن ذلك غير معقول .. ربما كان ما يزال ثملاً . لقد شرب كثيراً من كؤوس الويسكي في الطائرة . كانت مجانية ، لذا ظل ينادي المضيفة كي تأتيه بكأس جديدة ، فقد ركب في المقاعد المخصصة للدرجة الأولى ودفع ثمناً باهظاً لذلك لانه كان يريد ان تراه « تفاحة » حين تأتي لاستقباله هابطاً من باب الدرجة الأولى وان يلوح لها من نوافذ الدرجة الأولى ... لماذا لم تأت لاستقباله ؟

تقدم منه كيس آخر من الرمل بخطى سريعة ، وقال له : هيا بسرعة دعني ارشدك إلى غرفتك لاعود إلى مكاني ، الشباب بحاجة إليّ ....

صعد خلفه متعباً . حاول ان يحمل حقائبه المليئة بالثياب الفخمة وقال له الكيس : لن تحتاج اليها هنا ...

صعد خلفه ... كان الفندق خاوياً إلا من بعض الجثث بعيونها المفتوحة التي تحدق به . كان قد حجز غرفة في الطابق العاشر كي يستمتع بمنظر البحر ، ولم يكن يدري ان غرفة المصعد منسوفة وعليه ان يتسلق حبلاً إلى الأعلى . تسلقه وقد تقدمه كيس الرمل . أدخله

إلى غرفته . كان الفراش تابوتاً . فتح الحنفية ليغسل وجهه علّه يصحو ففوجىء بالدم يندفق من الحنفيات بدلاً من الماء . نظر إلى وجهه في المرآة ، ففوجيء برجل في داخلها يصرخ به آمراً : نم فوراً ، وحين تصحو ستقوم بجولتك السياحية ... إلى أمكنة أخرى في الوطن ...

لا يدري اذا كان قد نام ام لا . لم يجرؤ على النوم داخل التابوت ، فتمدد على الأرض إلى جانب الطاولة التي كانت معدنية وخاصة بالعمليات الجراحية .

ايقظه مخلوق له جسد طائر ورأس رجل فقال له السائح بخوف : جود مورننغ . بونجور . رد الشاب : صباح الخير .

طلب طعاماً ، فجاءه الشاب بكوم من العشب ، فأكل حتى شبع . طلب أن يحلق ذقنه ، فمد الشاب أحد مخالبه إلى خد الرجل وكان حاداً كالشفرة وازال به شعر ذقنه في لمحة بصر .

طلب سيارة للذهاب إلى هياكل بعلبك ، فطلب منه الشاب — الطائر ان يغمض عينيه كي يرى جيداً ... وحمله وطار به ... ذهب به إلى أماكن كثيرة لم يكن قد سمع بها قط من قبل ، ولم ير صوَرها في جميع الكراسات السياحية اللبنانية التي كان يهوى جمعها ...

بدلاً من بعلبك طار به أولاً إلى مكان أسماه الكرنتينا . أذهله أن يعيش البشر في زرائب تنكية ، وان يبكي الأطفال في الوحل جوعاً .. وفقراً .. ولكن لاحظ ان عيونهم حمراء ، او ان ضياء أحمر يشع منها في كثير من التصميم والغضب ... بعد هذه الزيارة كرر الشاب ترحيبه للسائح الوحيد في لبنان ، وللسياحة الأولى الحقيقية المجيدة ، ثم عاد وحمله على كتفيه وطار به كالصقر وبلمح البصر وجد السائح نفسه في مكان يقطر فقراً وقال لهَ الشاب « نحن الآن في تل الزعتر » ...

* * *

كابوس ٩٥

كان المسلح ما يزال يحوم في الجو كطائر الرعد ، ويحرك جناحيه الشفافين بينما تمسك السائح الوحيد في لبنان بشعره الكثيف كلبدة الأسد ...

في القاع ، كان قادراً على ان يرى بوضوح أطلال مدينة أكلها الزمن ونهشتها

عوامل الطبيعة ، فحولت بيوتها السكنية إلى ما يشبه البقايا ...
سأل السائح الوحيد في لبنان ، المسلح الذي يطير به في جولة سياحية غير رسمية ولا تقليدية : أما زلنا في لبنان ؟ هذه الآثار لا تبدو كبعلبك .
رد المسلح : قلت لك هذا تل الزعتر . وهو في لبنان . بل في بيروت . وهو ليس موقعاً أثرياً سياحياً ، بل هو مكان يسكنه بشر يتناسلون ولهم أطفال لا أحجار شطرنج تستطيع حملها عن رقعة اللعب وازاحتها متى شئت ...
وهبط المسلح بضيفه يتجولان في المكان ...
كانت البيوت أكثر قدماً من صور هياكل بعلبك . وثمة غيمة تحاول حجب الشمس عن الناس المتعبين ، إلا أنه لاحظ في عيونهم ذلك البريق الأحمر الغريب المليء بالحيوية الشرسة ، رغم اصفرار وجوههم مرضاً وتعباً ...
كرر السائح الوحيد سؤال دليله الشاب : هل نحن في لبنان ؟ قال : بل في بيروت نفسها ... ان ما تراه من بيوت ، وبشر وآهات وغضب يمتد حول بيروت حزاماً من نار ...
قال السائح الوحيد : أرجوك .. تعبت . خذني إلى شارع الحمراء . أريد ان أذهب إلى مكان أليف خفيف الظل . طار به الشاب قليلاً ثم هبط به في شارع كئيب المظهر حزين الصورة يرقص الفقر على جانبيه ويقفز فوق الشرفات المهترئة والدكاكين الحزينة..
قال السائح الوحيد بلبنان : أهذا شارع الحمراء ؟ ...
رد الشاب : أجل . وهذا أيضاً اسمه شارع الحمراء . وهذا أيضاً يقع في بيروت ، واسم المنطقة برج البراجنة . واغمي على السائح . وحين استيقظ ، طلب من الشاب ان يحمله إلى الأرز في الشمال ، فطار به إلى الجنوب وتعب السائح الوحيد في لبنان فقرر دخول احد البيوت ليشرب ويغسل يديه . قالت له المرأة الحامل التي فتحت الباب : ليست لدينا مياه جارية . انتظر . سأملأ لك قليلاً من الماء . ومضت نحو مستنقع وملأت له كأساً . ذعر وهو يرى الديدان تغلي فيها .
قال لها : انا جائع . هل لديك خبز .
اعطته رغيفاً معجوناً بالشوك ومغطى ببقع الدم ! ...

* * *

كابوس ٩٦

قال الدليل الطائر : سنقوم الآن بجولة في أقصى الجنوب على حدود هذا الوطن مع اسرائيل .. وحمل السائح من جديد وطار به إلى اقصى الجنوب .

كانت الوديان والجبال الوعرة تشتعل بالخضرة ، والتربة الخريفية البنية تغلي وعداً بالعطاء ... وبين مكان وآخر بناء اسمنتي ضخم ... سأل السائح الوحيد : هل هذه استراحات سياحية ؟ أرجوك دعنا نهبط ونشرب كأساً من العرق . رد الدليل الطائر وهو (يخرطش) سلاحه : بل هذه مخافر اسرائيلية متقدمة داخل الأراضي اللبنانية ... انهم يأكلون الوطن قضمة بعد أخرى ، والوطن تفاحة هشة ! ...

صرخ السائح : ارجوك خذني بعيداً .. بعيداً . إلى أقصى الشمال إلى مناطق أرز الرب .. لقد تعبت ...

وطار به الدليل فوراً إلى أقصى الشمال ، واشرفا من بعيد على جيش يتدرب وسأل السائح : ما هذا الجيش ؟ رد الدليل : جيش التحرير الزغرتاوي .. سأل السائح : ولكن ، لماذا جيش التحرير في أقصى الشمال بينما العدو في اقصى الجنوب . ؟ .. رد الدليل انها من مظاهر المعجزة اللبنانية والأعجوبة اللبنانية . الم تسمع بها ؟ العدو في أقصى الجنوب وجيش التحرير في أقصى الشمال ! ... قال السائح : تعبنا يا أخي ... خذني إلى اي مكان التهم فيه صحناً من الكبة النية ثم اوصلني إلى المطار ... انا على أية حال اميركي الجنسية ... وطار به المسلح إلى مكان ما في بيروت ... كان هنالك رجل يعذب في أحد الأقبية .. سلخوا من فخذه قطعة من اللحم ، وتولت دقها في جرن الكبة سيدة تطلق الزغاريد طوال الوقت وعلى صدرها وسام لا يحمل مثله أحد في البلاد ، وتم اعداد صحن الكبة النية باللحم البشري للسائح ، فأكل هنيئاً وانبسطت اساريره بعد ان ابتلع محتويات (ألفية) من العرق وقال لدليله السياحي الطائر : بالله عليك ، كفانا مزاحاً .. خذني إلى شارع الحمراء ... شارع الحمراء « اياه » حيث واجهات المخازن وسيقان الفتيات ... هل فهمت ؟ ... رد المسلح بصبر : حسناً ... فهمت .

وطار به إلى شارع الحمراء ..

دهش السائح الوحيد ...

فقد شاهد الناس يلملمون دكاكينهم عن الأرصفة ويحملونها بكل محتوياتها كما

يلملم السيرك خيامه حين يرحل .. وكما يلملم الممثلون ديكوراتهم حين تنتهي المسرحية ... فوجىء بأن الأشجار والسيارات والدكاكين ، كل ما في الشارع من الكرتون ، أما الفتيات فكن مجرد دمى منفوخة ، وكان يتم تفريغها من الهواء وتكديسها على أرض الشاحنة مع بقية الديكورات ! ... صرخ السائح : ماذا حدث لهذا الشارع المجيد .

رد الدليل : لا شيء ... انتهت مسرحية « الازدهار » التي قدمت على خشبته عدة أعوام ، وقد أفلس اليوم مخرجها ومنتجها بعد فشلها الهائل في اقناع الجماهير العربية العريقة ... لقد كان نجاح المسرحية مجرد فقاعة ... وها هم يلملمون الديكورات ويرحلون بسيرك « الازدهار » إلى حيث لا أحد يدري ، وربما إلى مدينة عربية أخرى لتقديم المسرحية العتيقة ذاتها !.. وتابع الدليل طيرانه بالسائح فوق شوارع بيروت وكانت القمامة تشتعل في الدروب الخاوية وسحب الدخان تغلف المرئيات بلون رمادي مفرط الغم ، وذكره المشهد بصور المدن العتيقة التي يجتاحها الطاعون والأوبئة ... كانت رائحة كريهة حزينة تملأ المكان ... بيروت تتعفن ... الذباب وحده يتناسل ... صرخ السائح بدليله : أرجوك .. خذني إلى المطار ... وفي الدرب إلى المطار سمع بيروت تزعق كأرملة فقدت رشدها ..

وفي المطار ، خطف السائح طائرة ، وطلب من قائدها التوجه إلى أي كوكب آخر غير كوكب الأرض ! ..

* * *

كابوس ٩٧

استيقظت مرهقة وقد حلمت أحلاماً بائسة ومزعجة .. ظللت طويلاً مرمية في الفراش الغريب كخرقة اتأرجح بين النوم والنوم ، والكوابيس واليقظة .. (ولكن ، أليست الكوابيس درجة متقدمة من درجات الوعي ؟ أليست الكوابيس يقظة مرهفة والجنون وعياً مطلقاً ؟) دوى انفجار صاروخ أعقبه صوت سقوط زجاج محطم ... وبدا صوت سقوط الزجاج طويلاً وممطوطاً كأنه صدى الانفجار ... السرير الغريب أحسه باستمرار برقية انذار من مملكة التشرد والغربة .. وصوت الزجاج المحطم يذكرني — دون ان أدري لماذا — بالبياض المزرق في جدران المستشفيات الحديثة ... ساعتي تقول ان الساعة هي الرابعة إلا ١٢ دقيقة فجراً ... نهضت إلى النافذة .. كانت السماء صافية صافية

مزروعة بنجوم براقة جداً ، وبدت لي مثل صورة ملونة لأطلس جغرافي حديث من تلك الصور المبالغ في تجميلها وتلوينها ... بدت لي السماء رائعة وكبيرة وأبدية فعلاً ، وأحزنني أن أعرف انها ليست كذلك ... وان نصف عمر الشمس قد انقضى ، وانه قد تبقى لها ٤٠٠٠ مليون سنة قبل ان تنطفىء نارها وتنتهي التفاعلات الذرية في لبها ، واذا لم يكف الانسان عن اللعب بالحرب وتدمير الذات ، واذا لم يتحد أهل كوكب الأرض ، لمواجهة مأساة انطفاء الشمس بالرحيل إلى كوكب آخر ، له شمس في شمس حياتها ، فان الدمار النهائي محتوم .. ومع ذلك فالانسان مشغول عن تجاوز ذاته وكوكبه والجاذبية وجدار الصوت وجدار الضوء وغارق في احقاده ومجازره الصغيرة ... ولو استطاع الانسان كسر جدار الكراهية لاستطاع العلم كسر جدار الضوء ، ولانتفى الموت ، ولصار بوسعنا الركض في أكوان الزمان والمكان جيئة وذهاباً ... ولاستطعت لقاء يوسف في كوكب ما .. في كوكب آخر نقطنه بعد ان نكسر جدار الحياة ! .. « يوسف » ... همست باسمه بكل ما يملك الجسد البشري من طاقة على التكاثف في سحابة كونية لامتناهية ، للامتزاج بسحابة أخرى ... « يوسف » كررت اسمه فيما يشبه الصلاة وشعرت بأن أبواباً لا مرئية تنفتح واسواراً غامضة تنشق وكنت واثقة انه بطريقة ما يسمع صوتي .. وعدت إلى فراش الغربة ، وانزلقت من جديد إلى شطآن النوم الغامضة ...

* * *

كابوس ٩٨

توقف قطار الليل ، وكان رصيفه بركة دم . هبط راكبه الوحيد ، وكان اسم الزمان بيروت ...

تجمعت حوله الطيور الليلية والقطط والرياح والأشجار والفئران ترقبه بفضول . كان جسده من جذع زيتونة موغلة العتق ، وشعره من أعشاب الأعماق البحرية ، وفي عينيه دهاليز لامتناهية الأبعاد والمرايا ... وعلى شفتيه ابتسامة نصف بريئة نصف مذهولة ...

فقد أدهشه الا يأتي لاستقباله أحد .

صرخ بحزن : اين انت يا شعبي ؟ اين انتم ايها الاطفال .. ايها الفقراء .. ايها البسطاء .. اين ذهب الجميع ؟ ..

وتقدم منه يوم لطيف المعشر وسأله عن اسمه .. ورد الشيخ : اسمي العيد .

وانفجرت مخلوقات الطبيعة ضاحكة ، فالحياة بحد ذاتها هي عيدهم اليومي المستمر ... انهم لا ينتظرون مرور قطار العيد لانهم ببساطة يقطنونه ! ... وقرر سنجاب حريري الذيل ان البشر مضحكون لانهم ينتظرون زيارات العجوز العيد دون ان يلحظوا ان شروق الشمس اليومي ورقصة المد والجزر واناشيد المطر والفصول كلها أعياد نسوها في غمرة انشغالهم بصنع الدمار والبشاعة .

مشى نحو بيروت .

استوقفه حاجز مسلح وسأله عن اسمه ، قال : اسمي العيد . لم يبد على أحد أنه تذكر هذا الاسم . احدهم فقط بدا وكأنه يحاول استرجاع صورة ملونة داخل رأسه ، لكنه لم يستطع ، فقد كانت أصوات الرصاص طيلة أسابيع قد مزقت شاشة ذاكرته ...

كرر : انا العيد . قالوا : تشرفنا . اين تذكرتك (بطاقتك الشخصية) ؟ .

أشار العيد بيده المعروقة كسنبلة إلى هلال نحيل في السماء وقال : القمر تذكرتي ! ...

لم يرفعوا رؤوسهم إلى الأعلى . كانوا قد اعتادوا على استعمالها للصيد فقط . أحدهم فقط صوب رصاصة إلى القمر ، وأطلق النار بدقة ، فأصابه ، وانفجر الهلال وسقطت جثته كومة من الرماد ... وضحك الرجال واطلقوا سراح العجوز المجنون لأنه أرخص من رصاصة ! ! ...

* * *

ـــ ايتهاالسيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بجدائلك ؟

هكذا سأل العجوز امرأة عرفها منذ زمن طويل واحبها ... كانت جميلة وانيقة وترتدي القفازات باستمرار .

قالت : قصصت جدائلي وخنقت بها أولادي واحداً بعد الآخر ! ...

ـــ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بحبيبك ؟

ـــ غدر بي ، فشنقته على أسوار قلبي ...

ـــ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بأسوار قلبك ؟

ـــ علقت عليها جثث أيامي ، وتركتها لنسور الصحو تأكل عيونها واكبادها ...

ـــ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، ماذا فعلت بجلدك الأملس الشفاف ؟

ـ زوجته للتراب ، طهرته بالأشواك وعطرته برائحة البارود .

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، لماذا لم تنتظريني على رصيف محطة الليل كما في كل عام ؟ ..

ـ لانني فقدت القدرة على التخدير ...

ـ ولكنني العيد ...

ـ ولكنك عابر سبيل . تعبت من عابزي السبيل كعاهرات الموانىء ...

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة التي اسمها بيروت .. هل فقدت رشدك ؟ .

ـ ربما ... وربما لا .. ربما للمرة الأولى استعدت رشدي ..

ـ ايتها السيدة ، أيتها السيدة ، شفتاك مشققتان كالقديد ، وجهك محروق كرمل الصحارى ، عنقك هزيل كطائر محروق العش ... كيف تستمرين ؟ ..

جرته السيدة من يده ... ثمة تل من سبع طبقات ... طبقة من الملح ثم الجثث ثم الدم ثم الخطيئة ثم الندم ثم التوبة ثم الوعي ... وفي التراب الغامض لهذا المزيج ، ثمة نبتة خضراء تشق دربها في العتمة والريح وشهقات الاحتضار الممزوج بشهقات الولادة ..

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، كيف تقضين لياليك الآن ؟ ..

ـ على الشاطىء كسرت علبي الليلية وتركتها تهترىء كعلب السردين الفارغة الصدئة ... اني اراهن اليوم على مستقبل آخر ..

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، اخشى ان تكون هذه هي النهاية ... انك لم تعودي جميلة ...

ـ لم اكن قط جميلة . لا جمال بلا عدالة . كنت قناعاً جميلاً وها أنا أخلع قناعي ، واخلع مجوهراتي وفرائي وقفازاتي واغسل وجهي ... ولو بالدم ..

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، لقد ضيعت دورك .

ـ لقد رفضت دوري كراقصة أولى في كباريه الشرق الأوسط ! ..

من رمادي قد اخرج ، من نهر الدم قد اتطهر .. انها فرصتي الوحيدة لأكون ، ولأنجو ...

ـ ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، اين فندقك الوثير الارائك لأنام ؟ ...

ـ الوطن ليس فندقاً ... في زيارتك المقبلة آمل ان تقيم بيننا دائماً ... وتصير مواطناً

في مملكة الفرح ... مملكتي .
– ايتها السيدة ، ايتها السيدة ، إلى اين تمضين ؟
– إلى حيث انجو ، أو أموت ! ! ..

* * *

لملم العجوز حقائبه وألعابه الرثة ، وزماميره السخيفة و (كوتياناته) الهزلية وعاد إلى المحطة ...

في الظلمة ، كانت النبتة الخضراء تتوهج بينما الفقراء والبسطاء والأطفال يغرسون جذورها داخل شرايينهم لتكبر ...

وجاء البوم اللطيف يحاول أن يؤنس العجوز ريثما يصل القطار ، ويروي له النكات المرحة ، لكن العجوز – العيد كان ما يزال يتساءل بحيرة : هذه السيدة التي اسمها بيروت ، تراها تنتحر أم تخلع أقنعتها لتخرج من رمادها جديدة كطائر الفينيـــق ؟

تراه يصير حقاً مواطناً دائماً في جمهوريتها ؟ أم انه في زيارته المقبلة سيطلق الرصاص على رأسه ليموت منتحراً على رصيف محطتها الغامضة ؟ ..

وكل هذا الصخب والعنف . كل هذا الصراخ . أكان احتضاراً أم ولادة ؟..

* * *

كابوس ٩٩

كأن الشمس أقسمت ألا تشرق ما دامت جثث الأبرياء منشورة في الأزقة ، والشوارع قبوراً عامة مفتوحة ...

فتحت عيوني ... كانت تمطر ... والساعة تشير إلى السابعة والثلث ... وفي رأسي حلم حار حار ... حلمت (**احمل اشياء يوسف ... وأدور بها في البيت باكية ... ثم ادخل الدهليز .. فالمطبخ ... اتحرك كالاشباح دون أن يسمع خطاي ، وانا خائفة من نفسي ،خائفة من يدي وجسدي كأنني مغتربة عن ذاتي. خائفة من الداخل وابدو قاسية من الخارج فقد شاهدت وجهي في المرآة الصغيرة عند اول الدهليز وذكرني بوجه الليدي ماكبث بعد ان ارتكبت احدى (فظاعاتها)،.. اتسلق درجاً صغيراً داخل المطبخ .. اصل الى السطح المغطى بالقرميد... اسير نحو كومة من الاشياء المهملة العتيقة .. خزانة شبه اثرية .. افتح**

احد ادراجها .. يئن .. يهب غبار عشرات السنين...اعاود اغلاقه وقد تعلقت نظراتي بقطعة اثاث اخرى ... انها سرير خشبي صغير ... سرير طفولتي ... اضع فيه اشياء يوسف ، رسائله وصوره وشموعه وبقاياه ... اغطيها جيداً بشرشف عتيق كي لا تبرد ، ثم اهز السرير بها ، اهزه طويلاً وانا ابكي بحرقة ... آه يا طفلي يا حبيبي ...

بعد دقائق او ساعات تسقط يدي عن السرير . يتابع اهتزازه ثم يخفت تدريجياً تدريجياً كذكرى تنزف حتى تتلاشى ... ويتوقف السرير تماماً ..

اهبط من حيث جئت واغسل يدي !) ..

الحلم يبدو لي عجيباً ، فأنا واثقة من انني لم أصعد إلى سطح بيتنا منذ عشرات الأعوام ، وانا واثقة من انني لا أعرف حتى محتويات غرفة ما تحت القرميد ... ففي طفولتي اخافتني عمة عجوز من هذا المكان ، وكانت تدّعي ان جنياً يأكل الأطفال السيئين يقطنه ، وبما انني طفلة سيئة فان الجني متربص بي في الأعلى كي يأكلني ... وكيف لا يأكلني وانا أرفض تعلم الطبخ والخياطة واشغال البيت كبقية البنات الطيبات وافضل العاب الصبيان ؟ .. وحتى حينما كبرت ، صارت عمتي تتمنى لو ان جنياً حقيقياً يقطن سطحنا يأكلني ويريحها والأسرة مني انا الفتاة الهاربة من (العرسان) المتشردة في أقطار الدنيا ، المعيلة لذاتها ، اللامبالية بآراء (مجلس الاسرة الأعلى) ، ثم الموظفة في دار نشر ثورية (ملحدة) ، والعاشقة لشاب من غير دينها (يا لطيف) ! ...

وصحيح انني اؤمن بأن الجان يتحركون فيما بيننا ، ونرى صورهم باستمرار في صفحات المجتمع بالمجلات وعلى شاشة التلفزيون في المناسبات الخطيرة (مثلهم) ، إلا انني ظللت أحس بخشية طفولية غامضة من غرفة السطح بل انني لا أذكر انني صعدت اليها ولو مرة واحدة منذ طفولتي ... فمن اين جاءني هذا الحلم العجيب . ؟ ..

* * *

كابوس ١٠٠

ما أزال مرمية في فراش الغربة كخرقة ، استرجع كوابيسي وأحلامي الممزقة ..

اطل امين وسألني ما اذا كنت قد نمت جيداً . كان واضحاً من وجهه انه لم ينم أبداً وانه يتمنى ان اسأله السؤال ذاته . لم أفعل . ولكنه كان قد حزم أمره على ان يشكو لي حتى ولو لم أسأله ! قال فجأة : لقد ابتلعت خمس حبات فاليوم ولم انم ... قلت له :

الليل حزين وطويل ، والفاليوم محدود المفعول ، وفي ليل الحروب الاهلية تذهب الأدوية المهدئة التي تبتلعها إلى شرايين الفراغ لا إلى شرايينك ! كان ذلك أطول حوار تبادلناه منذ أعوام ! ... حين غادر الغرفة ظللت احدق بالمطر الشرس ووعيت كم انا محظوظة لانني مرمية داخل فراش ولست جريحة في العراء ... شعرت بجوع مؤلم ، وكأن الجو بدل موجتي النفسية ، ونقلني إلى مرتبة أخرى من مراتب الوعي ، وبدأ راداري يلتقط أصوات كائنات دكان بائع الحيوانات الاليفة ...

سمعت أصواتها سيمفونية من الغضب تكاد تطغى على صوت الرعد والمطر ... لم يكن بوسعي ان اميز بين صوت وآخر ... كان صوتها يأتيني مثل زعيق كورس موحد ينشد أغنية الجوع ... تذكرت انني خلفتها في الليلة السابقة جائعة ، وقد حال تصاعد الاشتباكات بينها وبين صاحبها (او من ينوب عنه) من الذين كانوا يسدون رمقها بالقليل لتظل حية وبالتالي ممكنة البيع ! .

أجل ! كان بوسعي وانا ممزقة ومرمية في فراشي كخرقة أن اسمع أصوات مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ، وأن أعزلها تماماً عن أصوات الرصاص والمتفجرات لاسمع أدق همساتها ... كأن جسدي استحال إلى جهاز في غاية التعقيد والدقة لتنقية الأصوات وفرزها ...

كان بوسعي أن أغمض عيني فأرى بوضوح ما يدور في المخزن ، مضيفة الصورة إلى الصوت ...

كلاب الصيد الخمسة الرشيقة كأحصنة عربية غادرت قفصها .. دارت اول الليل في ردهات المخزن السجن ... ظلت زمناً تنطح الجدران بحثاً عن منفذ .. قفزت نحو النافذة التي اتسلل منها كل ليلة .. الجوع يجعل كل قفزة اكثر علواً من الأخرى ، كل شهقة جوع أكثر ارتفاعاً من الأخرى ... الذعر يدب في أحشاء بقية الحيوانات السجينة ممتزجاً بجوعها ... كهارب الغضب التي تطلقها كلاب الصيد الرشيقة كأحصنة عربية تزداد كثافة واشعاعاً معتماً ، وبقية الكائنات تعيها ، وتضيف اليها ، وتتصاعد أصوات الذعر والجوع والغضب .. الطائر الذي لم يحرك جناحيه — منذ يوم سجنه — بدأ يطير وجسده يصطدم بالطيور نصف النائمة فيوقظها ، وبالقضبان فيهتز القفص .. صمت البيغاء المروض على الثرثرة ، وصار كوزير للاعلام في مملكة ديكتاتورية . نسي اسطوانته

التي يقولها بلغات ثلاث : « اشتريني » . وعاد يزعق زعقات الذابة والصدق ، زعقات الحرية والجوع والغضب ... والخوف أيضاً من الكلاب التي بدأت تبحث عما تأكله ... انيابها المشرعة بدأت تمتد على غير هدى عبر حديد الأقفاص ، لكن أكثرها كان دقيقاً كالمنخل فلم يصب أحد بأذى تقريباً ، وكأن بقية الحيوانات استعادت لياقتها الجسدية حين ايقظها الجوع والحس بالخطر ، فقد كانت تتجنب ببراعة مخالب الكلاب وتحول المكان إلى ما يشبه قدر الساحرة : الملأى بالغليان والتناقضات والوحشية المظلمة ... أرى الأسماك تركض في حوضها الخاص (الاكواريوم) الذي لم يعد مضيئاً ، وتبحث عن بقايا الأكل ، ثم تتجمع في فرق ، بالاحرى تتكوم الصغار بعضها على بعض ، وكل سمكة تقايس نفسها بالأخرى : هل هي أكبر ام أصغر ؟ ومن سيأكل الآخر ؟ ...

استطاع كلب ان يجرح أرنباً مريضاً بمخالبه ، لانه لم يقدر على الحركة بسرعة والابتعاد عن ناحية القفص حيث وجهت الضربة ... بدأ دمه يسيل بينما هو يبتعد إلى مكان قصي في القفص ... رائحة الدم تفوح ، وزلزال عجيب يدب في السجن مع انتشار رائحة الدم .. كأن في الدم قوة سحرية تدعو إلى المزيد ... كأن الدم يتناسل ، كأن الدم ينادي الدم .. كأن سحرة العصور الوسطى كانوا يعرفون تلك القوة المجهولة في الدم ، في رائحته ولونه ولذا لم تكن تخلو طقوسهم من الدم ...

أثار الأرنب الجريح موجة من الجنون في المكان ، وهياجاً عاماً غامضاً ، كأن الدم صرخة إنذار في عالم الغابة ، كما صوت صفارة الغارات الجوية في المدينة ، ولكل ردة فعله كما البشر ... بعض الحيوانات سكت وجوماً ، وبعض الطيور ارتسمت في عيونها أحزان عميقة تشبه نظرات اليتامى ، وحتى الطاووس وقف جامداً وقد انتصب ذيله الملون دونما استعراضية ونرجسية ، كما ينتصب تماماً شعر رجل خائف ! ..

أما كلاب الصيد الرشيقة كأحصنة عربية فقد ارتفع صراخها وانطلقت في الدكان غاضبة وبدأت تقفز في (الجزء السياحي) ذي الديكورات الضخمة المعدة لاستقبال الزبائن الغرباء ، القادمين لشراء سجناء صاحب الدكان ، والذين يحجب عن عيونهم كل مشاهد بؤس الحيوانات ، ديكور متقن يقوم بين القسم (السياحي) من الدكان وقسم (الأحياء السكنية) البائسة في جوف المخزن بعيداً عن الشمس والرعاية والعيون ... ومع كل قفزة غاضبة يائسة كان يسقط ديكور ما ، كانت الأظافر تنشب في المقاعد الجلدية

الفخمة فتمزقها ثم تنبش قطنها وتنثرها في أرض الدكان كالجثث ، وتكسر اللوحات وتقضي حاجتها فوق مقعد سيد الدكان والزبد الفائر من فمها يتناثر فوق كل شيء ...

* * *

كابوس ١٠١

ما أزال ممزقة ووحيدة ، ومرمية في فراشي كخرقة ...

(حتّى ولو كان جسدك موجة بحر . يخترقه الرصاص ولا يؤذيه .. حتّى ولو كان قلبك مضخة ألكترونية لا يعطلها الخوف والقلق ، ولا تغير المشاعر الانسانية توقيت ضرباتها ... حتّى ولو كانت اعصابك مصنوعة من معادنالصواريخ والمركبات الفضائية ، ونبضك دقات ساعة سويسرية خرجت تواً من المصنع ... حتّى ولو كان نومك كدوران الكرة الأرضية لايبدله شيء ، وقدرتك على الفرح كانهمار مياه شلالات نياجارا لا يعوقها شيء ...

حتّى اذا كنت كذلك ، فانك بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالفوضى تجتاح روحك حتّى قاعها ... الفوضى تتسلل الى قيمك وافكارك واعماقك ومشاعرك وعواطفك وعلاقاتك .

بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالحاجة إلى وقف اطلاق نار (داخلي) تكف خلاله عن التفكير بالرصاصات التي اخطأتك ، والصاروخ الذي احرق بيتك ، والقناص الذي اصطاد قبعتك ، وبخبزك المر الرمادي المعجون بفجر الحرائق والصواريخ ، وليلك الطويل المسكون بالبرد والمجهول وصراخ الاطفال والجرحى ، وعويل سيارات الاسعاف العاجزة عن الوصول اليك والتي تحولت الى عربات لنقل الموتى لا تصل الى الجريح إلا بعد ان يكون قد مات ، وسيارات الاطفاء التي تحولت الى سيارات لتقديم التعازي بالحرائق لأن الرصاص يحول بينها وبين الوصول قبل ان تأكل النار كل ما تستطيع أكله ...

بعد ثمانية اشهر من ليل الشوارع المطفأة المصابيح ، وكوابيس الرصاص التي تقطن وسادتك كشريط تسجيل لا يتوقف ، تشعر بأنك بحاجة الى الالتقاء بذاتك ولو مرة ... دون ان تكون راكضاً تحت الرصاص ، او مختبئاً خلف متراس او راكعاً في قلب الزلزال ستتسلل مثلي هارباً الى شاطيء البحر ...

جسدك الذي تعودت ان تكوره مذعوراً في اضيق حيز ممكن — كما تفعل بعض حيوانات الطبيعة حين يدهمها الخطر — سترمي به على صخرة ..

جسدك ستمده كسحابة على الشاطىء ... ستتركه ينتشر بحجم قدرتك على الحلم التي كدت تنساها ...

ستختار مثلي صخرة عالية وداخلة الى قلب البحر ، بحيث حين تتمدد فوقها وتدير ظهرك لبيروت ، ستتيقن بعد قليل بأنك مبحر في مركب حجري في وسط البحر تماماً ...

بعد ثمانية اشهر من الحرب الاهلية ، ستشعر بالفوضى المروعة وقد استولت على عالمك الداخلي ... وستحس بالحاجة الى اعادة ترتيب العالم في داخلك ، الى اعادة ترتيب القيم والمفاهيم على ضوء المفاجئات التي مرت بك والاكتشافات التي صفعتك او افرحتك لكنها ادهشتك على اية حال ...

تعيد النظر في كل شيء .. في كل المواقع .. في موقع الصديقات والأصدقاء . في موقع عملك . في موقع سكنك . في موقع قلبك . في بوصلة روحك . في اتجاه قاربك الحجري الراكض في البحر الشاسع اللافضولي ... القاع صار سطحاً . السطح صار قاعاً . السقف صار جداراً . والجدار صار درباً . وانت ، من انت بالضبط ؟ ...

آه كم انت وحيد ...

يستطيع الذين يحبونك ان يسرقوا لك الطعام في المجاعة ، لكنهم لا يستطيعون ان يهضموه لك ...

يستطيعون منحك سريراً لكنهم لا يستطيعون النوم عنك ..

يستطيعون منحك شيئاً من دمهم لكنه جرحك انت الذي يجب ان يشفى لا جرحهم ..

يستطيعون حتى الاعتذار عن اساءاتهم اليك ، لكنهم لا يستطيعون ان يتألموا عنك بسبب ما سببوه لك .. آه كم انت وحيد ... وكم تقولها لك الحرب الاهلية بفصاحة لا منقطعة النظير بل و (موصولة النظير) ايضاً ! ..

آه كم انت وحيد ... وكم هي متقنة الصنع مرآة الحرب الاهلية ، بحيث ترى فيها بوضوح مدى شفافية جسر المشاركة ... حبل المشاركة .

انه ليس حبل المشيمة بل هو أرق من شعرة معاوية ! .. إذا لم تحرقك نار الحرب الاهلية ، فانك ستخرج منها وقد انكشفت لعينيك حقائق الوجود ولو في ومضة برق ...

المهم ألا تنسى ، ... الحرب الاهلية فرصة نادرة للفنان الذي يعاصرها ويخرج منها حياً لانه يخرج منها حياً مرتين ! ..

تغمض عينيك مثلي قليلاً ... تتابع ابحارك في قاربك الحجري وسط الموج والزرقة اللامتناهية ...

وفجأة تشعر بالسعادة لانك ما تزال حياً ... يا للمعجزة ، لان قلبك ما يزال يدق ! ولانك ما زلت قادراً على الانتشار كغيمة بحجم احلامك ... ولانك ما زلت قادراً على اعادة ترتيب عالمك في بحر الفوضى والولادة والهشيم .

يا للمعجزة ، ما دام الطفل في داخلك ما يزال فضوله يغني ! ...

انفجار ثم لا تخف ... انه ديناميت لصيد السمك ... وكما على الارض كذلك في البحر ... انهم يقتلون السمك ايضاً ... اليس كذلك ؟) ...

ولكنني ما أزال ممزقة ووحيدة ، ومرمية في فراشي كخرقة .. والبحر بعيد بعيد ... والوصول اليه مستحيل ...

* * *

كابوس ١٠٢

جلست خاتون البصارة أمام كرتها الزجاجية ، وصارت تحدق بها طويلاً بينما النسوة خاشعات في حضرتها .. فهي قد أعتادت التحديق في نقطة معينة منذ كانت تزاول عملها كخياطة وتمشي نظراتها مع الابرة الصغيرة الخطى .. إلا أن الزمن تبدل ، والسيدات هجمن على دكاكين الثياب الجاهزة ، وتخلين عنها واحدة بعد الأخرى لمجرد ان أسعارها معتدلة .. وسيدات مجتمع بيروت المخملي يحتقرن الاسعار المعتدلة أسوة برجالهن ، ويفضلن ارتداء ثياب تحمل توقيع أصحابها كتواقيع بيير كاردان وتيدلابيدوس ، وجان باتو ...

وقررت خاتون الخياطة ان تتحول إلى بصارة « وعالمة في ضرب الرمل وفك السحر والربطة تجلب لك الغائب وتتنبأ لك عن الحاضر والمستقبل » كما ذكرت في اعلان اقترح عليها زوجها العاطل عن العمل نشره في إحدى الصحف مع عنوانها .. وكانت المفاجأة مذهلة ..

تدفقت النساء عليها ، والأسئلة عن الغائب والحاضر ، والماضي والمستقبل ، وفك

الرصد ، وتجهيز ربطة تضمن ربط الحبيب إلى الأبد ... أدهش خاتون ان الرجال أيضاً بدأوا يقبلون عليها ، وأكثرهم من رجال السياسة .. وهنا كان لا بد من إجراء تعديل في الأسعار ، فلشمهورش تسعيرته وحافشيط واعور الدجان وعطلميس وزغبيباز وغيرهم من الجان الذين (خاوتهم) ... اما الكرة الزجاجية الشفافة فقد جلبتها في بداية عهدها بالصنعة ، ولم تتوقع ان ترى شيئاً فيها . وكان الغرض الوحيد منها هو الهرب بنظراتها من عيني الزبونة ... كي لا تكتشف الزبونة ان خاتون تكذب ! ..

لكن شيئاً عجيباً تحسه في الأيام الأخيرة ، كلما زارها (البيك الكبير) محاطاً بازلامه الذين يحتلون الردهة الخارجية لحمايته ...

حينما يدخل اليها ، تحس بحضور يثقل على صدرها ، وبحاجة مريرة إلى التثاؤب المتوتر طلباً لمزيد من الهواء ... لا تدري اذا كان السبب يرجع إلى شائعة سمعتها عنه تقول بأنه قتل عدة أشخاص في أحد أمكنة العبادة دون ان يرف له جفن ، ام لان له هو بالذات حضوراً شريراً غامضاً ... صار قدومه يسبب لها بعض الآلام في مفاصلها ، ونوعاً من الغيبوبة المتوجعة كغيبوبة مريض تجرى له عملية في رأسه بالتخدير الموضعي ... انها تحس عملياً بالأعراض التي كانت تدعيها ! ..

خاتون تحدق في كرتها الزجاجية الشفافة . البيك يسألها : ماذا ترين ؟ يخنقها صوته . تكاد تعترف له بانها لا ترى شيئاً وترمي اليه بنقوده القذرة وتتخلص منه ، لكن كهارب ذات رائحة كريهة كانت تنبعث منه وتشلها وظلت نظراتها مسمرة على الكرة الزجاجية وفوجئت بأنها لم تعد فارغة وانها ترى في داخلها (البيك) نفسه مقتولاً وقد ارتمت جثته وفيها أكثر من ثقب يتفجر منه الدم ...

سألها ماذا ترين ؟ كانت تستطيع ان ترى الدم يتفجر من الثقوب الكثيرة للجثة بجلاء ، أما الوجه ، وجهه ، فكان يتبدل ، يصير وجوهاً كثيرة لرجال آخرين لا تستطيع تمييزهم ولا تعرف أكثرهم وان كانت قد شاهدت صور بعضهم في الصحف ..

قالت : ارى دماً ... كثيراً من الدم .. مزيداً من الدم ... وظلت تحدق مذهولة . تحول المشهد إلى حقل شاسع من الرماد والجثث ، وبرعم صغير أخضر يشق طريقه وسط زلزال جبار ... يسألها ماذا ترين ؟

تقول : رجلاً له رأسان كل رأس يشتم الآخر ، عقرباً يلدغ ذاته في حقل من

الجمر . جنازة لشخص (كبير) والناس يركضون فيها ويعزفون على المزامير .

يسألها وماذا أيضاً ؟ لا تسمع صوته . تتوهج كرتها الزجاجية وتتلاحق المرئيات داخلها : ترى جبالاً مغطاة بالثلج والسنديان والأرز والجثث وشواطىء رملية شاسعة والدم يصب في البحر أنهاراً .. ثم يأتي زلزال وتتفكك الأرض إلى قطعتين كبيرتين بينهما هوة شاسعة عميقة الأغوار ، تنبعث من قاعها نار تبلغ ألسنتها عنان السماء .. ويأتي زلزال آخر وتتفكك الأرض إلى عشرات القطع وتتلاحق الزلازل وتتمزق الأرض إرباً ويتفجر المزيد من ينابيع الدم ويزداد عدد الشقوق والنيران تعلو منها والزبد يتفجر كالينابيع النارية ، والأرض تبتلع الناس والأغنام والمزامير والبيوت والأشجار وتهب عاصفة من نار وصراخ وتصير عيون النساء ثقوباً مليئة بالدم والجمر .

ماذا ترين ؟

يصفعها ليوقظها من غيبوبتها وهو يكرر سؤاله . تحاول ان ترد ، لا تستطيع . لقد انعقد لسانها . تعي وعياً غامضاً انها صارت خرساء ، كأن برق اكتشاف الغيب أحرق حبالها الصوتية فصارت رماداً .

* * *

كابوس ١٠٣

ما ازال ممزقة ومرمية في فراشي كخرقة . تأتيني رائحة الحريق مشبعة بذرات البرد الماطر ، والسماء التي صحت قبل الفجر بقليل عادت سقفاً من الفولاذ . استطيع من موضعي في الفراش ان أرى فندق « الهوليداي ان » يتابع احتراقه . احاول النهوض . يدي تؤلمني . تذكرت الكلب وضربة يده ومخالبه التي خلفت آثارها في يدي أربعة شقوق اثنان منها طويلان وقد التهبت بشرتي حولهما قليلاً ... أربعة شقوق كآثار المحراث في التربة ...

أذني أيضاً ما تزال تؤلمني حيث (مسحتها) الرصاصة ، وان كان الجرح قد جف تماماً ... وعما قريب يسقط الدم الجاف ويعود كل شيء كما كان ، ولكن ، هل يمكن لجراح أهل المدينة، جراحهم الداخلية ان تندمل ويعود كل شيء كما كان ، كما يأمل البعض ؟ دونما أثر لندبة ؟ ... (أية مأساة ان يعود كل شيء كما كان !) .. يدوي انفجار يعقبه كالعادة صوت زجاج يتحطم . أقفز من فراشي دونما جهد ، بل واحس

بانتعاش نسبي رغم جوعي وخوفي وعزلتي وجراحي ...
كل ما حولي يجعل الاستمرار معجزة .. لكنني استمر ، دونما جهد . اسقط إلى قاع اليأس ، لكنني ما البث أن أعوم تلقائياً إلى السطح . انها الحياة تتدبر أمرها في النهاية ! ..
في طريقي لتفقد بيتي ، وبصورة خاصة غرفة المكتبة لدي فوجئت بأمين والخادم يتبادلان التهم بشأن ... القردة ...
آه القردة ... كنت قد نسيتها تماماً ، ولكنها على أية حال ليست قردتي انا ... لقد اشتراها أمين منذ عامين لسبب مجهول وقد لفت نظري تصادف شرائها ليلة اعلان فسخ خطوبته الأخيرة من فتاة جامعية — تراها كانت صدفة ؟ وبنى لها قفصاً في ركن قصي بالحديقة ... في البداية أحزنني منظرها .. أحزنني سجنها .. صممت على أن أتسلل ليلاً واطلق سراحها ، إلا ان أخي اقنعني بان اطلاق سراحها يعني قتلها ، فاما أنها لن تجد شيئاً تأكله في غابة الحجارة والأسفلت ، مدينتنا ، او ان شخصاً ما سيقبض عليها ويحاول بيعها او الارتزاق من توظيفها مهرجة عامة ورقاصة جماهيرية في الأسواق !...
كنت كلما لمحتها ، أحس بغصة غامضة ، فمشهد اعتقال الحرية ، أية حرية يوجعني حتى إذا كان (المعتقل) من غير فصيلتنا الحيوانية ... ومع ذلك ، فقد كانت حالتها مشابهة لحال كثير من (الزوجات) في مجتمعنا .. كانت سجينة ، لكنها تقدم لامين دقائق تسلية ومتعة كلما شاء ، مقابل إطعامها وحمايتها والحفاظ عليها من اي اعتداء خارجي ، ومن اي اتصال عاطفي بقرد آخر طبعاً ! ..
كان أمين يصرخ : ولكن كيف نسيت اطعامها ؟ والخادم يصرخ : لا ادري كيف نسيت .. في الحقيقة لم انس ، لكنني لم اجرؤ ... وامين يضرب على رأسه ويردد : هذه مهمتك فتدبر امرك . والخادم يصرخ : ولكنها قردتك انت . وأنا لا اجرؤ على الخروج الآن إلى الحديقة .
كان لا بد من الانتظار حتى يحل الظلام ، وكان صوت زعيق القردة الجائعة قد بدأ يصير مؤثراً ولم يكن أحد قد تجاوز بقدمه عتبة البيت منذ تحول حينا في منطقة الفنادق إلى جبهة حرب ... اتجهت الأنظار إلي ، فقد كنت الوحيدة التي خرجت إلى الحديقة ولو مرة واحدة نهاراً وكانت النظرات تقول : اخرجي لاطعام القردة .
وقبل أن يطلبوا إلي ذلك رددت عليهم فوراً : صحيح أنني خرجت ذات مرة

لكنني كنت يومها ثملة الا تذكرون ؟

وأيضاً لم يقل أيهما شيئاً . ظلت عيونهما متعلقة بي باصرار . قلت لهما : لن اعلق الجرس . لن أكون انا التي تعلق الجرس . لم يفهموا شيئاً . لم افسر . تابعت صعودي . أصعد السلم ركضاً كالعادة ، احني قامتي عند النوافذ كالعادة . لا تصيبني رصاصة قناص ، كالعادة ، او ربما كان من الحكمة ان اقول : حتى اشعار آخر ! ...

اتابع روتيني الحربي . ابدأ بتفقد غرفة المكتبة . اعيد إلى رفوفها الكتب التي كومتها على الأرض خلال بحثي عن (بقايا) يوسف . (مكتبتي .. وحدها تضم كنوزي ، فبيتنا لا يضم من التحف غير الكتب) .. كان والدي رجل علم وورع ، وقد ورثت عنه الجزء الأول من صفاته ، وورثت عنه مكتبة عربية مليئة بالمخطوطات النادرة ، واضفت اليها الكثير من الكتب المعاصرة الأجنبية ... كانت أيضاً تضم اوراقي وارشيفي وكل ما كتبته طيلة سنوات عشر ... وتضم الكتب (الثورية) التي اشرفت على ترجمتها طوال خمسة أعوام من عملي في دار النشر غير المرضي عنها رسميا ! ... أتأمل رف الكتب الثورية بينما الرصاص يلتهم العالم لا أشعر بالخوف او بالندم . ها هي الحروف التي ساهمت في خلقها تخرج من داخل الكتب ، تصير كل كلمة رجلاً مسلحاً ، تصير كل فاصلة رصاصة ، وها هي تركض على وجه المدينة لتحقق عملياً لا أبجدياً كل المثل التي اؤمن بها ... فلماذا أخاف ؟ ولماذا أقضي نصف عمري وانا أعمل من أجل التبديل والحرية والعدالة الاجتماعية ثم أقضي أسبوعاً أبكي فيه خوفاً من الدم ؟ اي تناقض مروع يضمه القلب البشري ...

اذا لم اتصالح مع الموت ، ومع السلاح ، ومع العنف ومع الدم فلا سلام لي ...

ولكن ، هل مثل هذا الصلح ممكن ؟ ..

* * *

كابوس ١٠٤

.. وهل هي صدفة ان الرصاص الذي زارنا ، استقر أكثره في غرفة المكتبة ؟ ...

هل هو رصاص ينطلق ضد استقراري ؟ (طوال أيام تشردي في أقطار العالم كله ، كنت أحلم بمكتبتي كما يحلم الفلاح بموقده . كانت رفوفها هي الانتماء الوحيد الذي عرفت ... كان بيتي دوماً مجرد قاعدة للانطلاق ، مجرد صالة ترانزيت بين رحلة وأخرى ...

وحدها المكتبة كنت أشعر بالانتماء اليها !) .. ام أنها مجرد صدفة ان الرصاص يصيب غرفة المكتبة أكثر من غيرها لمجرد انها الأقرب إلى ناحية فندق « الموليداي‌إن » اللعين ، حيث مركز النار ام ان الرصاص هو أصلاً نقيض الحرف ؟ ولكن لا . ما كل الرصاص نقيض الحرف . بعض هذا الرصاص الذي ينهمر هو حرف بصورة أخرى .. هو حرف بأبجدية أخرى لم يعد هنالك مفر من اللجوء اليها ... آلات القتال هي أحياناً كآلات المطابع ، وانما يتم استخدامها حين تفشل لغة المطبعة نهائياً . ولكن ، هل يمكن الجزم قط بفشل لغة المطبعة نهائياً ؟ اتحسس رف كتبي الجريح .. أكثر الرصاصات قد استقر في رف ما تدعوه أجهزة السلطة « بالكتب الثورية » ... هل هي صدفة ؟ اتلمس ثقوبها بحنان ... للوهلة الأولى يبدو ان الكتب لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، لا تستطيع اطلاق الرصاص ورد النار بالمثل ... لكن الرصاصة تموت بعد اطلاقها مباشرة . اما الكتاب فيعيش لحظة اطلاقه، ويتناسل ويتكاثر وكل من يقرأه ويؤمن به يصير هو الكتاب ذاته راكضاً بين الناس على قدميه ...

* * *

كابوس ١٠٥

في الدهليز ينتابني شعور غامض ... كلما اشتد القصف لجأت إلى الدهليز ، ومعلوماتي الحربية المحدودة جعلتني اتخذ منه ملجأ ! ... اجلس واتأمل كتبي ، وحروفها التي صارت مقاتلين في الشوارع وربما أشعر بالرعب الذي أحس به صانع بيجماليون حين نطق تمثالها ! ...

في الدهليز اغمض عيني ، وتنفتح عشرات الدهاليز في اعماقي ... اتذكر حلم البارحة ... وأشياء يوسف ... وأعجب من هذه الدنيا الغامضة التي نرحل اليها حينما نغمض عيوننا مبحرين إلى دنيا النوم ... هل هي حقاً دنيا أخرى ؟ ... وأية أمواج حملتني إلى ما تحت القرميد الذي لم اطأه منذ طفولتي وصورت لي انني أخفيت أشياء هناك ؟ ولماذا هناك في تلك المنطقة المحرمة ؟ ... ولكنني وانا استعيد حلمي العجيب ، احسه كثيفاً له طعم الواقع المعاش ... وكالمنومة أتسلق السلم العتيق وفي أذني موسيقى انفجارية مجنونة تختلط بالانفجارات المروعة الخارجية ... وأصل إلى ما تحت القرميد ... المكان شبه مظلم ولا أعرف أين يوجد زر الكهرباء ، أو إذا كان موجوداً على الاطلاق ،

لكنني أعرف دربي التي سلكتها في الحلم ... اسلكها ، يدهشني ان الأشياء هي تماماً كما كانت في الحلم ... الخزانة العتيقة ، ثم السرير الهزاز ... وكان سرير طفولتي يرتجف تحت القصف كما لو ان طفولتي ما تزال ترقد فيه ... كشفت الغطاء العتيق الذي شاهدته في الحلم ، وفوجئت بأن أشياء يوسف ترقد تحتها !! ..

* * *

كابوس ١٠٦

في حقيبة صغيرة ، أودعت صوره ورسائله وذكرياتنا الصغيرة . لم اجرؤ على فتح رسالة منها او حتى قراءة سطر ... كان الأمر أكثر إيلاماً من فتح تابوت رقد فيه أحب إنسان لدينا ... لم اجرؤ حتى على النظر إلى صوره ، ومع ذلك ، كنت مصممة على حملها معي وانا اتساءل : لماذا أحملها معي ما دمت لا أقوى حتى على النظر اليها ؟ كنت كأم فقدت رشدها ، مصممة على حمل جثة طفلها معها — الذي تعرف جيداً انه مات — وهي هاربة من تحت الانقاض ، والجدران التي ما تزال تتهاوى فوقها .. وفوق أشياء يوسف وضعت بعض مخطوطات قصص قصيرة ودفاتر مذكراتي في السنوات السبع الأخيرة ، ومخطوطة « كوابيس بيروت » التي سجلتها يوماً بعد يوم ولحظة بعد لحظة وانا اتأرجح على الخيط الدقيق الفاصل بين الموت والحياة ... ام بين الحياة والحياة ؟ ...

شعرت بغصة وانا أغلق الحقيبة ...

لا بد ان جميع الذين صاروا « لاجئين » فيما بعد ، لملموا بعض أشيائهم في حقيبة صغيرة ذات صبيحة حزينة كهذه ، على اعتبار انهم سيعودون بعد أيام ، ثم خرجوا ولم يعودوا اليها قط ! ...

في صباح مظلم كهذا الصباح ، لا بد ان ملايين البشر لملموا حقيبة صغيرة كحقيبتي هذه ، وغادروا منازلهم وهم واثقون من العودة اليها بعد أيام قليلة ... شعرت بغصة عميقة وانا اسحب (فيش) كهرباء البراد من الجدار .. خشيت ان تعود الكهرباء إلى البيت ولا أعود انا ! ... تذكرت عشرات الحكايات عن الذين فارقوا منازلهم وقد تركوا الطعام في البراد ، وتركوا البراد في (حالة عمل) في محاولة بائسة لاقناع انفسهم بأنهم لن يغيبوا عن البيت أكثر من ساعات ولكنهم لم يعودوا قط إلى بيوتهم ليلتهموا طعامهم ...

شعرت بالغصة ... وقررت ان أقطع المحول الكهربائي الرئيسي عن البيت ... وانا

اضغط الزر الأحمر إلى الأسفل ليظهر اللون الأسود في مربع صغير ، شعرت بان هذا المربع الصغير يكبر ويكبر حتى يغطي وجه العالم ...

دهمني شعور غامض : لن ارى النور يضيء ثانية في هذا البيت ...

عادت الانفجارات ، فهرولت راجعة إلى مقري الحربي بالدهليز ، وحيدة ، وخائفة .

* * *

كابوس ١٠٧

كلهم جاءوا إلا أنت ..

أصابعهم على الزناد .. قلوبهم على الزناد .. زنادهم على الزناد ... يعجنون ذكرياتنا بالحديد المصهور ... يعجنون الحاضر بطعم البارود .. يعجنون التاريخ بالوجع كأسطوانة حب مكسورة ...

كلهم جاءوا يحملون شاراتهم وكراساتهم ويكتبونها فوق لحمنا بشفراتهم .. واختامهم الرسمية ...

اين انت ايها الرفيق « حب » ؟ .. اين حنان أناملك تلملم هذا الجنون عن وجه مدينتنا ؟ ...

صارت أيامنا تلالاً من الزجاج المكسر ، علينا ان نزحف فوقها بصدورنا العارية ...

صار احباؤنا طيوراً محنطة تتدلى من رقابنا ذكرى من الرعب ...

صارت أخبارنا فزاعات طيور في حقول الانتظار المتوتر ...

صار وجودنا شرياناً مقطوعاً يتدلى من فوق متراس ما ... صارت وجوهنا صحارى محروقة ، تناديك كما ينادي القحط المطر ...

فاين انت ايها الرفيق « حب » ...

* * *

منذ رحلتَ عن مدينتنا ، احتلها طاعون القسوة السادية والجنون ... الجبال ، السنابل ، السماء ، الطيور ، وصمت الغابات ، وخيوط الشمس ، وأناشيد الرياح ومبخرة الغروب ، كلها صارت مجرد ألفاظ في قاموس منقرض ...

وأنا محنطة داخل رصاصة وذاكرتي تطير بي كأجنحة شفافة من نور ، إلى كوكب

منقرض حيث المحبة والصفاء ... (يومها التقطت عن الأرض قطعة حصى صغيرة في احراش عرمون ، ورميت بها إلى قاع الوادي .

... وتفجر صوت : منذ متى لم تغن ولم ترم بحصاة إلى الفضاء كالاطفال ؟) ...

آه منذ متى لم نغن . لم نضحك . منذ متى لم تلمس وجوهنا أناملك ايها الرفيق حب ... تعال . .

فخدودنا أحرقها دخان الأسواق الملتهبة ...

قلوبنا مكومة على الأرصفة كالرماد والتبن ...

أحلامنا مترهلة كالدواليب المثقوبة ! ....

* * *

كلهم مروا بنا إلا أنت أيها الرفيق حب ...

يحملون راياتهم الملونة . حججهم المقنعة . آراءهم البليغة . تصريحاتهم وعظاتهم التاريخية الخطرة .. كراساتهم ونظرياتهم وعبقرياتهم ... ونحن شعب البسطاء . ندفع ثمن ذلك . نصفق ، نصفر ، ثم ننحني .. نخفي رؤوسنا تحت الطاولات كالجرذان حين يدوي الانفجار ، ثم نخرج لنتابع تصفيقنا او تصفيرنا ...

* * *

تعـــال ..

اعرف انه زمن انفجار الرصاصة داخل مسدسها ... أعرف انه زمن السيف الاسطوري ، يقطع كل شيء حتى غمده ... (وقد قطعت كل شيء حتى غمدك) ...

اعرف انه زمن شيفرة البغضاء والشراسة ..

ولكن تعال ...

النسوة في الشوارع يرتدين السواد .. ليس في المدينة امرأة لم تفقد غالياً ، ولو ذاتها (قال لي التاجر وعيناه تلتمعان شراهة : يا ليت بضاعتي كلها من الثياب السوداء ، لبعتها كلها) ...

انه زمن الأفعى تلدغ جسدها ... زمن العقرب يعانق إبرته ..

فتعال ايها الرفيق حب ...

* * *

من خنادقنا القبور نناديك ..

من فوهات المدافع التي صارت نوافذنا نناديك ..
تعال إلى مسرح اللامعقول العربي ،
تعال وانظر كيف نتبادل القبل في المقابر
ونمسح شفاهنا بالسم
ونرش الرز المر في مواكب الأخوة الأعداء ،
تعال ايها الرفيق حب
فالقفز من فوق آلاف الجثث مستحيل بدونك ! ..

* * *

انه الشاطى حيث كنا
(أهذا موج ام دمنا ؟) ... انها الريح ...
انها صيحات الطيور المهاجرة ...
انه السقوط في فلك الاحتضار المتشنج
انه ظلك تحت الرمـــل ...
انه حبك الساكن بين الموجة والموجة
تعال الينا ...
وعد إلى مسقط رأس الفراق
لتموت معنا
او تنجو معـــاً ! ....

* * *

نداء .. نداء ... نداء ...
إلى الرفيق حـــب ...
نداء بالشيفرة ...
من الجرح إلى الخنجر ...
لقد خلع الحب قفازاته
وصارت أصابعه هي الانتحار ! ...

* * *

نداء بالشيفرة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الواقفين على مهب الليالي ، إلى الصامدين على قبضة الوجع ...
تعبنا من الركض على حد سكين الزمن ...
وفاحت رائحة الموت من دهاليز جراحنا ...
ايها الرفيق « حب » .
يا حبيبي اللغـــم
ركضت اليك ، وانفجرت بي ! ..
ولـــكن ،
لا تغادرني ، ولا تستوطنني
وابق كـــا انت
معلقاً بين الفجر الأخير ، والغروب الأول ...
المهم الا تموت ، كي لا نتلاشى ... فانت الروح ، ونحن جثتك !

* * *

ايها الرفيق حب ...
الليلة اغلقنا نوافذنا باحكام ...
لا خوفاً من صوت الرصاص
ولكن خوفاً من ذلك القمر اللئيم الذي أطل فجأة والذي بزغ فوق جراحنا بلا رحمة
وذكرنا بعصرك ، وأصابعك ، وزمنك
زمن الغابات والرياح والفراشات
زمن رمي الحصى إلى قاع الوادي ... والمدى ... والغناء دونما مسرح او مصفقين غير القطط والسحالى والأرانب ..
الليلة أوصدنا نوافذنا جيداً ،
كي لا تتسلل ذكراك الينا ،
أيها المهاجر عن مدينتنا النازفة
أيها الرفيق حب !

* * *

نداء .. نداء .. نداء ...

إلى الرفيق حب ...
أهي أصابعك ،
تلك التي اطلقت الرصاص على رأسك ..
أم أصابعنا ؟ ...

* * *

كابوس ١٠٨

بعد ان رماني الزلزال على الأرض ، سمعت صوت الانفجار ... كان الزجاج المحطم يتساقط فوقي بينما أجد صعوبة غير عادية في التنفس ، كأن أصابع لا منظورة قد افرغت الهواء من صدري ورقبتي .. بقيت في موضعي على البلاط أمام باب الدار وقد تمسكت بالحقيبة الصغيرة التي كنا في سبيلنا معاً إلى مغادرة البيت : الحقيبة وانا ...

في البداية أحسست بان أعضاء جسدي انفصل كل منها عن الآخر ... وحدها الحقيبة ظلت ملتصقة بيــــدي ... ثم عاودني بسرعة شعور حار بالاتحاد ... تحولت إلى وعاء محكم الاغلاق يغلي بداخله دم مضغوط ... قفزت نحو مصدر الانفجار ... كان أحد جدران غرفتي ، قد اختفى وبقاياه ما تزال تتساقط ، وعلى طرف الهاوية كان فراشي يتدلى وسحابة من الغبار الداكن تلف كل شيء ... ثم تدخلت الريح ، وبدأت ألحظ ان الجدار الآخر أيضاً حيث باب الشرفة كان قد تهدم نصفه واختفت ملامح الباب تماماً ... ظللت واقفة أمام العتبة ، لا اجرؤ على الدخول والريح تنفخ المطر مكنسة امامها الغبار والأوراق المتناثرة ونشارة الخشب المحطمة ...

لا ادري كم من الوقت انقضى وانا متحجرة أمام الباب ، ممسكة بالحقيبة الصغيرة كما لو كانت طوق نجاة ... وعندها فقط وعيت ان صاروخاً قد اخترق الغرفة .

لكن الغبار سكن .

لم يكن في الغرفة شيء في موضعه.. وحده قميص نومي كان ما يزال على الفراش المرتكز على الهاوية ، وقد تدلى كماه في الفراغ مثل ذراعي ميت ... شعرت بهلع حقيقي ، كأنني داخل الثوب ! ... استلمت برقية مملكة الغربة ووقعت على ايصال الاستلام : لن أنام بعد اليوم أبداً في هذه الغرفة التي لم تعد غرفة ... لقد نصب اليوم الوتد الأول في خيمة تشردي الجديد .

كابوس ١٠٩

شاكر بائع أدوات منزلية . ليس غنياً وليس فقيراً . ليس وسيماً وليس قبيحاً . ليس ذكياً وليس غبياً . ليس قديساً وليس مجرماً .

دكان شاكر في أحد أسواق بيروت . يربح باعتدال . يغش قليلاً جداً ليكسب بعض ما يساعده على دفع أقساط اولاده السبعة . كلما ارتفعت الأقساط اضطر إلى أن يغش أكثر قليلاً . كلما ارتفعت الاسعار اضطر إلى ان يرفع مقدار الغش مستغفراً ربه لاعناً الأحوال .

ذات فجر ، كان شاكر في طريقه إلى الدكان حين استوقفه حاجز من رجال الأمن وبلّغه ان السوق قد احترقت . الدكاكين كلها احترقت . سألهم شاكر اين كانوا حين احترقت السوق ولماذا لم يكونوا هناك لمنع حرقها بدلاً من منع أصحابها من الوصول اليها .. ولم يرد عليه احد . قضى يومه والوساوس تأكله .. ترى هل احترق دكانه ، مصدر رزقه الوحيد ؟ ابتاع جميع الصحف وأمعن النظر في صور السوق المحروقة والدكاكين وخيل اليه ان دكانه .. ولكن لا .. لهذه الدكان المحروقة نافذتان ولدكانه نافذة واحدة ... هذه دكانه ... ولكن لا ... لدكانه افريز عتيق مزخرف فوق السطح وليس في الصور أثر للافريز او حتى بقاياه .

حاول النوم فطرق القلق جفونه بدلاً من النوم ... شتم اولاده وزوجته وتشاجر معهم لسبب لا يعرفه ، فهربوا منه جميعاً إلى النوم واحس بالحقد عليهم لانهم استطاعوا ان يناموا ، ولانه مسؤول عن إطعام هذه الأفواه التي ترسل الآن شخيرها وأنفاسها الرتيبة المسترخية ..

مع الفجر التالي ذهب مصمماً ان يرى دكانه ولو صار دكانه قبره ... كان قد هيأ نفسه لأية مغامرة . لكنه فوجىء بان السوق تعج باصحاب الدكاكين والصحفيين والكاميرات . في البداية لم يجد دكانه ... كان تمييزها صعباً وسط هذا الشارع (الأثري) المشوش المعالم بالركام والهشيم والهباب ، والجدران المسودة نصف المتداعية .. وحين وجدها لم يصدق عينيه ..

وحين غادرها حاملاً ما تبقى من دكانه لم يصدق يديه ! .. ومضى في سيارته العتيقة بما تبقى له من حطام الدنيا ، وكان حطاماً حقاً ! ...

كابوس ١١٠

في اليوم الأول خرج شاكر بما تبقى له ليبيع ، بعد أن أمره جوع الأطفال بذلك .. ومضى بها في سيارته إلى شارع الحمراء . نشر بضاعته من طناجر وملاعق وصحون وأوان فوق سطح سيارته الصغيرة ، وما تبقى على الرصيف ... ووقف ينتظر . كان الزحام شديداً ولم يشتر أحد . وبدت له الأرصفة غريبة وعدوانية ... كان فيما مضى يلذ له الخروج إلى أرصفة شارع الحمراء لاستراق النظر إلى سيقان الفتيات النحيلات متذكراً بحسرة ساقي زوجته (ام البنين) الشبيهين بجذعي شجرة عتيقة حجماً وعروقاً ! .. كان أيضاً يمر بهذا الرصيف في الأعياد ، مرافقاً ما تيسر من اولاده إلى السينما ، متأملا زينات العيد والمارة وتعاقب الألوان والأصوات وايقاع الحياة السريعة المليئة بالعنفوان .. كان يلحظ من آن إلى آخر بعض المتسولين الجالسين على الأرصفة يستعطون المارة بعاهات أكثرها مزعوم ..

ثمة متسول أعمى كان يصر باستمرار على الغناء بصوت جنائزي مرتفع وكان يدفع له (حسنة) على أمل ان يسكت او يخفض زعيقه قليلاً ... يا لسخرية الأقدار .. ها هو الآن يحتل مكانه وقد فرش بضاعته في موضع جلوسه ... لكنه صامت ، بل وعاجز عن المناداة على بضاعته كما يفعل جيرانه على الرصيف من الباعة المشردين .

ولم يبع الكثير طوال النهار . وسمع امرأة تقول لأخرى ان هذه البضاعة كلها مسروقة . وانكسر له وعاء ثمين تعثر به طفل صغير وشتمته أم الطفل لانه تسبب في سقوط ابنها على الأرض .

رغم كل شيء ، قضى يومه الطويل مسمراً إلى رصيف الحمراء ... كان يبيع قليلاً ويبتئس كثيراً ويتذكر بحسرة مقعده المريح في دكانه ودفتر الذمم والحسابات . وعند المساء فيما كان عائداً إلى بيته ليلاً استوقفه مسلح في ركن زقاق بيته وطلب منه بلهجة صارمة ان يعطيه ما معه من نقود . اعطاه . لم يكن قد ربح الكثير لكن هذه النقود كانت فعلاً ثمن خبز أطفاله . وبذهول سأل البائع سارقه : من انت ؟ قال المسلح : انا صياد . فرد المسكين : أمرك يا صياد .

* * *

كابوس ١١١

في اليوم التالي منع رجال الشرطة شاكر من دخول شارع الحمراء فذهب وزملاءه في البؤس إلى منطقة القنطاري واعاد نصب بسطته . هطل المطر . هبت الريح . هرب الزبائن إلا زبونة متعبة ظلت تجادله طوال ساعة كي تشتري سكين مطبخ وعدة ملاعق ثم اشترت الملاعق وتركت سكين المطبخ وفيما كان عائداً إلى بيته ليلاً استوقفه المسلح نفسه (الصياد) طالباً منه ما معه من نقود .

لم يكن قد ربح الكثير لكن هذه النقود كانت فعلاً ثمن خبز أطفاله ، ومع ذلك فقد اعطاه إياها دونما تردد . كان متعباً وخائفاً . وقال له البائع وهو يناوله إياها : أمرك يا صياد .

في اليوم الثالث حمل شاكر بسطته وعاد إلى القنطاري ، فوجد الرصاص والمطر والريح والقتال يحتلها .. فتابع سيره إلى الروشة ونصب بسطته على أحد الأرصفة ... صارت الأرصفة دكاكينه والريح الباردة زبائنه والمطر جلاده ... بكى كثيراً وباع قليلاً وحين عاد مساء إلى بيته ، استوقفه المسلح نفسه أمام مدخل الزقاق وقبل ان يقول المسلح شيئاً ، ناوله شاكر غلة يومه قائلاً : أمرك يا صياد

في اليوم الرابع لم يذهب شاكر إلى العمل . لم يحمل بسطته ولم يبع شيئاً . نام طوال النهار ، وحين اقترب المساء ، حمل سكين المطبخ التي فشل في بيعها ووقف عند مدخل أحد الأزقة منتظراً عودة باعة البسطات إلى بيوتهم .

كان قد قرر ان يصير (صياداً) ! ...

* * *

كابوس ١١٢

لا أدري كم من الزمن قد انقضى وانا جامدة أمام غرفتي التي مر بها الصاروخ . كانت رياح العاصفة الخريفية الرعدية تحمل معها ثيابي وأوراقي وحطام الخشب إلى الهاوية ، وحتى الفراش عرته الريح من الوسادة واللحاف وفرّغته تماماً مثل صرصور أكله النمل ...

لم يأت أحد . لم يصعد أحد . لا أحد يجرؤ على الاهتمام بمصير الآخر . الحرب الاهلية تعري العلاقات البشرية ، وتحولها إلى هيكل عظمي منخور ... كان العم فؤاد

والجيران جميعاً يحرصون على التقاليد الاجتماعية مهما صغرت في هذا الحي ، وكان شراؤنا لكرسي جديدة مثلاً مناسبة لتلقي الزيارات والتهاني طيلة سبعة أيام ، وها هو صاروخ يستقر في بيتي ، ولا أحد يجرؤ على ان يمد برأسه ليرى ما اذا كنت حية ام لا ، انزف ام لا ... انها الحرب الأهلية تفكك الروابط المزيفة كلها ، وتعري القلب لمزيد من الغربة والوحشة ... ربما كان العنف بحد ذاته وسيلة لاختراق مدارات الغربة حين يفتقر الناس إلى العدالة والمحبة : اي الالتصاق الانساني ... فالحرب الأهلية تخلق المزيد من الغربة ، والعنف يكسر الغربة بطريقة وحشية وعابرة ولكنها آنية ، تخلف مزيداً من الغربة وتستدعي مزيداً من العنف وهكذا تتتابع الحلقات المفرغة الجهنمية دونما نهاية .

ولكن المروع ان تعيش في زمن الحرب الأهلية وانت محروم من العنف والحنان في آن واحد (كما يحدث لأكثر الفنانين الذين يمقتون حمل السلاح) وانا محرومة من كليهما ... الخطأ في موقعي ... أقطن حياً لا انتمي إلى طبقته ولا إلى ممارساته وبالتالي لن أرفع سلاحاً للدفاع عنه ، ولن أتواصل حقاً مع اي فرد فيه ... ولكن ، ما ذنبي وقد ورثت ايجار البيت العتيق عن أبي كما ورثت المكتبة ؟ ربما كان ذنبي هو ذنب كل الأبرياء المجرمين ، الذين يتقبلون ما هو مكتوب في ورقة تحقيق شخصياتهم ، ويعيشون إنطلاقاً منها ، فتصير بيوتهم مجرد قاعدة إنطلاق ، وديانتهم مجرد مصادفة ، ويصير موتهم با تالي في الحرب الأهلية او حياتهم نكتة قدرية سمجة !

وجدتني للمرة الأولى اتساءل : ترى كم من صديقاتي هن حقاً صديقاتي ؟ وكم من اصدقائي هم حقاً أخوان فكر لي ؟ .

كانت الريح ما تزال تعبث بأطراف دفتري الخاص بارقام هواتف اصدقائي ...

تناولته عن الأرض ... إنه متخم بالأسماء ... مليء بالمعارف والصديقات اللواتي التقيتهن على مر عمري .. بدأت اقرأ الأسماء كلها ، إسماً إسماً ، وأذهلني انني لم أعد أذكر إلا النادر منها ... كأن الوجوه كلها أطاح بها صاروخ الحقيقة المؤلمة ... وحده اسم يوسف قفز إلى عيني ، ورقمه وحده لم يكن مدوناً في دفتري ... لم أكن بحاجة إلى أن أذكره .. كنت بحاجة إلى أن أنساه ! ..

جلست على مقعد وألم حاد يصفر في أذني بفضل القذيفة القادمة من « الهوليداي إن » .

قررت ان اراقب هاتفي ، من سيسأل اليوم فيما اذا كنت ما زلت أحيا ام لا ؟ قررت ان لا اتصل بأحد ، وان ارقب : من سيتصل بي ؟ .. ضحكت من نفسي ، وقررت انني قد أصبت بنوبة مفاجئة من الحس بالاضطهاد ... لكنني ظللت انتظر ...

لم يرن الهاتف طوال النهار ، حتى ولو مرة واحدة . شعرت بالحاجة لأن أدير قرصه على أرقام يوسف وانا أعرف سلفاً أنني لن أسمع صوته .. (كانت هذه العادة السيئة قد تملكتني مؤخراً) .... رفعت سماعة الهاتف . اكتشفت انه معطل . آه .. نسيت انه كان معطلاً .. منذ البارحة ؟ لم أعد أدري .. لقد اختلطت الأيام والأشياء .

* * *

كابوس ١١٣

العاصفة تزداد عنفاً ... الانفجارات لا تهدأ .. لم أعد أميز بين رعد الآلهة ورعد البشر .. وكلما قصف الرعد الالهي تلاحق الرعد البشري ، كأن المتقاتلين باعصابهم المرهقة يتوهمون الرعد قصفاً مدفعياً ، وكل جانب يتوهم ان القصف قادم من الطرف الآخر .. وينتهي الأمر بالثلاثة إلى القصف في آن واحد : السماء والطرفين المتقاتلين ! ...

ريح العاصفة الرعدية ما يزال يعري الغرفة ... وها هي ثيابي تتطاير من الخزانة المحطمة الأبواب ... تركض في الفراغ وقد حملتها الريح ، ومع كل ثوب يطير ساقطاً إلى الهاوية ، تنتابني رعدة خوف مروع كما لو كنت داخل كل ثوب منها ، كما لو كنت أسقط عشرات المرات إلى القاع .. وأتحطم على الأحجار وأموت دونما نهاية ...

* * *

كابوس ١١٤

فيما أنا أهبط السلم إلى بيت العم فؤاد ، كنت أقدم الوعود لنفسي وللزمن : اذا خرجت حية فسوف أفعل كذا ... وكذا ... سارحل إلى بقية مدن العالم التي لم ازرها ... سأستقيل من عملي واحاول تأسيس عمل لحسابي الخاص . سأعيد النظر في قيمي ومواقفي وموقعي واصدقائي ..

(حينما كنت صغيرة ، كنت اقدم الوعود لنفسي في فترة ما قبل الامتحانات العصيبة . كنت اقرر : اذا اجتزت الامتحانات بنجاح فسأفعل في الصيف كذا .. وكذا .. سأسبح .. سأعتني « برشاقتي » .. سأظل انهض باكراً وامارس رياضة المشي والسباحة

واظل اطالع وسأعيد قراءة كتبي المدرسية للسنوات السابقة كي ازداد استيعاباً لها ... وحين كانت الامتحانات تنتهي كنت اقضي الايام اللاحقة لها في النوم والاكل ومطالعة قصص ارسين لوبين البوليسية ! .) ...

العم فؤاد يدور في البيت كالمخبول وهو يغني أغنية شوبانية رومانسية فيما يشبه ايقاع نشيد عسكري. وامين يتابع حملته ضد صراصير البيت وهو يضحك ضحكته الهستيرية الشبيهة بصوت أمعاء تستوطنها الديزنتيريا ! سألوني عن سبب (الضجة) ، فقلت انه صاروخ وبدا الأمر عادياً جداً . لا مزيد من الأسئلة . صمت . صمت . قلت لامين : لقد أبدت الذباب والصراصير من البيت .. قال وهو يعد فخاً عتيقاً من فخوخ صيد الفئران : الآن جاء دور اعلان الحرب على الفئران ... كان على حق ، ولعل صوت الانفجارات أخرج الفئران من أوكارها وصارت تفور في بيوتنا مما جعل منها هدفاً مغرياً لامين (المكبوت حربياً) الباحث عن معركة ... شجعته على حربه غير المقدسة ضد الاحتلال الفئراني ، حرب الملل ، فقد تذكرت جاراً لنا دفع به الملل خلال جولة سابقة إلى العمل قناصاً ! ... كان طبيباً ماهراً وزوجاً غير ماهر ، وقد رحلت عشيقته الأوروبية عندما تناقص زبائنها كما اضطر هو للبقاء سجيناً في بيته عندما تناقص زبائنه ، وفوجئت به زوجته ذات فجر هارباً من فراش الزوجية إلى فراش القنص على السطح ... ويقال انه كان يقتنص كل حي يمر بالشارع ، حتى ولو كان قطاً أو فأراً أو طيراً عبر السماء ! ...

صوت مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة يطاردني .. انتظر موعد زيارتي الليلية لها بشوق حقيقي .. ترى ماذا يدور هناك في سجن الجوع والرعب ؟ .. ولكن ، هذا جنون .. ربما كان من الأفضل ان أزور جيراننا فوق المخزن مباشرة .. تذكرت الجارة . تبدو وكأنها مصنوعة من لب الخبز ، وزوجها يبدو مثل ولد من الخشب (بينوكيو) محشو بآلة تسجيل رتيبة الصوت يتكرر فيها باستمرار شريط تسجيل واحد ...

لا ... سأذهب لزيارة دكان بائع الحيوانات الاليفة ... سأطل من النافذة لارى ماذا صنع الجوع بها ... واذا وجدتها ما تزال هائجة فلن أقفز إلى الداخـــل .. سأكتفي بالتلصص .. الجوع .. آه الجوع .. لقد بدأت أجوع حقاً .. بل انني اتخيل عملياً قضية مطاردة قطة الحديقة والتهامها .. ثم تذكرت قردة امين – سمعت ان لحم القرود أطيب من لحم القطط – كنت اعرف انني لن أقوى على أكل لحم القطط أو القرود في اليوم

الأول لجوعي ، أما في اليوم السابع ، وأنا اشرف على الموت ، فسأكون حتماً قادرة على التهام حتّى اللحم البشري .. ربما كان من غرائب الصدف ان آخر كتاب طالعته هو كتاب « ألايف » اي (حياً) تأليف بول ريد ، وهو يروي حادثة حقيقية وقعت منذ أعوام . فريق لكرة القدم تسقط به الطائرة في جبال الآندز . يموت البعض . ينجو البعض . الذين لم يموتوا بسقوط الطائرة ، مهددون بالموت جوعاً وسط صحراء الثلوج المحيطة بهم ... بعد أيام من الجوع ، كانت الوسيلة الوحيدة للبقاء هي أكل لحوم رفاقهم الأموات التي حفظتها الثلوج من التعفن ! ... في البداية بدا الأمر مروعاً ، وفي النهاية أكل الجميع .. احدهم أكل حتّى من لحم شقيقته ...

انه الجوع ، سيد التاريخ . انه منطق الجوع الذي لا يقدر على استيعابه فيلسوف او أديب جالس خلف مكتبه الدافىء، يأكل الخيار المملح وينظّر النظريات لمصائر الشعوب كما ان المنظّرين للحرب لا يكتبون أعمالهم في الملاجىء والقواعد الحربية وتحت القصف وأمام الدم والجراح الفعلية ! .. انه الجوع ، فيلسوف التاريخ الأول وجنراله الحقيقي ! ..

ما يزال العم فؤاد يدور في البيت شبه المظلم بالعاصفة والكهرباء المتوفاة ، ويغني اغنيته الشوبانية الرومانسية في زعيق له إيقاع نشيد عسكري ... وأمين غارق في حملته العسكرية على الفئران ... أهرب أنا إلى الهاتف لادير قرصه على رقم يوسف ، الذي اعرف انه لن يجيب ! ...

* * *

كابوس ١١٥

اتمدد على فراش الغربة .

لا محاولات هذا المساء لانقاذي ما عدا هاتف من النقيب فتحي ووعد بانقاذي في الغد .. كلمة « الغد » في زمن الحرب تصير مرادفة لكلمة « الدهر » لكنّني لم اعترض .. كنت اعرف ان انقاذي وسط جنون النار هذا لا يحتاج إلى مصفحة فحسب ، بل إلى نفق تحت الأرض كأنفاق المدن القديمة المقاتلة .

انه ليل جديد من ليالي الغربة والبؤس .. اغمض عيني وعبثاً تأتي موجة النعاس لتحملني من شطآن الوعي إلى بحار النوم ...

هدوء نسبي على صعيد القصف البشري . التهاب على صعيد قصف السماء الرعدي ،

وعبر العاصفة ، يأتيني صوت عجيب غريب ... صوت عزف على (الاكورديون) ! .. شخص ما يعزف مقطوعة « الوردة هي ما يهم » — « سيه لاروز لامبورتونس » ، للوهلة الأولى ، بدت الأغنية وسط ليل الدمار حزينة ومريرة ، وورود العالم كله يغطيها الهباب الأسود ، ومع ذلك شعرت بان هذه الأغنية هي النشيد العسكري لكثير من المقاتلين (لا القتلة) الذين حملوا السلاح من أجل ان تظل الحياة نقية وعذبة كوردة لا تذبل ...

* * *

كابوس ١١٦

متعبة وجائعة وعبثاً أنام .. انوي التسلل إلى دكان بائع الحيوانات الاليفة فأجد نفسي أكثر تعباً من ان أقف في بحر الظلام والبرد والعاصفة .. عاجزة عن التسلل اليها لارى ما يدور .. ولكن ، ها هي تتسلل إلي . وها انا ، اذ أغمض عيني أرى بوضوح ... واسمع ...

المخزن يردد اغنية الجوع بايقاعات مختلفة ... الكلاب الطليقة تتابع غاراتها على (أكواريوم) السمك ، بينما سمكة كبيرة بدأت بالتهام سمكة أصغر منها في أحد زواياه .. الطيور تتشاجر .. القطط ترمق قفص الفئران بحسرة ، وثمة قط كبير يقفز باتجاهها قفزات متتالية غير آبه برأسه الذي كان يصطدم في كل مرة بحديد قفصه ... الببغاء لم يعد يتحدث بالفرنسية وانما يطلق صرخات الغابة والجوع ... كلاب الصيد الرشيقة كاحصنة عربية أصيلة انتهت من تحطيم مدخل المخزن الفخم واتمت تمزيق (الوجه السياحي) له ... الأرانب التي كانت تمارس الجنس بكثرة في بداية أيام السجن والجوع ، عزفت عنه ... وثمة قطة تضع أطفالها في القفص وما تكاد تضع طفلاً حتى يلتهمه بقية قطط القفص وأصوات الحياة تمتزج بنشيج الجوع الوحشي ...

الطفل الأخير الذي وضعته القطة التهمته هي ..

آه الجوع ... تسقط أمامه الأقنعة كلها ، وحتى الحب يتقشر ويسقط كجلد أفعى خلعته عنها .

* * *

كابوس ١١٧

الزقاق بارد جداً . الزقاق معتم جداً . لكن لن يرجع ! .. فقد تسلل الطفل ليلاً

هارباً من البيت .. هذا هو الشهر الثامن وهو معتقل ، ممنوع من اللعب في الزقاق مع الرفاق ، وحتّى الذهاب إلى المدرسة صار أمنية ، ناهيك عن اللعب بالطين والثلج والوحل والدراجة وغيرها من الأمنيات المستحيلة ... وكلما أصر على الخروج للعب في الزقاق نهرته أمه وقالت : ان الكبار الآن يلعبون هناك وقد تصيبك رصاصة طائشة ...

ويبدو له ان لعب الكبار يطول ... انهم يلعبون ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، دون ان يرغمهم أحد على غسل أيديهم ووجوههم والذهاب إلى الفراش في مواعيد النوم ...

وهو قد سئم الاختباء في دهليز البيت .. وسئم العيش كفأر خائف .. وسئم شجار والده مع امه كلما عاد إلى البيت مدججاً بالسلاح حاملاً بعض الطعام البائس وبعض ما تسميه امه بالمسروقات و (المال الحرام) ..

لقد قرر الهجرة ولن يقف في طريقه شيء . سيسافر إلى استراليا لاحقاً بشقيقه الأكبر . منذ طفولته وهو يسمع عن شقيقه الذكي الذي هاجر بعد ان تسلل على ظهر سفينة واختبأ طوال الطريق ولم يدفع ثمن الرحلة . الاسرة كلها تمتدح (شطارته) . وهو أيضاً سيثبت انه لا يقل شطارة و (فهلوة) .

الزقاق معتم جداً . الزقاق بارد جداً . لكنه لن يرجع .

صرة الأكل التي يحملها تبدو له أثقل مما كانت لحظة غادر البيت . المطر الذي بدأ رذاذاً تحول إلى موجـــة ليلة غزيرة . أنه يرتجف . الظلام مظلم جداً وهو لم يكن يدري ذلك ... ولكن لن يرجع ...

زلت به القدم . سقط في الوحل والطين ، وقبل ان يحاول النهوض شاهد شخصاً آخر غارقاً مثله في الوحل والطين وقد أسند ظهره إلى شجرة ... لم يشعر الطفل بالخوف من الغريب فقد كان عجوزاً يشبه جدّه إلى حد بعيد ، وبدا له متعباً ومريضاً حتّى انه لم يمد له يده ليساعده على النهوض .. لم ينهض على أية حال ، وانما سحب جسده على الوحل واسند ظهره إلى الشجرة جالساً لصق الرجل العجوز الذي قال له : آسف يا بني لانني لم أساعدك .. لكنني متعب حتى الموت .. ومفاصلي تؤلمني .. وضغط دمي مرتفع .. وقلبي سيصاب حتماً بجلطة ... هذه المدينة اللعينة تكاد تقتلني .

سأله الطفل : ما اسمك يا سيدي ؟

قال العجوز المتعب : اسمي الموت ...

تذكر الطفل انه سمع هذا الاسم من قبل بشكل غامض فقط .. لم يثر فيه الاسم أية مشاعر وانما احزنه منظر العجوز المريض المتعب وسأله : ما هي مهنتك يا سيدي ...

قال العجوز : انا الكادح الاول في هذه المدينة ... منذ ثمانية اشهر وانا لا اتوقف عن العمل لحظة واحدة ليلاً ونهاراً ... — هل انت طبيب يا سيدي ؟ رد العجوز : بطريقة ما نعم . نعم انا الطبيب الاول في النهاية .

قال الطفل : لماذا لا تهاجر معي ؟ انا قد قررت الهجرة من هذه المدينة . لم تعد الحياة تطاق هنا ... دكاكين باعة الالعاب مغلقة والأكل قليل والبرد كثير وحتى النوم لم يعد ممكناً وامي توقظني كل ليلة لتجرني واخوتي وتكومنا على بلاط الدهليز لتنام خوفاً من القنابل ...

رد الموت : انت على حق يا صغيري ... الحياة لم تعد تطاق هنا حتى بالنسبة إلي ... سأل الطفل : لماذا لا تهاجر اذن ؟ قال الموت : لأنهم لا يمنحونني لحظة واحدة أحزم فيها توابيتي — أقصد حقائبي — وارحل ! ... آه كم انا متعب ... ظهري يؤلمني ... وذراعي .. وساقي ... انظر الى منجلي كيف ثلموه وغضنوه وعجنوا مقبضه ... انني الكادح الوحيد في هذه المدينة .. انهم لا يرحمون شيخوختي ولا يتركون لي لحظة واحدة للراحة ... قلت لك انهم سيقتلونني .

انشغل الطفل بهموم العجوز الى حد انه لم يلحظ البرد القارس الذي كان قد بدأ يجمد له قدميه ، وسأل العجوز : ولماذا يكرهونك في هذه المدينة ؟ رد الموت ضاحكاً: يكرهونني ؟ انا لم اقل انهم يكرهونني . انهم يحبونني حباً لم اعرف له مثيلاً في اي بلد في العالم ... انهم يسمون شوارعهم وانهارهم وجسورهم باسمي .. ألم تسمع بنهر الموت وجسر الموت وشارع الموت ... بل ان جميع شوارعهم صارت مسماة باسمي .. لقد جعلوا مني ملكاً عليهم وهم يقدمون لي كل يوم زهرة شبابهم .. لا .. لم اقل انهم يكرهونني . انهم يحبونني حباً لم اعرف له مثيلاً في دهري وحبهم سيقتلني ! .. انني فعلاً بحاجة الى طبيب ..

كان البرد القارس يتابع استيلاءه على جسد الطفل ، ولم يلحظ ان نصفه الاسفل قد تجمد تماماً .. كان شديد الاهتمام بمأساة العجوز الموت ، واسند رأسه الى كتفه وسأله : لماذا لا تهرب من مقر عملك ؟ ..

قال الموت : لقد سدوا علي منافذ الهرب كلها .. و « العمل » في طرقات بيروت ومخارجها اكثر منه حتى في وسطها ..

قال الطفل والبرد القارس قد جمده حتى صدره : انني متعب مثلك وبحاجة الى النوم. افتح لي كتاباً وارو لي حكاية ..

قال الموت : تعال الي يا طفلي .. انني للأسف لا احمل كتاباً للاطفال لانني افضل التعامل مع العجائز .. لكنني سأطلعك على فواتيري واحكي لك قصتها .. انا آسف لأنها القصص الوحيدة المصوّرة التي اعرفها ...

قال الطفل : لا بأس ... اسمعني اية قصة وبعدها تستطيع مراجعة طبيبك ، وان كنت انصحك بالنوم معي حتى الفجر .. حيث اهاجر الى استراليا وترافقني اذا كنت قد استرحت قليلاً ..

قال الموت : بصراحة .. يبدو انني لن اقدر على الهجرة الى اي مكان .. واجباتي هنا كثيرة ، ووكلائي لا يهدأون ... بل انهم انشأوا منظمة باسمي ، منظمة « يعيش الموت » ! .. الملاعين ، سيقتلونني حباً ... وفتح الموت دفتر حساباته وفواتيره .. وبدا الدفتر الكبير للطفل مثل كتاب حكايا اسطورية ... واخذ الموت يقرأ فواتيره شاكياً من كثرة اعماله .

فاتورة : خليل ابو فارس واقف على مدخل مصلحة الكهرباء في محلة مار مخايل يأكل برتقالة . سيطلق مسلح عليه النار ويصيبه في رأس ويرديه . الرجاء حضورك فوراً للقبض .

فاتورة : في فندق فينيسيا الدخان يحبس مدير الفندق الأجنبي الضخم الجثة وآخر نحيلها . النحيل سيتسلل من النافذة والبدين سيعلق بها ويختنق، الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى ، والقبض .

فاتورة: ايطالي تخصص في سرقة الاحياء المنكوبة . سرق من احد جيرانه آلة تسجيل كانت تخص بيتاً فيه سبع جثث مشوهة .. استمع الى الشريط ليلاً . سمع عليه تسجيلاً حياً لكل ما دار من قتال وفظاعات في البيت . وصرخات السبعة وهم يعذبون ويقتلون ...

الايطالي بعد سماعه الشريط سيقفز من النافذة ويموت ببطء الرجاء التوجه الى المنطقة وريثما تصل ستجد مهمات اخرى بانتظارك .

فاتورة : سيارة اسعاف فيها عشرة مسلحين احياء . سيوقفهم حاجز . سيقول السائق : معي عشر جثث انقلها الى المقبرة . لن يصدق عناصر الحاجز . لكنهم سيسمحون له بمتابعة السير . لا يكاد يتابع سيره حتّى يطلقوا على السيارة الرصاص . سيموت المسلحون العشرة ، وسيتابع السائق سيره الى المقبرة فعلاً وفي سيارته عشر جثث فعلاً . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى حالاً .

فاتورة : على الجسر المسمى باسمك « جسر الموت » ... ستمر عشرات السيارات وسيطلق القناصون الرصاص على من فيها ... سيارة مرسيدس تقل صحفيتين هما فاطمة وماري سيخطئهما الرصاص فلا تتعرض لهما موقتاً ... المهم ان تتولى امر بقية المارة جميعاً على جسرك هذا الصباح ...

فاتورة : الحاج شبور سيصاب ابنه بالرصاص خطأ اثر معاقرته لرشاش حربي ، وثلاثة من رفاقه .. الحاج شبور سيقسم انه اذا مات ابنه الذي نقل الى المستشفى بحالة خطرة ، فان ثلاث جنازات اخرى سوف تخرج الى الشارع مع جنازة ابنه : جنازات رفاقه الثلاثة ! .. توجه فوراً الى المستشفى للقبض ومر برفاقه الثلاثة ايضاً .

فاتورة : « زين الحي » قتل ، وستخرج جنازته ظهراً ، وسيطلق شبان الحي الرصاص بهذه المناسبة كما هي العادة في هذه المدينة . شبان الحي المجاور سيظنون الرصاص موجهاً اليهم وسيردون عليه بالمثل وستقع مذبحة شهية الرجاء تشريفنا الى منطقة الاشتباكات والقيام بواجباتك ! ..

فاتورة : في شارع عمر بن الخطاب ، فاروق شهاب جالس يشاهد التلفزيون . ستصيبه رصاصة في رأسه تودي بحياته . الرجاء تفضلك بالزيارة .

فاتورة : كتب كريم وصيته قبل مغادرة بيته ، كان على حق في حدسه . الرجاء ملاقاته الى الشارع المواجه لمركز قناص منطقة السوديكو .

كان الموت يتابع تقليب صفحات دفتر فواتيره الشاسع ... وكان البرد يتابع احتلاله لجسد الطفل حتّى صار صعباً عليه فتح جفنيه رغم انه لم يسمع من قبل حكاية مثيرة قبل النوم كهذه الحكاية ... سيقول لأمه حين يعود من المهجر انها لم تكن تعرف كيف تروي له حكايا ما قبل النوم .. سيخبرها عن العجوز الذي يتقن قص الحكايا ، والذي اسمه الموت . الموت لاحظ ان جفون الطفل بدأت تثقل .. قلب صفحات دفتره بسرعة لانتقاء

حكاية قد تثير انتباهه ... كان الموت بحاجة الى الثرثرة ، كان قد تعب من العمل الشاق ...

قال للطفل محاولاً إثارة اهتمامه عن طريق إثارة المزيد من شفقته : انهم لم يكتفوا بمؤسسة « يعيش الموت » لاجلي ، وبتسمية الشوارع والأنهار والجسور والوديان باسمي ، بل انهم قاموا بسن القوانين تسهيلاً لمهمتي وجعلي شريكاً للملك في الحكم ...

فقد أعرض الناس عن الخروج الى الشوارع خوفاً من القتل ، فماذا فعلت السلطة ؟ لقد اصدرت قراراً لا بمنع التجول ، بل بـ « التجول الاجباري » ومن لا يتجول يعاقب بالموت صعقاً على اسلاك الكهرباء .. ومنذ صدور قانون « التجول الاجباري » تحول عملي الى أشغال شاقة ... انهم يظنون أنهم يسهلون لي مهمتي باصدار قانون التجول الاجباري ... انهم لا يعرفون انهم يقتلونني ... فقد صار علي ان اركض في الشوارع اكثر من ركض ساعي البريد الذي تطارده الكلاب الجائعة .. آه كم انا متعب يا صغيري .

همس الطفل : انا آسف من اجلك يا عمي ...

تأثر الموت وكادت الدموع تتجمع في عينيه وقال : انهم يجعلونني اعمل بمعنى وبدون معنى ... تصور حكاية سائق التاكسي المجنون هذا .. دعني اقرأ لك فاتورته ...

فاتورة : سائق تاكسي قبضاي . يمر بركابه السبعة على الحواجز كلها باختلاف مذاهبها وميولها ... انه يشعر بالقوة وبالعظمة ، وبعد ان ينقذ ركابه السبعة من الاخطار كلها ، ويصلوا الى منطقة شبه آمنة ، يشعر برغبة في ان يقتلهم هو بنفسه ليحس انه اقوى من الحواجز كلها مجتمعة . سيطلق عليهم الرصاص من رشاش اخفاه تحت مقعده . لن يساق الى مستشفى المجانين ولا الى السجن . الرجاء توجهك بسرعة الى هناك ، و (قبض) الركاب وترك السائق حياً ..

البرد تابع زحفه حتى رقبة الطفل . لم يعد بوسعه ان يحرك اي عضو من اعضاء جسده كما انه لم يشعر بالحاجة الى ذلك . كان الثلج قد بدأ يندف والموت يسعل بشدة ويشتم : سأصاب ايضاً بالتهاب رئوي ... حتى اجازة الاعياد حرموني منها هذا العام ! ...

ثم يتابع حكاياته للطفل : اسمع هذه الحكاية .. ستسليك .. كان هناك صبي شقي ، ارتدى جوارب أمه النايلون على وجهه وحمل رشاشه اللعبة ودق باب الجيران ليداعبهم . اعصاب الجميع متعبة ، لذا صرخت الزوجة حين شاهدته وشاركها في الصراخ اطفالها . فرح الصبي . ومد يده ليخلع الجورب عن وجهه حين خرج الزوج وبيده رشاش اطلقه

حتى قبل ان يرى من وماذا، فقد كانت اعصابه متعبة . قتل الصبي فوراً واصيب خطأ افراد اسرته وباشروا احتضارهم ، فأطلق الرجل المسكين رصاصة على رأسه ، وكنت غارقاً في النوم حين ايقظتني لجنة الاهالي كي اذهب الى مكان الحادث ... للقبض ! ... ابتسم الطفل قليلاً ، في الحقيقة كان البرد قد بدأ يحتل وجهه وعضلاته تنقبض وتتمدد لا ارادياً .. تابع الموت ... اسمع هذه الفاتورة بالله عليك ...

فاتورة : قرع المسلحون باب بيت رجل . فتح الرجل الباب . اطلقوا عليه الرصاص فوراً . قتلوه . جاءت زوجته صارخة . سألوها عن اسمه . قالت : سمير . قال احدهم : عفواً.. نحن نبحث عن سمارة لا عن سمير. لقد قتلناه خطأً. اننا نعتذر جداً . آسفون جداً. ومضوا بحثاً عن رجلهم . تركوا لها جثة رجلها . صبت المرأة على نفسها الكاز ، واشعلت النار . كان علي ان اذهب الى هناك فوراً للقبض . وكانت الرائحة مزعجة جداً ...

الثلج يندف بشدة . الطفل ما يزال ينصت الى حكايا « الموت » الشيقة التي لم يسمع بمثلها من قبل ، وقد اسند رأسه الى صدر « السيد الموت » بطمأنينة عميقة... تابع « الموت » شاكياً : قلت لك ان اهل هذه المدينة سيقتلونني ! ... لقد بحثت عن طبيب طوال الاسابيع الماضية .. ولكنهم اختفوا جميعاً عليهم اللعنة .. حملوا نقودهم وزوجاتهم وعشيقاتهم واطفالهم وهربوا ... انني لم ألتق بطبيب واحد في ردهات المستشفيات وبين الجرحى الكثيرين الذين كان علي ان اذهب اليهم بناء على طلبات « اللجنة الوطنية للموت » ... وعلى ذكر المستشفيات .. اسمع هذه الحكاية .. دعني استخرج لك فاتورتها ، لأتذكر الارقام ...

وبدأت الريح تقلب صفحات الدفتر الشاسع الذي يحمله السيد « الموت » في حضنه .. وقرأ بصوت مبحوح وهو يسعل متعباً كأي عجوز مدمن على التدخين .. (فاتورة ١٠١٥ : في المستشفى) .. نعم تلقيت نداء من مستشفى .. وصلت باسرع من البرق كعادتي .. كان هنالك زحام .. الجرحى في الردهات مكومون ، وفي الدهاليز وعلى المدخل ... كانت هناك مجزرة ، وكان أكثرهم يحتضر فقد اصابت المستشفى نفسه ، والحي المحيط به قذائف مباشرة ... وكنت ادور بينهم وصرخات الألم المروع تتعالى .. كانت اعضاء بعضهم قد بترت تماماً ، وأكثرهم ينادي باسمي كي اخلصه من الوجع .. « يا موت .. تعال يا موت ارحمني وخلصني » وكانت صرخاتهم تقطع قلبي . لكنني بصراحة كنت

مشغولاً في البحث عن طبيب يعالجني انا شخصياً .. فكما ذكرت لك ، انا « الكادح » الوحيد في بيروت منذ ثمانية اشهر على الاقل.. لم يذهب أحد سواي الى عمله منذ ثمانية اشهر.. وحدي اعمل راكضاً من شارع الى آخر أجمع الارواح من اكوام المحتضرين في الطرقات اكثر مما يركض عمال القمامة لجمع اكوام النفايات ! وجدت طبيباً واحداً ، فشكوت له من اوجاع مفاصلي وسعالي ورئتي المحتقنة وضغط دمي العالي وقلبي شبه المذبوح وقلت له بصراحة انني اخشى ان أموت .. وحين سألني عن اسمي قلت له ايضاً بصراحة : انا الموت .. وبدلاً من ان يمد الغبي يده لمصافحتي ويقول تشرفنا ، شهق واغمي عليه .. فحررت به « فاتورة » ... وتابعت بحثي عن طبيب آخر وشهقات الجرحى تقطع فؤادي ونداءاتهم لي تفوق نداءاتهم للاطباء الهاربين ... وقررت ان ابعث برسالة احتجاج الى نقابة الاطباء لانهم خرقوا الاتفاق المعقود بيننا والقاضي بتقاسم الناس مناصفة وتركوا مهمة (العمل) كلها على عاتقي .. وفجأة دخل الى الردهة شاب صغير ووسيم وشعر رأسه ولحيته طويل،ويشبه صورالسيد المسيح في الايقونات... صرخ حينما شاهد اخوته الخمسة شبه ممزقين ... كانوا جميعاً ينادونني بلا استثناء .. كانوا في المدرسة حين انفجرت القذيفة ... وقبل ان اقوم بمهمتي فوجئت بالشاب يخرج من يده شيئاً كالرمانة ، وينتزع الفتيل منها ... ودوى انفجار مروع ، آه لو تدري كم كان علي ان اعمل ذلك المساء ... لقد حررت ما يفوق ٥٠ فاتورة في ردهة واحدة فقط من ردهات المستشفى .. هذا باستثناء فاتورة الطبيب الوحيد ! ...

ارتسم الحزن في عيني الطفل ، وكان عاجزاً عن الابتسام أو البكاء .. فقد تجلدت حتى عضلات فمه ، واستولى عليه الصقيع فبلغ حتى شفتيه وحوله الى غريق في بركة متجلدة .. ولكن عينيه ظلتا تلتمعان فضولاً كنجوم صيفية .. تابع الموت شكواه وحكاياه . قال للطفل : اسمع .. سأروي لك حكاية مثيرة عن رسام اسمه ابراهيم ... ابراهيم . انتظر لنستخرج الفاتورة ... اجل ... ابراهيم مرزوق ...

جاع الفنان ابراهيم مرزوق . في اليوم الاول رسم رغيفاً وأكله في اليوم الثاني رسم ايضاً رغيفاً وأكله في اليوم الثالث رسم ايضاً رغيفاً وأكله . فلم يشبع . اضطر للخروج . فخرج الى الفرن ليشتري خبزاً وكانت السماء تمطر حديداً مصهوراً وكان عملي كثيراً ...

وفجأة تركز عملي امام الفرن ... لقد ارسلوا اليهم (رغيفاً) من النار ... وتمزق جسد ابراهيم مرزوق وامتزج بأجساد الاطفال والنساء والرجال القادمين لشراء الخبز والفرح ... آه يا طفلي ، لقد التصقت الاشلاء بجدار الفرن ... احذية الفقراء البلاستيك المصهورة والثياب المقطعة والاشلاء المتناثرة ... كانت من اصدق لوحات القسوة والعنف التي شاهدتها في حياتي ... وكان الفنان مرزوق عمودها الفقري ... رسمها هذه المرة بجسده واجساد قومه ... آه ... كان عملي كثيراً ذلك الفجر .. وتعبت كثيراً ... تابع الموت وهو سعيد بأنه وجد أخيراً من ينصت له دون ان يغمى عليه او يحرر به فاتورة ... « اسمع هذه الفواتير بالله عليك » ... وبدأت الريح تقلب له دفتر حساباته وهو يقرأ ..

فاتورة : نادين رسامة يصفونها بأنها غريبة الاطوار . نادين اشترت تابوتاً وكانت تنام كل ليلة فيه لأنها تريد ان تتذكر باستمرار ان زواجها الحقيقي هو زواجها المحتوم بي أنا وتكرر باستمرار : الموت حبيبي الحقيقي . حين اندلعت الحرب الاهلية صار كل ما حولها يذكرها بي ، وذات صباح قررت : هذه الليلة لن انام في التابوت وانما سأنام في سرير . وعند الظهر اصابتها رصاصة قناص وفي الليل كان علي ان امددها من جديد في التابوت الى الأبد هذه المرة ...

فاتورة : سليمة حامل . عمرها ٢٠ سنة . تحتفل بعيد ميلاد طفلتها الاول في بيتها بالخندق الغميق ببيروت . ليس في الطاولة من مظاهر الاحتفال سوى الشمعة الوحيدة . فجأة ينطلق الرصاص . تنطفىء الكهرباء . تسقط سليمة قتيلة . الرجاء مرورك في الموعد المحدد .

فاتورة : اميرة تمنع خطيبها من المجيء لزيارتها خوفاً عليه من الخطف . ينصاع لارادتها ويبقى في البيت . تزوره شظية قنبلة وتقضي عليه . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : أمل تقود سيارتها . تفاجأ بأن الشمس صارت تغرب قبيل الخامسة مساء وان الدنيا يعمها الظلام . تخاف . تلمح شرطي سير . تأمل في ان يرافقها أو يشجعها على الاقل . تطلق بوق سيارتها وتسارع بها في اتجاهه . كهارب الذعر المنتشرة في كل مكان تتجمع في رأسه . يخاف هو ايضاً . لا يعي الا بانه يطلق النار على السيارة الهاجمة باتجاهه . امل تصاب بطلق ناري بين عينيها . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : يتدربون في المخيم على استعمال مدافع ار . بي جي . يحصل خطأ فني بسيط . تنفجر قذيفة بين الشبان واعمارهم جميعاً بين ١٧ و ٢٥ — يصاب ٢٥ منهم إصابات خطرة جداً . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : حادث اصطدام بين سيارتين . يقتل اربعة . يجرح ما تبقى . تمر بهم سيارة فيها مسلح متعب الاعصاب . يظن السيارتين المتلاحمتين حاجزاً . يطلق رصاص رشاشه باتجاههما . يقتل الباقون من الجرحى . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

فاتورة : ثلاثة مسلحين اختطفوا الرجل المنشود . يتشاجرون على طريقة قتله يتشاجرون من يقتله . يشتم كل منهم الآخر . يخرطشون اسلحتهم . يطلقون النار بعضهم على بعضهم الآخر . يموت الثلاثة . الرجاء المرور بهم لاجراء المقتضى ، وترك المخطوف يخرج حياً ... حتى اشعار آخر .

فاتورة : منى تستعمل الموتوسيكل في تنقلاتها . في البداية كان الزحام يضايقها وتحرشات الناس بها . الآن يخيفها خواء الشوارع . تركض بالموتوسيكل وقلبها يضرب بجنون . وتتساءل باستمرار : ترى أيهما الافضل، ان أسرع اكثر او ابطىء اكثر بالنسبة لتوقيت انفجار ما ؟ .. اذا اسرعت فقد اصل انا والانفجار في وقت واحد ، واذا ابطأت فقد يقع الانفجار قبل ان ابلغ مكانه وانجو . والعكس ايضاً صحيح . منى متعبة جداً ذات مساء . الشوارع خاوية تماماً . وهي ما تزال حائرة . هل تسرع ام تبطىء . فجأة . توقف الموتوسيكل وتجلس على الرصيف . انها لن تسرع ولن تبطىء . لن تتحرك من مكانها . بعد دقائق . يدوي انفجار في مكان وقوفها تماماً . ربما كانت المتفجرة في (موتوسيكلها) بالذات . الرجاء اخذ العلم واجراء المقتضى .

كان البرد يتابع زحفه في جسد الطفل واستيلاءه على اعصابه عضواً بعد الآخر ... وحتى بريق عينيه الشبيه بنجوم صيفية بدأ يخبو وترك نفسه يغرق بسلام في صدر « السيد الموت»الذي احتضنه بحنان وتابع حكاياه وشكواه له ... قال « السيد الموت»: تصور يا طفلي .. انهم يتفننون هنا في تقديم وجبة الموت ... اسمع بالله عليك هذه الفاتورة : في خراج بلدة عيترون ، اقدم ت .ق على قتل شقيقه بطلق ناري ثم قطع عنقه وبتر

اطرافه الاربعة بواسطة منشار حديدي والقى جثته بين الصخور وذلك لخلاف على ملكية ارض ! ...

في كل الدنيا يموت الناس مرة واحدة ... هنا يصرون على تقديم الولاء لي بأن يموتوا أكثر من مرة . مرة بالرصاص ، ثم مرة اخرى ذبحاً .. وهكذا ... الم اقل لك انهم يحبونني كثيراً ... ومن الحب ما قتل .. ملكهم يحبني ايضاً ، ومنذ وقعت معه عقداً على مشاركته في الحكم وانا وحدي الذي يحكم والاعباء كلها ملقاة على عاتقي ...

فاتورة : وليد وندى زوجان نزحا من قريتهما بالجنوب الى حي الشياح ببيروت هرباً من الرصاص الاسرائيلي . ثم نزحا من جديد من حي الشياح الى بيتهما بالجنوب هرباً من الرصاص الانعزالي . يصلان الى بيتهما بالجنوب وتستقبلهما قذيفة اسرائيلية . الرجاء المرور بهما في الوقت المناسب .

تابع الموت شكواه بصوت حزين يقطع نياط القلوب : الم اقل لك يا طفلي انهم اتعبوني واصابوني بالتهاب المفاصل لكثرة الركض من الجنوب الى الشمال ، من حدود اسرائيل الى زغرتا وطرابلس والى البقاع وزحلة في الشرق ... بل ان مهماتي معهم لم تقتصر على الارض ... بل في السماء ايضاً ... اقرأ معي هذه الفاتورة : سقوط طائرة لبنانية ومصرع ٨٨ لبنانياً فيها .

هذا معناه ان اطير الى ارتفاع يفوق ٣٣ الف قدم في هذا الطقس المثلج للايام بعملي ... آه كم انا متعب يا طفلي .. لا استطيع ان انكر مدى تكريمهم لي وتسهيلهم لعملي ، ولكن مهما كانت ظروف العمل مواتية فانك لاتستطيع ان تعمل ليلاً ونهاراً ، خصوصاً اذا كان عليك ان تعمل في الجو والارض معاً وحتى على طريق المطار ...صحفهم لم تعد تتحدث عن اي شيء الا عن منجزاتي ... انهم يفردون لي الصفحات كلها .. العناوين الرئيسية ، (المانشيتات) والصور .. فيما مضى كانت لي زاوية صغيرة خجول مدسوسة بسرية في اسفل احدى الصفحات الداخلية ويسورونها بالاسود ويسمونها « عمود الوفيات» ...اما اليوم فالصفحات كلها مفردة لنشاطاتي المتعددة اللامتناهية ... وحتى شريكي « الملك » لم يعد يرد ذكره إلا انطلاقاً من منجزاتي انا ، لكنه – بصراحة – اتعبني وخرج على نصوص اتفاقنا والمصيبة انه لا يترك لي لحظة من الوقت لاذهب اليه وافك شراكتي معه ... وهم ايضاً – اهل هذه المدينة – يساهمون في ذلك لانهم يعبدونني دون ان

يدروا .. ألا تصدق ؟ الم تلحظ انهم الغوا تماماً الاحتفالات بالولادات والاعراس ، ولم يلغوا طقوس التعازي ؟ اسمع هذه الفاتورة : ننعي اليكم ولدنا ... التعزية في شارع « التقسيم » الواقع بين الشياح وعين الرمانـــة . سيذهب الى التعزية عدد كبير من معارف الفقيد واسرته رغم ان منزل الفقيد يقع في منطقة ساخنة جداً — اي منطقة تبادل اطلاق نار بلغة اهل المدينة — ... سيذهب جمع كبير من الناس رغم الخطر . سينفجر في المنزل صاروخ يحوّل اكثر (المعزين) الى (فقيدين) . الرجاء . مرورك في وقت التعازي لقبض حوالي ٤٠ فاتورة بينهم كاهنهم ايضاً .

ألا ترى يا طفلي كم يسهلون لي مهمتي .

لم يجب الطفل . كان نائماً في حضن « السيد الموت » بلا حراك ، مفتوح العينين وقد انطفأت فيهما النجمتان الصيفيتان الحارتان ..

قال الموت محاولاً ايقاظه لاسماعه مزيداً من شكواه : اسمع هذه الحكاية المثيرة يا طفلي ... صبيحة يوم العيد ، كان هنالك عشرة رجال يرافقون قطيعاً من الاغنام يربو على المئة رأس . تصدى لهم مسلحون . اطلقوا الأغنام وذبحوا الرجال . حتى ذبائح العيد صار علي ان اشارك في إعدادها . عند الصباح وجدت كل زوجة على عتبة بيتها زوجها المذبوح بدلاً من خروف العيد ..

لم يجب الطفل . حتى انفاسه هدأت تماماً ... عيناه فقط ظلتا مفتوحتين ، وادرك « السيد الموت » ان الطفل لم يعد ينصت له ، وانه بطريقة ما رحل الى مكان بعيد بعيد ... اكثر بعدا من استراليا بكثير ... انه هاجر الى كوكب آخر ربما الى الابد ...

وحرر به الموت فاتورة بينما يده ترتجف ونوبة سعال مفاجئة انتابته . كان حزيناً حقاً لفراقه ... ونهض وتابع سيره مصمماً على مغادرة المدينة فوراً رغم ذكريات امجاده فيها خلال الاشهر التسعة الاخيرة ....

العاصفة كانت قد ازدادت ضراوة ، والفجر طلع والريح العاتية تجلده ... ولكن الموت تابع سيره ، مر بسور المقبرة ، ودوى انهيار شديد ، كانت العاصفة تنبش القبور وتطير بها وتفرشها على الرصيف المحاذي لسورها المهدوم ... وفوجيء الموت بحفار القبور راكضاً يناديه : كل الناس يدفنون مرة ، الا في هذه المدينة اللعينة ، علي ان أدفن الميت اكثر من مرة ... تعال يا موت وخلصني من هذا العذاب ...

وتقدم منه الموت صارخاً به : بل ادفني انت وخلصني من هذا العذاب ! ... اريد ان اموت . اريد ان اموت .

في الصباح ، وجدت جثة الطفل وقد جلّده البرد الى جانب شجرة في آخر الزقاق الموصل لبيته ولم تكن على الجثة أية آثار للعنف ... كما وجدت جثة حفار القبور العجوز الذي أرهق كثيراً في الاونة الاخيرة ...

وكانت العاصفة قد قذفت ببعض القبور الى الشارع المجاور ، وصار الرصيف قبراً كبيراً مفتوحاً ..

* * *

كابوس ١١٨

استيقظت متعبة ، أكثر تعباً مما لو بقيت صاحية طوال الليل أحفر قبوراً ..

آه كوابيس كوابيس ....

تنبت داخل رأسي وتتسلق جدران روحي كنبات اسطوري شرير .. (ام تراها تقع خارجه ايضاً ؟) ...

آه كوابيس كوابيس عن « السيد الموت » ... كما لو أنه مر بببيتي .. وحلقي جاف كما لو أنه مسّ صدري .. أنهض نحو المطبخ . الفجر لما ينبت بعد تماماً على صخور الليل .. خيط مريض من ضوء رمادي يلف المرئيات كلها ، كأنه لون أصوات الرصاص المتقطع الذي لما يكف بعد ... كأنه لون الزمن الآتي ، ريثما يطلع الفجر . شربت جرعة من الماء المغلي (لتعقيمه بعد انقطاع مياه الشرب تماماً) وكانت تطفو على وجهه سحابة من الكلس المقرفة الطعم ... بذلت جهداً كي لا يردّ جسدي ما شربت بتقزز ... كنت مرهقة ... والجوع قد بدأ يؤثر في جسدي المشرق بالصحة عادة ... قررت العودة إلى فراشي .. لم أكن نشيطة بالقدر الذي يمكنني ان اصعد الى بيتي بالطابق الثالث وأتفقده وأرى آثار أقدام الرصاص والقذائف ، بالضبط ، أتفقد المكتبة ، أهم ما لدي .. ولم اكن متوهجة بما فيه الكفاية لاغامر بالوقوف قرب النافذة لاشم الياسمين ... كانت رائحة الحريق تملأ المكان وحدست ان فندق « الهوليداي إن » يتابع احتراقه .. في طريق عودتي من المطبخ لمحت العم فؤاد جالساً على مقعده بالردهة ... وحوله أكوام الفضيات التي لفها بعناية ، والتحف من (سيفر) و (جاليه) وغيرها من المزهريات التي ندهشني

أن ثمن القطعة الواحدة منها يفوق ثمن مكتبة !... كنت اكثر تعباً من أن القي عليه تحية الصباح ،. لو ... لو لم اشعر بذلك الحضور الغامض الخفي ... برائحة تشمّها الروح لا الحواس ... لا ... لم تكن جلسته برأسه المرمي على المقعد ، ولا جسده المتصلب . كان هنالك نور مظلم يشع من حضوره ، أراه بمسامي لا بعيني ، أراه بحواسي السرية التي لم يكشف العلم عنها بعد والتي يعيها البسطاء اكثر مما يعترف بها المجازون في العلوم ...

كالمسحورة مضيت نحوه ، ولم تكن أية مفاجأة لي ان اجـــده ميتاً ... لقد عرفت ذلك وانا في الردهة المجاورة ، حتّى قبل أن امس يده المزرقة المتجلدة ، وحتّى قبل أن تروعني نظرة عينيه السحيقة اللامبالية ... لقد حدست ذلك ... لقد التقطت كهارب ذلك ... لقد وعيته ولا أدري كيف .. تأملته وتحفه تحيط به ، وبدا لي مثل فزاع طيور يحرس حقلاً من الرماد ...

كان يرتدي ثوبه العثماني الرسمي العتيق ، وقد ملأ صدره بنياشينه العتيقة كأنه في انتظار زائر مهم ... ولم يخلف الزائر موعده ...

وسقطت في المقعد المواجه له . لم اكن خائفة . لم اكن حزينة . شعرت بما أحس به عادة حينما أجلس اليه . او الى جميع الناس الغرباء عن روحي او الذين اغتربوا عنها بعد وصال .. كانت جلسة مريحة. لم يقل شيئاً وبالتالي لم أكن مضطرة للرد عليه . لم يقل الكلمات التقليدية الخاوية من أي تواصل انساني ، ولكن يفترض قولها من باب « الحوار المهذب » وبالتالي لم يكن علي ان ارد باللغة نفسها التي تعذبني عادة وتثير تقززي ...

كنت استطيع ان اجلس اليه دون ان اضطر لارتداء ولو قناع واحد مقابل عشرات الأقنعة التي ألف ارتداءها ... للمرة الاولى شعرت بالراحة معه ، وبالاحرى بالراحة لانني كنت دوماً بدونه ولكن فيما مضى كان على كل منا احتمال صحبة الآخر برشوته ببعض الكليشيهات .. بل انه صار بوسعي ان احدثه الآن دون ان اخشى سوء فهمه او عدم فهمه او سخريته او غضبه او حماسه او لا مبالاته ...

كنا متقابلين . متشابهين قليلاً . ربما كان الفرق الوحيد بيننا هو انه لم يعد جائعاً ، ولم يعد بوسعه ايضاً ان يتعلم شيئاً جديداً ... ولكن المقارنة بيننا لم تكن مهمة ... المهم هو تلك الهدنة المعقودة بيننا للمرة الاولى . هدنة حقيقية لا مهادنة .. وها انا استريح الى صحبته اكثر مما استريح الى صحبة الكثيرين من معارفي ! .. وها أنا احدثه بطلاقة ،

انا المرأة الوحيدة رغم زحامها ، المنطوية على جراح قلبها رغم كثرة الحاملين للقطن والشاش حولها ... منذ انطفأ يوسف ، انطفأ الحوار في عالمي .. كان جمرة الحنان الوحيدة التي ادفأت صقيع غربتي ، وجعلت سلحفاة روحي تخرج من صدفتها اليه رويداً رويداً حتى تخلعها تماماً ...

قلت للعم فؤاد اشياء كثيرة .. بسطت مخاوفي وآمالي واحزاني له ولم اخف عنه اي سر ...

قلت له ان الكثيرين سألوا عي وقلقوا من اجلي ، ولكن أحداً لم يسأل عني (حقاً) او يهمه مصيري (حقاً) بمعنى ان يشاركني موتي او حياتي او مخاوفي في دوامة الرصاص... وان المشاركة مهما بلغت عاجزة عن اختراق جدار العزلة الانساني الذي تبرزه الحرب الاهلية للعيان بعد ان تعريه من ورود المجاملات وعرائس اللطف الاعتيادي الاليف ... آه يا عم فؤاد ... ليس الرصاص وحده ما يخيفني ، وانما تلك العزلة الداخلية المروعة ، كأن كل ما يربطني بالاخرين قد انكسر حقاً ونهائياً والى الابد ... هل تفهمني يا عم فؤاد ؟ ... لا بد وانك تفهمني ما دام كل ما يربطك بالاخرين انت ايضاً قد انكسر حقاً ونهائياً والى الابد ! ... تابعت دون ان انتظر منه رداً : أحد طرفي الذين يتقاتلون يا عم فؤاد حول بيتي كدت ذات يوم أقتل لأجلهم .. لقد كان انتمائي الحزبي الوحيد القصير الأمد لهم . كنت منهم — وما ازال فكرياً — قبل ان اقرر انني لا اصلح للعمل الحزبي لانني أولاً كاتبة .. والكتابة أداتي الحقيقية والاولى والاساسية ... واول مبدأ حزبي هو : نفذ ثم ناقش ... واول مبدأ فكري : هو ناقش ثم نفذ وباقل قدر ممكن من العنف ! .. الفنان هو (قوّاد) للحقيقة ! .. انه يروجها بكل وسيلة ممكنة ، لكنه عاجز عن الزواج بها زواجاً سرياً ! ... الكاتب جمهورية مستقلة . حزب قائم بذاته وعليه الاختيار بين الانتماء لفنه او لحزبه..لا تضارب بين الانتماءين ؟ ربما هذا صحيح نظرياً ... ولكن لا بد ان تمر ولو لحظة حيرة واحدة ، لحظة غموض واحدة لحظة رفض (حادس) او (حدسي) واحدة ، لحظة تضارب واحدة وبالتالي لحظة خيانة واحدة للذات ، وهي كافية لقتل برعم الموهبة نهائياً .

ومع ذلك فإن الأمر يبدو لي هزلياً..فقد اقتل برصاص الذين نذرت عمري لاهدافهم كما قد اقتل برصاص الطرف الآخر .. فالرصاص لا يدقق كثيراً في بطاقات تحقيق

الشخصية ! .. ان مأساة الحرب لا في بشاعتها فحسب ، بل في غبائها ... حيث يهطل الموت كما يهطل المطر دون تمييز بين حقل القمح الذي هو بحاجة اليه وحقل القطن الذي سيقتله ... ان مأساة فنانة مثلي مع الحزب هو ان الحزب – اي حزب – مضطر لاعتماد العنف وسيلة لتبديل الاوضاع ، ومع قناعتي احياناً بأنه لا وسيلة أخرى ، إلا انني في الوقت ذاته لست على استعداد لأن أفلسف العنف لاحد ...

تناقض ؟ بالضبط . انها مأساتي . اريد ان تشرق الشمس دون ان اضطر الى ذبح حنجرة الديك لأثبت له ان الشمس ستشرق على اية حال ولو لم يصح! قد تكون هذه هي الوسيلة الوحيدة لاثبات ذلك لكن لا يسعني الا تكريس حياتي للتفتيش عن وسائل اخرى... وكما قلت لك يا عم فؤاد ، إن مصرع أي رجل أو أي حياة هي كارثة كونية في نظري . ثم ان الوعظ ليس طريقاً للنصر ولا للتوعية . والاحزاب تحب الوعظ . انها تفضل خطيباً رديئاً جماهيرياً على فنان جيد صامت ، والفنان يختار الصمت احياناً كي لا ينطق كفراً حتى ولو صمت دهراً . الفنان يوقت موعد ولادة اعماله لا البلاغات الحزبية . ومع ذلك ، فالحياد في عالم العنف جريمة أيضاً . إنه مساعدة لأحد الطرفين على تصفية الطرف الآخر . ثم ان الانضمام إلى أحد الطرفين يجعل الموت أقل مرارة . الموت الجماعي أسهل من المواجهة الفردية للموت ، دونما طقوس وتهليل جماعي وهستيريا تصعيدية وتهويمات بطولية ...

لكنني لا أستطيع أن أبرر العنف لمجرد أنني لا أريد أن أموت وحيدة ! .. إنني أفكر بالآلاف من العزل أمثالي .. الذين يتعذبون في هذه اللحظة مثلي والموت يتهددهم ، ويقبعون تحت مطر الرصاص بصمت عاجز وهم يتساءلون : إلى أي حد يعتبر رفض العنف جريمة ؟ وهل هي جريمة تستحق الموت بعنف ؟ ...

ألا يمكن لمخاض الفرح ان يكون عملاً واعياً إنسانياً ؟ وهل دوامة العنف وحدها هي مخاض الفرح الآتي ؟

ثم انني كفنانة ولاؤها الأول للحقيقة ، لا أملك إلا أن أقف ضد « الظلم » سواء مارسه الفريق الذي انتمي إليه أو الفريق الذي اقف ضده فكرياً وإنسانياً . والظلم بمفهومي قد يكون غير « الظلم » بمفهوم الفريق الذي انتمي اليه خصوصاً في زمن الحرب ، حيث تصير عبارة « الظلم » مطاطة . اما بالنسبة إليّ ، فالقيم الاخلاقية ليست موضع مساومة

ولا يجوز ان تصير مطاطة تحت اي ظرف من الظروف .. إنني أياً كانت الظروف أظل مصرة على ان « من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » — كتاب القرآن — سورة المائدة » .

وكنت اتحدث واتحدث .. والعم فؤاد ينصت بحياد شفاف يقع بين الود واللامبالاة .. تابعت : ماذا يجدي موتي ؟ من يستفيد من دخول رصاصة ما خطأ من النافذة إلى نافذة دماغي ؟ لو كنت سأموت لأثبت شيئاً لرضيت ، ثم لماذا أموت لاثبت اي شيء ؟ بوسعي ان أفعل ذلك أكثر ببقائي في قيد الحياة . هذا طبعاً يلغي مبدأ (الشهداء) ... هذا المبدأ الذي اخترعته (حضارة الموت) لترغّب الناس بالموت ولتخدر غريزتهم الطبيعية للحياة .. لا ... لست خجلة من حبي للحياة .. ولن أبرر لنفسي رفضي للموت كما لو كانت الرغبة في الحياة خطيئة أو جريمة ... أجل ! إنها خطيئة وجريمة في مجتمع حضارة الموت وعبادة الموت . انني أكره « الموت للموت » واذا كان لا بد من ان اختار موتي فسيكون موتاً لأجل الحياة وان كنت أفضل « الحياة لاجل الحياة » .. يوسف كان يكره ان أقول له : « احبك حتى الموت » .. كان يصر على ان اقول : احبك حتى الحياة ... بالمناسبة يا عم فؤاد .. ما زلت احب يوسف . ما زلت اقيم طقوس « وثنية الموت » وألملم أوراقه وصوره وتذكاراته وأحرص عليها وهذا يتنافى مع قناعاتي العقلية ... لكن التناقض في جوهر الطبيعة البشرية ، والوصول إلى التفاهم الداخلي والتناغم الذاتي والانسجام مع الوجود الكلي الواحد هو غاية ما يسعى اليه الفرد ويتمناه ... وانا قد أكون في أول الدرب لكنني على الأقل أعي وجودها وضرورة التوجه في مسالكها ومساربها ...

ما زلت جالسة في مقعدي ... والعم فؤاد جالس في مقعده المقابل ، لم يتحرك لكنه ينظر باتجاهي ، وعبري ! ...

نهضت بعد ان استرحت بعض الشيء .. وشكرت العم فؤاد على حسن انصاته ... وقلت له ان الوقت ما زال مبكراً جداً وانني سأعود إلى فراشي لأنام قليلاً ... وانني انصحه بان يفعل الشيء ذاته ! ...

وحين طمرت نفسي بالأغطية ، أحسست بما يشبه الراحة المتعبة ، كمؤمن عاد تواً من الاعتراف لدى كاهنه حاملاً صك الغفران ! ... وتقدمت مني أمواج النوم ترفعني ، تغرقني بذلك الاحساس الممتع بالتلاشي الذي يأتيك قبل النوم مباشرة .. مدها العالي

يرفعني عن أرض الصحو ، ثم أنحسر مع جزرها إلى بحار ما وراء الصحو ... لتخلفني من جديد على الشاطىء الآخر ، شاطىء الأحلام والكوابيس ! ...

* * *

كابوس ١١٩

« لم يعد الزحام يطاق » .. هكذا كان صابر يردد لنفسه بينما هو يستلم شحنة جديدة من الجثث ..

« لم يعد الزحام يطاق » ، وقد افرغت الشاحنة أمامه كوماً جديدة منها ، بصفته المشرف على البراد الحكومي لحفظ الجثث اي حارس « المقبرة المثلجة » ..

«لم يعد الزحام يطاق» والجثث المشوهة المقطعة الأعضاء تحيط به ، وهو يتعثر بها أنى اتجه..

صحيح ان الزحام لا يضايقه عادة .. بل انه يرحب بأن تكون الأماكن التي يشرف عليها مكتملة العدد ، لكن ، ماذا بوسعه ان يفعل والبراد لا يتسع لأكثر من ٣٦ جثة ؟

* * *

حين كان يعمل قاطعاً للتذاكر في السينما ، كان يسعده ان تمتلىء المقاعد بالزبائن ، وان يأتي أشخاص إضافيون يعتذر منهم « لم تبق محلات . آسف .. الصالة كومبليه » . كان ذلك يشعره بان عمله بخير ، والسينما بخير ، والدنيا بخير ..

ولكن المشكلة ان براد الجثث قد امتلأ ولم تبق أية مقاعد ، لا في (صالة) البراد ولا في (البلكون) ولا في مقاعد (الفوتوي كلوب) . والجثث تتقاطر عليه بالمئات طالبة باصرار مقاعد لها ..

وحين يعتذر منها : « لم تبق محلات . البراد (كومبليه) ومكتمل العدد » ، لا تذهب لشأنها كزبائن السينما ، وانما كانت تظل مكومة أمامه بأحشائها المتدلية ، ومصرة على الدخول إلى البراد قبل ان تتعفن ، صارخة في وجهه بصوت كصفير الريح ...

ماذا يفعل وبيروت تقذفه كل صباح بكوم من الجثث ، والجثث تصيح به طالبة انقاذها من الجراثيم التي بدأت تتكاثر فيها وتهددها بالعفن والتآكل ، راجية ومهددة من أجل إدخالها إلى البراد ، كما تصرخ قبيلة من المحروقين من أجل إدخالها إلى غرفة الطوارىء بمستشفى ...

* * *

صرخت به جثة : انا ابن اخت الوزير (...) المسلم السني واذا لم تُدخلني إلى البراد سيقطع خالي رزقك . صرخت به جثة اخرى : وانا ابن اخت الوزير (...) المسيحي الماروني ، واذا لم تدخلني إلى البراد ، تكون قد كسرت ميزان الدولة ، وقاعدة (٦ — ٦ مكرر) ، ونظام التوازن بين الطوائف . واختيار الجثث (لمقاعد) البراد وفقاً للتقسيم الطائفي ... وسيقطع خالي رقبتك ...

صرخت جثة : وانا شيعي ..

صرخت أخرى : وانا درزي .. وستقطع روحي المتقمصة نسلك .

صرخ ثالث : وانا ارثوذكسي ..

صرخ رابع : وانا يهودي من وادي ابو جميل .. من « الأقليات المضطهدة » وسأضطهدك واصيبك بعقدة الذنب إذا لم تدخلني إلى البراد ، وأريد شقة ناحية الكنيس ! ..

صرخت جثة خامسة : انا من عشيرة (...) الكبيرة ، واذا لم تخل لي مكان (فوتوي كلوب) في البراد ، سيلاحقك اخوتي وأبناء عمي طلباً للثأر ، وسيلاحق أحفادي أحفادك إلى الأبد ..

صرخت جثة سادسة : انا أبي نائب ورقم سيارته أزرق اللون ، ابعدوا جثثكم عن طريقي والا أعيد قتلكم جميعاً مرة أخرى على يدي ميليشيا ابي . وانت يا صابر ادخلني فوراً إلى البراد والا ... انت تعرف ماذا والا ! ...

صرخت جثة سابعة مبحوحة الصوت : وانا المطرب الشهير (...) ، واذا لم تدخلني إلى البراد وتحفظ حنجرتي المخملية ، سيقال ان لبنان ليس بلد الاشعاع ، وأنه يضطهد المواهب والعباقرة ...

صرخت جثة ثامنة بحجم الديناصور : وانا القبضاي مرافق (الزعيم) فلان بيك ابن بيك ابن بيك ابن بيك ابن آدم عليه السلام . واذا لم أحصل على مقعد في البراد فسوف تهاجم المافيا التي (اخصها) برادكم وتنهبه وتبيع لحوم الجثث بالجملة والمفرق ، بعد أن تقتلع عيونها وتعلقها ثلاثة أيام على أعمدة الكهرباء التي لم تقتلع بعد من شوارع بيروت ...

صرخت جثة تاسعة : ادخلني إلى البراد وأنا أدفع لك رشوة محترمة ! ..

صرخت جثة عاشرة : وانا مفتاح انتخابي . انصحك بادخالي إلى البراد حالاً وإلا

اصبناك برصاصة (طائشة) ... صرخت جثة : وانا اميركي . وستطالبكم سفارتي (العظيمة) القوية صاحبة القنابل الذرية بردي ...

صرخت به جثة حزينة الصوت : وأنا فقير ولا أسرة لي . دعوني أنصرف ...

* * *

وارتجف صابر لهول التهديدات وصار يردد : يا ويلي .. يا ويلي ...

وفتح البراد . طرد منه الجثث المجهولة الهوية . ثم وقف أمام بابه وهو يصرخ بقافلة الجثث التي كانت تقفز أمام عينيه مهددة متوعدة : تذاكر .. .. تذاكر يا شباب ... اطلعوني على تذاكركم (بطاقات تحقيق الشخصية) .. من كان فقيراً فليمش من هنا .. من كان بلا (واسطة) فليمش من هنا .. من لم يكن يحمل تذكرة تثبت أصله وفصله ودينه فليمض من هنا ... هذا براد حكومي ، لا براد فوضى ! ..

* * *

كابوس ١٢٠

كانوا ثلاثة أصدقاء .

أوقفهم الحاجز الأول من المسلحين .

استبقى المسلحون أحدهم وكان مسيحياً وقتلوه ، واطلقوا سراح الاثنين الباقيين .

تابع الاثنان سيرهما . استوقفهما حاجز مسلح آخر . استبقى الحاجز احدهما وكان مسلماً وقتلوه ، واطلقوا سراح الثالث ...

الثالث كان يهودياً ويحلم كل ليلة باسرائيل . استوقفه حاجز ثالث ، فانضم اليه .

* * *

كابوس ١٢١

جلست تتشاغل بصنع تمثال طفل من الطين .. وتنتظر رنين الهاتف بلهفة ، فقد يتم استدعاؤها لصنع طفل حقيقي ...

اصابعها تعبث بالطين ... تكور الرأس ... ترسم العينين ، الاذنين ، الشفتين ، الجسد الدقيق بحجم جسد طفل لحظة الولادة ...

وها هي قد وصلت إلى الساقين والهاتف لم يرن بعد ...

يوم اختارت مهنة الطب ، بالضبط مهنة طب التوليد اعتبر عملها ثورة نسائية في

الاسرة ... الابنة الخجولة ستتحرر وستكون طبيبة ؟ لم يكن أحد يدري انها بذلك تكرس خجلها الغريزي من الرجل وارتباكها أمامه إلى حد عجزها عن تفجير طاقاتها الخلاقة كلها ، وانها اختارت الطب النسائي كي لا تمس أصابعها جسد رجل .. فالمريض سيظل ذكراً بالنسبة اليها ولن تقدر على نسيان ذلك أبداً ... انها ببساطة عاجزة عن مسح ألفي عام من الجاهلية بشهادة جامعية يستغرق اعدادها سبعة أعوام ... وقد اختارت مهنة الطب النسائي كي يقتصر تعاملها مع النساء فقط ، فتريح وتستريح ... كانت تمارس مهنة التوليد بميكانيكية قاطع تذاكر في باص مزدحم ... وباتقان أيضاً ..

حتى شبت الحرب الأهلية في لبنان ... آه كم بدلتها الحرب الأهلية ..

هذا الهاتف اللعين ، لماذا لا يرن ؟ ألا توجد امرأة واحدة في هذه المدينة ترغب في صنع الحياة الليلة مقابل هذا الموت كله الذي يصنعه مجتمع الذكور كل ليلة ؟

عادت تتشاغل بصنع طفلها الطيني الصغير ... منذ صارت ترى الجثث مكومة في الشوارع وفي ردهات المستشفى وتتدلى من الاشجار ولافتات المتاجر والشرفات وأعمدة الكهرباء صارت ترى الولادة بصورة جديدة ...

لم تعد مهنتها هرباً من الاحتكاك بالذكور ، بل صارت ترى في الولادة شيئاً باهراً مضيئاً ، ونوعاً من الطقوس المقدسة التي تعوض بها النساء وحشية مجتمع الذكور ... صارت تنتظر رنين الهاتف الذي يدعوها إلى توليد امرأة ما بفارغ الصبر ... كانت تركض إلى المستشفى ، غير آبهة بالقناصة في الشوارع والألغام تحت الاسفلت وحواجز الخطف والقتل عند المنعطف والموت فوق السحابة الواطئة ... كانت تجد في إخراج طفل إلى الحياة من رحم أمه عملاً باهر الجمال ، بل الشيء الوحيد الجميل والفاضل في هذا الزمن العاهر والمسعور ..

وتشعر بأنها كاهنة في معبد الحياة تؤدي طقوساً بالغة البهاء والروعة والاكتمال... كانت هي نفسها تولد مع كل امرأة تتولى توليدها ، وتخلق الحياة مع كل رحم يقذف بطفله إلى الحياة ... اولئك الأطفال كلهم هم أطفالها هي ... وهي لم تعد تشعر بالخجل من الرجال ، ولا بالارتباك ، ولكنها أيضاً لا تشعر نحوهم بالاحتقار .. تشعر بنوع من التكامل والمساواة ، هم يقتلون وهي تخلق ، وهي تقتل مرات وهم يخلقون ... انه قانون الكون الطبيعي يسري على الجميع ... انها المساواة الحقة في امكانيات السقوط والسمو ...

ولكن الهاتف لم يرن الليلة ... وأصابعها تصنع تمثال الطفل باتقان ، بينما هي تحس بألم في بطنها يشبه ألم المخاض .. يتسارع الألم ... تتسارع لمسات أصابعها على تمثال الطفل بحيث تبدع في تصويره ... يتسارع ألم مخاضها .. يشتد ويقوى ، وهي تكافح بضراوة كي تحسن رسم الطفل .. ثم تصرخ ... وتقطع حبل السرة ...

ويتحرك التمثال ... يصرخ باكياً في شهقة الحياة الأولى ... يقول لها شكراً ..

وينطلق فاتحاً الباب خارجاً ليتابع حياته .. وتهمس هي : بل شكراً لك . لقد جعلتني أماً ! ...

* * *

كابوس ١٢٢

ايقظني صراخ أمين .

للمرة الأولى منذ زمن بعيد أستيقظ على صوت بشري بدلاً من انفجارات الصواريخ والقنابل .. ولكن صوته لم يكن بشرياً تماماً ... كان أشبه بخوار حيوان مذعور ... في البداية قفزت من سريري خائفة من ان يكون قد أصيب برصاصة ما ... ثم تذكرت العم فؤاد الذي خلفته ميتاً على كرسيه ... لا ريب بأن امين اكتشف جثة والده ...

كان امين يبكي والخادم يشاركه انتحابه ... خيل إلي ان في بكائهما من الخوف أكثر مما فيه من الحزن ... كأن موت العم فؤاد برقية تهديد لنا جميعاً بالموت الذي لا مفر منه والذي لا مفر من نسيانه أيضاً كي نستمر في لعبة الحياة... كان امين يندبه بصوت أسيان مذعور ، كأنه يبكي ذاته ويصرخ: لقد قتلوه...ثمة من قتله...ثمة من اغتاله.ثم ادهشني انه بدأ يركض في كل مكان مفتشاً البيت المحكم الاغلاق علينا كعلبة سردين . قلت له : ألا ترى بوضوح انه مات بالسكتة او بجلطة بالدماغ او بأي شيء داخلي ، لكن رصاصة لم تدخل اليه من الخارج ...

ولكن امين اصر على ان والده قد اغتيل .

لكثرة حوادث القتل حولنا ، لم يعد بوسع أحد أن يصدق ان أحداً يموت ميتة طبيعية . قلت له : « لا أثر لرصاصة أو شظية في جسده . انا معك في ان يكون الرعب والارهاق قد فتكا به أكثر من أية قنبلة ، ولكن ، ألا ترى معي أن جسده لم يصب أصابة مباشرة » . قال امين : « لعله قد خنق » .

قلت : « لا توجد أية آثار عنف على عنقه أو حوله ، ثم ان الأبواب والنوافذ مغلقة كلها كما خلفناها في الليلة الماضية ... لقد مات الرجل ميتة (طبيعية) كما تموت أكثر كائنات الطبيعة ...

لكن امين لم يقتنع . بدا له من العجيب جداً ان يموت اي انسان في هذه الأيام ميتة عادية ، وكان واضحاً ان الخادم العجوز يشاركه رأيه . وتركتهما يبحثان في البيت عن آثار القاتل المزعوم ، وأصوات الرصاص تطاردهما . وجلست في مقعد قبالة العم فؤاد وقلت له : « القاتل مختبىء في داخلك ... لقد خرج من داخلك وقتلك ... لقد قتلك الحب .. قتلك حبك لتحفك المهددة بالخطر ... »

وخيّل إلي انني لمحت في عينيه وميض إقرار متواطىء !... قلت له : « أشكر لك حسن إنصاتك لي مؤخراً ! ... » .

* * *

كابوس ١٢٣

ما زال أمين والخادم يدوران مذعورين بحثاً عن القاتل المزعوم . تركتهما يفرغان شحنة الصدمة الأولى بالحركة الجسدية . بالنسبة إليّ ، كنت أواجه مشكلة عملية صعبة : كنت سجينة في بيت واحد ، مع ثلاثة رجال في حالة انهيار ، وها انا الآن مع رجلين وجثة .. والمشكلة ، مشكلة الجثة ... إننا عاجزون عن دفنها ، إلا إذا كنا نريد ان يقتلنا القناص بينما نحن نحفر قبراً في الحديقة ، فنكون فعلاً كمن حفر قبره بيده ... ولا أحد يستطيع الاقتراب من بيتنا لتهريبنا أو لجمع الجثث من الحي على الأقل ! ..

إذن الجثة سترافقنا ... وستتعفن .. وسنواجه كارثة جديدة تفوق كارثة انقطاع الكهرباء ومطر الرصاص ... والجوع ..

بعد حوالي الساعة جاء أمين وانهار في المقعد المجاور لي .. وبدأ ينوح : آه يا أبي .

قلت : « انه لم يعد أباك . إنه الآن جثة . وعلينا ان نفعل شيئاً كي لا تخنقنا رائحتها حين تتعفن . يجب ان نفكر في (خزنها) بمكان مناسب قبل ان تتصلب نهائياً ويصير تحريكها صعباً .. » .

بدا لي مصعوقاً . كان واضحاً أنه ما زال يرى في الجسد الأزرق الهامد أمامنا رجلاً يحبه هو أبوه . لم يلحظ بعد اي مأزق يعنيه وجود جثة في ظروف كظروفنا ، وان والده

لم يعد أكثر من جثة ! ... قررت ان أصمت وان اترك الساعات المقبلة توضح له ما اعنيه .. وقلت له انني سأتفقد بيتي في الطابق الثالث .. وسأتركه للزمن الصامت ذي الفصاحة اللامتناهية ... ليفهمه الفرق بين أب حي ... وجثة لا أحد .

* * *

كابوس ١٢٤

كل جدار في بيتي يقول انه في ساحة حرب . كل نافذة تنطق بانني في منتصف الطريق تماماً بين المتقاتلين ، وان نصيبي من الرصاص الطائش والصواريخ المنحرفة قليلاً عن الهدف يكاد يوازي نصيب الهدف نفسه ..

توقفت قليلاً أمام غرفة نومي التي أكل الصاروخ نصفها .. كانت ريح العاصفة قد أطاحت بكل ما فيها تقريباً .. وحده رف البوم وجداره ظل سالماً ... وبدا لي الأمر مذهلاً ...

فالبوم طائر بريء لكنه سيء السمعة .. ربما لذلك احبه ، كأعلان عن رفضي للنظرة التقليدية المتوارثة بالنسبة للبشر وللحيوانات على السواء .. وربما كنت احبه لذاته .. لعينيه الشاسعتين المحرومتين من حنان البشر طوال عصور .. لا ادري .. كل ما ادريه هو ان أربعين بومة كانت تشاركني غرفة نومي . بوم من رخام . بوم من خشب . من حديد . من شمع . من الصيني . من الكريستال . من القطيفة المحشوة بالقطن والتبن . من اكواز الأرز . من الحفر بالنار على الخشب . بوم من جميع الأحجام والأشكال وحينما أغلق باب غرفتي وأنام ، تستيقظ هي وتتجول في الغرفة ثم تطير عبر النافذة إلى الحديقة لتتابع حياتها الليلية ثم تعود إلى أماكنها قبل ان استيقظ ... كان كل من يعرفني يتشاءم منها . أما انا فلم اكن اتشاءم منها ولا اتفاءل بها .. كنت ببساطة : أحبها .

اما الآن ، وفيما انا احدق مذهولة في دمار غرفتي ، ولا أجد فيها سالماً غير جدار البوم والرف الخاص به تنتابني رعشة غامضة ... جدار البوم وحده قد بقي .. هل استطاع البوم حمايته ؟ . هل من المفروض ان نتفاءل بالبوم بدلاً من التشاؤم منه ؟ ولكن ، لا .. كما لم أقع فيما مضى في فخ التشاؤم بالبوم علي الآن أيضاً ألا اقع في فخ التفاؤل به .. وكلاهما موقف واحد في جوهره وخاطىء أيضاً ..

بالمقابل . اليس من الممكن القول : ان الصاروخ دمر الغرفة بسبب وجود البوم

فيها بدلاً من القول بان هذا الجدار قد نجا لان البوم يقطنه ؟ ..

* * *

كابوس ١٢٥

اتابع جولتي الصباحية التفقدية في اطلال بيتنا ... لا استطيع الانفعال كثيراً بأي شيء ، كأن الجوع يبلد حواسي العادية ويطلق طاقات حواسي السرية وكوابيسي المذهلة ... في غرفة الاستقبال دمـــار لا بأس بـــه .. مقاعد ممزقة (بالرصـــاص ام بالسكاكين ؟) لا أدري كيف .. ذلك كله لا يهمني حقاً . كل ما يهم هو مكتبتي التي استطاعت وحدها إقناعي بالكف عن التشرد لان المكتبة لا تستطيع ان تحيا على أجنحة الطائرات وصالات الترانزيت كما ان العشب لا ينمو على الحجر المتدحرج باستمرار ..

لا أخاف على بيتي من السرقة .. لا شيء ثميناً فيه غير كتبي ، ومحبرة من الرخام أهداها يوسف إلي ذات يوم والسارقون عادة يحتقرون الكتب لأنها من فصيلة ما ثقل حمله ورخص ثمنه ! .. (اسرقوا الكتب ايها الحمقى فقد يأتي الزمان غير الرديء ويصير الكتاب أغلى من الذهب ... واذا لم تصدقوني لا تضرموا النار فيها على الأقل) اذا دخل بيتي سارق ما سيغضب لافتقاره إلى القضيات الثمينة والسجاد النادر والفراء (انا فتاة الاوتوستوب . اقطن خيمة من ورق . لا أملك من الثياب أكثر مما تملك راعية !) ولكن ارجو ألا يدفعه غضبه هذا إلى حد إضرام النار في المكان .. وفي مكتبتي الهائلة التي تغطي ستة جدران بأكملها ... تتلاحق الانفجارات .. انتهت استراحة المحاربين الصباحية وحمي وطيس المعركة ...

أنسحب إلى الدهليز الذي اخترته ملجأ لي من (الغارات) .. هنا ، سأموت على الأقل مطمورة بكتبي ! ...

* * *

كابوس ١٢٦

الظلام دامس . لا كهرباء . الدهليز يزداد ضيقاً . شيء ما يقرض طرف يدي . أقفز مرتاعة . تراه جرذ . تراها أوهامي ؟ .. تراه ظنّني ميتة ؟ اسقط في بئر معتمة ...

ارى ستة وعشرين شخصاً في شارع الغزال ببيروت . هربوا من القصف إلى ملجأ مع أطفالهم . لا نور في الملجأ . جلسوا أرضاً يرتعدون . بعد فترة قصيرة هاجمتهم

الجرذان وركزت قضماتها على لحم الأطفال الطري .. جرحوا ... لم يستطيعوا الخروج بسبب القصف ...

اقفز من الدهليز المعتم هاربة ...

جرح يدي ينزف قليلاً ...

اذن لم اكن واهمة . لقد باشرت الجرذان بالتهام جثتي حتى قبل ان أموت . انها الحرب الأهلية . القوي يأكل الضعيف حين تسنح له الفرصة . انها الثورة ، ومأساتها التعقيد... مأساتها سقوط عدد كبير من الضحايا الذين وجدت هي أصلاً لانقاذهم! مأساتها استغلال الكثيرين الحقير لاغراضها النبيلة ! ... مأساتها اندساس القتلة بين صفوف المقاتلين الشرفاء . مأساتها مع الذين يمارسون الارهاب تحت غطاء الثورة ويمارسون القتل والسرقة والايذاء تحت يافطتها .

* * *

كابوس ١٢٧

رصاص . رصاص

التفكير مستحيل . الدماغ لم يخلق ليستعمل بينما مسامير الرصاص تدرزه .

أنا حيوان مذعـــور ...

أعـــوي ...

لا أفكر ...

أعـــوي ...

لا أفكـــر ...

أعـــوي ...

أعـــوي ...

* * *

كابوس ١٢٨

أعـــوي ...

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

... وأعـــوي ...

* * *

كابوس ١٢٩

يأتيني يوسف والثقوب تزداد اتساعاً في جسده ، ودمه ما يزال ينزف منذ أشهر ولما يجف بعد . دوماً يأتيني مع اقتراب الموت وتصاعد الانفجارات .. أشعر بأنني هشة وصغيرة كدمعة . وكما في كل مرة ، اتحسسه واضمه إلى صدري ، وتخترق اصابعي جسده الاثيري .. ثم يتلاشى من جديد ..

هذه المرة أشعر بالغضب . اتحسس جسدي . انه ليس اثيرياً .. الجرح في يدي الذي يصرخ بالألم ، يصرخ في الوقت ذاته بالحياة . انا اتألم ، اذن انا أحيا . ولكن الالم لن يكون علامة الحياة الوحيدة المتبقية في جسدي .. يوسف مات . يجب ان أعي ذلك حقاً . لقد مضى ولن يعود أبداً . انني اعايش جثة ذكراه ، تماماً كما يصر أمين على معايشة جثة أبيه ...

أركض بحثاً عن المسجل الصغير الذي سبق ان أهداني إياه مع موسيقاه التي عشنا على أنغامها أحلى أيامنا .. البطارية ما زالت تعمل .. أدير موسيقاه .. ارفع صوت المسجل حتى أقصاه ، وانصت إلى موسيقى ذكرياتنا ممزوجة بأصوات رصاص الواقع كما هو ، فوق شريط الماضي ، بحيث يمحو التسجيل الجديد ما تحته من قديم ... شيئاً فشيئاً يخفت صوت موسيقاه ويخف تسارعها بينما البطاريات تفرغ .. ويعلو عليها صوت الرصاص والقنابل ، صوت (الآن) .. يخفت صوت موسيقانا باستمرار ويبطىء تسارعه ويصير كئيباً ويتبدل إيقاعه الحي إلى صوت أجوف أخن .. يتلاشى .. يتلاشى .. يصمت تماماً .. وأشعر براحة أفعى خلعت جلدها القديم ! .

* * *

كابوس ١٣٠

تماماً كما في الكوابيس ...

الريح المبتلة بمطر مسموم تصفر . تدخل إلينا عبر النوافذ المفتوحة الزجاج الموصدة الأخشاب ، بحيث يبقى الضوء في الخارج ويدخل البرد الشتائي الشرس . تماماً كما في الكوابيس .

الرؤية منعدمة تماماً ... ولا أدري كيف يبصر الرصاص دربه إلى الهدف .. وكيف ترى القنابل طريقها إلى رؤوس ضحاياها ... والجحيم القارس البرد مروع ، وكوابيسه أحلام جهنم الدافئة ! ..

تماماً كما في أفلام الرعب المبالغ بها ..

الخادم وأمين وأنا نحدق بالجثة التي تصلبت تماماً وبدأت ملامحها تتورم وتتبدل قليلاً .. الفك انفرج قليلاً وارتسم على الشفتين المزرقتين المنفرجتين عن اسنان اصطناعية ما يشبه الابتسامة الساخرة جداً . انه الموناليزا ! موناليزا الحرب الأهلية ! موناليزا بيروت ٧٥ ؟ ...

انفجرت أضحك . انفجر الخادم يضحك . أمين أيضاً . صمتنا فجأة ولم يبق من الضحك غير شهقات تحولت إلى بكاء في حلق امين .

والليل يهبط سريعاً . لعل الساعة لم تتجاوز الرابعة بعد الظهر ، ولكن في مثل هذا المساء الشتائي المروع . تحتجب الشمس سريعاً لأنها ببساطة لم تظهر اطلاقاً ... أجل ! الساعة تقارب الرابعة والريح الباردة المسمومة المطر تحمل معها الذرات الرمادية لمساء قاتم جداً ...

اليوم الأحد او السبت . لا أدري بالضبط . ادرت زر الراديو على أمل ان أسمع التاريخ . فسمعت صوتاً يغني :

راح للنسيم واشتكى وجرح خدوده وبكى

فأسكته فوراً . أجل . اليوم السبت أو الأحد . من المفروض ان يفكر الناس في مثل هذا الوقت بمشاكل بسيطة وأليفة . منها مثلاً اين يقضون عطلة نهاية الأسبوع . وهل يعدون سندويشات جبنة مع الفجل ام مع البندورة ؟ . اما انا ، فأفكر مساء السبت او الأحد بمشكلة من نوع آخر ، وهي : ماذا أفعل بجثة الميت المكومة أمامي ؟ .. وماذا أفعل بعطشي والماء مقطوع وبجوعي والأكل ينفد .

في البلاد التي يجوع أهلها . تصير عطلة نهاية الأسبوع مجزرة ، عليهم قضاؤها في

دفن الموتى ... كيف لم يلحظ راكبو اليخوت في فندق سان جورج والمتزلجون على الجليد في فنادق الأرز وفاريا هذه الحقيقة البسيطة ، وخيام الجياع منتشرة على طول طرقاتهم إلى أماكن لهوهم ومنتجعاتهم ؟ .. كيف كانوا يرون ولا يبصرون ؟ ...

كان امين اول من تكلم . قال : « سنحمله إلى فراشه » .

قلت : « سنحتاج إلى غرفة نومه . انها أكثر الغرف أمناً في البيت ولها من جدار الحديقة الملاصق ما يشبه الجدار المزدوج » .

قال مصراً : « بل سنحمله ونسجيه في فراشه » .

قلت : ستفوح رائحته وتمتد إلى غرفتي وغرفتك الملاصقتين لغرفته .

ألحّ : « سنحمله إلى فراشه حسب الأصول » .

حملناه إلى فراشه . مددناه . كان اثقل مما يوحي به جسده المتقلص النحيل . سحبت الوسادة لاضع عليها رأسه .. وجدت أربعة أرغفة من الخبز أخفاها هناك . وجدت أيضاً تحت الوسادة الأخرى تفاحتين وكيساً من الحمص المشوي (قضامة) . كنت أكثر جوعاً من ان يدهشني ذلك أو يغضبني وبدأت ألتهم رغيفاً من الخبز حتى قبل ان أفكر بغسل يدي ... بعد القضمات الأولى ، شعرت بمزيد من الجوع بدلاً من ان أشعر بالشبع ! .. كأن الأكل منحني طاقة لأتحسس مدى جوعي ! ... رمقني امين بغضب . كيف آكل في حضرة جثة والده ؟ . تابعت أكلي كأي ذئب يلتهم أرنباً بكل براءة ودون ان يعي ان اسم ما يقترفه هو لدى بعض الفصائل الحيوانية غير الجائعة القاطنة على وجه الأرض : وحشية .

تناول أمين بدوره رغيفاً .. وقضمه ..

* * *

كابوس ١٣١

تمددت لأنام . لم أكن أشعر بالنعاس ، لكن علينا ان ننام مع غروب الشمس توفيراً لشموعنا القليلة وهرباً من الظلمة الموحشة المخيفة منذ انقطاع الكهرباء . حاصرتني أصوات مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة .

فكرت قليلاً بأخي . ترى ماذا يفعل في السجن ؟ لست خائفة عليه من صحبة المجرمين ، فسجوننا لا تضم سوى المجرمين الصغار . أما المجرمون الكبار ، فيرتعون

في أقفاص الحرية الوهمية وعلى كراسي الحكم .

عادت أصوات مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة تحاصرني .. تأتيني مع زعيق الريح القارسة التي خيل إلي أنني أشم فيها رائحة جثة العم فؤاد وهي تتعفن .. ولكن لا ... في مثل هذا الطقس البارد ، لا يمكن لجثته ان تكون قد باشرت تخمراتها ، وللايين المخلوقات اللامرئية الجراثيمية لمباشرة حياتها وتكاثرها فوق موته ... ومع البرد يعاودني الحس بالجوع المرير ، وبالألم في يدي حيث عضة الفأر ، وآثار أظافر كلب الصيد الجائع ، الرشيق كحصان عربي أصيل ...

حتى جرح أذني شبه المندمل يخزني كالأبر .. (لا أدري لماذا تشتد الأوجاع في الليل وتلتهب . كالعواطف .. كل شيء في هذا الليل الصقيعي يلتهب) ...

اجل !! جرح اذني يخزني كالأبر .. يذكرني بجراح آلاف المددين جرحى على أرصفة هذا الوطن الحزين ، أو المحظوظين منهم الذين ضمهم سرير في مستشفى ... آلاف الذين ينزفون في هذه اللحظة في الأزقة المعتمة والريح تخترق جروحهم كالسكاكين ...

تراني كنت أحلم ، أم انني ذهبت حقاً اتلصص على مخلوقات بائع الحيوانات الأليفة ؟ ولكن ما الفرق بين الحلم والواقع ؟ المهم الحقيقة والمعرفة ...

وانا اعرف جيداً انني شاهدتهم ...

شاهدت الكلاب الجائعة تتشاجر...تعوي.. تخافها بقية كائنات المخزن وتنزوي في أقفاصها ، ووحدها سمكة كبيرة تتابع التهام سمكة أصغر منها في قاع حوض الماء المطبق الصمت ... تتابع الكلاب الجائعة صراعها ... اذا طال صيامها فلا بد من ان يفترس بعضها بعضاً ... إنها سنة الحياة ... الكلب الذي يجرح أولاً هو الذي سيؤكل أولاً ، حياً أو بعد أن يموت ... ذلك يتوقف على مدى الجوع ...

القتال الشرس يدمر الواجهة السياحية للدكان تماماً . الارنب المتعب يفتح عينيه الحمراوين بذعر . القط السيامي يموء بجنون وينفخ في الهواء نفخات الحرب الافعوانية الفحيح ... الببغاء يجن في قفصه ، ولم يعد يتحدث بالفرنسية المغناج ، بل صار يزعق كما كان يفعل اجداده في الغابات والكلاب في كر وفر .. والغبار ، والرائحة الكريهة تنتشر ، رائحة الفضلات وعرق الخوف ولعاب الجوع والغضب ... تتعب الكلاب

الخمسة ، وبهدوء ينتحي كل منها ركناً قصياً في الدكان ...

احدها قد جرح. لا بد انه قد جرح، فهو ينزف . لكنه يتستّر على جرحه بلعق الدم سراً ... إلا انه يعرف ان سره لم يعد سراً ، وحاسة الشم المذهلة لدى الكلاب كشفت جرحه النازف ..

انهم يشمون رائحة الدم ... يعاودهم هياجهم .. تتجدد المعركة ، والكلب الجريح يتحامل على نفسه ويقاتل . يعرف انه اذا لم يقاتل ، فذلك معناه انه سيقتل ويؤكل فوراً .. اما ما دام حياً وقادراً على الصراع ، فسيظل يحتفظ بحقه في النباح والعض والتكاثر أطول مدة ممكنة ...

تنتهي الجولة الثانية بارهاق الجميع ، ويجرح كلب آخر ... ترتمي الكلاب لتنام ، وتنتهز الفرصة بقية الحيوانات التي أرهقها القتال ، وهي التي شاركت فيه هياجاً وقاقاً ورعباً ، وامتصت كهارب الموت المشعة منها واليها وعبرها ...

ينامون نومهم البائس ، كنوم اهل الحي جميعاً .

* * *

كابوس ١٣٢

البرد القارس وانا عارية في غرفة عارية من الاثاث. ادور في الغرفة وابكي واتساءل : أين اخي .. أين أخي ؟ . أين شادي ؟ اقترب من النافذة لافتحها وأنادي احداً لمساعدتي . النوافذ مجرد خطوط ملونة مرسومة على الجدار .

اركض نحو الخزانة لأرتدي شيئاً يقيني من البرد ، الخزانة خطوط ملونة مرسومة على الجدار .

أركض نحو الباب لأهرب . الباب خطوط ملونة مرسومة على الجدار .. كذلك مقبض الباب والقفل .

أصرخ وأصرخ . لا تخرج الكلمات من حلقي وانما يصدر عني صوت شبيه بمواء قط يذبح ..

الغرفة علبة من الاسمنت ، ولا منفذ ، وسكاكين البرد والخوف تخترقني .

آه أين أخي ؟ أتراه لا يزال في السجن ؟ .. كيف اغادر هذا القبر العجيب .

أركض من جدار الى آخر ، ومن مقبض نافذة الى أخرى ، فتتكسر أظافري على

الجدار الأصم . لا نوافذ . لا باب واصرخ : اين أخي .
فجأة ينفتح السقف نحو الاعلى كما لو كان غطاء لعلبة محكمة الاغلاق .
تطل من الاعلى وجوه لخمسة رجال ملتحين ، وألحظ بهلع أن لهم الوجه ذاته وأنهم يرتدون الثياب ذاتها كما لو كانوا رجلاً واحداً يقف محاطاً بخمس مرايا .
يقذفني أحدهم بكيس من الخيش . أسقط تحته . يتمزق منشقاً عن جثة باردة .. أنهض من تحتها وأقلب وجهها وأرى جثة أخي ..
وأصرخ طويلاً طويلاً مثل ابن آوى اسطوري في ليلة قمرها أصفر ... ويقفز الرجال الى الغرفة محيطين بي ... وأبكي .. وأتحسس الثقب الدامي في صدغه وابكي ... واصرخ : من قتله ؟
يجيب الرجل وهو يشير الي بيده المقطوعة التي استعاض عنها بخطاف حديدي : أنت التي قتلته ...
أكرر : من قتله ؟
يكرر : أنت . ألست أخته الاكبر سناً منه ؟ اليست والدتكما ميتة ؟ اذن انت التي قتلته .
ــ من قتله ؟
ــ لقد اصيب برصاصة طائشة بينما كان خارجاً من السجن .
ــ من قتله ؟
ــ كنا نطلق الرصاص حداداً على موت أحد اصدقائنا حينما أصيب برصاصة قتلته وأنت المسؤولة عن ازعاجنا بمصرعه .. وعن الرصاصة المهدورة ..
وفجأة هجم الرجال وقيدوني بحبل تفوح منه رائحة دم جاف واخرجوا سوطاً وبدأوا بجلدي ...
ــ قررنا محاكمتك بتهمة تحريض شقيقك على ارتكاب جريمة « المشي أعزل » على رصيف الشارع كما لو ان الارصفة خلقت لتجول المشاة العزل بدلاً من بقائهم في الملاجىء وداخل البيوت . وافراغ الشوارع لنا نحن المسلحين وتقرر اعدامك بتهمة التسبب بموت شقيقك وبازعاجنا وهدر وقتنا الثمين .
لولا لسعات السوط الموجعة . لبدا الامر شبيهاً بنكتة عملية ... لكنهم احاطوا

عنقي بالسوط ، وعلقوني الى خطاف دقوه بالجدار وتركوني اموت شنقاً .. وحين غادروا المكان ، كان الدم ينزف من جسدي ويبلل الحبل الذي قيدوني به ... وكنت اختنق ..

وحاولت ان أصرخ بأخي : أيها الاحمق .. لماذا هربت من السجن حيث (المجرمون الصغار وخرجت الى الشارع حيث يندس المجرمون الكبار بين صفوف الثوار الحقيقيين ؟.

ولكن صوتي كان مجرد مواء .. وللغرفة علبة من الاسمنت الملون ، وعبر غطائها المكشوف شاهدت السماء ، وكانت حجراً غرانيتياً شاسعاً .

* * *

كابوس ١٣٣

لا يمكن لأحد ان ينام حين ينفجر هذا النوع من القذائف ، حتى ولو كان قد قطع المانش سباحة جيئة وذهاباً في اليوم السابق ! ...

تقلصت في فراشي ، كأن جسدي يحاول ان يختبيء داخل جلدي ...

لم انهض .

صوت امين المذعور يناديني امام الباب . تظاهرت بالنوم . ألح . امعنت في تجاهله . صار ينتحب بصوت خافت . أشفقت عليه وعلى نفسي . سألته ماذا يريد . قال : ارجو أن تساعديني في تبديل موضع الوالد .. سأنام في مكانه وينام هو مكاني ، فغرفته اكثر الغرف أماناً .. وهذه الصواريخ .

صرخت به : ألم اقل لك ذلك منذ البداية؟ ولكنك أصررت على التصرف « حسب الاصول » ! ..

لم يجب . نهضت . كان قد ايقظ الخادم . الجثة ازدادت ثقلاً . ملامحها في ضوء الشمعة الخافت تبدو بصحة جيدة ، ومرحة الابتسامة . كأن العم فؤاد يتسلى بحملنا له من فراش الى آخر ويستمتع كثيراً بهذه اللعبة ...

ظلنا على الجدار أخافني ، فقد ارتسم ضخماً وقاتم السواد لثلاثة أشباح يحملون رابعاً ... بدا لي بطريقة ما ظلاً غير انساني ، كأنه انعكاس لفصيلة غير بشرية : لقرود او كلاب او غيلان الحكايا الخارجة في الليل لنقل الجثث .

انتهت المهمة . عاد كل منا الى نومه البائس ، دونما حوار .

كابوس ١٣٤

هذه المرة ، ايقظني امين دونما انفجار .

آه . أما لهذا الليل من آخر ؟ ...

الريح ما تزال تنفخ اعصاراً من البرد وزخات الرصاص ...

ماذا هنالك يا أمين ؟...

قال : يجب نقل الوالد .

ــ تقصد جثته ؟

تجاهل اشارتي . كرر : يجب نقل الوالد .

ــ لمـــاذا ؟

ــ رائحتـــه .

ــ لم تفح بعد .

ــ بصراحة . انا خائف جداً . كلما اغمضت عيني ناداني وطلب مني مرافقته .. غرفته مجاورة جداً لغرفتي . دعينا ننقله الى غرفة الصالون .

تجمعنا حول الجثة ، الخادم وامين وانا . في عيني الخادم نظرة مستسلمة ميتة . في عيني العم فؤاد نظرة حادة جداً . تقدمت لأحمله من ناحية الرأس واغلقت له عينيه .. قاوم الجفنان بصلابة غير متوقعة وظلت العينان تحدقان . الابتسامة ازدادت نضارة والوجه عافية (أم تورماً) ؟ ... الابتسامة نفسها على وجهه . لا ريب في ان العم فؤاد مستمتع كثيراً بلعبة نقله من فراش الى آخر ...

من جديد ألمح ظلنا على الجدار ، ضخماً وغير انساني ، ويخيل الي ان لهاثنا يتصاعد منه . شعرت بأننا كغيلان الاساطير ، وقد خرجنا من بين دفتي حكاية للرعب لنتابع حياتنا البائسة ، ونقضي ليالينا في الركض بالجثث تحت الرصاص والريح العاصفة . واخيراً مددناه على الاريكة الكبيرة في غرفة الاستقبال البعيدة نسبياً ، عن غرف النوم .

وحين رفعت نظراتي الى امين لاحظت انه غير راض تماماً . وعرفت انه سيوقظني ثانية . قلت له : ما رأيك في ان ننقله الى مكان آخر ...

قال : مثلاً ؟

قلت : نضعه في الثلاجة الكبيرة .. صحيح ان الكهرباء مقطوعة ، لكنها محكمة

الاغلاق .. وبذلك لن تسمع صوته مهما صرخ ولن تشم رائحته .
سأل الخادم : تعنين ان نقطعه الى اجزاء .
قلت : اعني ان ننتزع من الثلاجة رفوفها وادراجها ، وننزع عنه بعض ملابسه ونياشينه ونحشوه داخلها قطعة واحدة . لن يكون وضعاً مريحاً طبعاً لكنه سينام على اية حال ! ..
لم يضحك احد للنكتة . لم يوافق امين . انسحبنا بصمت لننام . لاحظت انه ما زال غير راض عن موضع الجثة . وعرفت انه سيوقظني ثانية ! ..
ايقظني .
هذه المرة كان ينتحب ، وكنت ارتجف غضباً ... كانت مطاردة النوم في مثل هذه الظروف واصطياده اصعب من اصطياد العنقاء .. وها هو يوقظني في كل لحظة اكاد اطبق فيها بيدي على فراشة النوم الهاربة .. فهمت . يريد ان ننقل (الوالد) .
صرخت به : صارحني . ماذا تريد ان تفعل بالجثة . انها جثة وعليك ان تواجه ذلك . ونحن ثلاثة احياء وعلينا ان نواجه ذلك . ماذا يقلقك بالضبط .
(سمعت صوتي ، آمراً . قاسياً . بارداً . كأنه ليس صوتي انا التي كنت اذوب رقة امام يوسف) .. بكى : بصراحة .. انا خائف ... لا اجرؤ على النوم في بيت واحد مع ميت .. مع .. جث .. جث .. جث .. جثة . قلت : عظيم . هذا اعتراف هام . اذن تريده خارج البيت ؟
هز رأسه موافقاً .
قلت : حفر قبر في الحديقة عمل مستحيل . سيظنوننا نزرع الغاماً . بنادق القناصين الحديثة ترى في الظلام جيداً ... هز رأسه موافقاً .
قلت : ولا نستطيع ان نرمي بالجثة الى الشارع لان الحديقة تحيط بنا من كل جانب ... هز رأسه موافقاً .
قلت : الاحتمال الوحيد الباقي هو ان نضعه امام باب الدار الرئيسية « حسب الاصول » ... وفي الصباح نبحث في المشكلة من جديد — اذا بقينا احياء — .
وايقظنا الخادم ، بدا عليه انه ما زال نائماً حتى وهو يشارك في حمل الجثة ، العم فؤاد ازدادت ابتسامته عرضاً ... ربما كانت امتع ليلة في حياته تنقل فيها بين فراش واخر ،

وثلاثة من الاحياء – الموتى ينوءون تحت ثقله ... ترى ، منذ متى لم يحمله أحد بين ذراعيه ويهدهده ؟ ربما منذ كان طفلاً .. منذ حوالي قرن كامل من الزمن ... يا للزمن .

لم اكن ادري انني اختزن هذه القوة العضلية كلها داخل جسدي النحيل ... وكل هذه الصلابة والقسوة ...

كنت اقود (حملة) نقل الجثمان ، وكان امين في حالة انهيار مذهلة . اما الخادم فبدا لي مرتبكاً ، وفهمت السبب حين لاحظت اختفاء بعض النياشين الذهبية عن صدر (الفقيد) ! .. لعله تسلل في الظلام الى الجثة ، دخل وارتعد حتى استطاع انتزاعها . لم ألمه . انه منطق الجوع والفقر .

أخيراً وصلنا الى الباب كقطيع من المجانين يتسلى باللعب بجثة . واسندناه الى الجدار ، وبدا مثل متسول متعب قابع تحت الباب ويده لا تطال الجرس فوقه وعدنا بصمت ، كل الى فراشه ... وكانت في عيني امين نظرة خفية من عدم الرضى .. وعرفت انه سيوقظني ثانية . لذا ، تمددت في فراشي ، ولم أنم .

... هذه المرة ، حين جاء يوقظني ، لم اكن نائمة ... كنت ما ازال انصت الى لهاث كائنات دكان الحيوانات الاليفة ، وأنين جوعها وجراحها . . وانساءل : ترى أين هرب صاحبها الذي كان يرتزق من الاتجار بها ؟ .. وكيف هرب وتركها للموت جوعاً في اقفاصها ؟ .. وطوال هذه الاعوام الستة التي كان يرتزق من الاتجار بها ، ألم يربطه بها خيط حنان واحد او مشاركة او حس بالمسؤولية ؟ أتراه في باريس أم لندن الآن ؟.. لم يكن بوسعي ان احمل لها الطعام ، لانه لم يكن قد تبقى لنا الا القليل .. وحتى لو كان لدي من الطعام ما يكفي لما تجرأت على دخول الدكان الثانية ، وانا اعرف ان كلاب الصيد الجائعة طليقة الانياب والمخالب والجوع ... ولن تميز في هذه اللحظة بين عدو او صديق ...

أجل .

هذه المرة جاء يوقظني ، لم اكن نائمة ... وكنت اتوقعه .. قال : لا استطيع النوم ... انه لا يكف ثانية عن قرع الجرس ..

– لا يمكن له قرع الجرس . هل نسيت ان الكهرباء مقطوعة ؟ ثم انه جثة ... اي انه كف عن قرع اي جرس .

ـ ولكنني اسمعه يقرع الجرس ، ثم يضرب الباب بكلتا يديه ، ويصرخ طالباً الدخول ، ويقول انه خائف وان البرد موجع ...

ـ حسناً . ماذا تريد ان نفعل به ؟ اليس من الافضل ان نعيده الى الداخل ونساهره ونتسامر معه ؟ ..

لا فائدة . انه في حالة هستيرية لا يجدي معها المزاح او السخرية .

وبدأت افكر بهذه المعضلة . هنالك جثة علينا التخلص منها ، شرط ان لا تكون داخل البيت لان ذلك يخيف امين ، وان لا تكون خارج البيت لأنها ستقرع الباب وذلك يخيف امين ايضاً . المطلوب مكان لا هو بالداخل ولا بالخارج . السطح !

قلت له : سنحمله الى السطح ! ...

وتخيلنا درجات السلم الخمس والتسعين التي تقود الى السطح ، والجثة الثقيلة التي تزداد ثقلاً كلما تقدم الليل ، ونحن نجرجرها ونحملها ونتعثر تحتها او فوقها .. والبرد ، والريح التي تصفر ، وصفعات المطر ، وارهاقنا وجوعنا ... وبدا الامر مستحيلاً ...

وكان امين ـ لحسن الحظ ـ قد لاحظ ذلك ايضاً ، وقال انه يرى الامر مستحيلاً ...

قلت له : ماذا نفعل لنوفق بين عواطفك نحو الموت وعواطفك نحو (الاصول والتقاليد) ...

قال فجأة : سنضعه امام باب الحديقة حيث لا جرس يقرعه .

ـ سيضرب الباب بكلتا يديه ... اعني ، ستسمعه يضرب الباب ...

قال وقد حزم امره : سنضعه داخل برميل القمامة بالحديقة عند باب البيت الخلفي ونحكم اغلاق الغطاء .

هذه المرة ، اعلن الخادم العصيان العام حين ايقظناه . قال انه متعب ، واذا كان لا بد من بذل اي مجهود فسوف يبذله لاطعام القردة في الحديقة وطلب منا ان نترك المسكين في سلام وان نتركه هو ايضاً في سلام . ولم ينتظر رأينا ، أغمض عينيه في عناد نهائي متصلب ! ...

هذه المرة ، تركت امين يحمل القسم الاعلى من الجثة ، وتظاهرت بحمل الجزء الاسفل لكنني كنت (اغش) فقد كنت مرهقة حقاً ، وتركته يجرجرها على الارض حتى وصلنا الى باب المطبخ الخلفي .. ولم نكد نفتحه حتى هاجمتنا الريح كأنها تأنيب غامض لقوى

ما وراء الطبيعة ... (ولكنه جثة ، ونحن احياء ، وفي ظروف لا تحتمل المهادنة . ثوبه الرسمي العتيق وأوسمة (الماضي) ونياشينه لن تمنع جثته من التعفن . لا مفر من دفن الجزء الذي يتعفن من الماضي ، وجسده ماض متعفن) هكذا كنت اقنع نفسي بينما كنا نضع الجثة في البرميل . كانت مهمة اصعب بكثير مما توقعت . لم تعد الجثة جسداً بل تمثال من الرخام . ثني الاعضاء لادخالها في البرميل كان يتطلب جهداً جباراً حقاً ، وقد فكرت اكثر من مرة بالاستعانة بمطرقة ... الرصاص كان ينهمر ، وكلما طالت (المهمة) ازددنا تعرضاً للخطر . ثم انه لأمر بغيض حقاً ان تكون مثقلاً بالجوع والخوف والبرد والنعاس وبجثة ! ... وحين انتهينا من ايداعه تابوته الاسطواني المعدني ، ادهشني ان امين احكم إغلاق غطاء البرميل كأنه يخشى من هرب والده ! ...

لم اغسل يدي قبل النوم ... احتفظت بالماء للشرب .

كان علي ان اغسل ذاكرتي من هذه الليلة الرهيبة .. لم تكن الجثة هي التي اخافتني ، وانما انا .. صورتي في مرآة الاحداث هي التي ارعبتني وأذهلتني ...

لم اكن ادري أبداً انني امتلك هذه الطاقة على الصلابة والمواجهة ... ربما كأي مخلوق اخر حينما يواجه اعصاراً مريراً ...

كانت الانفجارات حادة وعنيفة ... والصواريخ .. ورغم ذلك ، وجدتني انزلق الى بئر النوم ... للمرة الاولى أقدر على النوم في حضرة الصواريخ .

ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً ... يشوبه مغص غامض نصف مؤلم في احشائي ... ام في روحي ؟ ...

* * *

كابوس ١٣٥

يلعبون كرة السلة ... والكرة قنبلة يدوية .

الملعب مغطى بالوحل . أحد الفريقين تبدو على ثيابه الممزقة رقة الحال ، يركض افراده باقدامهم المحرومة من الاحذية .

الفريق الآخر يرتدي ثياب التزلج المترفة الدافئة التي تعيق حركتهم في الوقت ذاته انفجرت القنبلة ... قتلَ الجمهورُ الحكم ،وقرروا ان شروط اللعبة خاطئة ومن الضروري تبديلها ... ولكن الذين ماتوا ، كانوا قد ماتوا ! ..

نقلت بعض جثث اللاعبين الى قبور رخامية . بعضها الآخر الى قبور طينية . بعضها دفن وفقا للطقوس الدينية المسلمةاو المسيحية،وبعضها رموه على قارعة الطريق لانه فقير ووحيد ... ووقع شجار كبير حول طقوس الدفن وشعائره ، وحول حدود المقابر واقطاعياتها ذهب ضحيته مزيد من القتلى .

انه الليل ...

السماء تمطر ... انها تمطر على قبور الجميع ... وعلى الذين بلا قبور ... ودونما تمييز ..

* * *

كابوس ١٣٦

في الصباح ذهب نديم ملبياً نداء المذياع وتبرع بدمه . كان فخوراً لان دمه من فئة (o+) التي يمكن منحها لجميع البشر أياً كانت فئة دمهم ... وبعدها بدقائق كان دمه يسري في عروق جريح بحاجة الى الدم ، واسمه سليم .

عاد نديم الى بيته مرهقاً .

فوجيء بجثة شقيقه الذي كان قد اختطف ! ...

دبت الحياة في سليم بعد نقل دم نديم اليه . قرر اخلاء سريره لجريح اخر من الجرحى المكومين في الممرات . غادر المستشفى في طريقه الى بيته .

غادر نديم بيته بحثاً عن اي شخص من (الدين) الآخر يقتله .. (فتح حاجزاً) لحسابه الشخصي لا لحساب القضية .

صادف مرور السيارة التي تنقل سليم . نديم اطلق الرصاص على سليم بعد ان عرف انه من دين الفريق (الاخر) ...

سليم ينزف ... ينزف ...

نديم لا يدري ان سليم ينزف دمه هو ... ولا يدري ان رب عمله الذي لم يدفع راتبه منذ اشهر شريك لرب عمل سليم الذي لم يدفع له راتبه ايضاً منذ اشهر ...

وان الشريكين هذه اللحظة يشربان الويسكي في احدى شرفات مونتي كارلو ويقامران بنقود كثيرة ، هي الرواتب غير المدفوعة للمئات من زملاء سليم ونديم في الشركتين .

كابوس ١٣٧

لم يبع مارون شيئاً منذ الصباح ... كانت الريح متوحشة ، والمطر يطرد الناس عن الرصيف ... ولم يبع شيئاً فقرر العودة باكراً . ولا يدري لماذا خامره احساس بأنه لا يعرف بالضبط دربه ، ولا بيته . لكنه مشى على أية حال . استوقفه حسنين عند الحاجز الاول . قتله لان اسمه مارون ، وبعد أن مات مارون ، نهض وتابع سيره الى البيت .

استوقفه جوزيف عند الحاجز الثاني . ولما عرف ان اسمه مارون وانه ليس (معهم) قتله مرتين .

ونهض مارون بعد ان مات ثلاث مرات ، وتابع سيره الى غير البيت وكان يحس بنشاط عظيم ، وبأنه صار يعرف دربه الى البيت الحقيقي جيداً ! ..

* * *

كابوس ١٣٨

استيقظت ! ...

هذه المرة لم يكن ينتحب . لم يكن ينادي باسمي ، وانما كان يهزني من ذراعي بعنف ...

استيقظت وانا واثقة من انه جرب كل وسيلة اخرى قبل ان يدفع به اليأس الى هزّي بهذا العنف . لا ريب في انني كنت غارقة في نومي الكابوسي حتى قاعه ، جثة مثقلة باحجار الارهاق والاعياء ... ربما ظنني جثة فعلاً .. ربما ظنني قد مت ، فتضاعف خوفه.

ما الحكاية يا أمين ؟ هل خرج والدك من البرميل ؟ .. لم يكن الفجر قد طلع بعد ، ولا ادري ما اذا كنت قد نمت ثانيتين ام ساعتين ... امين يحمل شمعة بيده ، وفي ضوء نورها الشاحب أرى بوضوح عرقاً غزيراً ينزف من مسام وجهه ... تراه سيصاب هو أيضاً بجلطة ؟ يا إلهي .. لا اريد جثة ثانية في البيت ! . ليس الليلة على الاقل ...

قال امين : ارجوك .. انني خائف .. اسمحي لي بالنوم في الغرفة معك .

سألته : ولماذا لا تنام مع الخادم ؟ لان ذلك ليس « حسب الاصول » اليس كذلك ؟

حسناً : تستطيع النوم اينما شئت ولكن لا توقظني الليلة ثانية اتوسل اليك ان تدعني انام كي اكون قادرة على مواجهة كوارث الغد ...

لم يكن بحاجة الى اكثر من ذلك . تكوم على الاريكة ولف نفسه بعباءة واطفأ الشمعة .

لم انم سريعاً ...

شعرت بحاجة للضحك ... لا ادري لماذا تذكرت الافلام الرديئة ، والافلام العربية (العاطفية) التي تلقى اقبالاً جماهيرياً .. في موقف كهذا يفترض ان يقع البطلان في الحب .. وان يتبادلا الغرام تحت شعار الخوف وان يكون اسم الفيلم مثلاً : امرأة وثلاثة رجال ! .

وان يقتتل الرجال لأجلها ، بينما تقضي هي وقتها في الغناء امام النافذة الموصدة ، او الصلاة كي ينتصر حبيبها على كيد اعدائه ..

وها نحن الآن ...

امرأة ورجلان وجثة ... وانا العب الادوار كلها ما عدا دور الانثى ... انا اقود حملة توزيع الجثث ، ودور تعزية المنكوبين وتطمين الخائفين ...

في الافلام (الجماهيرية) لا يتسلل رجل إلى غرفة انثى إلا ليغتصبها أو ليطارحها الغرام في مشهد تسيل فيه بعض الدموع وتتمزق بعض الملابس .. وها نحن في فيلم الحياة ، والرجل يتسلل إلى غرفة المرأة لانه خائف .. وهو حتماً عاجز عن امتلاك اية امرأة إلى ما بعد ستة أشهر من الراحة على الأقل ! والدموع قد سالت لكنها دموعه هو ...

ما أشد ما يظلم الفن الرخيص المرأة .. والمأساة ان المرأة هي المشجع الاول لهذه المهازل ، بإقبالها على هذه الأفلام وذرفها للدمع طوال فترة العرض ... متى تكتشف المرأة ذاتها ؟ ... متى يكفون عن تعهير الحياة وتزييفها ؟ .

همس امين : هل تسمعين ؟ انه يقرع غطاء البرميل .

زجرته : انه صوت الريح .

ــ انها الجثة .

ــ انها الريح .

* * *

كابوس ١٣٩

جاع (المسالمون) و (المحايدون) . وضاقت صدورهم بالبرامج التلفزيونية المتكررة والسهر بين تثاؤب الزوجات وزعيق الاولاد وسيمفونية الرصاص في بيروت .

قرروا الخروج في مظاهرة بشارع الحمراء . ساروا طويلاً يحملون شتى الشعارات بشتى اللغات . وكل منهم يشرح نظرياته السياسية عن الوضع (المتفجّر) .

أمطرت السماء ، فتحوا مظلاتهم الثمينة وتابعوا مظاهرتهم تحت المطر .. صرخوا ، سكتوا ، تعبوا ..

* * *

لم يطلق النار عليهم أحد .

وصلوا إلى (السوبرماركت) حيث أجود المآكل المستوردة . دخلوا اليها ليتزودو ببعض الأكل .

كانوا يتدافعون ويشتم بعضهم بعضاً بالانكليزية والفرنسية ، وكل منهم يصر على الدخول قبل الآخر ... وقد شهروا دفاتر شيكاتهم ...

وأخيراً صاروا جميعاً في الداخل .

وجدوا الرفوف فارغة ومطفأة الأنوار . لا ويسكي لا حليب . لا جبن . لا خبز لا شوكولاته . لا بسكويت . لا « اسكالوب » . لا « باتون ساليه » ، لا (بتي فور » لا شيء .

فعادوا يشتمون بالعربية .

* * *

وحده جناح معلبات الحيوانات الاليفة كان ممتلىء الرفوف ... ومضاء بأنوار وهاجة ...

وكانت فيه مئات من علب (الكونسروة) الخاصة بإطعام الحيوانات الاليفة المرفهة .. معلبات فيها لحوم خاصة للقطط (شخت) . معلبات خاصة بالكلاب . كهريسة أمعاء الخروف مع بعض أوساخها بحيث تتلاءم وذوق الكلاب . ومعلبات حرّف مذاق لحومها ، بحيث تتناسب مرورته او حموضته أو لذعة عفونته مع أذواق القطط والكلاب المرفهة والمدللة ..

كانت هناك أيضاً حبوب خاصة بالعصافير والدجاج والفئران البيض التي يهوى بعض الأثرياء الانفاق عليها .

ولم يكن في « السوبرماركت » اي شيء آخر غير الاطعمة الخاصة بالحيوانات الاليفة . وبدأ أفراد مظاهرة (المحايدين) يتأملون صور الحيوانات الضاحكة على العلب ، راضية بوجبتها الدسمة الخاصة بها .. لا مبالية بأي شيء آخر ...

جمدوا أمام علب الأكل وابتسامات الحيوانات . ارتسمت الدبرة في الوجوه ومرت لحظة صمت تام ...

* * *

وفجأة ، انقض أفراد مظاهرة (المحايدين) و (المسالمين) على رفوف معلبات الحيوانات ، وتشاجروا من أجل شرائها ، وكل منهم يحاول الحصول على أكبر كمية ممكنة ...

خلال دقائق ، فرغت رفوف جناح الحيوانات كلها ...

* * *

لم ينتظروا حتى يدفع كل منهم ثمن ما حمله ، لم ينتظروا حتى يصل كل إلى بيته .
على الأرض جلسوا . على بلاط (السوبرماركت) . لم يجلسوا بالضبط وانما أقعوا على اربع كما تفعل الحيوانات الأليفة والدواب حين تأكل ، وبعد ان فتحوا العلب ، بدأ كل منهم يأكل من علبته ويلعقها بلسانه بينما استند إلى الأرض على يديه وركبتيه كما يفعل أي قط يستمتع بوجبته ...

وحين انتهوا ، لم يدفع أحد ثمن ما أكل وانما اكتفوا بهز اذنابهم بحرارة للبائعات الجالسات أمام الآلات الحاسبة ، كما لعقوا أصابع صاحب « السوبر ماركت شكراً ...

* * *

وغادروا « السوبر ماركت » وهم يموءون ويعوون ويزقزقون ...
ولم يعد اي منهم يشرح نظرياته السياسية حول الوضع ...
ولم يعد اي منهم يذكر اي مشكلة من المشاكل التي كانت تقلقه ...
كانوا في حالة تسامر وثرثرة ، وأصوات الزقزقة والعواء والمواء عالية جداً ...
كانوا راضين عن وجبتهم الدسمة ، لا مبالين بأي شيء آخر غير الوصول إلى كراسيهم الهزازة ، واللحاق بموعد أفلام (الميكي ماوس) والكارتونز بالتلفزيون .
وعندما يحين موعد نشرة الأخبار عن عدد القتلى والجرحى ، فسيكون كل منهم قد راح في سبات عميق ..

* * *

تجمعت القطط والكلاب الشاردة تتأمل مظاهرتهم بذهول ، وتنصت إلى موائهم

وعوائهم وزقزقتهم ، وتوقف رف من الطيور يرقبهم بدهشة كما خرجت الفئران من جحورها وتأملتهم طويلاً بعيونها الضيقة الحزينة ...

وحزمت قطة حقائبها بذيلها .. وقررت الهجرة إلى الافق .

* * *

كابوس ١٤٠

أخي شادي جالس في ركنه بالسجن . لم يبارحه منذ وصوله . لم يحدّث انساناً في السجن . لم يرد على مخلوق . الجميع يتوهمونه اخرس واطرش .

انه يشعر بقرف لا حدود له .. لا يستطيع ان يفهم كيف يسجن انسان دون ذنب . لا يستطيع ان يفهم لماذا يلقى به في مكان قذر كهذا ... لا يستطيع ان يفهم كيف يتقبل السجناء طعامهم البائس ، وكيف يتبادلون النكات ، والود ، والشجار ، والضرب الشرس الذي يمقته كما يمقت كل ما يمت إلى العنف بصلة ، ويمارس بعضهم الجنس ليلاً مع الآخر بينما يفوح مزيد من الرائحة النتنة ..

انه يحلم ببلد آخر ... بوطن آخر .. يكره هذا المكان .. ويشعر بأنه مثل نبتة قطعت فاس ما جذورها ، وها هو مستند كعادته إلى ركنه المعتاد من جدار السجن المكسو بالطحالب والقرف ، مسترخ كنبتة بلا جذور ، يحلم بالرحيل إلى استراليا او القطب الشمالي او المريخ أو كوكب بلا عنف ... ولولا هذا الحلم لقتله اليأس ..

جاء أحدهم وصفعه كالعادة . لم يبال بأن يرد الصفعة أو لا يردها أو يشكو أو لا يشكو . اكد السجين : انه مختل عقلياً . انه بحاجة إلى مصح لا إلى سجن . بالنسبة لهذه المدينة التي فقدت رشدها صار رفض العنف عاهة !

وحتى حينما قام السجناء بمحاولة للهرب لم يبال .. وحتى حينما نجحت المحاولة لم يبال .. لقد هدموا الجدار واضرموا النار في المكان فظل جالساً في موضعه بلا حراك حتى كاد يختنق بالدخان ، فغادر القاووش إلى قاووش آخر ... ثم دخل السجان فطرده قائلاً : لقد هرب السجناء كلهم . اهرب يا وجه النحس وإلا اعادوا تعمير السجن بسببك واعادوني حارساً لأحرسك .. اهرب يا وجه النحس ..

وقام شادي متثاقلاً وغادر السجن وهو يمشي ببطء من نسي المشي . في السجن كان لا يتحرك من موضعه إلا حين يذهب لقضاء حاجة في طرف الغرفة الآخر المدعو

(ياسمينة) ..

رصاص يطلق على السجناء الفارين . الجميع يركض . هو يسير ببطء متضايقاً . لا يشعر بالحاجة إلى وداع اخته . إلى وداع أحد . شعر بالقرف الموجع من ذلك المدعو (وطنه) وكان حلمه الوحيد مسلطاً على الأفق ورغبته الوحيدة هي في الهرب بعيداً بعيداً إلى وطن آخر مسالم وطيب وانساني خلق لمواطن مثله يكره العنف والفوضى والأصوات العالية . ويحب الروتين والأطفال ورائحة الطبخ التي تفوح من عنق زوجة بدينة وقانعة .

لم تدب الحياة في أوصاله إلا حين شاهد الباخرة . قرر أن يتسلل إلى سطحها ويختبىء.. سيرحل معها إلى اي مكان في العالم .. اي مكان إلا هذا الوطن البائس ... انه لا يريد ان يكافح .. لا يريد ان يقاتل .. لا يهمه الحق او الباطل .. يهمه ان يعيش في سلام ويموت في سلام ...

يهمه ان يسترخي في اي مكان بالعالم حتى ولو كان اسرائيل .. وقد سمع الكثير مؤخراً عن معاملتها (الطيبة) لسكان القرى اللبنانية المتاخمة لحدودها .

وصحيح ان أعتى القتلة في السجن استنكروا مثل هذه الاخبار عن (طيبة) اسرائيل ، ووجدوا في ترويجها فخاً للمواطن اللبناني ، ودرباً قصيرة للسلامة الآنية التي سيستتبعها بلا ريب عدوان كبير ومحاولة احتواء بالاكراه .. اما هو فلا تهمه إلا سلامته الشخصية كأي فأر في الحقل !

« سأهرب بعيداً » هكذا كان يردد لنفسه وهو مختبىء خلف البراميل على سطح الباخرة المزدحمة ..

ثم دوت أبواق .. وسرت الهمسات على سطح الباخرة ، والمخاوف ، والركض المذعور ، واقتربت منهم عدة مراكب حربية .. وفهم ان اسرائيل تختطف الباخرة ..

قالت اخته مرة : انك لا تستطيع ان تعيش في سلام وتموت في سلام ما دام في الدنيا ظلم .. اي انسان مظلوم في اي ركن من الكرة الأرضية هو انت ، ومن واجبك تجاه نفسك ان تحارب الظلم ، فالهرب الفردي مستحيل .. لكنه لم يصدقها .. تلك المتفلسفة الغارقة في ترجمة الكتب (الثورية) تضجره وتقلقه .. وهو يهرب بعيداً عن ذلك كله ..

« الهرب الفردي مستحيل ؟ » آه ما اسخفها اخته .. أجل لن يخاف من اسرائيل . لقد قالوا له بان الاسرائيليين يعاملون سكان القرى الجنوبية جيداً ويشترون محاصيلهم .. لقد

بلّغه ذلك أحد السجناء وهو سيصدقه وسيعيش بسلام حتى في اسرائيل . وسيثبت لاخته (المتفلسفة الثورية) ان الهرب الفردي ليس مستحيلاً ، و ..

... وخيل اليه أن رأسه اصطدم بشيء .. ان شخصاً ما اكتشف مخبأه وضربه بعقب مسدسه .

وحين استيقظ سمع المحقق الاسرائيلي يقول بعربية مكسرة : هذا واحد من الارهابيين خذوه واقتلوه فوراً دون محاكمة ودون معرفة أحد . اسمه على أية حال غير موجود في قائمة الركاب .. ولن يفتقده أحد ..

فقط لحظة اطلقوا الرصاص عليه وعى انه كان مذنباً وأن الأوان قد فات ... ووعى انه لا سلام لمن لا يشارك في صنع السلام .. وان (الود) الاسرائيلي هو ابتسامة على شفتي مصاص دماء ، يخفي خلفها اسنانه ..

و ... وفات الأوان ...

* * *

كابوس ١٤١

المذيع قد وصل إلى مكان عمله ، وهو بحالة يرثى لها ...

لقد اضطر – كالعادة – للمرور بحي الصنائع وهناك اطلق قناص عليه النار فاخطأ رأسه وأصاب رأس سيارته كاسراً زجاجها الأمامي ... هذا بالاضافة إلى القنبلة التي انفجرت بعد مروره بنصف دقيقة في شارع الشيخ بشارة الخوري ، والقصف العنيف طوال الليل حول بيته الذي يتوسط الدرب بين الشياح وعين الرمانة ! ...

وكان ذلك البؤس الصباحي يتكرر كل يوم منذ أشهر ، بصورة أو بأخرى .

تمالك المذيع نفسه .

استعد لقراءة نشرة الأخبار الصباحية .

يعرف جيداً ان مئات الآلاف من الناس الذين لم يغمض لهم جفن في بيروت لشدة القصف طوال الليل قد تجمعوا حول المذياع منصتين إلى ما سيقول ، عاملين بإرشاداته عن حالة الطرق ، والطرق الآمنة التي يستطيعون سلوكها ، والطرق غير الآمنة التي يقبع الموت فيها بانتظار اي عابر سبيل ...

وكما في كل صباح ...

فوجىء بالنشرة التي عليه ان يقرأها ...

انها تتحدث عن ليلة من الهدوء (!) المخيم على العاصمة ، وعن الشوارع كلها بصفتها , سالكة وآمنة) ، بل وتتضمن دعوة صريحة للتجار للنزول إلى المدينة ومباشرة أعمالهم ...

وبدأ يقرأ ...

كان يعرف ان الرفض معناه قطع رزقه ، ثم قطع عنقه ، ثم قطع طريق المستقبل على أولاده ، ثم قطع الماء والكهرباء عن أرملته ...

تابع القراءة ...

وأمام عينيه تتلاحق صور الخارجين من بيوتهم وفقاً لإرشاداته ، المقتولين في الشوارع دونما ذنب سوى تصديقه ...

تابع القراءة ...

لكنه أحس بذلك المرض الغامض في حنجرته يشتد عليه ...

ففي اليوم الأول تشاجر مع رئيسه المباشر ، بل ورفض قراءة النشرة . لكن الرئيس الكبير برر له ذلك بضرورة المحافظة على (الروح المعنوية) للشعب ... ولكن ماذا عن (الروح) ؟ ... ما جدوى هدر أرواح الناس بحجة المحافظة على أرواحهم المعنوية ؟ ...

في اليوم التالي تشاجر مع رئيسه أيضاً ، ولم يقرأ النشرة .

في اليوم الثالث ، كان قد جاع ، فقرأ النشرة . ومنذ ذلك اليوم أحس بأعراض مرض غريب في حنجرته ... خيل إليه ان صوته قد بدأ بالتبدل ، وانه صار كبير الشبه بصوت خروف ... ان خللاً ما قد أصاب أعصابه الصوتية أو عضلاته ، وبدأ صوته يتحول يوماً فيوماً من صوت انسان إلى صوت خروف ...

وصار هذا المرض يشتد عليه يوماً بعد الآخر ... ذهب إلى الطبيب الذي سبر حنجرته طويلاً وفحصها تحت مختلف الاضاءات والشعاعات البيضاء والحمراء والزرقاء ثم قال له ان حنجرته بخير وان أعصاب رأسه هي التي ليست بخير ، وانه ينصحه باجازة .

اجـــازة !

كما لو كان ثرياً . من اين للكادحين باجازة ؟ وهل يرضى الجهاز الهضمي لأطفاله بأخذ إجازة من الجوع ؟ ..

وطبعاً ذهب إلى عمله .. وقرأ النشرة كما هي ... في اليوم نفسه انتابته امراض أخرى .. لم يكن صوته وحده الذي صار كصوت الخروف ، بل انه لاحظ نمو الشعر في جسده ورأسه بصورة كثيفة لم يعهدها من قبل .. وحين تحسس رأسه اكتشف ان قرنين صغيرين ينبتان تحت شعره كقرون الخرفان .

كتم السر عن الجميع حتى عن زوجته ، لكنه كان يسألها باستمرار : هل تلحظ تبدلاً في صوته ؟ وكانت تكرر باستمرار : لم يتبدل شيء فيك ، كل ما في الأمر أن أعصابك متعبة .

يتابع القراءة ...

بقيت الأسطر الأخيرة التي يؤكد فيها ان الدروب كلها سالكة وآمنة ...

أحس بأنه سفاح ينصب الشباك في شوارع المدينة ليسقط فيها الضحايا الأبرياء ...

لا ... ليس ذلك بالضبط .. انه قد يكون أداة الجريمة ، لكنه بريء براءة المسدس . القاتل هو الذي يسجن لا المسدس ... أجل ! ... شعر بأنه ذلك الطائر النادر الشدو الذي يضعه الصيادون في الشباك المدبقة ليغني ويجتذب صوته اسراب الطيور البريئة إلى حتفها ..

لم يعد قادراً على متابعة القراءة ..

يذكر الجوع الذي ينتظره ، والعقاب والتشريد ... فيقرأ

ويفاجأ بصوته وهو يصرخ (ماع .. ماع ..) كأي خروف في القطيع .

وقبل ان يستيقظ مهندس الصوت من ذهوله ويقطع البث ، سمع آلاف المواطنين مذيعهم المفضل وهو يحدثهم عن حالة الطرق صارخاً : ماع .. ماع ... ماع ..

وفهمت بقية الخراف .

* * *

كابوس ١٤٢

همست في الظلام ، وأصداء الانفجارات تهز المكان : ان شيئاً غير عادي يدور حولنا ... شيء خطير ومروع كالزلزال ... ضمها اليه : انت على حق .

همست : منذ أشهر وانا اكرر لك ذلك .. وانت لا تصدقني ... وتبحث عن تفسيرات بسيطة وعادية للشيء المركب والخطير الذي يقع .

ـ لقد كنت على حق ...

– انني خائفة ومذعورة .
– وأنا أيضاً ...
– اشعر برغبة في الهرب ...
– وأنا أيضاً ...
– لن يكون بوسعنا الهرب ما دام باب المخزن مقفلاً هكذا .
– وصاحب الدكان لم يأت منذ زمن بعيد .. والعاملات أيضاً .. لا أدري ماذا يحدث بالضبط ...

كانت الريح تصفر في شارع الحمراء امامهما ، وقد اطفئت اضواؤه ، وثمة زخات مطر شرسة تجلد الليل وواجهة المخزن الزجاجية عبر القضبان المربعة الضيقة المسدلة فوقها من الخارج ... لا سيارة تمر ... لا مخلوق ... لا هرة ... لا طائرة ... لا مشتر ... لا متسول ... فقط مصفحات لرجال الأمن تشق صدر الصمت والظلام وتمضي مخلفة الشارع لاصداء الرصاص والمتفجرات ...

كانت هي ما تزال ترتدي مايوهاً (بيكيني) من الحرير المرقط كلون جلد النمر ... وكان هو يرتدي مايوهاً من القماش ذاته ... كانا بلباس الاستحمام والشتاء يقرع أبواب شارع الحمراء ...

همست : منذ خلعت شجرة الرصيف اوراقها ، ولم تبدل لي عاملة المخزن هذا (المايوه) ، عرفت أن شيئاً غامضاً يدور في المدينة ...

أجاب : ظننت صاحب المخزن مشغولاً بغزله مع العاملة التي كانت تتولى تبديل ثيابنا ... لم أكن ادري ان الامر اخطر من ذلك ...

– كنت اعرف ان الامر اخطر من ذلك ... هربي الليلي الى ارصفة الحمراء اطلعني على اسرار كثيرة ... كان البرد شديداً ، وكان كل منهما يلصق جسده البلاستيكي بالآخر في محاولة فاشلة للدفء ... لكن البرد لم يكن تماماً ما يضايقهما ... همست هي : البرد محتمل .. لكن ما سيقتلني هو البعد عن الانظار .. عن انظار الناس .. انني بحاجة الى ان يقف الناس في الخارج ، ويتأملوني ، والى ان تشهق الفتيات اعجاباً بالثياب الثمينة على جسدي البديع ، ويدخلن لشرائها متوهمات انها ستبدو على اجسادهن السمينة كما تبدو على قامتي الرشيقة ، وانهن بدفع الثمن الملصق على صدري سيبدون مثلي ... اشتاق

الى الاضواء المسلطة علي وانا اقف في الواجهة وما من عابر سبيل قادر على ان يمنع نفسه من التحديق بي ...

قال لها : وانا افتقد ذلك كله .. منذ اطفأوا انوار الواجهة توجست شراً لكنني ظننت صاحب المخزن قد هرب مع حبيبته العاملة ... لم اكن ادري اننا نقف على أبواب تبدلات كثيرة نعجز عن فهمها نحن شعب الواجهات الزجاجية .

كان ضوء خافت من الفجر قد بدأ يتسرب عند الافق ، وكما في كل ليلة انفلتت دمية الواجهة من بين ذراعي رفيقها ، وعادت لتقف مسمرة في موضعها بواجهة العرض للمخزن الكبير ..

منذ شتاءين وربيعين وصيفين وخريفين وهي لم تبدل وقفتها . انها لا تعرف اسماء الأيام ولا الشهور ، ولكنها ترقب تبدل الفصول على شجرة الرصيف ، وثياب المارة والجالسين في المقهى الكبير المجاور لواجهة المخزن على ناصية الشارع ... وتعرف الفصول من نوع الازياء التي تلبسها إياها عاملات المخزن ثم يغرسن فوقها الثمن بدبوس (يؤلمها قليلاً لكنها لا تشكو) ، معطف الفيزون شتاءً ، فساتين الصوف خريفاً والمايوه صيفاً .. واحياناً تكون العاملة في حالة نفسية سيئة ، فتقتلع لها يداً في محاولة ادخال احد الأكمام مثلاً ، لكنها ، كدمى واجهات العرض جميعاً ، تحتمل اي شيء مقابل الظهور للعيون في ابهى حلة .. وكانت سعيدة بموضعها في شارع الحمراء : موقعها ممتاز وسط الشارع تماماً .. والآلاف من المعجبين والمعجبات يمرون كل يوم امامها ويقفون طويلاً لتأملها .. بل انها كانت اكثر سعادة من الفتيات الجالسات في المقهى المجاور ، اللواتي يؤدين المهمة ذاتها تقريباً . اما هي فهذا عملها كدمية واجهة ، ولذا فهي تقف جامدة ساكنة عارضة مفاتنها ليل نهار ، اما فتيات المقاهي ، فلا بد لهن من الجلوس في فيترينانها وواجهاتها الزجاجية متظاهرات بأنهن يشربن القهوة ويدخن السجائر ... وهي تحمل على صدرها تسعيرة الثوب الذي ترتديه ، اما هن فيهمسن بتسعيرة اجسادهن للزبون همساً ... لماذا لا يفعلن مثلها ويسترحن ؟ لماذا لا تعلق كل واحدة تسعيرتها على جسدها كما تفعل هي ؟ .

كانت تقضي أيامها في الاستمتاع بنظرات الاعجاب ، وتحدق بعينيها الزجاجيتين نائيتي النظرة الى كل ما يدور في شارع الحمراء امامها ، وفي المقهى المجاور بالذات وواجهته الزجاجية كواجهة مخزن .

انسلت من ذراعيه وعادت الى وقفتها بالواجهة .
قال لها : لماذا هربت ؟ .
ــ لقد بدأ الفجر يطلع ...
ــ ولكن احداً لن يجيء ... منذ ايام لم يمر بنامخلوق ، غير سيارات الاسعاف المعولة ...
ولكنها لم تجب . كانت دمية واجهة (محافظة) . وهي تصر على تقاليد « فتيات الواجهات » ... وما لا يعرفه سكان المدينة هو ان اكثر ما فيها من دمى وتماثيل ، يتحرك ليلاً وينطق ويعيش حياته الخاصة به وانهم يستولون على المدينة حين يرحل عنها اهلها الى مدينة النوم، ومع لمسة الفجر الاولى يعود كل الى (عمله) بواجهة المخزن او قاعدته الزجاجية قبل ان يرجع سكان المدينة من بلاد النوم ويعاودوا استيلاءهم عليها ...
شعرها من الحرير الاسود اللماع جداً . واهدابها طويلة تحيط بعينيها الشاسعتين الخضراوين المصنوعتين من زجاج نقي ... وقفت في ركنها بالواجهة ، وقد رفعت يداً وانزلت أخرى ، ووقف هو بالقرب منها وقد وضع يديه على خصره .. قالت له مؤنبة : اتخذ وقفتك الاصلية فقد يأتي صاحب المخزن فجأة ...
ولكن احداً لم يأت ... وطلع النهار وبدا كئيباً ، وعلى الرصيف مرت قوافل من النساء المتعبات والرجال الذين يبدو الغم على وجوههم .. انتعشت قليلاً ، فالبرد لا يخيفها ولا الظلام ، وانما البعد عن انظار الاعجاب .. ولكن احداً لم يلتفت اليها ... كانوا يبدون على عجل من امرهم ، كأنهم خارجون للتو من مأتم مجرم خارج على القانون ... كانوا يتلفتون بخوف ، ويحدقون الى الاعلى من آن الى آخر كأنهم يخشون شيئاً مختبئاً في الشرفات والنوافذ ..
همس : ماذا دهى أهل هذه المدينة ؟ زجرته : لا تنس تقاليدنا ... لا كلمة في النهار ... وفر تعليقاتك لرجعة الليل .. قال بصوت اكثر ارتفاعاً : إن احداً لن يسمعنا .. ألا تسمعين هذه الانفجارات العالية المدوية ؟...
لم تجب .
اول مرة سمعت الانفجارات ، ظنت ان اهل المدينة كعادتهم يطلقون الالعاب النارية ... ولكن ، لا ... ليس تماماً ..

لقد حدست ان خطأ ما يدور منذ البداية ... منذ كان المتسولون يتكاثرون على الرصيف امام واجهتها الزجاجية ... ومنذ كان بعض الرجال والنساء يقفون محدقين بها وبرفيقها بنظرات غاضبة ويقرأون الاسعار المكتوبة على صدريهما ثم يهزون بقبضاتهم مهددين ويعضون باقدامهم العارية ووجوههم المرهقة الغاضبة ...

اجل ! لم يكن الجميع سعداء برؤيتها ... حتى البائعات كن يشهقن بالحسرة احياناً اثناء عمليات إلباسها الثياب الثمينة الجديدة ، وكانت تلحظ ان بعض ثيابهن مهترىء وممزق ...

ومع ذلك كانت هنالك سيدات يفرحن كثيراً برؤيتها ، بل ان بينهن من كانت تحضر من بلدها العربي خصيصا لشراء كل ما يوضع على جسدها .. ولكنهن تناقصن هذا الصيف كثيراً ...

من موضعها في واجهة العرض الزجاجية للمخزن كانت تستطيع ان تلحظ ان شيئاً بدأ ينفجر ... وان ما يدور في واجهة العرض الزجاجية للمقهى له ايقاعات اخرى جديدة ... فمن موضعها تعلمت ان تقرأ كلمات الناس من حركات شفاههم ، واكثر الاحاديث في المقهى صارت تدور حول السفر الى لندن او باريس وادخال الاولاد في المدارس هناك ، وقوانين الهجرة الى استراليا وكندا وفنزويلا ... وحول الجولة الاولى والثانية ووقوع قتلى في غير حلبات التزلج على الجليد او الرقص ! ..

بل انها تذكر ليلة معينة بالذات ...

كان صاحب الدكان ينتظر قدوم زبون عربي مهم جداً ، يشتري بمئات الالاف من الليرات ، ويستحق ان ينتظره حتى الفجر ! .. تأخر الزبون ، وهتف يقول انه في اجتماع مهم ، ولكنه سيمر بعد الاجتماع لشراء الهدايا لاسرته لانه سيرحل مبكراً جداً في الصباح التالي .

كان هذا على الاقل ما سمعت التاجر يقوله لزوجته على الهاتف ، مضيفاً انها فرصة نادرة لتعويض خسائره بعد ثلاثة اشهر من البيع المتردي ...

وتأخر الزبون ...

وغرق التاجر في نومه على الطاولة ... وكانت اضواء الواجهة مطفأة . لم يعودوا يتركونها مضاءة منذ اسابيع طويلة ، وهي لا تدري لماذا .. لكنها اغتنمت الفرصة وقررت

ان تخرج قليلاً لترى ماذا يدور في المدينة .. صحيح انها دمية واجهة محافظة ، لكن المرء لا يملك الا ان « يتلصص » على الحقيقة حتى ولو لم يكن بروميثيوس وانما مجرد دمية واجهة .

غادرت مكانها في المخزن بعد ان لفت ثوباً بسيطاً حول جسدها ... لم تكن هذه اول مرة تغادر مكانها في الواجهة لتتجول وتجلس في واجهات المقاهي كما تفعل اكثر الفتيات ، ولكن احداً لا يلحظ انها دمية واجهة ، للشبه العظيم بينها وبين اكثر فتيات مقاهي شارع الحمراء ... ثم ان احداً لا يتوقع من فتاة واجهة ان تبرح مكانها ، لذا فان العاملات لا يكلفن انفسهن عناء مراقبة (دوامها) كما يراقبن بعضهن بعضا وتشي كل منهن بالاخرى .. ولانها دمية واجهة ، يتوقع الجميع ان لا تبرح مكانها ، ولذا فأن احداً لا يلحظ غيابها ! ...

اجل ! تذكر جيداً ذلك المساء ...

سمعت صاحب المخزن ينبه العاملة الى ضرورة تبديل ثيابها في الغد من المايوه الى فستان خريفي .. وعرفت ان الصيف قد اشرف على نهايته .. هكذا انبأتها ايضاً لسعة برد خفيفة صفعتها حين بارحت مكانها تحت الاضواء الكشافة الحارة في الواجهة الى عتمة الشارع النسبية ..

كان شيء ما قد تبدل في شارع الحمراء .. هكذا احست منذ الوهلة الاولى .

كانت اضواء اكثر واجهات المخازن مطفأة ، ورفاقها من الدمى يبكون في الظلام قهراً وجوعاً الى نظرات الاعجاب التي يتكسبون بها (كسيدات المجتمع ايضاً) ؟ هكذا تساءلت بحرقة . انها لا تجد فرقاً كبيراً بينها وبين اكثر نساء هذه المدينة ... كل ما في الامر انهن يحملن من آن الى آخر وينجبن الاطفال وهي لا تفعل ... اما ما تبقى فيبدو لها متشابهاً تماماً .. انها مجرد سيدة مجتمع لا تنجب الاطفال .. لا .. بل هي تعمل ، تقف ليل نهار لتعرض ثوباً ، اما هن فيستلقين ممددات في الفراش اكثر اوقاتهن.. هكذا سمعت العاملات يتهامسن عن الزبونات .. جلست في واجهة أحد المقاهي وبدأت تنصت الى احاديث الناس حولها .. كانوا يتحدثون عن السفر والهجرة ، والهرب من الرصاص الطائش وغير الطائش ، وعن المدارس التي يبدو انها لن تفتح هذا العام وعن القتال والجرحى ، كان باعة الفل والياسمين يحاصرون رواد المقهى ... ولا احد يشتري لامرأة

عقداً من الياسمين . كانوا ينتهرون الباعة ، ولم يكن الباعة الفقراء يبيعون بقدر ما بدا انهم يهددون المارة ! عقد الياسمين تحول الى صرخة تذكير بالفقر وزهرة الفل بدت لها حمراء كأنها مغموسة بدم احد افراد أسرة البائع الصغير ...

جاء الجرسون . طلبت فنجاناً من القهوة . كانت تعرف انها لن تشربه ، فدمى الواجهات يتغذين بالنظرات ولا يتعاطين (الاغذية) الصلبة او المائعة .. جاءها بالقهوة ... كانت المنضدة تتأرجح .. والكرسي ايضاً .. اعتذر الجرسون وقال ان احدى ارجل الطاولة قصيرة قليلاً ، وحاول تثبيتها بادخال بقايا علبة سجائر فارغة ، لكن ، حتى بعد أن ثبتها شعرت بانها تتأرجح .. لا الطاولة وحدها ... المقهى بأكمله .. الشارع بأكمله يتأرجح دون ان يلحظ ذلك أحد أو يسارع الى اسناده بصخرة مثلاً... كان كل شيء يتأرجح ، والارض لم تكن صلبة تماماً وانما بدا ان انهيارات تحتية بدأت تقع وان كل شيء سيسقط بين آن واخر الى هوة عميقة... لاحظت ايضاً ان اكثر النسوة كن يرتدين السواد ... وان رائحة احراق القمامة هي رائحة « الحمراء » ، وسحابة رمادية حزينة نفاذة الرائحة تلف المرثيات كلها كأنها زفرات الشارع . اجل ! منذ اسابيع لم تر سيارات جمع القمامة تمر امام واجهتها ...

مرت بها ثلاث نساء يرتدين السواد ، فتذكرت ان طلبات الزبونات كانت مؤخراً منصبة على شراء الثياب السوداء اللون .!. كأن الحداد هو ضيف الصيف ...

تقدم منها شاب ودعاها الى السهرة . قالت : لا استطيع ودون ان يبالي برفضها ، جر مقعداً وجلس الى طاولتها وهو يقول باسلوب لم تعرفه في جميع الشبان الذين سبق وغازلوها اثناء هربها السابق من الواجهة : اسمعي :.. المدينة تحترق ، والموت سيصيبنا في اية لحظة . لذا لا لزوم للمقدمات والمطولات . انت جميلة ، واريد ان تقاسميني فراشي الليلة . ما هي تسعيرتك ؟

ذهلت . لم تجبه . لم يكن لديها مانع من مرافقته الى الفراش لكنه سيحرقها اذا اكتشف انها مجرد « دمية واجهة » لا « انثى » . صحيح ان الفرق ليس كبيراً بين فتيات شارع الحمراء ودمى واجهات المخازن ، وانها يوماً فيوماً تزداد قناعة بذلك ، الا انها تريد العودة باسرع ما يمكن الى المخزن قبل أن يغادره صاحبه ويلحظ غيابها ...

تابع الشاب : انت باهرة الجمال كالدمية ... لا ريب في ان اسعارك باهظة ، ولكنك

تعرفين ظروف المدينة .. الشركة لم تدفع لي راتبي منذ شهرين ، لكنني ساحاول ارضاءك .
وايضاً لم تجب .
نهض وهو يشتمها : ايتها الغانية ، المدينة تحترق وأنت تتصرفين كملكة وتساومين ..
الجميع في حالة توتر ... على الطاولة الملاصقة سيدة تشتم الجرسون لانه أحضر لها كأساً من (الدراي مارتيني) وقد نسي احضار الزيتونة التي يفترض ان تعوم على سطحه .
الجرسون يتحدث بخشونة لم تسمعها منه من قبل . يصرخ بالزبونة : اثنان من الجرسونات العاملين معنا قد خطفا . اذا كنت تريدين طعام العشاء فاطلبيه الآن لاننا سنغلق المقهى في العاشرة تماماً ...
وتقدم من المقهى رجل يطوف بالموائد ويطلب معونة « لجمعية الاعمى الضرير » .
هاجم مقهى الرصيف سرب من المتسولين الصغار ، وكان عدد المتسولين وجامعي التبرعات وبائعي الفل والياسمين واليانصيب والشيكلس يفوق بكثير عدد رواد المقهى ..
سمعت صوتاً من منضدة مجاورة يقول : هذا اخر موسم ياسمين في شارع الحمراء ...
انتهت مرحلة (الدولتشي فيتا) والحياة الذهبية لبيروت .. ان قشرة الذهب تسقط ، وعما قريب تظهر الحقيقة ... عادت الزبونة تصر على الجرسون كي يحضر لها زيتونة تسبح على سطح (الدراي مارتيني) .
وغادرت المقهى ...
كانت خائفة ... شاهدت المارة في الشوارع يطيرون في الفراغ كالبالونات ...
شاهدت ان الاشجار مجرد ديكورات ، ورجالاً يتسلقونها ليربطوا الى اغصانها اوراق الخريف الصفراء ... سمعت امرأة تضحك ، وأحست ان ضحكتها مثل وردة اصطناعية كالحة اللون فوق ثوب أبلاه العتق ... ركضت مسارعة الى مكانها في الواجهة .. كان صاحب المخزن ما يزال نائماً ... « والزبون » لما يحضر ! ...
ولم يحضر صاحب الدكان في اليوم التالي ! .. غاب طويلاً . جاء ذات يوم ومعه سيارة شحن وعدد من الرجال .... ادهشها ان تجده والرجال يفرغون اكثر محتويات الدكان وينقلونها الى السيارة وهم على عجل من امرهم ويمضون سريعاً دون ان يلتفت احد اليها او الى رفيقها ... ومن يومها لم يأت احد ... لم يتأملها احد ... نسيها الجميع ...
عابرو السبيل القلائل لم يولوها حتى التفاتة ... كانوا دوما على عجل من امرهم ، كل

منهم يتأمل الاخر بنظرة خوف وحذر واستطلاع كما لو كان قادماً لقتله ، ولا احد يلتفت صوبها ..

ثم جاء يوم اطفأوا فيه حتى اضواء الشارع ... وصارت تسمع بوضوح اصوات طلقات وانفجارات مروعة ... ولم يبق لها ولرفيقها في الواجهة غير الانتظار ...

انها تمطر ..

هذا ايضاً معناه مزيد من التقلص في عدد المارة ... وحتى سيارات الشحن التي كانت تأنس بها قليلاً لم تعد تأتي لافراغ محتويات بقية الدكاكين المجاورة ... آه ما اتعس حظها ، لماذا لم تكن دمية واجهة في احد مخازن باريس او لندن ، او اي مكان في العالم لا تنطفىء اضواؤه ولا يتقلص زبائنه عن الرصيف ؟ ..

انها تمطر ...

هذا معناه ان اليوم باكمله سوف يمر دون ان تنال ولو كسرة اعجاب واحدة ... وستموت وتذوي جوعاً الى احتضان الأعين لها ...

همس بها : اسمع هدير شاحنة ...

اشتعل الامل في قلبها قليلاً . لعله صاحب المخزن ... انها كدمية مخزن ما تزال تأمل في ان يعود كل شيء كما كان .

توقفت السيارة امام المكان . صاحب المخزن لم يظهر . ظهرت مجموعة من المسلحين . وضعوا شيئاً عند قفل المدخل واشعلوه ثم ركضوا مبتعدين . ادهشتها حركاتهم . دوى انفجار .. لدقائق علا الغبار ولم تعد ترى شيئاً ، ورماها الانفجار الى حيث لا تدري ...

فتحت عينيها الزجاجيتين . شاهدت النار تشتعل في رفيقها . والرجال يدخلون الى المكان بسرعة حاملين خزانة النقود الحديدية وهاربين بها وسط سحب الدخان ... واختفوا . وحدث ذلك كله بسرعة ، بل في لحظات كالبرق ...

وبسرعة ، نهضت راكضة من المخزن ... ركضت في الشارع الى اول مقهى . كان مغلقاً ... ظلت تركض . كانت الشوارع خاوية ، والاشجار مكومة على الارض ومحزومة استعداداً لنقلها وزرعها في ديكور آخر .. وسمعت صوتاً يقول : انتهت المسرحية هنا ... انقلوا الديكور ، سنقدم المسرحية ذاتها في مدينة أخرى ...

بحثت عن صاحب الصوت لتسأله عن اسم المدينة كي تنتقل اليها لكنها لم تستطع

تمييزه . وخيل اليها ان كراسي المقاهي الخاوية هي التي تتحدث ... ام تراه صاحب مقهى ما ؟ ..

مرت بالفرن . هناك فقط شاهدت بشراً حقيقيين يرتدون السواد ويضعون نظارات سوداء ويحملون بايديهم عصياً بيضاء طويلة ، وادركت انهم قافلة من العميان بانتظار الخبز ..

وما عداهم ، لم تشاهد احداً ، ولكن كل شيء بدا حزيناً ومختلفاً كأن عصا الموت قد مسته بطريقة ما ...

القمامة كانت ضيف الشارع الوحيد ، كانت تعلو تلالاً وتفوح رائحتها رغم المطر ، والذباب ، كان كبيراً بحجم الرجال ، وكان يحتل الشوارع مزدحماً حول القمامة ! ... على اكثر الجدران آثار رصاص وقذائف ، تغطيها ملصقات تحمل صور الشهداء وقد حلت محل الملصقات القديمة عن حفلات الرقص والمصارعة والصور الخليعة لنجمات ليل بيروت . تأملت صور الشهداء الغضة وكانت وجوههم تشبه صور فتيان في كراس جامعي للتخرج !

وجدت مقهى واحداً يستقبل الزبائن . دخلت سريعاً وجلست . فوجئت بان للجالسين اجساد رجال ورؤوس فئران .. وكانوا يتحدثون كثيراً ويثرثرون باستمرار وهم يحركون اعناقهم الرفيعة داخل الياقات البيضاء المنشاة وربطات العنق ، وكان احدهم يصيح : لقد دفعنا ثمن السماح للفلسطينيين بالدخول الى بلاد « سلالة المردة » ..

وجاء الجرسون ... كان هيكلاً عظمياً تماماً ، وقال لها مشيراً الى رجل ضخم الجثة له رأس فأر طويل الشاربين : البيك مستعد لدفع ليرة .

اذهلها ذلك . كانوا يظنونها غانية اجنبية ، ولم يعرض عليها احد من قبل مبلغاً اقل من عدة مئات من الليرات ...

تابع الجرسون : تعرفين ان (رأس) الكرنب ثمنه الآن ست ليرات ، و (رأس) الرجل ثمنه نصف ليرة ، اي ثمن رصاصة ! .. وهكذا ترين ان اسعار البيك معقولة ! ... ومن الافضل ان تقبلي ..

قررت ان تعلن للجميع أنها فتاة واجهة لا فتاة مقهى ، فنهضت واعتلت الطاولة واتخذت الوقفة التي تتخذها في الواجهة اثناء العمل ... رفعت يدها اليمنى وقد فرشت اصابعها وتركت الاخرى تنسدل موازية لجسدها كوقفة راقصة قبل ان تبدأ وصلتها ...

وتحجرت هكذا ...

وانفجر رواد المقهى في الضحك وقال أحدهم : لقد جنت غانيات هذه المدينة .. الشبان يقتلون واحداً بعد الآخر ورزق الغانيات انقطع . سيأتي يوم تضطر كل عشر نساء الى الزواج من شاب واحد .. هذا اذا تبقى حتى شاب واحد حي ... رد الاخر : حالتهن كحالتنا ... لا قبض ... لا نقود ... وهن يقضين الليل وحيدات ونحن نقضيه مع زوجاتنا ! .

وغادرت المقهى .. لاحظت ان اسفلت الشوارع كان محفوراً وعليه آثار اقدام الدبابات . اطبق عليها مسلحون اختطفوها فجأة . كانت تسمع بالخطف من احاديث الزبائن وها هو يحدث لها . يا للإثارة ! . لا تدري كيف اكتشفوا انها فتاة واجهة من النظرة الاولى . قال احدهم : سنستعمل هذه الدمية كشافاً للقناصين . سنجعل منها فزاعة في حقل طيور النار ..تعالوا نجرب هذه الفكرة المبتكرة .

هذه المرة ، لم تفهم شيئاً .

ونقلوها في سيارة الى مكان تجهله . اصوات الرصاص تزداد ارتفاعاً .. توقفت السيارة . الارض في حالة زلزال . لم تخف . كانت في حالة دهشة . لم تكن تعرف بالضبط ما سيفعلونه بها ، ولكنهم كانوا يعرفون ! ...

البسوها ثياب مقاتل ومعطفه ، ودقوا قدميها بالمسامير على خشبة ذات عجلات ، ثم ربطوا الخشبة بحبل طويل ، وقال احدهم وهو يدفع بها من خلف المتراس الى شارع خاو تماماً الا من الانقاض : هذه الدمية ستنقذ حياة الكثيرين منا ... عن طريقها سنكتشف بدقة موضع القناص اللعين ... ونهاجمه ....

ولم تكد الخشبة تركض بها الى وسط الشارع حتى أطلق احدهم عليها رصاصة اصابتها في رأسها تماماً . لم تتألم ، وطبعاً لم يسل الدم ، لكنها سمعت النار تفتح من خلف المتراس باتجاه المكان الذي انطلقت منه الرصاصة نحوها...وشاهدت رجلاً يسقط عن سطح مرتفع .. وسمعت اصواتاً تأتي من خلف المتراس : اللعين ، لقد اصبناه ... وكان قد اغتال عشرة من رفاقنا ...

احست بنوع من الغبطة التي لم تعرفها من قبل ... احست بأنها أدت شيئاً مختلفاً عن عملها كفتاة واجهة ... شعرت ببعض السلام الداخلي ، وحتى حين اكتشفت ان النار

قد شبت فيها لم تحزن من اجل جسدها البديع ... وقررت انه كان في داخلها شيء لم تكتشفه طيلة حياتها كفتاة واجهة ..شيء لا يحترق ...

* * *

كابوس ١٤٣

تمدد « السيد الموت » على سور المقبرة متعباً . كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء حفار القبور من دفن كومة من الجثث في قبر جماعي كي يشكو له ويبثه همومه على عادة المسنين .. سيقول له انه لم ينم ليلة واحدة منذ اشهر من اقامته في بيروت . لقد ازدهرت اعماله اكثر مما يستطيع فرد الاشراف عليها بنفسه .. خصوصاً اذا كان هذا الفرد مصاباً بتصلب الشرايين والروماتيزم وارتفاع الضغط والسكري والتهاب المفاصل والذبحة القلبية وضعف البصر وغيرها من أمراض المسنين التي يشكو منها « السيد الموت » . و دفتر فواتيره صار كبيراً وشاسعاً ، ولم يعد يقوى على حمله ، وصارت نظراته تتيه في عالم ارقام الوفيات المتصاعدة بصورة لم يألفها في هذه الرقعة من الارض منذ مئات الاعوام ... ويومها كان اصغر سناً على اية حال ... يتنهد « السيد الموت » ، بينما يقترب حفار القبور ، ويتأهب لسرد ملحمة شكواه تماماً كبقية العجائز ..

لكن حفار القبور الشاب سبقه الى الشكوى ، وكان شاباً فقيراً ، لم يجد مهنة يدفع بها اقساطه الجامعية غير حفر القبور : « لم يعد بوسعي الاستمرار في هذا العمل ... انه يفوق طاقة الفرد على الاحتمال .. وحتى دفنهم في مقابر جماعية لم يخفف الكثير عني ... انهم يأتون في قوافل ... انهم بحاجة الى مؤسسات للدفن ، لا الى افراد » ...

« مؤسسات » ... رنت الكلمة في أذن « السيد الموت » . ذكرته باشياء كثيرة ...

« مؤسسات » ... يذكر آخر مرة اضطر فيها للعمل ليل نهار ... يومئذ استدعته «مجموعة مؤسسات » في واشنطن ، واشترت له بطاقة سفر الى بلد كان اسمه ... آه لذاكرته اللعينة العجوز التي بدأت تخونه ... أكان اسم البلد فيتنام ؟ ام كوريا ؟ ام كمبوديا ؟ ام فلسطين ... آه لم يعد يذكر .... لكنه صار يكرر الكلمة : مؤسسة ... مؤسسة ...

وصرخ حفار القبور : اجل مؤسسة . انت بحاجة الى مؤسسة تدير لك اعمالك ... لا الى حفار قبور مسكين مثلي .

* * *

استدعاه « السيد الموت » . فلباه الخبير ... وبدأ الحوار تقليدياً كأي حوار بين شريكي عمل ، التقيا لتأسيس شركة ضخمة رابحة ... فقد شكا « السيد الموت » مــن امراضه ، وشكا ضيفه من صعوبة المواصلات بين بيته في احد احياء واشنطن والمطار ، أما بقية الرحلة الى تل أبيب فقد كانت مريحة ... بين تل أبيب وقبرص لم تخل الرحلة من بعض المطبات الهوائية ، الا انه وصل في نهاية الامر الى بيروت وقد اخترقته بعض الرصاصات في الطريق بين المطار والمقبرة ، الا انه كأكثر الموتى — الاحياء ، لا يؤذيه الرصاص كثيراً ... ضوء الشمس وحده يضايقه ، واذا سلط عليه طويلاً تآكل جسده كمصاب بالجذام ...

وبعد الترحيبات التقليدية ، وكلها بالعربية التي اتقنها (الضيف) ايام دراسته لها في المدرسة الخاصة (بهم) في قرية « شملان » بضاحية بيروت ، بدأ الحديث في العمل مباشرة ...

اراد « السيد الموت » ان يفصّل قليلاً في شكواه حول حالته الصحية ، الا ان الضيف قطع « الحوار العاطفي » عند الحد اللازم ، وخاطبه بلهجة باردة كثلج فوق جرح مفتوح : ستكون لك مؤسسة مبتكرة . سيكون لك عشرات من المعاونين . وهذا الكومبيوتر سينظم الفواتير عنك .. سأله « السيد الموت » وهو يسعل بشدة : مؤسسة لي ؟ مؤسسة للموت ؟

— طبعاً لن يكون اسمها هكذا . لنسمها « مؤسسة الخطف المتحدة » ... وسأسعى الى إدخالها في « الاتحاد العالمي للخاطفين » مما يرفع اسم لبنان عالياً في مجال جديد ...

— ولكن ما علاقة الخطف بذلك ؟ ...

— ألا ترى ان الخطف قتل مع وقف التنفيذ ؟ وهكذا يتم تجميد الاحياء في حالة (خطف) ريثما يتسنى للمؤسسة تنظيم قوافلهم الى المقبرة ... ستكون مؤسستنا بمثابة براد للجثث ... كل ما في الامر هو انهم لن يكونوا جثثاً وانما جثث مع وقف التنفيذ تتحرك في الشوارع متوهمة انها تتابع اعمالها ، وهكذا لا حاجة للبرادات . نستطيع خزنهم في الاقبية وستكون لنا فروعنا حتى في البيوت ...

— ولكن من منهم يرضى بالتعامل معنا ؟

— كثيرون . سيكون على رأس العمل مدراء عامون متخصصون طبعاً ، وسأشرف على استدعائهم ، ولكن اكثر العاملين في المؤسسة سيكونون منهم ... من اهل بيروت .

ــ ولكن ، كيف تقنعهم بذلك . بالمال ؟
ــ ليس تماماً . قلائل هنا يمكن شراؤهم بالمال وحده . ولكن اكثرهم يمكن شراؤهم بعملات كثيرة ، منها العشائرية والقبلية والدين (بمفهومهم الخاطىء له) ، اي الطائفية .. وعملات اخرى كثيرة منها الغضب والحماقة والنزق والرغبة بالانتقام وغيرها من الاقنعة المزيفة على وجه المحبة ... التفاصيل فيما بعد ... المهم ان الكومبيوتر سيقوم بتنظيم هذه العمليات وبأقل قدر ممكن من الجهد ...
ــ واذا اختطفوك انت ؟
ــ لا تخف . انا ملقح ضد الخطف .
ــ وهل يوجد لقاح ضد الخطف ؟
ــ أجل ! واسمه الانتحار .. احد اضراسي محشوبحبة من السم الزعاف ، واستطيع الانتحار متى شئت ، وبعد ان يتخلص الخاطفون من جثتي انهض من جديد تحت اسم جديد لاتابع مهمتي ... انت تعرف ان من هم مثلي من الاموات ــ الاحياء لا يموتون تماماً لانهم لا يعيشون تماماً .. اجل .. الانتحار هو اللقاح الوحيد ضد الخطف ...
غضب « السيد الموت » من ذكر « الانتحار » وبدت على وجهه امارات الضيق . فالانتحار مذكرة جلب بحقه ، واستحضار ارغامي له . حيث يقذف المنتحر بروحه في وجهه دونما تهذيب او طقوس .. انه ما يزال يذكر يوم انتحر همنغواي .. ذلك الوقح .. بدلاً من ان يرتجف في حضرته ، استدعاه كما لو كان بواباً في عمارة (شقق الحياة المفروشة) ..تابع الخبير : استرح أنت قليلاً ، ودعنا نرتب الأمور ...
صبيحة اليوم التالي ، تمدد « السيد الموت » في فراشه ، وبدأ بقراءة صحف الصباح التي صارت مجرد نشرات تتحدث عن منجزاته .
فوجىء بالعنوان الرئيسي (المانشيت) :
أفاقت بيروت على ٧٠ قتيلاً و ٣٠٠ مخطوف . انه يعرف طبعاً حكاية السبعين قتيلاً ، وقد حرر بهم فاتورة موحدة ... اما الثلاثمئة مخطوف ، فتلك مفاجأة ! ... انهم « برسم الموت » وهذا يعني مزيداً من العمل ... آه من شريكه اللئيم . انه وصل البارحة فقط ، وكان يظن انه سيخفف عنه اعباءه ، واذا به يضاعفها ... ولكن ما جدوى الجدال ؟ سيقول له : « مؤسسة الخطف المتحدة » ستنظم لك اعمالك . التكنولوجيا الاميركية

والتخلف العربي في خدمتك معاً. الكومبيوتر المستورد والامراض المحلية سيتحالفان . لقد سمع منه محاضرة طويلة فيهذا المجال ليلة البارحة وقد أرهقه النعاس وهو يتظاهر بالانصات...

ذلك الخبير اللعين ... جاء به ليساعده وليخفف من اعماله ، واذا به يضاعفها ...

تنهد « السيد الموت » وهو يذكر عصور ما قبل التكنولوجيا .. كانت للموت هيبته انذاك ... كان يستقبل بطقوس ويودع بطقوس ... بل ان بعض القبائل البدائية كانت تحتفل بمقدمه في عرس مهيب ... لكن الحال ساءت منذ تلك الحروب العالمية ، واختراع المتفجرات ... لم يعد الناس يموتون فرداً فرداً وانما صار الموت صناعة جماعية وانتاجاً إ- مالياً ، وقد فقد « السيد الموت» من يومهـــا لذة « الصنايعي » وتحول الى موظف في مؤسسة - هنمية ، يكدح فيها ليل نهار دونما لذة في العمل الرتيب الميكانيكي المتراكم . انه مثل رسام عبقري ارغموه على العمل في مصنع لطبع الملصقات (والبوستر) ... آه كم هو حزين وبائس ... إنه يشتهي لو يموت ويتخلص من هذه المهنة التي بلغت هذا الحد من الرخص والارهاق ... فمنذ إخترعوا تلك الماكينات الجهنمية التي يحشونها بالناس ويطيرون بها الى اعالي السماء او الى قاع البحر زادت مهماته وصار عليه بالاضافة الى الركض ان يتعلم الطيران والسباحة والغوص أيضاً ... آه كم يكره الطائرات والغواصات ومركبات الفضاء أيضاً ... فالخروج من الجاذبية الارضية يسبب له صداعاً يكاد يصير مزمناً .. آه كم هو حزين وبائس ولا احـــد ينصت لشكواه ... انه يحسد الافعى ، فهي تغرس نابها السام في ذاتها احياناً وتنتحر .. اما هو فعاجز عن اسباغ بركته على ذاته ... انه يمنح السلام النهائي للجميع الا لذاته ... ان لعنة « السيد الموت » اسمها الحياة . انه عاجز عن الموت ، ومع ذلك فان اولئك البشر الاغبياء يتضايقون غالباً من حضوره دون ان يلحظوا اية مأساة هي ان لا يحضر . وان يكونوا مثله ... وان يعيشوا أبداً دونما امل بالموت ! ..

* *

جلس « السيد الموت » وشريكه الخبير يطالعان الصحف في مقر « مؤسسة الخطف المتحدة » التي اتخذت لها مقراً في أحد فنادق بيروت السياحية الفخمة .

لقد ازدهرت اعمالها بصورة لم يكن يتوقعها حتى الخبير نفسه ... وكثر العاملون فيها ، ولم يعد الكومبيوتر كافياً لتصريف الأعمال المزدهرة ، وهم ينتظرون وصول كومبيوتر جديد لفتح فرع آخر لمؤسسة الخطف ...كان صوت المذياع عالياً ، والمذيع يتابع نقل

رسائل الناس الى اهلهم للتطمين ويقول : السيد منير شاكر من بيروت يطمئن الأهل في قرية السماقية انه بخير ، ويطلب منهم تطمينه . نحن بخير طمنونا عنكم ! ... وانفجر الخبير ضاحكاً وقال للموت : هذا برنامج اذاعي جديد .. لقد اسسنا برنامجاً مماثلاً في فلسطين وهو ما يزال يذاع بنجاح منذ ٢٨ سنة ، كما ان اقطاراً كثيرة مجاورة بدأت بتقليده وهذا أمر يسرنا ... وها هو أخيراً يصل الى لبنان ... الم أقل لك ان اعمال شركاتي الاخرى مزدهرة ؟ ..

تابع المذيع القراءة : نديم الانس من بغداد يرجو من ولده المقيم في « عمارة القمر » بمحلة الروشة تطمينه عنه . يضغط الخبير زراً ويقول في شريط يسجل اقواله وينقلها الى غرفة اخرى للتنفيذ : اذهبوا الى العنوان المذكور وهاتوا ابن نديم الانس .. سنحتاج اليه .

ضحك الموت قليلاً وهو يقرأ التصحيح التالي : يعلن كتورة كتورة انه لم يقتل كما ورد في خبر البارحة .

يضغط الخبير الزر : صححوا الخبر على طريقتنا . اقتلوه ! ...

يقرأ الموت : ننعي اليكم وفاة المرحوم عياش عياش ...

ويبحث قليلاً في فواتيره ثم يقول : هذا اللعين عياش عياش ينشر خبراً عن وفاته إتقاء للقتل ، ولكنه ما زال حياً . اسمه ليس في فواتيري. اولئك البشر ظرفاء ، ولا تنتهي اساليبهم الهروبية . يضغط الخبير الزر : هاتوا عياش عياش فوراً . سنوفر عليه ثمن اعلان آخر ! ...

يصر الموت : تستطيع اختطافه لكنني لن احرر به فاتورة ... اولئك البشر الظرفاء احبهم .. انهم مضحكون ولكنهم ظرفاء ... يبتكرون اساليب كثيرة للهرب مني ... ولكن ...

كل هذا كان يحدث والكومبيوتر يعمل سريعاً على فرز جداول دائرة النفوس التي حشوه بها ، بالاضافة الى الصحف التي صارت بمثابة سجلات للموتى بحيث يقوم بعمله بتجميع المعلومات وترتيبها واستثناء الذين قتلوا .. واعداد قوائم للذين هم برسم القتل ..

فجأة يتوقف الكومبيوتر ويبدأ ببصق بعض المعلومات غاضباً يتناولها « السيد الموت » ويقرأ : الطفلة جوانا (١٢ سنة) تتوسل الى خاطفي والدها الرحمة بها وبه واعادته .

يقرأ القصاصة الثانية : اب ضرير يتوسل الى خاطفي ولده (...) ان يرأفوا به

ويعيدوه .

يعلق الخبير : الكومبيوتر لا يفهم هذا النوع من الاخبار ولذا فانه يبصقها .

وأضاء الكومبيوتر نوراً أحمر . هرع اليه الخبير . وجده متوقفاً عند خبر يقول : أب ثري مستعد لدفع مئة الف ليرة لاعادة ولده المخطوف . وبدأ الكومبيوتر يطبع اقتراحه التالي : ١ — يعاد المخطوف بعد قبض المبلغ ثم يقتل في اليوم التالي برصاصة طائشة .

٢— يحمل كل شخص تسعيرته على صدره بالمبلغ القادرعلى دفعه فدية في حالة الخطف. نخطف الاثرياء فقط .

صرخ الخبير بالكومبيوتر : ايها الغبي . لسنا هنا لقتل الاثرياء ، بل الفقراء فقط . هناك معلومات اضافية معقدة لا بد من حشوك بها لتتم مهمتك على أكمل وجه .

دخلت سكرتيرة :

هنالك رجال يرغبون بمقابلتك .

— غازليهم فانا الآن مشغول .

— حاولت وفشلت . انهم غاضبون ومصرون على رؤيتك .

اسأليهم : ماذا يريدون . وشغلي الحارس الالكتروني لحمايتي .

يلتفت اليه الموت قائلاً : اولئك البشر يدهشونني باستمرار . انهم يزايدون عليك . لقد ابتكروا ايضاً « الخطف الوقائي » حيث يخطفون سلفاً بعض ابناء العشيرة الاخرى لقتلهم في حال قتل اولادهم ... فكرة « الخطف الاحتياطي » هذه لم تخطر حتى ببال كومبيوترك الغبي ..

رد الخبير ببرود : بشرك الظرفاء هم حلفاء لي دون ان يلحظوا ذلك ،واختراعاتهم. من « خطف وقائي » و « خطف اختياطي » ليست اكثر من خدمات مجانية لمؤسستي

يقول الموت مدافعاً : لكنهم يعاملون مخطوفيهم معاملة كلها كرم وحسن وفادة ... ويتنافسون في اكرام مخطوفيهم ...

أجاب الخبير : لكنهم بالمقابل يعاملون مخطوفيهم احياناً بمنتهى الوحشية ويتنافسون في ابتكار الوسائل لتعذيبهم ...

يهز الموت رأسه بأسى . ويهمس : اولئك البشر يحيرونني . انهم مزيج غريب

عجيب .. لكنني احبهم على اية حال ...

تدخل السكرتيرة وتقول : يقولون انهم يمثلون اتحاد الخاطفين، وان مؤسستنا تضارب عليهم ضاربة غير مشروعة ، وسوف يشكوننا الى محكمة العدل الكونية طالبين طردنا من اتحاد الخاطفين ، لاننا لا نحمل رخصة بالخطف موقعة من نقابتهم ... وانهم يريدون منا دفع (خوة) ، وفي هذه الحال فقط يمكنهم (غض النظر) عن أعمالنا ..

قال الخبير لسكرتيرته : هذا عظيم . ادفعي لهم ضعف الخوة كراتب شهري ونظمي اوراق عملهم كموظفين في مؤسستنا . نحن بحاجة الى اشخاص اكفاء ولهم خبرة بهذه الاعمال .

لم يكن الموت ينصت وانما كان يقرأ خبراً بصقه الكومبيوتر يقول : يشكر وديع الوديع خاطفيه على معاملتهم الحسنة اثناء فترة اختطافه . ويذكر تلك الايام الجميلة التي مضت سريعاً وعاش خلالها في ربوعهم ... كل شيء يمضي لكن ذكراهم لن تمضي ...

وضحك الموت طويلاً وكرر : اولئك البشر الظرفاء المساكين ...

يقول الخبير : ظرفاء ؟ ليس دائماً ... لكنهم ما زالوا يشعرون بعقدة النقص امام الاجنبي ... هل سمعت بالاجانب التسعة الذين رتب الكومبيوتر أمر خطفهم ؟ لقد عاملوهم كزبائن في فندق من الدرجة الممتازة وكان الخاطفون يبيتون جائعين من اجل اطعام (ضيوفهم) الاجانب ...

رد الموت مدافعاً : انه الكرم العربي .

قال الخبير : بل عقدة النقص امام الاجنبي ..

ونهض واحضر نصاً طبعه الكومبيوتر ثم قال للموت : انظر الى بشرك الحمقى . لقد اعادوا « ابن البيك » بعد انقضاء نصف ساعة فقط على اختطافه ! ...

— من اعاده ؟

— ابناء (البيك) المعادي لأبيه ... الم اقل لك ان اكثر زعماء هذا البلد مصالحهم واحدة مهما تباينت شعاراتهم ، وارتباطاتهم واحدة . وكلهم في خدمتنا بطريقة او باخرى ... تلك هي مأساتهم الحقيقية . وفي ذلك الدعامة الاساسية لمؤسساتنا كلها ...

— ماذا عن خادم البيك الذي اختطف مع ابن البيك .

— سيقتل طبعاً ... الفقراء لا يصلحون في مؤسستنا لغير القتل . اسأل الكومبيوتر .

قال الموت متضايقاً : بصراحة ... انا لم اعتد على التمييز بين الاغنياء والفقراء منذ بدأت مهنتي ... ولا احب كومبيوترك هذا ... اعتقد انني سأفك شراكتنا ...

رد الخبير : كف عن اضاعة وقتك ووقتي . هنالك فاتورة يقول الكومبيوتر بضرورة تحصيلها .

لم يكن الموت نزقاً . على عادة المسنين ، قرر ان يتفادى الشجار مع شريكه ، فذهب ليحصل الفاتورة باسم جميل جميل ، وفوجىء حين اكتشف انه كان قد حصلها منذ زمن بعيد ... ولكن امه كانت ما تزال في ثياب الحداد حين ابلغته ان ولدها مات منذ زمن بعيد .. كانت هذه اول مرة يذهب فيها لقبض روح شخص مرتين ، ولم يحدث له من قبل ان شعر بمثل هذا الخجل ...

هذا الكومبيوتر اللعين . سيتخلص منه فوراً . هكذا قال للخبير حين عاد رد الخبير ببرود : وماذا في ذلك ؟ الكومبيوتر ليس منزهاً عن الخطأ . انه كالبشر الذين تحبهم ... ثم لماذا لا ترى الا الجانب السيء من اعمالنا ؟

انظر كم ازدهرت اعمالك بفضلنا ... لقد اصبح أهالي هـذا البلد موزعين في لجنتين : لجنة تبادل المخطوفين . ولجنة تبادل الجثث . ماذا تريد اكثر من ذلك ؟ .. صار المشي أخطر رياضة تمكن ممارستها في بيروت ، وصار المشاة من رعاياك بعد ان كنت تتحكم في رياضتي الملاكمة وسباق السيارات والدراجات فقط ... والشوارع صار اسمها جبهات . والساحات صارت مقابر . والجسور صارت جسوراً للابدية تتكدس الجثث المجهولة الهوية فوقها كل صباح ... لم تعد الحقول تنبت غير الجثث ... انني ابني لك امبراطورية هنا ، وانت تتذمر؟ ...

دخلت السكرتيرة تحمل اوراقاً مطبوعة كبطاقات الزيارة ، سأل الموت : وما هذا ؟ رد الخبير : هذه بطاقات تحمل اسم المؤسسة ورقم هاتفها لتعميمها على اسر المخطوفين كي يتصلوا بنا ويطمئنوا الى مصير ابنائهم ... من حقهم ان يعرفوا بالمقتولين فور حدوث ذلك ... الا ترى معي اننا مؤسسة حضارية ....؟

* * *

كابوس ١٤٤

بينما كانت النيران تلتهم السجن لم يشعر شادي بالخوف . شعر بالنشوة وادهشه ذلك . شعر بنشوة مروعة تقارب النشوة الجسدية لحظة الذروة حين مر به رجل شبت به النيران . شعر بالشيء ذاته وهو يرى بعض زملائه السجناء يقتلون ويسقطون تحت اقدام بقية قافلة الهاربين .. بل انه كاد يتوقف عن الركض ليرقبهم يموتون ويستزيد من لذة مشاهدة احتضارهم ..

لا يدري ماذا دهاه ..

منذ سجن ظلماً وعدواناً هكذا ، أحس بالحقد والقرف من كل شيء ... واستولت عليه رغبة بتدمير كل شيء ... وقد اتفق مع (زلمة) البيك الذي لازمه طوال فترة سجنه على العمل معهم ... وبلغه (زلمة البيك) ان سيده يحب انضمام (المثقفين) الى رجاله ...

لا يدري ماذا دهاه ...

كل ما يلمسه يشتعل .. كل ما يرميه يتحول الى قنبلة يدوية ... انه « ميداس اللبناني » والعشب يموت في موطيء قدميه ، والنساء يستحلن كوماً من الرماد بعد ان يغتصبهن ، والاطفال يكفون عن الغناء بعد ان يمر بهم ، وحتى قطط الشوارع وكلابها تتحاشى الاقتراب منه كما لو كان شبحاً ملعوناً ...

قرر انه ربما كان واهماً . ربما كان وجود امرأة في حياته سبباً لتهدئة هذا الجنون المكهرب المحيط به ومناخات العنف التي يحرضها كيفما تحرك ..

تذكر أخته ... قرر ان يكتب لها رسالة ويرمي بها اليها في غرفة نومها ببيتهما مقابل فندق « الهوليداي إن » ...

كان يعرف انها غبية جداً حين تحب ، وانها عاطفية جداً وبالتالي غبية اكثر أيامها ... وكان يحب فيها ذلك ... بالضبط : يحتاجه ..

كتب الرسالة . كورها جيداً . قذف بها الى غرفة نومها ليلاً ...

اذهله انها انفجرت كقنبلة يدوية .. وتطايرت اشلاء اخته عبر النوافذ في فضاء الليل .

تأمل يديه بذعر ... كل ما يلمسه يصير دماراً ... انه ميداس اللبناني البائس !! ...

* * *

كابوس ١٤٥.

استيقظت دفعة واحدة من كوابيسي المروعة ... الدوي لم يكن مروعاً بقدر ما يتوقعه المرء حين يخترق غرفته صاروخ ... ويخيل الي ان حاسة سرية (لنسمها الحس بالخطر مثلاً) هي التي ايقظتني ، وليس دخول الصاروخ ...

احدى النوافذ قد ثقبت . أو ثقب خشبها العتيق المغلق الواقع بين السرير الذي أنام فيه ، والاريكة التي تكوم عليها امين ... في البدء كانت هنالك سحب من الغبار ثم تكشف المشهد عن ... صاروخ ! ...

اخترقها الصاروخ لكنه لم ينفجر بل تكوم بسلام فوق مقعد مخملي .. في البدء سمعنا صوت تكسر الخشب وتناثره . لم أصرخ . لم يصرخ أمين . نهضنا نحدق مذهولين في الموت القادم الينا داخل كبسولة ... كان طوله يقارب المتر ، ولونه يميل الى الخضرة الداكنة . أية سخرية أن يرتدي الموت لون الأشجار وخضرة الحياة .

وهربنا من الغرفة في ركض مسعور الى أقصى ركن في آخر البيت .. لم يكن بوسعنا الهرب من البيت فقد كان رصاص القناصين يتولى سجننا المطلق داخل بيتنا الذي تحول الى كهف للموت ... وانتظرنا أن يدوي الانفجار .. لكن ذلك لم يحدث .. انتظرنا طويلاً ، وصرخ أمين منادياً خادمه ، فلم يرد ، وانتظرنا .. لم أشعر بالخوف تماماً ... في مثل هذه اللحظات يستولي على الجسد شعور حار بالترقب والتحفز لا بالخوف ... ومرت الدقائق بطيئة ... ولم ينفجر الصاروخ وحينما نظرت الى ساعتي ، وجدت أنها صارت بلا عقارب تماماً وقد مسحت عنها الأرقام . لم أعد أعرف اسم اليوم . الساعة . الشهر . الهاتف مشلول ، وبطاريات المذياع تحتضر ، وجسوزي كلها مع العالم الخارجي تتهاوى جسراً بعد الآخر ..

وها أنا جائعة ومتعبة ومرمية خارج الزمان والمكان ، وعلى بعد أمتار مني صاروخ لم ينفجر بعد ، وفي برميل بالحديقة جثة ، ولي أخ بالسجن ، ولي أب في القبر ! ولي ذكريات ممضة مع انسان كان أقرب الي من ضربات قلبي ، ولي أصدقاء وصديقات ربما كان بعضهم يقتل في هذه اللحظة بالذات أو يعذب دون أن أدري بعد ...

تناولت سيجارة ، وحين أشعلت عود الثقاب انفجر وطار مشتعلاً فوق ثيابي ... بدا لي الأمر مزعجاً ومضخماً كنبوءة بالحريق ... وحين سقط غطاء علبة البسكويت

من يد أمين على البلاط ، قفزنا من أماكننا في هلع ، فقد بدا دويه عالياً كانفجار قنبلـــة ...

نظرت من جديد الى الساعة ... لم أجد فيها أية عقارب فعلاً . ولا حتى أرقاماً . كانت مجرد دائرة صغيرة بيضاء مقفلة وفي وسطها نقطة سوداء ... وشعرت أنني مثل تلك النقطة السوداء سجينة الزمن الحاوي الغامض ، ودائرة ما تسجنني ... ثم نطق أمين وقال : انه لم ينفجر ...

قلت لنفسي : ما دام لم ينفجر ... فهذا معناه انه لن ينفجر ولكنني لم أكن واثقة من ذلك تماماً . وشعرت بالندم لأنني لم أطالع فيما مضى أية كتب عسكرية ، أو كراسات مفصلة حول المتفجرات العصرية .. لو كنت فعلت ، لما جلست مثل هاملت على قمة صاروخ وأنا أردد أشعار شكسبير . على طريقتي : « أن ينفجر الصاروخ أو لا ينفجر ... تلك هي المسألة » ! ..

ورغم كل شيء ، لم أكن بائسة بقدر ما يجب أن يكون انسان جائع ووحيد ومذعور ومهدد بالموت عطشاً وجوعاً وحرقاً وهو مجروح اليد والأذن مثلي ... بل ان الوضع بدا لي هزلياً بطريقة ما ! ... وفي أعماقي سكينة نسبية تقارب الانتعاش كأن هنالك دورة نفسية داخلية تتجاوز الأحداث ... كأن سقوطي البارحة الى قاع الحزن والجنون ، كانت ردة الفعل الطبيعية له هي طوفاني اليوم فوق سطحه ، وربما طيراني لثوان معدودات عن أرض الحزن ... كأن في أعماقي طاقة سرية مختزنة ، وحينما أبدأ بالانهيار حقاً ، يعمل ذلك المحرك الغامض ... وينقذني ولو قليلاً ...

قلت لأمين : سأتفقد بيتنا وأعود .

قال في محاولة لاستبقائي : والصاروخ ؟

— هل تتوقع مني أن أنتزعه لك من المقعد ثم أذهب لأقذف به الى البحر ؟

— وهل تتوقعين مني أن أستمتع بمزاحك الآن ؟ ... لا حوار بيننا . مجرد ثرثرة . لم يكن بيننا أي تفاهم قط . كنت دوماً أنظر اليه كما لو كان فتاة شرقية عاطلة عن التفكير . وكان ينظر الي كما لو كنت شاباً غربياً متفلتاً من التقاليد المبجلة ... ولكن ، ها هو عند أول احتكاك له بأخطار الحياة ، يقذف بجثة أبيه الى برميل القمامة . شعرت برغبة في ايلامه ، كأن أقول مثلاً : « حسناً سأتفقد أنا الصاروخ في المقعد ، وتفقد

أنت جثة والدك في برميل القمامة » ... لكنني لم أفعل لأسباب أنانية جداً . لو طردني من بيته لكان في ذلك موتي المحتوم . فبيتي في الطابق العلوي معرض للخطر أكثر من بيته ، هذا أولاً . ثم ان هاتفي معطل تماماً . وهاتفه ما يزال يعمل بين وقت وآخر وفقاً لاتجاه الريح والمطر أو لأسباب سرية أخرى . الطعام بأكمله موجود في (كهفه) . الشموع القليلة الباقية أيضاً . اذن ، لا مفر من الصلح ! ...

وصعدت الى بيتي صامتة ... تذكرت كوابيسي عن أخي وتمنيت أن أسمع خبراً واحداً عنه مطمئناً أو غير مطمئن — المهم أن أعرف شيئاً عن مصيره بدلاً من (اختراع) مصائر عدة له في كوابيسي .

الرصاص قد اخترق أكثر النوافذ ... وفي الأرض أكوام من الحديد المصهور المختلفة الأشكال ... عشرات من بقايا القذائف المنطفئة ... حملت حفنة منها في يدي ، أتأملها مذهولة ... كان يمكن لأية قطعة منها أن تستقر في عضو ما داخل جسدي حارة كاوية ... لكنها الآن في قبضة يدي ، باردة ، وشبه صدئة ... وشعرت بما يشبه النشوة . انني أختطف الحياة اختطافاً كل ثانية . اني أختطفها من كل هذا الموت المحيق بي . اني أقتنصها كل صباح مثل صياد أعزل في غابة محفوفة بالمخاطر ... تفقدت مكتبتي . تحسستها بحنان ، ووعيت أنها وحدها مصدر قلقي ... وان الفقر نعمة هائلة في زمن الحرب الأهلية ، اذ انني لا أملك شيئاً أخشى خسارته ، غير هذه الكتب . طمأنت نفسي الى أن لا أحد يسرق الكتب . النار وحدها عدوة الكتب ... كانت لدي (طفايتان) صغيرتان للحريق ... ولكنني ، بعد تجربتي مع (الرصاص — البلياردو) الحديث ، لم أعد أدري ماذا يمكن أن تصنعه هذه الأنبوبة الحمراء الصغيرة ... عاودت قراءة الارشادات المكتوبة على اسطوانتها ... من المفروض أن أكسر البلاستيك الذي يسور أعلاها ، وأضغط على الزر فيتدفق شيء سحري يطفىء النار ... ترى ما هو ؟ هل هو فقاعات كرغوة الصابون ؟ أم سحابة زرقاء ؟ أم دمعة صدق واحدة ؟ درت في البيت . كانت رائحة كريهة تنبعث من المطبخ . رائحة الأواني والطناجر التي لم تغسل وبقايا الأكل فيها ... والبراد الذي لم أكد أفتحه ، حتى هب سرب من البعوض الصغير وسحابة من الروائح الكريهة ... حينما اشتد القصف لم أستطع البقاء في (مقري الحربي) بالممشى ، فقد كانت الرائحة المنبعثة من المطبخ لا تطاق ..

حملت حقيبتي البرتقالية اللون الصغيرة وعليها الحروف الثلاثة الأولى لاحدى شركات الطيران وعدت الى الطابق الأول .. لم أقترب من النافذة .. لم أطل على الطريق لأرى مصير سيارتي العتيقة ... شعرت بنوع من اللامبالاة بكل شيء . الخيوط كلها تقطعت ، الجسور كلها انهارت . وثمة برعم أخضر ينمو رغم كل شيء ، وبالأحرى بسبب «كل شيء » ... حتى أخي ، أفكر به هذه اللحظة بفتور يشبه اللامبالاة ... وحدها مكتبتي أشعر بقلق حقيقي على مصيرها ... وحدها محتويات حقيبتي الصغيرة البرتقالية تهمني ، وفيها أوراق كوابيسي التي سجلتها تحت الرصاص لحظة بلحظة .. الكتابة ... ذلك الجنون داخل الأصابع وداخل الخلايا وداخل الأعصاب ... ذلك الوباء غير الساري الذي استسلمت له منذ طفولتي . واستعضت به عن البكاء والأم والحنان والأصدقاء ... وحتى عن الحب أحياناً ! ... وكانت الحقيبة البرتقالية الصغيرة تضم مظروفاً أصفر كتبت عليه بخط كبير « مخطوطة كوابيس بيروت » وتحته مذكراتي وبعض أوراقي وأوراق يوسف وصوره وأشياؤه وعود ثقابه وتذكاراته ... كان ذلك كل ما سأحمله معي من هذا الجحيم ... اذا قدر لي الخروج حية ... ومنذ ضمت الحقيبة البرتقالية كنزي وأنا ممسكة بها لا أفارقها .

خيل الي انني أسمع صراخ أمين .. يأتيني رغم عاصفة البارود . عاصفة السماء هدأت قليلاً ، وها هو خيط نحيل من الشمس يدخل إليّ عبر الزجاج الملون للقمريات .. آه الشمس . آه الفرح ... الغابات . البحر . القمر . الأزهار البرية . ندى الحقول . الأشجار . العشب . آه يوسف ... يوسف ... يوسف ... ابتلعته البئر ولم يعد .. وأخذها كلها معـــه ؟!

* * *

كابوس ١٤٦

لم أكن مخطئة . كان أمين يناديني . وجدته واقفاً عند منتصف الدرج وكانت هذه أول مرة يخطو فيها خارج عتبة بيته . لا ريب في أن كارثة ما قد حدثت .

— ماذا حدث ؟

لا يجيب فقط يستمر في مناداتي . يركض . أركض معه ... ندخل بيته وهو يركض أمامي نحو نافذة تطل على الحديقة الخلفية ..

من شق صغير بالنافذة ، نرى بوضوح : الخادم ممدداً ووجهه نحو الأرض كما لو أنه كان يرضع من ثديها ... ولولا بركة الدم التي لونت بعض الحصى حوله ، وضاعت في التربة البنية لظننته نائماً ...

قال أمين : لعله سرق شيئاً وحاول الهرب .. لم أجب ، تعلقت نظراتي بشيء كانت الجثة تقبض عليه باصرار ... شيء أصفر .. انها موزة ..

وعرفت لماذا قتل ذلك الانسان النبيل ... ولم أقل شيئاً ! ... لم أقل لأمين ان خادمه قد قتل من أجل اطعام كائن حي هو : القردة . تلك عواطف لن يفهمها ولا يقوى على منحها سوى الفقراء البسطاء .

* * *

كابوس ١٤٧

انه الجحيم ..

أن تعيش مع انسان لا يربطك به شيء أكثر مما يربطك بأية جرادة في الحقل .

انه الجحيم ..

أن تكونا مثل نزيلين في فندق أجبرا على الاشتراك في غرفة واحـــدة ... أن تتحدثا دون حوار ... أن يبث كل منكما على موجة مختلفة تماماً ...

انه الجحيم ..

وأنا وأمين مرغمان على البقاء معاً في غرفة واحدة بأقصى البيت خوفاً من انفجار الصاروخ الجالس على المقعد بالجهة الأخرى من البيت !

في البداية ، كان بوسعي البقاء وحيدة أطول وقت ممكن . الآن ، في الحديقة جثة ، وفي برميل القمامة جثة ، ولكنها جثث صامتة ، ومعي في الغرفة جثة أمين ، لكنه يثرثر ...

لقد قرر أخيراً إنفاق بعض كنوز الأسرة ، وفتح زجاجة نبيذ معتقة ، ومعها انفتح صدره المتخم بالتفاهات ...

انه مصر على أن يقرأ لي في دفتر النكات العتيق ... وأنا أحاول أن أركز على الكتاب الذي أنزلته معي واسمه « العقلية العربية » تأليف جون لافين ومنذ السطور الأولى أجده يتهجم على العرب .. أقلب صفحاته فأجده مجرد ملحمة لشتمنا ... يا الهي ، كلهم

ضدنا ، ونحن نخالفهم ضد أنفسنا ! .. أي رعب ..

انه الجحيم ...

وأمين ما يزال يقرأ في الكتاب العتيق للنكات ويضحك في هستيريا مخيفة ، وأنا أفكر باصرار : يجب أن أهرب . يجب أن أنجو . واستند الى الحقيبة البرتقالية بيدي وفيها كل ما يعنيني من هذا العالم الوحش . ترى هل هي صدفة أن لون الحقيبة برتقالي ؟ حين كنت صغيرة ، كنت أرسم الشمس دائرة تخرج منها شعاعات عدة ، وأصر على تلوينها بالبرتقالي رغم ارشادات معلمة الرسم على أن ألونها بالأصفر ... ومرة حدقت في الشمس لأرى فيما اذا كان لونها برتقالياً أم أصفر فشعرت بألم شديد وبدت لي الشمس سوداء ... وأينما نقلت نظراتي كانت تلاحقني الشمس السوداء ... ولكنني ظللت أصر على أن الشمس برتقالية . أمين مصر على أن يكرر لي احدى النكات لأنني لم أضحك لها ! ...

انه الجحيم ...

وأنا أتشاغل عنه بقراءة صحف ما قبل انقطاعنا النهائي عن العالم ... صور كثيرة لجثث القتلى بعد التعذيب وبدون تعذيب ... أتأملها ... ألحظ أن ملامح الأموات دوماً مسترخية ، كأنها استيقظت تواً من سبات طويل ! ... أمين ينتزع من يدي الصحف . انه ما زال مصراً على ملاطفتي بقراءة النكات لي ... أحاول مجاملته . أحاول أن أبتسم . وأفكر ، وأخطط لهربي ... أجل ! الهاتف هو الوسيلة الوحيدة ... انه ليس مقطوعاً ولكن ، لا حرارة فيه ... على الأقل خلال نصف الساعة الذي قضيته ممسكة بالسماعة لم تسر فيه أية (حرارة) ... اذن سأمسك بالسماعة طوال ساعة ، بل طوال النهار ... ما دام وسيلتي الأخيرة لاطلاق صرخة الاستغاثة ...

انه الجحيم ...

أشعر بالجوع والوحشة ، وأتذكر مئات المجهولين في مختلف المدن العربية الذين طالما تعاطفوا مع حروفي ومشوا الى قلبي على جسور كلماتي تذكرت رسائل القارئات اللواتي وجدن في عذابي مرآة لقلوبهن الممزقة ... آه لو كتب الجميع لي رسائلهم على الخبز ... اذن لما عرفت الجوع أبداً ...

لكنني جائعة ...

وأمين ما يزال يشرب نبيذه ويطلق نكاته ... والهاتف ملاصق للغرفة التي يجلس

فيها الصاروخ غير المتفجر ... وأنا حائرة بين المغامرة بالذهاب الى هناك .. أو البقاء هنا والموت ضجراً من أمين ... أجل ... هذا الرجل سيغتالني وسيقتلني بالسلاح الوحيد الذي لا ذكر له في نصوص قوانين العقوبات : السماجة ...

انه الجحيم ...

نظراتي تهيم في كل مكان وتتطلع الى أي شيء ، متحاشية أن تتعثر بوجهه ... عبر الباب المفتوح أستطيع أن أرى المقعد الذي مات فيه العم فؤاد ، والكنوز ما تزال تحيط به ... على المقعد ذاته سيموت أمين والكنوز تحيط به ... انهم على استعداد للموت من أجل أوثانهم ، والمال هو معبودهم الجديد ، المال بكافة صوره من آنية فضية وصينية وذهبية ..

آه الشمس . الفرح . الحرية . البحر . الغابات . القمر . النجوم . آه يوسف . ما الذي يدفع بالناس الى التكالب على جمع الأوثان وحتى الموت في سبيلها ؟ ..

سمعت صوت يوسف : « انه الخواء من الحب » . أجل الخواء من الحب . وها هو أمين يجلس أمامي مثل خابية مثقوبة لا تضم غير الفراغ ... والشعور المفرط بالخواء ... آه يا يوسف ...

ذلك هو ما يدفع بالناس الى التكالب على السلطة والمال ، وبالتالي الشر ، أي الحرب .

العشاق لا يطمعون بانتزاع اللقمة من فم سواهم كي يصابوا بالتخمة ، فالعشاق لا يجوعون بأكثر من طاقة الأرض على اطعامهم ... آه يوسف . العشاق يمتلكون ذاتهم ، وهم بالتالي لا يشعرون بالحاجة الى اثبات الذات عن طريق جعل المادة معادلاً موضوعياً لها .

الذين يستعيضون عن (الحب) بـ (حب التملك) هم الذين يصنعون الحروب ... ثم يموتون رعباً بين كنوزهم ، ويصيبون نسلهم بلعنة « ميداس » ...

انه الجحيم ...

والقصف لم يهدأ كي أذهب الى الهاتف وأحاول ... والبيت بأكمله يرقص كما لو كان الزلزال راكضاً به في دروب قرية الانهيار ...

قررت : سأنتظر حتى يهدأ القصف ، وبذلك تنقص ، احتمالات انفجار الصاروخ

في الغرفة المجاورة لموضع الهاتف ..

لكن القصف لم يهدأ ... وفكرت بالمئات الذين يموتون ... وقال أمين : لكل شدة نهاية ... غداً يعود كل شيء كما كان وترميمن البيت ...

الأحمق ! هل يصدق حقاً أن أي شيء يمكن أن يعود كما كان ؟ أولئك الذين يموتون ، هل يظنهم مجرد أحجار شطرنج يستورد التجار بدلاً عنها ؟ ...

ووجدتني أنهض راكضة الى الهاتف . رفعت السماعة وفوجئت في اللحظة ذاتها بأن هنالك من يطلبني . صوت أليف . انها الصديقة آمال ... ومثل سفينة تغرق ، وتطلق صرخات استغاثتها في الاتجاهات كلها ، قلت لآمال بسرعة خوفاً من موت الهاتف أو موتي أنا : اسمعي . يجب اخراجي من هذا البيت بأية صورة . اتصلي بالجميع . جميع الذين سيكتبون المطولات في رثائي اذا مت ويترحمون على موهبتي وشبابي ، قولي لهم انني لا أريد رثاء ، وملعون كل من يكتب كلمة رثاء أو قصيدة تأبين . قولي لهم أريد أن أحيا ... اذهبي الى الجميع ... مهما كانت المغامرة سأخرج ، لأن البقاء هنا أضحى مرادفاً للموت .. أريد مصفحة وسأركض اليها ولو تحت مطر الرصاص .. وانقطع الاتصال الهاتفي ... لكنني كنت أعرف أنها لن تفعل شيئاً آخر ...

انه الجحيم ...

فقد قلت لأمين : هنالك احتمال في قدوم ملالة لانقاذي . هل تريد الخروج معــي .

رد بذهول : وكيف أخرج ؟ وماذا عن البيت ؟ سينهبه السارقون .

انه الجحيم فعلاً ! ... حيث تعبد الجدران والأوثان . قلت ذلك لأمين . وفاجأني جوابه : ولكنك مثلنا . كل ما في الأمر أنك تعبدين وثناً مختلفاً لكنه وثن . هذه الحقيبة البرتقالية وأوراقك وكتاباتك فيها ... خوفك المستمر على مكتبتك من الحريق ، هو تماماً كخوفنا على ذهبنا وفضتنا من الحريق ... اذا كنت وثنياً فأنت أيضاً مثلي وان كان ما نعبد مختلفاً ...

لم أجب . من حيث المبدأ بدا لي ما يقوله صحيحاً الى حد ما ... ولكن ، اذا فرضنا جدلاً أنه على حق ، أليس هنالك أي فرق — ولو « كمي » ان لم يكن نوعياً — بين من يعبد الذهب ومن يعبد الكتاب ؟ ..

صرخ صوت من داخلي : لا . لا فرق . كلاهما عبادة . والكتاب وسيلة لاكتشاف معرفة جديدة ، لا للتمسك بما عرفته للتو . الكتاب لحظة لاحقة ، وكل كتاب انتهي من قراءته يجب أن يقضي نحبه ، وأتخلى عنه بانتظار الكتاب الذي سيصدر ...

ولكن ... مكتبتي .. انها ليست مجرد كتب بالنسبة لي ... انها حوار .. كل كتاب انسان تحاورت معه ... فعلى هوامش كتبي كلها دونت ذلك الحوار .. وعلى هوامش كتبي كلها سجلت صرخات الاستحسان أو الغضب أو التساؤل أو النقاش ... الكتاب الذي أقرأه ، أقرأه كما لو أنني أعيد كتابته ، أو أشارك كاتبه في حيرته وبحثه وتساؤلاته ... كتبي ليست مجرد كتب تزيينية .. بل هي محاضر جلسات بيني وبين المؤلف ...

انه الجحيم ...

فأنا لا أستطيع أن أقول ذلك كله لأمين لأنه لن يفهم ... صواني الفضة والذهب الموجودة لديه ، يمكن اعادة شرائها من أي مخزن (كريستوفل) في العالم ، وكل ما يحتاجه الأمر هو توقيع على (شيك) ، أما مكتبتي فلا يمكن شراؤها كما هي من أي مكان في العالم ، فأنا أستطيع شراء الكتب نفسها ، لا جلسات الالفة مع السطور والهوامش على جوانبها ... الهوامش التي تسجل تفاعلي مع الكتاب ، لا الكتاب وحده .. والتفاعل الانساني لا يمكن شراؤه ...

ولكن ، حتى لو قلت ذلك لأمين فانه يستطيع أن يرد علي ببساطة ، ويستطيع أن يتحدث عن الخدوش في أطباق الذهب وذكرى كل خدش بالنسبة اليه والأقوال التي قيلت لحظة احداث الخدوش ، والمناسبات التي تسجلها .. يستطيع الادعاء أن كل صحن هو بالنتيجة أسطوانة ، خدوشها تسجل جلسات غالية بالنسبة اليه ، تماماً كهوامش كتبي . .

انه الجحيم ...

حين لا يبقى لك غير الصمت . حين تضطر للدخول الى قوقعتك كأية سلحفاة مذعورة كي لا تطرح جواهرك قدام الخنازير فتدوسها بأرجلها وترجع اليك فتمزقك ! ..

انه الجحيم .

انه الصمت غير الودي . صمت العجز عن الالتقاء على جسر الحوار . صمت ما

قبل اختراع اللغة . صمت الكهوف . صمت الغرباء . صمت مدراء البنوك أثناء اجراء الحسابات دونما مبالاة بسقوط المحاور صريعاً بالسكتة القلبية .

انه الجحيم ... انه صبر روبنسن كروزو ...

انه الصمت داخل حجر الصمت . انه الصمت الميت المعزول . انه صمت الغرباء ...

انه صمت الذين لم يبق لهم من الجسور المهدمة غير جسر الأمل ... انه صمت الرماد ، لا الصمت على صدر يوسف ... الصمت الفصيح .

آه يوسف ... يوسف ... يوسف ...

* * *

كابوس ١٤٨

جلس المستشرق على الشرفة العالية في القصر الكبير المطل على لبنان بأكمله .. لكن ستائر الشرفة كانت مسدلة بحيث لا يرى صاحب القصر وضيفه غير جزء معين من لبنان ...

أحد أعمدة الشرفة مبني من خشب الأرز والعمود الآخر من الجماجم ..

سيد القصر يداعب منظاره المكبر الذي يحلو له أن يرقب بيروت من خلاله ... والمستشرق يداعب كأس نبيذه الأول ويكرر العبارة التي جاء من بلاده خصيصاً لترددها : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى .

* * *

كابوس ١٤٩

على رصيف الكورنيش الملاصق للبحر ببيروت عشرات (البسطات) للبائعين الذين احترقت دكاكينهم بعد أن شب الحريق في أسواق بيروت سبعة أيام وسبع ليـــال ....

كانت بسطة محمد ملاصقة لبسطة عيسى ء وكان كلاهما جائعاً ، ينتظر من السماء رزقه ... هذه المرة كانت للسماء علاقة مباشرة برزقهما ، فالطقس السيء يعني عدم مجيء الزبائن الى تلك السوق الممتدة على طول رصيف كورنيش الروشة والطقس الماطر يعني تلف حاجياتهما القليلة التي يستعينان ببيعها على سد رمق أطفالهما ... وكانت السماء هذا الصباح غامضة ، محيرة ... تارة تنشق عن الشمس للحظات ، وأخرى تغيض أشعتها

لتحتل السحب الأفق بأكمله ...

تأمل محمد السحب الداكنة ، وبدت له مثل أشكال غامضة ، أو رسالة تحاول أن تقول شيئاً ... قال ذلك لعيسى ، جاره في البسطة الفقيرة . لم يرد عيسى . كان هادىء المزاج وقليـــل الكلام ، تقطر عيناه براءة وصفاء واعياء وفي يديه المعروقتين آثار مندملة كأنها بقايا جراح مسامير جرح بها كفيه أيام كان يساعد والده النجار في مخزنه ...

أما محمد فكان شديد الحيوية والتفاؤل ، يطلق صوته في أغنية عذبة كأغاني الرعيان ...

وبدأ الناس يقبلون على السوق .. بدأت حركة البيع والشراء كما كانت منذ فجر التاريخ ... لا آلات حاسبة .. لا دفتر ذمم .. لا فواتير ... ولعل النقود كانت الاشارة الوحيدة الى العصر ! ...

وكان المستشرق يرى ما يدور في قاع كأس النبيذ ... وكان سيد القصر يتأمل المشهد بمنظاره المكبر ...

وفجأة ، هبت ريح عاتية ... وأظلمت السماء كما لو أن طائر رخ غامضاً قد حجب الشمس .. وبدأت المظلات والثياب والحقائب والمدافىء الكهربائية وزجاجات العطور والأحذية تتطاير في الريح الصرصر العاتية ... وبدأ الباعة المساكين يركضون خلفها ، والذين جاءوا يتبضعون يساعدونهم على جمع ما أمكن جمعه داخل أكياس شفافة من النايلون ... وخلف الرصيف كان هنالك كوم كبير من القمامة ما تزال النار « تعس » فيه .. تطايرت عنه الأكياس والشرر والجمر والرماد وعلت في الجو ثم أمطرت الجميع بمطر من سجيل والريح تنثر الرماد الملتهب في العيون التي جرحها البرد ... كان مشهداً خارجاً من أساطير المدن الملعونة التي كتب عليها العذاب تكفيراً عن خطيئة لا تغتفر... كان عيسى يبيع الشموع المعتقة المصنوعة من الشحم وزيت الزيتون الناصري النقي ، والطيب يفوح من رائحة بسطته ... أما البسطة المجاورة لبسطته ، بسطة محمد ، فكانت تتضمن أشياء كثيرة عملية ، كماء الزهر ، وأقفال للصناديق ، وكتب مدرسية للأطفال ، وسجادات صغيرة ، وكثيراً من الصابون والطحين والطيب ...

وحينما هبت الريح ، طارت عشرات (البسطات) بكل ما فيها ، والباعة يطاردون

بضائعهم ويساعد كل منهم الآخر في دوامة البؤس المشتركة .. وحين عصفت الريح اختلطت محتويات البسطتين معاً ، وتعاون محمد وعيسى على لملمة أشيائهما المبعثرة في الريح . . كانا متعبين وقد احمر الخد الأيمن لعيسى فأدار الأيسر باتجاه الريح ، في حين لف محمد وجهه بقطعة صوفية وجلس وعيسى يحزمان بضائعهما في انتظار يوم أكثر صحواً ... وحين هطل المطر احتمى كل منهما بجسد الآخر ، وعانق جوع كل منهما جوع الآخر وفقره ...

في هذه اللحظة ، كان المستشرق يجرع كأسه ويؤكد مصراً : ما يحدث عندكم هو شجار بين عيسى ومحمد ... ومسح مضيفه عدسات منظاره المقرب وقال : يجب حماية (الأقلية الراقية) بقوة السلاح ... والا أكلها المتوحشون ...

* - *

كابوس ١٥٠

صب المستشرق كأسه الثانية ، وكان النبيذ معتقاً والكأس من الفضة . وداخل الكأس شاهد أكواماً هائلة من القمامة ، وقد اتجهت نحوها عجوز وكلب ضال ... بدأت العجوز تبحث بأصابعها المزرقة عن بقايا طعام ، وكلما وجدت حبة بطاطا نصف متعفنة أو كسرة خبز جافة وضعتها في كيس حملته بيدها الأخرى التي لم تكن مزرقة لأنها كانت عارية تماماً من اللحم وكانت سلاميات عظامها واضحة كما لو أنها ظاهرة من خلال أشعة إكس ...

أما الكلب فلم يكن يحمل كيساً وانما دخل في كوم القمامة واللعاب يسيل من فمه ، وغاب طويلاً ثم خرج واستلقى على أحد جانبيه قليلاً كأنه يفكر ، ولم يلبث أن بحث عن كيس وسط القمامة حمله باحدى قائمتيه الأماميتين ثم سار على قائمتيه الخلفيتين كأي رجل يفتش عن رزق أسرته ، وبدأ يملأ الكيس ببقايا العظام كما تفعل العجوز ... كانت بين القمامة بقايا آذان بشرية مقطعة وأنوف وأصابع ، للمها بكل فرح ... كان واضحاً أنها ما تزال طازجة ، وانها مقطوعة منذ أقل من ساعات ، وحين شاهدتها العجوز الجائعة التي لم تذق اللحم منذ أشهر هاجمت الكلب وقد كشرت عن نابيها الوحيدين المتبقيين من أسنانها ... وعوت على الكلب فمضى مخلفاً لها نصف الغنيمة ! ...

كان المستشرق يرى ذلك مرتسماً داخل الكأس ... لكنه لم يلق اليه بالاً . وانما عاد يؤكد : قلت لكم ان القضية هي مجرد شجار بين محمد وعيسى . ومن الضروري حماية الأقليات بتدخل عسكري من قبلنا مثلاً .

أما مضيفه ، فقد رفع عن عينيه منظاره المكبر ، ولكنه كان على أية حال يحدق في ناحية أخرى ..

* * *

كابوس ١٥١

سكب المستشرق كأس نبيذه الثالثة ، وحدق في السائل الأرجواني المضيء بفضة الكأس اللامعة النقية ، وعاد يكرر : أجل : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى . الصلح هو المطلوب . لا غالب ولا مغلوب .

وفي داخل الكأس ارتسمت بعض الصور والمشاهد ...

كانت هناك صورة لشاب جائع . كان جائعاً منذ وعى الحياة ، ولقيطاً أيضاً . لم يعرف له أباً أو ديناً ، وكان دينه الوحيد هو الفقر والطقوس الوحيدة التي يمارسها كل يوم : الجوع والتسكع ... وكان يحلو له التسكع أمام واجهات (الجاليريهات) وصالات العرض الخاصة ببيع المفروشات... كان يقف طويلاً أمام منظر المقاعد الوثيرة التي لم يضم جسده قط مقعد مثلها .. وكان يتأمل الفراش المستدير ، والأضواء المحيطة به ، وجهار الراديو والهاتف الملصق به بحيث لا يضطر النائم فيه الى القيام بأية حركة ترهقه وتحول دون استرخائه ، واستمتاعه بموسيقاه ونسائه ... وكان يقف أمام واجهة معينة بالذات تقابل احدى دور السينما ، فيتخيل الممثلات اللواتي تتصدر صورهن المدخل شبه عاريات ، ممددات في الفراش بالدكان المقابل ... ان الرجال القادرين على شراء فراش كهذا هم بلا ريب القادرون على الحصول على مثل هذه النسوة .. وهو محروم من ذلك كله ... ينام نصف ليله على كيس من الطحين ، ويقضي نصفه الآخر في عجن الطحين وخبزه ، ومغازلة الخادمات البدينات المشققات الأيدي ...

حتى انتسب (اليهم) وصار بوسعه الحصول على اصبع من الديناميت ورشاش ....

وها هو يركض في شوارع المدينة ... يرمي الديناميت على الفراش الذي طالما عذبه وأرّقه ... يدمر المقاعد التي لم يستطع أبداً الجلوس فيها ... انه يشعر بالعداء ضد

كل تلك الأشياء الجميلة المترفة التي وجدت دوماً لتعذبه ، والتي أطلت عليه دوماً من خلف الواجهات ترافقها نظرات البائعات المليئة بالاحتقار لثيابه الممزقة وهيئته الرثة ، وكن أحياناً يطردنه بلغة لا يعرفها — ويعتقد أنها الفرنسية — فيفهم شتائمهن من لهجتهن ، وبعد أن ينهرنه يعدن الى كلابهن المرفهة ليدلعنها باللغة الفرنسية أيضاً ..

كان قد انطلق في الشارع كعاصفة ... يحطم برشاشه الواجهات ويضرم النيران في الستائر ... لاحظ ذلك أحد الرفاق . قال لصديقه وهما يختبئان بحذر خلف متراس بينما انطلق ثالثهما كالمجنون يحرق كل شيء ويدمر كل شيء : ماذا دهاه ؟ انه غير منضبط إطلاقاً ...

رد الآخر : ولماذا تلومه ؟ انه بشر . الثوار بشر لا (قديسون) . على الذين يربونهم في الحرمان أن يتوقعوا أن تكون ردة الفعل هكذا أحياناً .. قال الرفيق بحزن مردداً قولاً لأندريه مالرو : التعقيد هو مأساة الثورة ، لأن أحداً لا يثور بتجرد مطلق ... انتهره الآخر : وأولئك المفترسون الذين يسرقون لقمتنا ... هل كانوا يدفعون حقوقنا بتجرد مطلق ؟! ...

كان المستشرق يحدق في كأسه دون أن يرى جيداً ما يدور أو ينصت الى أحاديث الشبان الثلاثة ... جرع كأسه وكرر : انه مجرد شجار بين محمد وعيسى .

أما مضيفه فسأل أحد رجال الحاشية بعد أن رفع منظاره عن عينيه : ما هذه النار المتصاعدة من الشوارع .. والدخان ...

أجابه أحدهم متملقاً : لا شيء . انهم يحرقون لك البخور يا مولاي ... ابتهاجاً بعهدك السعيد وعمرك المديد !

* * *

كابوس ١٥٢

سكب المستشرق كأس نبيذه الرابعة ... وداخل الكأس ارتسمت صورة رجل جاع طويلاً فخرج على الناس شاهراً سيف السرقة . سرق ثلاجة وباعها فوراً بثمن بخس ، وحين فتحها المشتري فوجيء بها مليئة بالطعام ! ... في البداية فكر بتقديم شكوى للشرطة واعادة الثلاجة الوردية الكبيرة الى أصحابها ، ثم لاحظ أنها تشبه كثيراً ثلاجة (البيك) الذي يعمل سائقاً لديه دون أن يقبض راتبه منذ أربعة أشهر بحجة أن

البنوك مقفلة ، ولا توجد (سيولة) .. ومع ذلك فالسيولة موجودة باستمرار لملء الثلاجـة بأشهى أنواع الطعام التي لم يذقها من قبل وان كان يلمحها في طريقه للخروج من باب الخدم بالمطبخ ! ...

شرب المستشرق نبيذ كأسه الفضية وقال بعد تفكير طويل : أجل ! بلدكم جميل وساحر ، ومحظوظ كل من له مرقد عنزة في لبنان . مشكلتكم هي فقط في الشجار بين محمد وعيسى ..

أما مضيفه فتثاءب ... وجرع كأس العرق التاسعة ... وسأل أحد مهرجيه : كأني ألمح المدينة تحترق . أجابه المهرج : انهم يشعلون البخور حباً بك يا مولاي !

* * *

كابوس ١٥٣

سكب المستشرق كأساً خامسة من النبيذ ، وصار يتأمل في نقوش الكأس الفضية الثمينة دون أن ينظر جيداً الى ما يرتسم من أحداث على صفحتها القانية كالدماء ..

وعلى صفحتها القانية كالدماء ، كان أبو مروان يتحرك في الفجر المبكر بنشاط لا يتناسب وسنه ... كان يكنس مدخل العمارة ، والرصيف أمام العمارة ، وحتى الشارع أمـام العمارة ... وقطته الصغيرة فلة تلاحقه مع كل خطوة وتموء وتموء ... كانت الكائن الوحيد الحي في هذا العالم الذي يرتبط به ، أما أولاده السبعة عشر فكانت صلتهم به كصلة أي أرنب بأولاده ...

رن الهاتف يناديه من احدى الشقق . تظاهر بأنه لم يسمع وتابع عملية الكنس . كان يحس بأنه في خير حينما يكنس فقط .. عاد الهاتف يرن . انه نزيل احدى الشقق ، يريد منه جلب تاكسي يحمله الى المطار ، كلهم يسافرون ، كلهم خائفون على حياتهم وعلى ممتلكاتهم . وأبو مروان الذي يعمل بواباً منذ نصف قرن ، لم يشاهد مثل هذا الجنون يجتاح المدينة ...

يأتي سائق التاكسي . يريد ٢٥ ليرة لبنانية كي ينقل الزبون الى المطار . غضب أبو مروان ، وتشاحن معه طويلاً ... وعبثاً حاول سائق التاكسي اقناعه بعدم التدخل بينه وبين الزبون قائلاً : أولئك الذين يسافرون هم من الأثرياء ، لا من الفقراء مثلي ومثلك فاتركني أفتش عن رزقي .. لكن أبو مروان لم يهدأ حتى استطاع انزال

الأجرة الى ١٥ ليرة ، وودع الزبون حاملاً له حقيبته ، متسائلاً بلهفة عن موعد عودته . بعد شهر ؟ حين تهدأ الأحوال ؟ أهلاً بك . اطمئن سأعتني بالشقة .

لم تكد السيارة تغيب حتى كان رأس أبو مروان يغيب خلف زجاجة الكونياك في شقة المسافر وهو يجرع منها جرعات كبيرة . شرب خمرة المسافر . وأعطى ما تبقى من الطعام لقطته فلة ... وأغار على الشقة فنظفها من محتوياتها ، ثم تابع غارته على بقية الشقق التي هجرها أصحابها موقتاً ..

كان صديقه أبو دعاس حارس المنطقة هو الذي يتولى تصريف المسروقات وبيعها . بل انه هو صاحب الاقتراح ... وهو يعرفه منذ كان يعمل حارساً للمنطقة ، ويساهره ويسامره وذات مساء أفهمه أبو دعاس أنه لن يعمل حارساً بعد اليوم بعد أن صار قانعاً بأنه يعمل حارساً للسارقين الكبار الذين يعيشون في الشقق الفخمة . وانه قرر الاستقالة من حراسة (الحرامية) ومن الجوع ، وبدء حياته على طريقته .

لم يفهم أبو مروان جيداً نظرية أبو دعاس . لكنهما شريكان ، والأمانة هي الشرط الأول ، وهما يقتسمان السرقات بكل أمانة وأخلاق ...

لقد ازدهرت أعمالهما كثيراً في الأشهر الماضية ... بل انضم اليهما الشرطي أبو شكري الذي أوكلوا اليه أمر اعادة المسروقات الى أصحابها .. وهو غالباً ما يفعل ذلك بعد انتقاء بعض الأشياء التي هو بحاجة اليها ... لقد أصبح الناس يتقبلون أي شيء هذه الأيام ، ومرة كان يعيد المسروقات الى أحد أصحابها وقد ارتدى (خف الصلاة) الذي احتفظ به لأنه كان بحاجة اليه . لقد شاهد صاحب المسروقات خفّ صلاته ، وهو واثق من أنه تبينه ، لكنه لم يجرؤ على قول كلمة واحدة ولو قال له كلمة واحدة لما توانى في الرد عليه. هذه الأشياء التي تستعيدها بصفتها ملكاً لك، ألم تمتلكها عن طريق السرقة ؟...

هكذا يتسامر أبو مروان ورفاقه كل مساء حين تجمعهم زجاجة ويسكي مسروقة ... وهذا المساء كان يحدثهم الشرطي أبو شكري عن فرقة السرقة والتشليح التي نظمها ، واختصاصها سرقة المارة في شارع كليمنصو ...

وسأله أبو مروان : ولماذا كليمنصو لا شارع الرملة البيضاء ؟ ...

رد أبو شكري : الرملة البيضاء محجوزة لفرقة رئيسي ! ...

جرع المستشرق كأسه ، ولم يكن يسمع شيئاً من الحوار الدائر داخلها ... كذلك فعل مضيفه ، وكان النعاس قد بدأ يثقل جفونه . لكنه سأل للمرة العاشرة منذ الصباح : ما رأيك ؟ أجاب المستشرق : قلت لك انه خلاف بسيط بين محمد وعيسى . ستتدبر الأمر ! ...

* * *

كابوس ١٥٤

سكب المستشرق كأسه السادسة من النبيذ ، وتابع تأمله في افريز النقوش على فضة الكأس المطعمة بخيوط ذهبية ... آه كيف لم يلحظ الذهب ؟ ما أجمل هذه الكأس ...

وبينما كان مشغولاً بتأمل شكلها ، لم يلحظ المضمون ، لم يلحظ الصور والأشكال التي كانت ترتسم على صفحة النبيذ الأحمر بلون الدم ... .

الدم ... لقد جرح نينو أصبعه في الظلام ... كان نينو نجم المجتمع الشهير يدعى الى الحفلات كلها ويلبيها كلها ... كان ثرياً ولد وفي فمه منجم من ذهب ، ولم يكن يحب النساء ولا يكرههن . لم يكن يحب السفر ولا يكرهه . لم يكن يحب خدمه ولا يكرههم . لم يكن يحب يخته ولا يكرهه .. شيء واحد كان يجعل الدم يتدفق الى عروقه كاللهب ، ويطير به الى ذرى النشوة والمتعة : السرقة ...

تلك السرقات الصغيرة التي كان يقوم بها في بيوت أصدقائه أثناء الحفلات ، وفي الفنادق الفخمة والنوادي الليلية الأوروبية والمتاجر الكبيرة .. في البداية أقلقه الأمر . ذهب لمراجعة طبيبه النفساني فقال له الطبيب ان اسم مرضه هو (كليبتومانياك) وانه لا ضرر منه ، ثم تقاضى منه مبلغاً باهظاً لقاء السماح له بممارسة هوايته الوحيدة ...

وأفرد لمسروقاته غرفة خاصة .. وقبل أن ينام .. كان يدخل اليها كل ليلة ككاهن يؤدي صلاة ما قبل النوم ، ويتحسس مسروقاته بمتعة متناهية ... وكل قطعة منها تعيد اليه الرعشة التي انتابته لحظة اغتصابها ..

لكنه جرح اصبعه في الظلام حين أطبق على السكين الذهبية الخاصة بفتح الرسائل على منضدة مضيفه ... الذي حدث بالضبط هو انه انسل من الحفل الى غرفة المكتبة الى حيث حفظ موضع السكين جيداً ، ولم يكد يمد يده ليطبق على السكين حتى كانت يد أخرى تمتد في الظلام لتطبق على يده ...

شعر بقلبه يقرع مثل طبل في مأتم بدائي ... ترى هل هي يد مضيفه ، أم انه ثري آخر مثله يشاركه هوايته ؟ ...

ظلت اليد مطبقة على يده بقبضة حديدية . بينما أضاءت اليد الأخرى النور ... وفوجىء بأنه أمام سارق عادي .. ملثم ... ثيابه تدل على رقة الحال ، لكنه يحمل مسدساً . سارق عـــادي ! شعر بالاحتقار ، وبالغضب ... انسحب دونما نقاش ، لم يقل أية كلمة ، أخلى الساحة للرجل الآخر الذي كان مستعداً للقتل كي يسرق . أية فظاعة ! . رجل يمارس السرقة كمهنة ؟ أي امتهان لجمال السرقة ، السرقة كفن ، السرقة للسرقة ذاتها ..

ومن يومها ، ونينو حزين مثل فنان شاهد الموناليزا تمارس الدعارة ، فقد صارت السرقة مهنة الجياع والعاطلين عن العمل ، وما أكثرهم والحرب الأهلية تلتهم كل شيء .. وصارت أخبار السرقات الكثيرة تؤلمه كأنها موجهة ضده شخصياً ...

وشكل نينو فرقة لمكافحة السرقة صرف عليها من نقوده الخاصة ، وحين قتل على يدي عصابة من الجياع اعتبرته الدولة شهيداً ، ورصع مندوب عنها تابوته بوسام كبير ... وقد حاولت جثته سرقة الوسام عن التابوت الا أنه كان محكم الاغلاق ! ..

شرب المستشرق كأسه حتى الثمالة ، بينما كان مضيفه يحدق عبر منظاره الى بيروت والنار تلتهم أطرافها ، وكرر السؤال وهو يتثاءب : أهذا حريق ؟

رد أحد الفصحاء من أفراد حاشيته : لا . لا حرائق . المدينة تنام بخير ، والساهرون عليها يحرقون البخور لأجل عينيك .. وكرر المستشرق نظريته : ما يدور هو مجرد سوء تفاهم بين محمد وعيسى .. سنصالحهما .

* * *

كابوس ١٥٥

سكب المستشرق كأسه السابعة ، وغاص في تأملات عميقة تحت نقوش الكأس وتسلق نتوءاتها وأرخى رأسه في خدر على الخيط الذهبي الزخرفي وكان له منه أمتع وســـادة ...

وفي داخل الكأس كان السائل الأرجواني يغلي ... وعلى سطحه المليء بالفقاعات الدامية كانت صور كثيرة ترتسم ...

كان مئات من الجياع الحفاة يهاجمون مستودعاً كبيراً للطحين والحليب المجفف في ضاحية بيروتية ... أسر بكاملها ... بأطفالها ... بشيوخها .. بنسائها .. الكل جائع ، وكل حمل ما يستطيع حمله من أكياس ، غير عابىء بالرصاص الذي يطلق باتجاهه . أحدهم سقط تحت أكياس الطحين التي كان يحملها ، فانسكب الطحين على وجهه فمات مختنقاً وقد ملأ الطحين رئتيه بدلاً من معدته ...

في المساء ذاته ، كان أحد رؤساء تحرير صحيفة بيروتية يرفع قدميه فوق الكرسي المخملية الأرجوانية الصغيرة تحت الطاولة ويعلق باستنكار : يا للهمجية ! ... وكان فرحاً لأن طائرته ستقلع بعد قليل الى حيث أسرته في باريس ..

رفع المستشرق كأسه ليتجرعها ، فوقعت نظراته صدفة على مشهد الجيـــاع الراكضين حفاة عبر سحب الدخان حاملين أكياس القمح والحليب المجفف .. فاندلقت الكأس من يده ...

لكنه قرر أن لا يصدق عينيه ككل الرومانسيين وقال بهدوء مؤكداً : كل ما في الأمر هو مجرد سوء تفاهم بسيط بين عيسى ومحمد ...

* * *

كابوس ١٥٦

سكب المستشرق كأساً ثامنة من النبيذ بدلاً من كأسه التي اندلقت ، ومن جديد غاص في تأملات عميقة داخل نقوش الكأس الثمينة .. وداخل الكأس كان السائل الأرجواني يغلي ، وعلى سطحه المليء بالفقاعات الدامية كانت صور كثيرة ترتسم ... ولكن المستشرق كان مشغولاً عنها بتقييم ثمن الكأس ..

كانت هنالك صورة رجل يلتقط في الصباح البارد رسالة دفع بها مجهول تحت بابه . تقول الرسالة : الى ... وعائلته ، غير مرغوب بكم في الحي . غادر المنطقة قبل أن ينسف البيت بك وبأسرتك . ملاحظة : أنت مراقب دائماً . لا تخبر أحداً بذلك .

لم يصدق عينيه . لا يمكن أن يقذف به خارج الحي بعد ربع قرن من نمو جذوره داخل ترابه ، لمجرد أنه من دين آخر . لكنه كان يعرف أنهم لا يمزحون ...

وامتلأ قلبه بسائل حامض أسود ...

ودهش جيرانه في المساء ، حين شاهدوه يعود وقد اشترى خزانة حديدية كبيرة

يرافقه حمال ينوء تحتها وغاب في البيت طويلاً حتى أدخلها ... فقد كان الجميع يعرفون أنه لا يملك ما يسد به رمقه ورمق أسرته ، لكن صبيان الحي المسلحين قرروا : هذا اللعين ، لديه أموال يختزنهـا ، وبدلاً من أن يهجر الحي ، ها هو يشتري خزنة حديدية ! سيدفع الثمن غالياً ... لن يستولوا على بيته فحسب ، بل وعلى نقوده ، واذا لم يخرج منه حياً أخرجوه منه ميتاً وغرسوا جثته تحت الجسر حيث مزرعة الجثث الخاصة بهـم ...

ولكنه فاجأهم جميعاً ، اذ غادر بيته عند الفجر ومعه أسرته وحاجيات قليلة من أمتعته ...

ووقف المسلحون يرقبونه وهو يغادر بيته وقد ترك الخزانة الحديدية بالداخل . الأحمق ! هل يظنهم عاجزين عن فتح أية خزانة حديدية وهم الخبراء بالسرقة ؟ ...

دخلوا الى بيته يعربدون . أدهشهم أن طعام الافطار كان جاهزاً ومتروكاً لهم على المنضدة .. ما أغرب أطوار هذا الجار ... كيف لم يلحظوا ذلك من قبل ؟ كان قد ترك لهم قلباً مشوياً وكبداً نيئة وبصلاً وبطحة عرق كبيرة ، وغيرها من مقومات طعام الفطور على الطريقة اللبنانية جداً ...

أكلوا القلب المشوي ثم الكبد النيئة الدامية كما لو كانا قلب وكبد صاحب البيت ، وشربوا ضاحكين وهم ينتظرون وصول زميلهم المتخصص في فتح الخزائن الحديدية . فجأة رن الهاتف . أجاب أحدهم . فوجىء بصاحب البيت يسألهم هل هم راضون عن الافطار الذي كان قد تركه لهم . وهل هم مرتاحون في بيته ، وهل هم في حاجة الى أية خدمة ؟ ..

همس المسلح لرفاقه : انه مجنون ...

ثم قال له ساخراً : نعم . نسيت أن تترك لنا خزانتك الحديدية مفتوحة ، أم انك تظن طعام الفطور رشوة كافية لنتناسى الخزانة ؟ ...

لكنه ذهل حين سمع الجواب : طبعاً الخزانة تحت أمركم ... وقد تركت لكم تعليمات فتحها في ورقة وضعتها على الخزانة ! .. إن ما أملكه تحت تصرفكم ... سأبقى معك على الخط ريثما تتأكد من وجود الورقة ومن فتح الخزانة ، والا عدت بنفسي الى الحي — اذا سمحتم — لأفتحها لكم ...

وذهل المسلح قليلاً ، وقال لنفسه : الدنيا مليئة بالجبناء والأغبياء ... والمجانين ...
وبالفعل ، وجد ورقة تعليمات فتح الخزانة في موضعها .. قرأ الأرقام التي عليه أن يدير أقراص الخزانة وفقا لها ، وأدار الأقراص ، وهتف رفاقه حين لاحظوا أن المقبض يدور ، وها هو يفتح الخزانة ... وفجأة دوى انفجار اهتز له الحي بأكمله ...
وأغلق صاحب البيت سماعة الهاتف مسروراً ! ... وانطفأت الصور على صفحة كأس النبيذ ... ولم يسأله مضيفه شيئاً لأنه كان قد راح في سبات عميق ...
لم يقل المستشرق شيئاً . لم ير شيئاً ... كان قد حلّق على أبخرة النبيذ الى منعطف الشخير ... وأكّد آحد أفراد جوقة المتملقين مردداً كالببغاء : انه شجار بين محمد وعيسى .. مجرد شجار .. سنصالحهما ! ...

* * *

كابوس ١٥٧

انه الجحيم ...
وأنا جائعة حقاً ... انه الجوع الارغامي المروع لا جوع الصائمين الراضين ... انه جوع المقموعين لا جوع النساك الزاهدين ، الذين تواطأت حواسهم مع عالمهم الداخلي على المشي في درب الجوع حيث يصير الجوع بسلاماً ...
انه جوع الثورة ... وذلك الألم في أحشائي ليس خواء بقدر ما هو قنبلة مستعدة للانفجار ... مغفورة خطايا الجائعين ... مغفورة آثامهم ... مغفورة أحقادهم ونيرانهم ...
قبل قليل غادر أمين الغرفة ، وها هو يعود ، ويخيل الي ان خديه قد تورّدا قليلاً ... لقد أكل ! صرت واثقة من أنه كوالده ، أخفى لنفسه حصة اضافية من الطعام ... كانت غلطة فادحة انني منذ اليوم الأول حملت كل ما في بيتنا من طعام الى هنا ... لم أكن بعيدة النظر ... لم أعرف هذا الجوع الشرس من قبل لأتعلم كيف أحتاط لمواجهته فيما بعد ..
لكنني جائعة ... وتعلمت ...
أتسلل الى (السقيفة) المعتمة حيث كان الخادم ينام ...
فقد تذكرت أنه كان يقبض بيده على موزة سرقها ليطعم بها قردة أمين .. والموز

(مفقود) في البيت منذ اليوم الثالث ... اذن لديه مخزون من الموز على الأقل ...

ألفت عيناي الظلمة ... قلبت وسادته فلم أجد شيئاً ... قلبت السرير المهترىء فلم أجد شيئاً ... انحنيت لأحدق تحت السرير . كنت متعبة . أراحني أن أدب على أربع وكأي حيوان جائع في الغابة كنت أفتش عن لقمة ... ولم أجد شيئاً تحت السرير ... وتابعت البحث في جوانب الغرفة ، ثم في نافذة ضيقة ، وهناك وجدت كنزاً ... كان هنالك أربع موزات وبرتقالة وثلاث تفاحات وقطعتا بسكويت وسبع زيتونات وكوم من كسرات الخبز الجافة ، وكانت وليمة لن أنساها ...

التهمت بعض ما وجدت بسرعة قبل أن « يضبطني » أمين وأخفيت الباقي جيداً تحت كوم من الجرائد العتيقة ، وهبطت من (السقيفة) بينما كان أمين يصرخ بشيء من الذعر : أين أنت ؟ ..

ودخلت الى الغرفة ، ولو حدق جيداً لشاهد في عينيّ النظرة شبه المذنبة نفسها التي شاهدتها في عينيه ، ساعة عاد من عشائه (السري) ... لكنني كنت ما أزال جائعة ... وقررت أن أتسلل حينما يهبط الظلام لألتهم الموزة التي ما تزال جثة الخادم تقبض عليها بإصرار ... أم تراني أطعمها للقردة كما كان ذلك الانسان النبيل ينوي أن يفعل ؟ ..

انه الجحيم ...

وأنا جائعة ... بل انني أكثر جوعاً مما كنت عليه قبل التهام وجبتي النحيلة ... كل ما حولي يصرخ بالجوع .. الجوع الى الطعام .. الى الشمس .. الى الحرية .. الى الفرح .. انه الجوع ...

وأستطيع أن أسمع مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة وهي تعوي جوعاً ويمتزج في صرخاتها الأنين ...

أنظر الى ساعتي ، لا أجدها ، لا أعتقد أنها سقطت من يدي . لقد ذابت وانتهى الأمر ! ...

ولكن ، ما جدوى الساعة ؟ .. انها العتمة وقد بدأت تخيم ، والبرد الشرس يتسلل الى نخاع العظام دونما ضجيج ؛ دونما رياح أو أمطار ... واذا سطعت شمس الغد ، فستكون قارسة شتائية ...

والعواء يتصاعد من دكان بائع الحيوانات الأليفة ، صرخات جوع مريرة لا يخطئها

الا الشبع ...

إذن ما زال الكلب الجريح على قيد الحياة قادراً على الدفاع عن نفسه ، ولعله يغالب النوم كي لا يغمض عينيه فيؤكل ..

واكتشفت انني أغالب النوم ... كنت مرهقة وضجرة ... قلت لأمين : سأنام .

قال بخوف : وأنا ؟

— أرجو أن يسامرك اللصوص ! ...

لم أكن أدري أنها لم تكن نكتة ، بل نبوءة . وطبعاً كان علي أن أنام حيث أنا ، ما دام الصاروخ غير المنفجر ما يزال يرقد الى جانب فراشي . جعلت من الحقيبـة البرتقالية وسادة لي ، ولعلي غرقت في نوم عميق رغم دوي الصواريخ ... حتى الصواريخ ، يمكن للانسان أن يألف دويها اذا ... اذا (تعاطاها) فترة كافية ...

* * *

كابوس ١٥٨

الفندق فخم والسهرة حافلة ، الريح جبلية في ضواحي قرية لبنانية (سياحية) .

والثلج دافىء . النساء جميلات وفارغات والرجال يهزون كروشهم باسم « الرقص الحديث » ... فالليلة عيد الميلاد .

والفندق فخم والسهرة حافلة .

المرأة عرت صدرها احتفالاً بميلاد المسيح ، المرأة ألصقت رموشاً اصطناعية احتفالاً بميلاد المسيح . المرأة قضت يومها في دكان الحلاق احتفالاً بميلاد المسيح ... زوجها اشترى في الصباح صفقة سلاح وزعها على السذج وحثهم على القتل باسم المسيح ثم غسل يديه بسرعة واستحم بكولونيا (بروت) وجاء يثمل ويغازل زوجة جاره ويلتصق بجسدها تحت ستار الرقص احتفالاً بمولد المسيح ...

وفي هذه اللحظة ، كانت جراح أحد الرجال ما تزال تنزف من موضع المسامير المدقوقة في يديه وقدميه العاريتين ، ومن اكليل الشوك المغروس في رأسه وجبينه ، ومن جسده المدمى بضربات الأذى ، وثقل الصليب الذي يحمله على ظهره راكضاً به في دروب العالم منذ عصور .

جاء من يقول له : أيها الرجل الجريح ، هناك من يحتفل بميلادك ... لماذا لا تذهب

الى هناك لتستريح ليلة ؟ ..

قال : نسيت الراحة ... لقد غسلت وجه الكرة الأرضية بدمي . لم أذهب الى مكان الا ودقوا في لحمي مسماراً إضافياً ... انهم يقتلونني باستمرار تحت شعار حبهم لي ..

قال له الرجل : لكن أولئك يشنون حرباً (مقدسة) باسمك ويموتون لأجلك اذهب اليهم فقد تنعش قلوبهم .

أسند الرجل صليبه الى سنديانة عتيقة ، وغسل جراحه الدامية في جدول نقي لكن نزفها الذي دام حوالي الفي عام لم يتوقف ، وقرر الذهاب الى سهرة أولئك الذين يموتون لأجله .. كانت ثيابه ممزقة ، لكنه قرر أن هذه التفاصيل السطحية لن تضايق قوماً يقيمون احتفالاً لأجله هو .. حين وصل الى الباب استقبله بعض المسلحين . سألوه :

ماذا تريد ؟

قال : سمعت انهم يقيمون سهرة احتفالاً بميلادي ، فقررت أن أجيء اليهم بنفسي ! .

انفجر أحد حراس المكان بالضحك وقال ساخراً : انه مجنون .. انه يتوهم نفسه المسيح .. انظروا الى ثيابه الرثة ..

وأجاب آخر : ولماذا لا يكون هو المسيح حقاً ؟ ألمجرد أن ثيابه رثة ؟ أم لأنه غريب اللهجة ؟ .

وركع عدد كبير من المسلحين قرب جراحه بخشوع وقد تركوا أسلحتهم وصاروا يتمتمون الصلوات ...

الا أن الصبي المراهق ابن الثري صاحب الفندق انتهرهم وصرخ بهم وقد التمع في صدره صليب فضي كبير ، وفي يده رشاش حديدي الأخمص : انهضوا أيها الحمقى الفقراء .. سأستجوب هذا المشعوذ أولاً ... وقال مخاطباً المسيح : هل أنت مسلح ؟

أجاب المسيح : لم أحمل السلاح طوال حياتي . لقد أدرت الخد الأيسر طيلة عصور .. أما الآن فمن واجبي أن أحمل السلاح دفاعاً عن .. الانسانية .

صرخ المسلح المراهق : ما هو دينك ؟

أجاب المسيح : ديني المحبة .

صرخ المسلح : لم أسمع بدين كهذا ، قل باختصار : أنت مسلم أم مسيحي ؟ أجاب المسيح : ما معنى هذه الألفاظ ؟ عاد المسلح الى الصراخ وقد استفزه فقر الغريب وهدؤه : هل أنت ابن « المنطقة » ؟ أجاب المسيح بهدوء مضيء : نعم ولا ...

وتابع الطيبون البسطاء صلواتهم .. الا أن المراهق ابن الثري ضربهم بالسوط وذكرهم بالويلات التي يستطيع أن يمطرها عليهم وعلى أسرهم ، فنهضوا حاملين أسلحتهم على مضض وفي عيونهم دموع شبيهة بالندى ...

تابع ابن صاحب الفندق استجوابه : ان وجودك يشكل خطراً على فندقنا ، وعلى زواره من السواح وعلى قواديه وعاهراته .. ما هي جنسيتك أيها الغريب ؟ لهجتك ليست لبنانية ..

قال المسيح : أنا فلسطيني ، وصرخ المراهق المسلح بقرف : فلسطيني !! . يا للعار ! أنت متسلل . مخرب ، عميل ، متواطىء على سلالة المردة . مجرم . عدو الأمة اللبنانية الخالدة .. وهنا انضمت الى المراهق أقلية شهرت السلاح في حين أجاب المسيح بهدوء : ولكنني المسيح أيها الحمقى .

قالوا : المسيح ؟ لا يهم . المهم انك فلسطيني .. فلسطيني . وأحاطوا به ، وصلبوه على باب الفندق الفخم بينما كان أكثر البسطاء يبكون وبعضهم الآخر يسقط صريعاً برصاص المراهق . دقوا المسامير في يديه ، تماماً في موضع المسامير التي سبق أن دقت فيهما منذ حوالي الفي عام ، وفي قدميه ، ولكن أحداً في الداخل لم يسمع أصوات قرع المطارق وهي تغرز المسامير في جسده الشفاف .

فقد كانت الموسيقى عالية وجسد زوجة الجار لدناً طرياً والرقصة مثيرة والخمرة قوية وفاجرة ..

وحين انتهت السهرة ، وخرج الجميع ، شاهد بعضهم شاباً نحيلاً مصلوباً فوق باب الفندق الفخم .. وسألوا من هو ولماذا هو مصلوب هكذا ، فأجاب أحد المسلحين : انه فلسطيني مخرب. صرخت امرأة ثملة : لن أضيء شمعة لأجله ! صرخت أخرى : لن أصلي لأجله . صرخت ثالثة : ثيابه قذرة ! ومضوا الى بيوتهم والاشمئزاز يغمرهم . فلسطيني ؟ يستحق مزيداً من المسامير ! ... وفي بيوتهم ، تابعوا الاحتفال بميلاد المسيح .

كابوس ١٥٩

الغرفة أسطوانة كبيرة مثل أحد المجارير العملاقة جداً ، تفوح منها أيضاً رائحة المجارير . الأرض مغطاة بالمطاط الأسود . الجدران مغطاة بالصدأ .

شادي جالس الى منضدته ، والعاهرات يحطن به ، أجسادهن مترهلة ، ووجوههن من الشمع الملون .

منذ غادر السجن وهو يعتقد بأن الحرب فرصة هائلة لجمع المال ، وهو يريد أن يجمع ثروة ليهرب من هذا الجحيم فيما بعد ويقطن جنيف .. وسيصير دفتر شيكاته خارطة وطنه .. سيفعل أي شيء كي يصير غنياً ..

القهر الذي عايشه وعاناه في السجن علمه أن المجرمين الكبار يرتعون خارجه ، في حين ينوي الصغار بداخله .. وهو قد قرر أن يصير من (الكبار) منذ غادر السجن ، وقد حقق الكثير من (آماله) في هذا المجال ..

.. واليوم يأتي زعيم احدى (الدكاكين المسلحة) — المندسين بين أوساط الثوار الشرفاء — لقضاء سهرة ممتعة .. وهو يستعرض عاهراته ليقدم له أفضل ما لديه دون أن يعثر بينهن على من تفي بالغرض المناسب .. ثم ان لديه متاعب أخرى كثيرة : لقد تشاجر البارحة مع أحد شركائه في تجمع « مافيا المنتفعين من الحرب » وارتكب خطأ فادحاً حين هدده بالقتل .. كان من المفروض أن يعامله بود ثم يرسل من يقتله برصاصة (طائشة) ... هذا الرجل قادم من زعيم (الدكان) الفكرية المسلحة ، وعليه أن يثبت له حسن نيته كي يقدر فيما بعد على (تصفيته) ... والعاهرات المتبقيات في بيروت بشعات كالحرب .. مشكلة أخرى تقلقه ..

فقد شكل عدة فرق للسطو المسلح على البيوت والمارة ، وهو واثق من أن رؤساء هذه الفرق (يغشون) فيسرقون من السرقات أكثر من النسبة المئوية التي سبق الاتفاق عليهـا ..

آه متاعب متاعب ...

ها قد وصل زعيم الدكان ورفيقه ، وهو لما يجد بعد امرأة مناسبة يقدمها هدية ، امرأة فيها بعض نضارة النساء اللواتي لم يصبح جسدهن عملة متداولة ...

تذكر امرأة ، تنطبق عليها هذه الصفات ... ودون أن يرف له هدب أعطـى

مواصفاتها : انها تقطن في بيت مقابل لفندق « الهوليداي إن » ، وهي الآن وحيدة المطلوب اختطافها بأسرع وقت .

. ولم يقل لهم أنها أخته ! ..

* * *

كابوس ١٦٠

... استيقظت وأنا أصرخ : أين أخي .. أين شادي ..

كان الظلام ما يزال دامساً ، وخيوط ما قبل الفجر الرمادية الداكنة تلف الكون ...

وكان عواء الجوع القادم من دكان بائع الحيوانات الأليفة يهز الأشجار والتراب ... وقررت أن ألقي نظرة ، قبل أن أصير هدفاً مثالياً للقناصين . كان أمين ما يزال يغط في سباته ، وشخير خافت غير رتيب ينبعث منه ، كأنه ما يزال خائفاً ومرتجفاً حتى وهو نائم ...

غادرت الغرفة .

تركت باب المطبخ المطل على الحديقة مفتوحاً .

مررت بالبرميل حيث جثة العم فؤاد . رائحة كريهة تنبعث منه . أو هكذا خيل إليّ ... لم أشعر بأي ندم لما اقترفناه ، فأنا لا أرى فرقاً كبيراً بين البرميل والتابوت والقبر ، بين أن يرمى بالجثة للنسور أو تحنط أو تحرق وينثر رمادها فوق المحيطات ..

نحو جثة الخادم اتجهت ، كان الظلام ما يزال مخيماً ، ولم أكن أرغب في القاء نظرة الوداع على أية حال ... حاولت تخليص الموزة من يده ، ولم أكن قد قررت ما اذا كنت سأطعمها للقردة أو نتقاسمها .. أو آكلها وحدي — على الأرجح — ! ولكن أصابعه كانت قد استحالت الى أصابع تمثال حجري وانسحقت الموزة وكان ملمسها في الظلمة مرعباً وحياً .. فمضيت نحو النافذة المطلة على مخزن دكان الحيوانات الأليفة ... كانت خيوط الفجر الرمادية قد بدأت تمتد الى الزوايا المعتمة في الدكان ، وكنت قد اتقنت لعبة التحديق في الظلام كأية بومة وحيدة في غابة من الرماد ...

أغلقت عيني قليلاً كي تألفا الظلمة ، ثم ألصقت وجهي بالشبك الحديدي للنافذة ، وقد حميت عيني بيدي كالمنظار دفعاً لأي ضوء خارجي ...

لم أر كثيراً ...

كان كل شيء كما تركته ، وكما تخيلته ...

في الأقفاص ، أيقظت خيوط الفجر الرمادية الحيوانات من نومها القلق المضطرب ، وبدأت تتعالى صرخات الجوع من الأقفاص ، رغم أنها لم تصمت حتى خلال نعاسها الشبيه بالنوم ...

كان هنالك كلب جريح ... لم أر بوضوح ذلك ، لكنه وحده من دون بقية الكلاب ظل قابعاً في مكانه يهمهم ، بينما بقية الكلاب تدور بين الأقفاص وأصوات جوع جنونية تنبعث منها ...

لا أدري كم طالت وقفتي ، لكنني سمعت حركة غير عادية في قفل باب المخزن أم تراني واهمة ، لا لم أكن واهمة ؛ فبعد قليل انشق الباب وارتمى شعاع قوي من النور داخل المخزن ...

انه صاحب الحيوانات الأليفة ... لم أر وجهه ، فقد كان يقف في ظلام نسبي خلف المصباح اليدوي الصغير (البيل) الذي يمسك به لكنني شاهدته يحمل كيساً كبيراً باليد الأخرى ...

اذن جاء يطعمها بعد أن أشرفت على الموت .. جاء يسقيها كي لا تموت تماماً ويفقد تجارته بها .. انه ما يزال يأمل في إمكانية عقد صفقاته ، ولو عن طريق بيعها بأبخس ثمن .. فالتجارة هي التجارة ...

أتراه صاحبها ، أم تراه سارق عاثر الحظ ؟

وسمعته يصرخ بأسمائها ، كأنه يستعين بها على خوفه .. بل لعله للمرة الأولى يناديها بهذه الحرارة ..

كان يقول : بوبي .. كيكا .. سيمو .. جاء البابا بالطعام ..

وفجأة ، انقض عليه الكلاب المطلق سراحهم . سقط المصباح من يده وتدحرج ولم ينطفيء ، وكنت أستطيع أن أرى المشهد المروع بوضوح ..

لقد انقض الكلاب الخمسة عليه يمزقونه .. حتى الجريح منهم شارك في حفلة النهش ... صرخ مذعوراً ثم سمعت صوت قرقعة حنجرته تحت أنياب أحد رعاياه .. مزقوا ثيابه .. وكانوا يلتهمونه التهاماً .. وكنت أتأملهم وأنا مسمرة شبه مسحورة .. كان المشهد لا يصدق ، كأنه طالع من عمق الأساطير ...

وحين انتهى الليل تماماً ، وطلع الفجر كانوا قد أكلوه ولم يتركوا منه سوى البقايا ، ثم خرجوا واحداً بعد الآخر من باب الدكان نصف المفتوح ... وكنت أحدق ببقايا دمه ولحمه الممزق ووجهه الذي تحول الى عجينة تبرز منها عظام ناتئة ، وعنقه الخاوي إلا من العظام حتى ان رأسه بدا لي كما لو كان مقطوعاً بمقصلة حادة . لم أشعر بالخوف ولا بالشفقة ولا بالمفاجأة كنت أعرف أن ذلك لا مفر من أن يحدث .

الغبي ! ... هل كان حقاً يتوهم أن هذه الحيوانات لا بد أن تبقى في القفص بانتظاره وهي تحتضر جوعاً (ووفاء) له ؟ ألم يتوقع أن يدي (الغريبة) ستساهم في اطلاقها ، وأن يدي ليست (يداً غريبة) ما دام هناك مصير واحد يربطنا .

الغبي ! يبدو أنه غير مطلع تماماً على أنه حتى للكائنات الأليفة المسالمة أنيابها وجوعها وغضبها . جاءها أعزل حتى من سوطه .. لأنه لم يتخيل ولو لثانية وحدة أن ما حدث يمكن أن يحدث .. كان الفجر قد انبلج تماماً ، وأنا هدف مثالي لأي قناص ...

وركضت عائدة الى البيت ، بعد أن (تصبحت) بجثث ثلاث : واحدة في البرميل ، وأخرى تحت النخلة ، وثالثة لم يبق منها غير هيكل عظمي وكومة من الثياب ...

أما الجثة الرابعة فقد كانت تنتظرني في الداخل . كانت جثة أمين ، وكانت جثة ناطقة لأنه كان يصرخ بي : أين هربت ؟ لقد هاجمني السارقون ...

في البداية لم أصدقه ... كان يتكلم بلهجة هستيرية الى حد أنني لم أصدقه ، وانما اعتقدت بأنه يحاول استدرار شفقتي كي لا أغادر الغرفة ...

لكنني لاحظت أن زجاج النافذة كان مكسوراً ...

سألته : رصاصة ؟

قال : بل السارقون . أقسم لك . لقد استيقظت على صوت الزجاج وهو يتكسر ، وعدة وجوه تملأ النافذة ، لامرأتين وصبي ورجال .. صرخت في وجوههم هلعاً وصرخوا هم أيضاً هلعاً وهربوا وهربت ! ...

اذن تم إعلان حينا منطقة ميتة ، وها هي قوافل الغربان الجائعة تأتي حافية لتلملم الكنوز من حول الجثث ... لكنهم فوجئوا بوجود شخص حي هنا ، بقدر ما فوجيء هو بقدومهم ...

مغفورة خطايا الجائعين ... مبارك كل ما يحرقونه أو يدمرونه ، فقد عرفت حقاً

معنى الجوع ! ..

* * *

كابوس ١٦١

لم أصدق رواية أمين تماماً إلا حين تلصصت من طرف النافذة ، وفوجئت بصرة مرمية على الأرض نصف مفتوحة تضم مسدساً ومعطف فراء وبعض الأشياء الأخرى التي لم أتبينها جيداً في الضوء الخافت للفجر ..

اذن لم يكن يكذب ...

قوافل الغربان الجائعة ، تجتاح أحياء بيروت المحروقة التي تحولت الى مقابر ... لكنهم فيما يبدو لا يقربون الأحياء بعد ، تماماً كما كانت مخلوقات دكان الحيوانات الأليفة تنتظر موت الكلب الجريح لتلتهمه . ولعلهم في غمرة هربهم أسقطوا بعضاً من غنائمهم ...

أتأمل الصرة نصف المفتوحة ...

وحده المسدس التمع عند ذلك الفجر الحزين ..

وحده المسدس من دون كل ما يحيط به من فراء وأشياء ثمينة تعلقت نظراتي به .

فيما مضى كنت أمقت السلاح ... حتى مقلاع الحصى (النقيفة) التي يلعب الصغار بها لصيد الطيور كنت أكره مجرد النظر اليها .. ولم يسبق أن أهديت لطفل دمية تمثل مسدساً أو رشاشاً أو أية أداة عنف ..

ومرة أهداني صديق ضابط مسدساً صغيراً ثميناً ذهبي المقبض يعتبره الهواة قطعة نادرة ، فأهديته بدوري الى احدى الصديقات وقطعت صلتي بالضابط ....

أما الان ، بعد ان مررت بمدينة الجوع والخوف والذعر والعنف . فأنني اتأمل المسدس مسحورة وفرحة ، وذهني يرسم طريقة الحصول عليه من موضعه في الحديقة دون التعرض لرصاص قناص ...

تراني اريد مجرد امتلاكه ؟ ام تراني على استعداد لاستعماله أيضاً اذا دعت الحاجة ؟ .. تراني اريده لحاجة نفسية فقط ؟ ام انني صرت مهيأة لإطلاقه ، انا التي كان يروعني قتل بعوضة ؟ ..

لم اكن على استعداد للتفكير بذلك كله . وادركت . العنف لا يفلسف ، وانمـــا

يمارس ! ... وصار همي الوحيد ذلك الفجر الجديد ان امتلك هذا المسدس المرمي خارج النافذة ..

سألت امين : هل في بيتكم مغناطيس ؟ ...

دهش . كان لا بد من طرح السؤال بصورة مبسطة .

– هل في بيتكم ادوات خياطة ؟ ..

كنت اعرف ان امه كانت تأتي بخياطة تقضي النهار في بيتها ، وتخيط لها ثيابها ... اذن لا بد من وجود بقية عدة الخياطة التي من بينها (الماكينة) التي شاهدتها مراراً ، وقد يكون من بينها المغناطيس الذي يجمع دبابيس الخياطة عن الارض والمقاعد والمساند والوسائد .. في علبة خاصة بأدوات الخياطة وجدت المغناطيس . في درج بالمطبخ وجدت خيطاً من (المصيص) . ربطت المغناطيس بالخيط ورميت به من النافذة قرب المسدس . كان علي ان احاول عدة مرات ففعلت حتى استطعت ان اصيب هدفي : المسدس .

انجذب المسدس الى المغناطيس والتصق به ، ومن موضعي ، خلف الجدار قرب النافذة ، حاولت الاستحواذ على المسدس دون ان اكون هدفاً ممتعاً لقنص صباحي ...

وبدأت اشد الحبل والمغناطيس المعلق به والمسدس الملتصق به ... بدأت الخطة بالنجاح ، وانزلق المسدس والمغناطيس معاً على الارض حتى صارا تحت النافذة تماماً . الا ان المسدس انفصل عن المغناطيس وسقط حين بدأت بشد الحبل لرفعه عن الارض .. لقد كان وزن المسدس اكبر من قوة جاذبية المغناطيس المعد لحمل الدبابيس لا المسدسات .

.. وفشلت الخطة العسكرية الاولى التي رسمتها في حياتي ! ...

* * *

كابوس ١٦٢

الكهرباء ما تزال ميتة . الهاتف شبه ميت ، لا (حرارة) فيه ، لا يرن ، ولا استطيع اجراء المخابرات منه .. لم اعد اذكر عدد ايام سجني وانقطاعي الكلي عن العالم ، لكنني واثقة من أنها تزيد عن الاسبوع .. اختفى امين من الغرفة ، وعرفت انه ذهب يلتهم ما سبق أن أخفاه من كسرات الخبز .. فعلت الشيء ذاته . تسللت الى (السقيفة) حيث خبأت ما ورثته عن الخادم من كسرات خبز جافة ، وأكلت ، ولاحظت ان الفئران شاركتني بعضها .... ثم هبطت الى المطبخ لاشرب بضع جرعات من الماء المغلي المقرف

المليء بالكلس الذي جعله الغلي ثم التبريد كملح مر المذاق .. وبينما كنت اغالب نفسي كي ابتلع ما يكفي لبقائي في قيد الحياة ، حدث الزلزال .

لقد ارتجف البيت العتيق باكمله ، وسمعت انفجارات مروعة وسقوط الزجاج المحطم على الارض .. بقيت جامدة في مكاني وشعاع شمس بارد يلتمع كنصل سكين فوق انياب الزجاج المهشم ..

وعيت ان البيت العتيق قد اصيب اصابة مباشرة ... انك بطريقة ما تعرف هذه الاشياء وتقدر على تحديدها حتى قبل ان تتحقق منها بالحواس الخمس ... هنالك حواس كثيرة منسية ومهملة ومجهولة تمارس مهامها حين يسكن الانسان على الخيط الفاصل بين الحياة والموت ... هنالك محركات سرية كثيرة تعمل في داخله ، وتمده بالطاقة والمعرفة ... والشراسة المذهلة ...

للوهلة الاولى قررت ان الصاروخ النائم فوق المقعد في الغرفة التي كنت انام فيها، قد صحا ، وانفجر اخيراً ... هكذا على الاقل تمنيت ان اعتقد ... لكن سقوط كتل الحجارة من الطوابق العليا الى الحديقة جعلني اعي ان الامر ليس على هذه الدرجة من البساطة ... ثم وصلت رائحة الحريق الى أنفي حتى قبل ان ارى الدخان ...

وركض امين صارخاً : النار تشتعل في بيتك ...

هرعت نحو باب المطبخ . فتحت بابه . عجزت عن الخروج الى الحديقة لالقي نظرة الى الاعلى فقد كانت كتل الاحجار ما تزال تنهار وتسقط على الارض وتتناثر في الاتجاهات كلها ، وقد بدأت تختلط بأشياء ملتهبة تهوي على العشب لتتابع احتراقها .. ركضت الى السلم ، وكالمجنونة بدأت صعودي ... لكنني عجزت عن تجاوز حدود الطابق الثاني .. وشاهدت ألسنة النار تتدفق من فجوة بجدار الممشى حيث كانت تغطي الجدار رفوف مليئة بالكتب ... كان واضحاً ان اكثر من قنبلة قد اخترقت الجدار ، وفي المكان الوحيد الذي كنت اتوهمه آمناً (نسبياً) ، وفي الجدار الذي كنت اسند ظهري اليه حين يشتد القصف ، وآوي اليه واسميه (مقري الحربي) ! .. للنار هسيس موحش ... انها تأكل كل شيء ، وصوتها كصوت اسنان وحشية تقرض كل ما يعترض طريقها ، وحنجرة جهنمية تبتلع كل شيء ... آه مكتبتي ! ...

وركضت من جديد على السلم ، وقررت الالتفاف حول البيت لارى هل تنبعث

النار منها ... تحققت اعظم مخاوفي : شاهدت الفائض من النار يخرج من نوافذها ، ووعيت في لحظة بؤس لا حدود لها : مكتبتي تحترق ! .. وفي لحظة بؤس اخرى وعيت : الجدار الذي انهار هو جدار المكتبة المطل على الحديقة الخلفية ، وكتل النار المشتعلة المتهاوية كالشهب ، هي ببساطة : كتبي !

من جديد عدت أركض على الدرج كالمجنونة ، أفكر بطفاية الحريق الصغيرة ... كمن يحاول ايقاف انهيار منجم بحطبة .. كمن يحاول الصعود الى القمر على دراجة ... كمن يحاول النجاة من البحر الهائج الذي سقط فيه بركوب عود ثقاب . هكذا كنت وأنا أرتقي درجات السلم نحو بيتي .. هذه المرة لم أستطع حتى الوصول الى الطابق الثاني ... كان الدخان يغطي كل شيء ، واحترقت عيناي ورئتاي وبدأت أسعل بشدة وتهاويت على السلم وتدحرجت على الدرجات الباقية ، وزحفت حتى مدخل الحديقة أحاول استنشاق الهواء النقي نسبياً ... ثم نهضت من جديد ، وقد قررت محاولة الدخول الى بيتنا عن طريق سلم الحريق الحديدي الذي يدور كالحلزون ملتصقاً بجدار البيت من الناحية الخلفية ... تذكرت القناص ولم أبال ، كانت صورة الحريق تملأ عيني ، ورائحته تملأ حواسي وتعطلها ، وحتى حاسة الخوف أو الحذر تلاشت نهائياً ، وها أنا أركض كالمجنونة الى الحديقة ، أنا التي لم أتجرأ منذ ساعة على الخروج ولو لثوان لالتقاط المسدس عن أرضها .

ما تزال الأحجار والكتل المشتعلة تهوي الى الحديقة ، وقد انقلب برميل القمامة وشبت النار بجثة العم فؤاد .. ورغم سحب الدخان المروعة استطعت أن أميز رائحة احتراق اللحم البشري الخاصة والنفاذة ، أما جثة الخادم فقد كانت ما تزال بعيدة نسبياً عن مرمى سقوط كتل النار — حتى الآن على الأقل ...

وفيما أنا أتسلق سلم الحريق ، كنت أعرف أنه لا حاجة بي للخوف من القناصين .. كان الدخان قد أضحى كثيفاً ، على نحو كاف لضرب ستار يحجبني .. فهل يخنقني ؟ وهل يحميني من الموت بالرصاص لأموت مختنقة ؟ . صوت أمين يصرخ من الأسفل : عودي يا مجنونة .. ستحترقين ..

وكنت أفكر بأوراقي ... وكتبي ... وفي لحظة واحدة انزلقت أمام عيني مئات من عناوين الكتب التي جمعتها من أنحاء العالم كله ، ودفعت ثمناً لها بدلاً من ثمن الخبز

والثياب .. لكنني لم أكد أصل الى قمة السلم حتى استقبلتني النار التي كانت تنبعث أيضاً من نوافذ المطبخ وبابه وتئج أجيجاً مفزعاً .. كان فتح الباب بمثابة القذف بنفسي في أتون مذهل الاندلاع ...

وعاودت هبوط الدرج وقد بدأ الدوار يساورني وطنين مزعج يدوي أجراسه في أذني ، كان جسدي يقرع صفارة الانذار الأخيرة ... وحين عدت الى الحديقة ، كان علي أن أبتعد حتى أقصى حدودها لأن جدار المكتبة كان قد بدأ انهياره ومثل سائل بركاني كانت نيرانه تنقذف الى البعيد حارقة أغصان النخلة ومستقرة فوق جثة الخادم التي بدأت بالالتهاب ..

كل شيء ضدي هذا الصباح ... الشمس ترقب ما يدور بعين باردة حيادية ، والريح تساهم في امتداد النار بشكل مثالي ! ..

يا إله المطر ، لماذا لا تمر الآن ببيتي وقلبي ؟ .. يا إله المطر ، أرسل سحبك وارحم هذه السطور المكتوبة بدموع العيون التي يتوهمونها حبراً ...

ركضت الى الداخل وقد تأكدت من استحالة قيامي بدور رجل الاطفاء ... وركضت الى الهاتف ممنية نفسي بحضور رجال الاطفاء ، لكن (لا حرارة) في الهاتف ... والخروج من البيت لطلب نجدة يعني الموت بالرصاص خلف العتبة ...

عدت من جديد الى السلم الداخلي للبيت ، وهذه المرة كان مجرد تجاوز العتبة مغامرة تودي بي الى الاختناق ...

لكنني التقطت عن الأرض المسدس الذي سقط من صرة (الغربان) ... وعدت الى الداخل في محاولة جديدة للاتصال بالعالم الخارجي ... لكنني كنت أعرف : حتى لو اتصلت برجال الاطفاء فانهم لن يحضروا الى هنا ، حيث قلب المعارك ... وانهم لو حضروا ، لأطلق الرصاص عليهم ولعجزوا عن اخماد الحريق ...

ارتميت على مقعد . تركت ذراعي يسقطان كمجدافي قارب محطم ... لم يكن هنالك ما أفعله سوى الانصات لسعير النار ، وحدة تأججها ، وكنت من موضعي أستطيع أن أراها وهي تلتهم كتبي النادرة ، وما علقت على جدرانها من لوحات لغسان كنفاني ورافع الناصري وفاروق البقيلي . ثم تتابع رحلتها الى بقية الجدران لتأكل لوحات عفيف صيداوي ونعيم اسماعيل وعارف الريس ومن هناك تنتقل الى غرفة أخرى فتلتهم لوحات

نوري الراوي ولؤي كيالي ورفيق شرف ونذير نبعة ومصطفى فروخ ويونس الابن و ...
ولا أريد أن أتذكر أكثر من ذلك ...

انفجار في الأعلى . لعلها قارورة الغاز في ا لحمام . اذن وصلت النار الى هناك ...
آه لو أن النار التي تطهر حين تحرق تميز بين ما تحرقه وما تتركه ... آه لو كان للنار
عيون ، إذن لدمعت وهي ترى كل هذه الأشياء الفنية .. كل لوحة قطعة من انسان ... آه
كم من رفيقة ورفيق تحترق أجزاء من روحهم الآن هناك ، ممزوجة بأجزاء من روحي ...
آه لماذا النار كالقطة ، لا تميز أولادها من سواهم حين تباشر أكل وجبتها الدسمة ؟ ...

دخل أمين مرتاعاً : بيتك بأكمله يشتعل ... أخشى أن يمتد الحريق الى المبنى
كلـــه ...

وفكرت : ذلك الوغد . مكتبتي لا تهمه . تخفه وحدها تقلقه . ناري لا تهمه المهم
ألا تمتد اليه ! أفيرى أحد سحب الحريق ويأتي لنجدتي ؟ هل يجرؤ أحد على الاقتراب ؟
اطفاء ؟ سيارة اسعاف ؟ هل يكون حريق البيت وسيلة لنجاتي ؟

تذكرت رواية (هتشكوكية) قرأتها منذ أشهر ... تتحدث عن عجوز مسنة في
بيت منعزل ، يتآمر ابنها وزوجته على قتلها طمعاً بميراثها ، ويهمان بالقتل باعطائها
جرعات خاطئة من الدواء ، بعد قطع الهاتف عنها ومنعها من كل اتصال خارجي .
ويسقط في يد العجوز ماذا تفعل ؟ ليس أمامها الا أن تحرق بيتها فيرى أهل القرية البعيدة
سحب النار والدخان ويحضرون .. وتنجو ..

فهل تكون مكتبتي قد احترقت قرباناً على مذبح نجاتي ؟ هل يأتي أحد ؟ هل يحدث
شيء ؟ ..

من الواضح أن القتال مستمر كأن شيئاً لم يحدث ... وحريق اضافي آخر لن يغير في
مسيرة القذائف أو الأصابع المشدودة على الزناد ...

ومع ذلك ، فقد خرجت الى الباب الخارجي ، يحدوني أمل غامض ... وفي أعماقي
شهية الى تفجير الأوضاع القابلة للانفجار ، حتى ولو كانت قذيفة في البيت الذي
يؤويني ...

أمين يدور حولي بعصبية ، يتأمل كنوز الأسرة ويقول : يجب اطفاء الحريق ...
والا امتد الى البيت بأكمله .. ألا تظنين ذلك ؟ أم تعتقدين أنه سينطفىء متى التهم كل ما

في بيتكم ؟ .

قلت له الجواب الذي يشتهي سماعه : بل سينطفىء متى التهم كل ما في بيتنا ! ...

ثم التمع في رأسي خاطر : لا بد أن النار امتدت الى الأعمدة الخشبية العتيقة التي تحمل القرميد ، وبالتالي الى براميل الماء العشرة الموجودة هناك ... وانفجارها سيجعل نهراً من الماء يتدفق ... وقد يطفىء الحريق .. أم أن البراميل قد فرغت ما دام الماء قد انقطع ؟ كم هي فقيرة معلوماتي البيتية ! ! ...

كانت غيوم كثيفة قد جاءت مع الريح التي ساعدت في اشعال الحريق ... طوال الساعات الأربع التي مضت على اشتعال النار ، كانت الشمس تتأمل ببرود حيادي ما يدور ... أما الآن ، فها هي السحب الكثيفة تستعيد مواقعها التي لم تغادرها طوال الأيام السابقة ، وها هو رذاذ دامع يتساقط .

قلت لأمين : اذا انفجرت براميل المياه تحت القرميد ستخمد النار حتماً لأنها ستنصب فوقها من الأعلى ... هذا بالاضافة الى المطر ..

— هذا معناه أن نموت في الغد عطشاً . قلت : هذا خير من الموت حرقاً .

لا أدري في ما كان يفكر أمين أبالموت حرقاً أم بالموت عطشاً ، أم انه كان يتأمل في كنوز والده التي صارت الآن ملكاً له ، والنار تهدد بالتهامها ولما تنقض على امتلاكه اياها ٤٨ ساعة ! ..

كان أملاً خاطئاً .

ردة الفعل التي أثارها الحريق ، هي هرب قطط الحديقة ، وانفراج بسيط لا يكاد يذكر في نوافذ بعض الجيران في الرصيف المقابل ، ولا ريب في أن عيوناً فضولية تتطلع الآن منها ، ترقب الحريق ، دون أن تجرؤ على فتح النافذة تماماً ، لترى بوضوح أكثر ، ورؤوس تشهد بهلع قدرة النار على الانتشار وتحمد الصدف أو الله لأن القذائف لم تستقر في جدرانها هي ، والنار لم تخرج ألسنتها من نوافذها هي .. اذن ما زال الجميع في أقفاصهم الأليفة . حتى حيوانات الدكان التهمت جلادها .. ونحن ؟ متى ؟

* * *

كابوس ١٦٣

أقلب المسدس في يدي .

لا أعرف اذا كان محشواً أم لا . لا أعرف اذا كان صالحاً للاستعمال أم لا . لا أعرف ما اذا كنت قادرة على استعماله أم لا ... وفي داخلي صوت غامض يأمرني بأن أطلق رصاصة على الصاروخ الذي لما ينفجر بعد ..

لا أدري كم من الوقت انقضى ونحن غارقان في صمت جنائزي طويل ..

رذاذ المطر استحال قصفاً ... عادت الريح تجلد المدينة بالمطر المتوحش .

قلت لأمين : تعال نستطلع .

فتحنا الباب وخرجنا الى مدخل الدرج ... سحب الدخان أشد كثافة مما كانت عليه ... قلت لأمين : هذا معناه أن النار بدأت تخمد ...

ابتلت اقدامنا ، وحين نظرنا الى موقعها جيداً ، وجدنا الماء يكاد يغطي الأرض متدفقاً من الأعلى وراكضاً على درجات السلم في شلال يضيع صوته مع صوت سيمفونية المطر والرصاص ... تراه المطر ، أم أن براميل الماء قد أنفجرت ؟ والنار تراها قد خمدت ؟ . ولكن ، لا سبيل الى التحقق من ذلك كله الآن ... اذن فالاحتمال في أن نموت عطشاً صار أكبر من احتمال موتنا حرقاً ! ماذا عن موتنا جوعاً ؟ ..

تذكرت القردة في قفصها . قلت لأمين : ألن تطعمها ؟

قال : تريدين أن أغامر بحياتي لاطعام قردة ؟

اقتنعت . كنت جائعة وخائفة بقدر كاف وأي منطق يساهم في حفظ الحياة كان يقنعني .. حياتي أنا أولاً ! ..

سألته : واذا استطعت مغادرة البيت ، ستحملها معك ، أم تتركها في قفصها ؟

أجابني بضيق : أحملها معي ؟ لن تتسع السيارة لها ولأشيائي ... حتى ولو جاءوني بثلاث شاحنات فانها لن تكفي لاستيعابها .

وأشار بيده الى كنوزه الكثيرة .

ولم أقتنع .

ظللت أقلب المسدس في يدي ... وأتأمله ... وأتساءل .. وأتساءل ... والدخان يحيط بي .. وأسعل .. وأسعل .. وقدرت أن النار انطفأت ما دام الدخان بهذه الكثافة ...

* * *

كابوس ١٦٤

لم أعد مضطرة لتحاشي الجلوس قرب أية نافذة زجاجية ، صحيح أن كل نافذة هي مشروع خنجر يغمد بجسدي في حال حدوث انفجار ، ولكن زجاج البيت بأكمله أضحى محطماً ..

أجلس ، في أبعد ركن من البيت عن الصاروخ الذي لم ينفجر .. وأكتب .. وأدون (نوطات) كوابيس بيروت التي أعيشها كل لحظة ... والتي وعيتها منذ شهور طويلة ، ونبهت اليها أكثر من مرة ..

على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، أتقلب ، وأكتب .. وأنزف كتابة .. يدي تؤلمني .. الجراح التي خلفتها مخالب الكلب فيها بعضها اندمل ، وبعضها في طريقه الى الالتهاب ، فاللحم حولها متورم ومحمر ... لكنني أكتب ..

أتابع الكتابة وأمين يرمقني بضيق .

ينصت الى الراديو . بطاريته شارفت على الانتهاء ، واذاعتنا الكريمة تبث موسيقى فالس امبراطوري والحرب تلتهم كل شيء .. بعدها ينبري أحد المذيعين ويتحدث عن نشاط بعض المسالمين والحياديين ، وعن خروجهم في مظاهرة سلمية واعتصامهم في احدى الحدائق على الطريقة الأميركية وشعاراتهم باللغات الانكليزية والفرنسية ...

وانفجرت أضحك . كم تبدو هــذه التجمعات ساذجة بل صبيانية أمام منطق الجوع والذعر والنار .. كم يبدون لي في هذه اللحظة أبرياء وسذجاً حتى الاغتراب عن الواقع ، وبالتالي فبراءتهم جريمة ! ..

انتهيت من الكتابة .

وعدت أقلب المسدس بين يدي ، وقد أسندت ظهري الى الحقيبة البرتقالية الصغيرة ..

* * *

كابوس ١٦٥

جاء أمين بزجاجة نبيذ معتقة أخرى من كنوزه ...

قلت له : لا أنصحك بشرب النبيذ ، ستعطش بعدها وستضطر الى شرب كميات كبيرة من الماء المقرف المليء بالكلس .

قال : هذا لا يهمني . سأكون ثملاً ولن الحظ الكلس .

قلت : تذكر ان مخزوننا من الماء لا يكفي لأكثر من ثلاثة أيام اذا شربنا كوبين في اليوم الواحد .

أجاب : لا يهم . سأشرب .

قلت وأنا أقلب المسدس في يدي : بل يهم . لن أسمح لك بأن تشمل وتشرب حصتي من الماء . وأحذرك بأنني لن أعطيك قطرة واحدة من نصيبي ، ولا تتوهم أن لك مثل حظ الانثيين من ماء الحصار ! .

وعدت أقلب المسدس بيدي بينما بدا عليه الغم . قال : ابعدي هذا المسدس .

وجدت يدي تزداد اطباقاً عليه . ربما للمرة الأولى أدركت كم أنا بحاجة اليه لأستمر في الغابة التي عرتها الحرب على حقيقتها بعد أن أحرقت الأقنعة عن الوجوه كلهـــا ...

قلت لأمين : تعال نضع بعض الأوعية ونجمع قليلاً من ماء المطر ... فقد نحتاج اليـــه ! . . .

أذهلني أنني كنت أفكر بكل شيء ، وأخطط لكل شيء .. ما عدا الانتحار ... أنا التي كنت أدور بسيارتي منذ أشهر في شوارع بيروت الخطرة — اثر مقتل حبيبي يوسف — ممنية النفس في أن يريحني قناص من عذابي لفقده ! والآن ، فوهة المسدس في يدي ، سأوجهها الى أي شيء .. ما عدا رأسي .

قال لي أمين : أرجوك ، تخلصي من هذا المسدس : أنا وأنت هدفنا واحد وهو السلام والاستقرار ..

قلت له : حينما يكون الوطن (مهاجراً) عن قيم العدالة الاجتماعية والانسانية ، كيف يمكن لأي مواطن فيه أن يكون (مستقراً) ؟

* * *

كابوس ١٦٦

يعاودني ذلك الاحساس الدافىء ، وأنا أمسك بسماعة الهاتف منذ حوالي ساعة آملة أن تدب الحياة فيها .. انني ما زلت أحيا .. أختطف الحياة اختطافاً من كل هذا الموت المحيق بي ... استنشق الأوكسيجين رغم سحب الدخان ... أستخلص لقمتي حتى من بين أصابع الأموات .. أسرق نومي من بين مخالب الكوابيس ...

ربما أمسكت بالسماعة أكثر من ساعة . لا (حرارة). لا خط . لم أسمع الرنين المألوف الذي صار أعذب الأصوات الي في هذه اللحظة .

فشلت محاولتي .

قررت أن أحاول ثانية فيما بعد ..

* *

كابوس ١٦٧

غروب آخر ...

وعما قريب يأتي ليل آخر مثقل بالكوابيس والصرخات ...

قلت لأمين : سأصعد الى الأعلى لأرى ما فعلته النار .

قال : « سأرافقك » وهو يلتهب فضولاً لمشاهدة مأساة في (غير) بيته ، بحيث يستطيع الاستمتاع بالدمار الذي ليس دماره ، كمتعة أي متفرج مسترخ في مقعده المخملي الدافىء في السينما وهو يرقب على الشاشة طياراً يحترق به مقعده في الجو مثلاً ، مستمتعاً بمشهد العنف الذي لا يخصه ، والموت الذي ليس موته هذه المرة ...

صعدنا الدرج ... كان مجرد الاقتراب من مدخل بيتي مغامرة ... فمن بقايا السقف تتدلى كتل من الحجارة والاسمنت المعلقة بخيوط حديدية كأنها ثريات جهنمية لديكور بيت مصاص دماء ...

ومن السقف تقطر المياه فوقنا .. مياه موحلة سوداء كأنها دموع الليل الآتي ...

لم يبق للبيت أبواب عند المدخل . كانت قد احترقت كلها . ولم يكن بوسعنا أن نمشي خطوة واحدة الى الداخل ، فقد كانت على الأرض أكوام من الحجارة والرماد . والدخان ما يزال يعس من تحتها وهي لا تزال حارة ... لم يبق في المكان أثاث ، حتى الجدران ، بدت حجارة القرميد عارية تماماً إلا منها ... وعرفت أن الأكوام على الأرض لا بد أنها مزيج من الأثاث المحترق والحجارة المتساقطة من السقف والجدران ...

أما الفجوة في الجدار ، فقد استطعت أن أرى من خلالها أن ما كان مقري الحربي قد تحول الى عدة أسياخ حديدية عارية الا من بقايا الاسمنت ، وتحولت مئات الكتب التي كانت تغطي الجدار الى تلك الأكوام السوداء على الأرض التي يتصاعد منها دخان شبه كثيف ، بينما تهطل فوقها قطرات من الماء المسود وتسيل من أمكنة مجهولة

المصدر ..

كانت الأكوام حارة جداً ، ومحاولة المشي فوقها مستحيلة .

مددت رأسي ، وبلمحة واحدة أدركت مصير مكتبتي .. فمن خلال الفجوة التي كانت باباً ، لم أر في الغرفة ما يدل على معالمها الأصلية . الأثاث اختفى ! والجدران ، انهار معظمها ! ولم يبق الا الأرض المغطاة بكوم هائلة من ذلك المزيج المروع الذي يخلفه الحريق ، وتلك الرائحة الخاصة لمزيج مسود من النار والماء ، في منزل لم يعد فيه غير الدخان الثقيل والهباب الرطب ... آه لمـــاذا لا تميز النار بين اللوحـــة والجدار ، وبين أوراق المخطوطات وأوراق (الكلينكس) ؟ لماذا لا تملك الأسطوانة والكتاب واللوحة التي هي كائنات حية ، قدرة الدفاع عن ذاتها ضد النار ، أو الهرب على الأقل ؟. واذا شبت النار في متحف اللوفر مثلاً ولم يتدخل أحد ، يستهرب القطة ، وستقضي « الموناليزا » نحبها ! ! ...

لعلي استندت بيدي على الجدار .. كانت سوداء يغطيها هباب كثيف .

ووجدتني ألطخ وجهي بها في أسى عظيم ...

لم يعد هنالك مجال للشك . لقد احترقت مكتبتي ولوحاتي وموسيقاي ! ..

وتابعت تلطيخ وجهي بالهباب كبدائي في مأتم ...

* * *

كابوس ١٦٨

انه الليل ...

وأنا أدفع ثمن حماقتي ... وتحت المطر أقف في ظلام الحديقة وأغسل وجهي بالصابون لأنظفه من الهباب وأترك المطر يغسل كل شيء .

لم أكن أرغب في تقديم هذا المشهد الدراماتيكي لأشجار الحديقة وأعشابها ، لكن لا ماء لغير الشرب . .

أيقظ الماء البارد حواسي وأنعشها ، وعاودني ذلك الشعور بالفرحة الغامرة لأنني ما ما زلت حية . ولأنني أسرق حياتي لحظة بلحظة من كل هذا الموت المحيط بي ... أيقظ الماء البارد حواسي . وأنعش كل ما هو أنا وكل ما هو حقيقي في أعماقي . ووجدتني أقرر بصفاء في تلك اللحظة وفيما كان المطر يطهرني : اذا كانت النار التي أحرقت بيتي

هي مخاض الفرح الآتي ، اذا كانت النار التي أحرقت أوراقي هي مطهر الشعب اللبناني ، واذا كانت القنابل التي هدمت جدراني ، تفتح ولو نافذة واحدة في سجن البؤس المادي والروحي الذي نحياه ، فكل ما أملك أن أقوله هو : بوركت شفاه النار التي أكلت بيتي ، بورك الزلزال الذي هدمه اذا كان سيهدم في الوقت نفسه جدران اللاعدالة والانعزالية ، وبورك الزلزال الذي أحرق عشر سنوات من عمري ، اذا كان ذلك البركان نفسه ، قادراً على اخراج معذبي هذا الوطن من جوف الظلم الى ضياء الحرية والعدالة . وقررت : اذا نجوت ، سأبتاع أوراقاً بيضاء تعادل حجم مخطوطاتي التي احترقت وأبدأ الكتابة فيها حتى تمتلىء . وسأتابع فيها صرختي من أجل المساواة والعدالة والحرية والفرح ، ولن يخيفني حريق بيت فالبيوت حجارة والكرة الأرضية مسكن مؤقت نحن ضيوفه أينما حللنا ، وبيتي الوحيد الحقيقي الذي سكنته باستمرار هو جسدي . وما أزال أقطنه .

وبوركت شفاه النار التي أحرقت بيتي اذا كانت ستطهر هذا الوطن الحزين من أوجاعه . المهم أن أنجو . لأستمر ولأكتب .

وهرعت الى الهاتف من جديد لأحاول من جديد ، والغريب انني لم أكد أرفع السماعة حتى جاء (الخط) وبسرعة أدرت أرقام الصديقة آمال . وجاءني صوتها يقول : في السابعة صباحاً ستأتي مصفحة لاخراجك متى سمحت الأحوال العسكرية .

وصرخت : السابعة غداً ؟ وقبل أن تتدفق من فمي عشرات الاستفسارات ، وقبل أن أسأل وأستوضح كيف ولماذا ومن ، أصيب الهاتف بالسكتة القلبية .

وعبثاً حاولت معاودة الاتصال . كان الهاتف قد قضى نحبه تماماً ونهائياً . وبيني وبين موعد الغد ١٢ سنة ضوئية ، لا ١٢ ساعة فقط ، ولكن هل كانت تقصد الغد ؟ ماذا قالت بالضبط ؟ وشعرت بالكلمات تتفكك داخل ذاكرتي وتتناثر على الأرض مثل كيس من الكرات الزجاجية الملونة (الدحل) ضربها صبي مشاكس برجله ! يا لذاكرتي المشاكسة ! ..

* * *

كابوس ١٦٩

أغمض عيني ، وأستطيع أن أرى آثار الحريق على خدود الأبنية ... الخراب

المروع في أحياء وأسواق بأكملها ... المطر الذي يحاول عبثاً غسل الهباب عـــن الجدران ..

أعمدة الكهرباء المكسورة وأشرطتها المدلاة في الريح كجثث أفاع منطفئة ... كل شيء في بيروت أسود ورمادي ، ما عدا أكوام القمامة الملونة التي احتلت الأرصفة تلالاً من الروائح المقززة ، وفوقها يركض ذباب هائل ، وكل ذبابة بحجم رجل ! ..

والحطام منتشر في كل مكان ... حطام الزجاج .. حطام الأبواب ... حطام البيوت .. حطام التذكارات .

أغمض عيني واستطيع أن أرى جرح بيروت الممتد على طول شوارعها ، المفتوح للريح والمطر .. والليل البارد ..

ويصرخ صوت في أعماقي :

ولكن بيروت لم تكن قبل الحرب جميلة بقدر ما كان الناس يتوهمون ...

كان قناعها جميلاً ، وقد أحرقت الحرب قناعها فبدت أمراضها الآن للعيان ... وكانت زينتها الخارجية ساحرة الألوان ، لكنها تخفي تحتها أوراماً خبيثة لا تداوى بغير الكي بعد أن استفحل أمرها ، وبحت أصوات العقلاء وهم ينادون عاماً بعد عام لانقاذها ..

وكانت ضحكات الثمالى تتفجر من خمسة بالمئة من شوارعها المضيئة المجنونة الايقاع ، في حين كانت دموع البؤس الغزيرة تروي نبتة النقمة في بقية شوارع الفقر غير المعبدة ، المفروشة بتربة الجوع والجهل والمرض والظلم والفقر .. تلك التربة — الديناميت التي يعي مدلولها كل من قرأ مبادىء التاريخ ..

أجـــل !

ليس صحيحاً أن بيروت كانت تعيش عصرها الذهبي حتى جاءت (الحرب القذرة) وقصفت عمر شبابها السعيد ... فبيروت (الدولشي فيتا) اي الحياة اللذيذة ، كانت بيروت الاقلية التي تتزلج في الأرز شتاء وتسبح في الولائم صيفاً وشتاء ، لا بيروت الأكثرية التي تتزلج فوق صقيع أحزانها شتاء وتسبح في بحر من اللاعدالة وعدم تكافؤ الفرص والقهر الاجتماعي والانساني صيفاً وشتاء ...

واذا كان ما مر بنا (حرباً قذرة) فقد كان سلام بيروت ما قبل الحرب (سلاماً قذراً) ... كان سلام استمتاع أقلية جماعة (الدولشي فيتا) على حساب حرمان

الأكثرية ... لم يكن سلاماً بل كان استسلاماً موقتاً ، فالشعب يمهل ولا يهمل ...

وصحيح أن عشرات الألوف من الضحايا سقطوا في غمار هذه الحرب التعسة .. إلا أن الناس كانوا يموتون قبلها بالآلاف أيضاً : كانوا يموتون قهراً وكداً وجوعاً وفقراً وبؤساً وغضباً وجهلاً ...

كانوا يموتون بصمت ... وسراً ... وكانت الشوارع تضم آلافاً من الأحياء الذين مات أو انكسر شيء في داخلهم وتحولت أجسادهم إلى مجرد توابيت متحركة تخفي موتهم السري ...

* * *

كابوس ١٧٠

أهذا رعد ، أم صراخ قلوبنا ؟ ..

انه الخريف . عاد إلى غاباته ليجدها محروقة . عاد إلى دروبه فوجدها مفروشة بالجثث . عاد إلى شطآنه فروت له الريح حكاية صيف بيروت الدامي ... انه الخريف ..

عاد إلى شعبه من الطيبين والبسطاء والعشاق ، فوجدهم ينزفون ... ربما لذلك قضى الليلة السابقة بطولها وهو يبكي ويبكي ويبكي .. وتوهم الناس دموعه مطراً ...

ما يهطل هذا العام ليس مطراً . انه دموع الفصول الأربعة !! ..

أحاول أن أتلهى عن صوت الرعد بالاستماع إلى المذياع .. انهم يبشروننا برفع بسطات الباعة الفقراء من « شارع الحمراء » ببيروت ، في محاولة يائسة لاعادة (الوجه السياحي) للشارع ، الذي يعتبر مقابلاً لما تمثله جادة الشانزيليزيه في باريس ، واكسفورد ستريت بلندن ، وفيافينيتو بروما .. ها هم اذن يلملمون صرخات الباعة المنكوبين عن الأرصفة ، ويتخلصون من هجمة الطبقة الشعبية على الشارع للتزود بكل ما يخطر بالبال من مأكل ومشرب وملبس .. والكراسي في مقاهي الأرصفة عادت تنتظر زبائنها من (ثوار المقاهي) ... ولكن ، هل يمكن لاي شيء ان يعود كما كان حقاً ؟

أبداً ... حتى طعم القهوة الحارة على الرصيف ذات صبيحة خريفية ماطرة لن يكون له طعم (الهال) بل طعم الجرح ...

اولئك الذين سكن بؤسهم أرصفة شارع الحمراء لن يغادر بؤسهم أرصفة ذاكرتنا ، ولا بؤس المحيطين ببيروت كالحزام ..

انك لا تستطيع ان تداوي الجرح بستره عن الأنظار ... انك لا تستطيع ان تخبىء الوجه الممزق الدامي لبيروت بقناع شارع الحمراء ..

لا أحد ضد اعادة شارع الحمراء شارعاً نظيفاً حضارياً ، لكن اعتبار هذه الخطوة كل شيء، يدل على جهل المسؤولين بكنه ما يدور ومدلوله .

ان نقل البؤس من المسرح إلى ما وراء الكواليس لا يلغيه .

ان اخفاء المريض تحت السرير لا يشفي مرضه .. ولا يخدره .. واذا خدره لفترة فانه سيستفيق وهو أكثر شراسة ... وسينقض على جلاده مدير المستشفى المصر على نظافة المم‍رات وصالة الاستقبال فقط ! ..

انفجر الجرح صوته عاصفة رعدية محرقة .. تاريخ الشعوب يقول ذلك باستمرار ... ولكنهم لا يسمعون ولا يفقهون هنا .. وصار حتى الاستماع إلى اذاعتهم كابوساً لا يطاق ! .

* * *

كابوس ۱۷۱

تعب حفار القبور ، فشرب نصف بطحة عرق ، ونام . وخرج الموتى من قبورهم كما في كل ليلة ، يجلسون على سور المقبرة ، ويتفرجون على ما يدور في بيروت عبر نيران الشوارع والحرائق . ويضحكون لحماقة أكثر الأحياء ..

ثم يذهبون إلى جيرانهم الجدد في القبور الحديثة ، فيخرجونهم ، ويسألونهم عن أحوالهم وحكاياهم ، ويتسامرون ، تماماً كما يفعل الأحياء حينما يسكن في الحي جار جديد ...

ذلك المساء ، صرخ أحدهم وهو يقترب من أحد القبور : هذا ليس منا ...

تجمعوا حول القبر .

وعرفوا فوراً بفضل حاستهم السابعة ان الرجل الذي يضمه هذا القبر هو « غريب » عنهـــم .

صرخت جثة نصف متآكلة : انه حي ... انه ما يزال حياً لا يرزق ... اخرجوه من القبر .

قال هيكل عظمي : سنحاكمه ، واذا كان بريئاً حكمنا عليه « بنعمة الموت » ،

واذا كان مجرماً طردناه من ملكوتنا ، وعاقبناه بالسجن داخل ملكوت الأحياء : اي عاقبناه بالحياة ! ..

لكن الميت – الحي كان مثخناً بالجراح ، وفي غيبوبة كاملة .. وهكذا كان أمر محاكمته مستحيلاً ودفاعه عن نفسه مستحيلاً .. هكذا قرر أحد (وجهاء) المقبرة ...

ردت جمجمة فوضوي مات صغيراً : سنعدمه أولاً ثم نحاكمه كما كنا نفعل (هناك) ..

تدخل آخر : عالمنا ليس قذراً . لا نستطيع ان نقرر مصير انسان لا نعرف عنه شيئاً . لا يمكن محاكمته محاكمة عادلة اذا لم يكن صاحياً .. وما يدرينا فلربما كان مجرماً ، وهو بالتالي لا يستحق رحمة الموت والانضمام الينا ..

قال هيكل عظمي عار من اللحم تماماً : – اقترح إعادته إلى المدينة ما دام ليس منا ، هناك ، يعالجونه على طريقتهم ، أو يعيدونه الينا بعد أن يستكمل جميع شروط الانضمام إلى مدينتنا الهادئة .

وأخيراً ، تقرر طرح الأمر على التصويت ...

صاح هيكل عظمي مهيب الطول : من يوافق على إعادته إلى مدينة الجنون فليرفع جمجمته على اصبعه .. ومن لا يوافق ، فليترك جمجمته في مكانها .

وارتفعت جماجم كثيرة على الأصابع .. وتقررت إعادة « الغريب » إلى بيروت .. ووقفت الهياكل العظمية في صف طويل مهيب ، وحملوه في تابوت ، ولفوه بكفن ، وعلقوا على القبور أوراق نعوته وهو المأسوف على شبابه، الذي اختطفته يد الحياة إلى عذابها . ومشى موكب الأموات إلى بيروت مشيعين « الحي » في جنازة مهيبة ، مرددين من أجله أحر الصلوات والدعوات ...

وحين واروه مقره « غير الأخير » على باب أحد المستشفيات ، أهالوا الليل عليه وودعوه بالدموع الحارة ...

أما الحارس المناوب على باب المستشفى ، فقد قال حين وجد جريحاً مثخناً أمام الباب ، وبدأ حمله إلى مدخل غرفة الاسعاف حيث تكوّم عشرات الجرحى بانتظار إسعافهم : يا الهي .. كم هو ثقيل .. وسيموت طبعاً كالآخرين .. لماذا لا يحملونهم إلى المقبرة مباشرة ؟ ...

كابوس ١٧٢

استيقظت وأنا أصرخ : أين أخي ..
وشعرت بان شيئاً غير عادي قد حدث لي . كان السرير شبه فارغ لكنني كنت مكومة لصق الوسادة . كان جسدي قد صغر كثيراً وحين تحسسته وجدته مكسواً بالريش . حاولت الوقوف وكان الأمر سهلاً وحين حاولت المشي نحو المرآة لأرى ما حدث لي اكتشفت انني اقفز قفزاً ... كان قد نبت لي جناحان فطرت نحو المرآة ، وكدت اصطدم بها فقد فوجئت بانني تحولت إلى بومة صغيرة ...
اين أخي ؟ ..
وقررت أن اطير إليه في السجن .
أطير في الشوارع المفروشة بالجثث
أطير في الليل الحزين المزروع بالذعر والمتفجرات .
أنا من أثير والرصاص يعبرني ويخترقني دون ان يخترقني ! .
أطير بين غرف « المساجين » المعتمة أفتش عن أخي . أرى جيداً في الظلام .
ارى السجناء المحشورين في (القاووش) ، وكل زنزانة تضم عشرات منهم ومن الفئران والقاذورات . أغالب رغبتي بالتهام فأر واتابع بحثي عن أخي .
أجده في زنزانة ضيقة محشوراً مع سجين آخر ..
يتحدثان . التصق بالنافذة وانصت . يقول السجين لأخي : اتمنى ان ترى كيف أقاتل . اني ادعوك لترى كيف أقاتل يا شادي ..
يجيب أخي : لقد تلقيت دعوات كثيرة لمناسبات اجتماعية مختلفة اما دعوة للقتال ، فلم يحدث لي ذلك من قبل يا أبا ثائر .
يخلع ابو ثائر قميصه . أرى خارطة فلسطين موشومة على صدره . يراها أخي أيضاً .
يسأل : ما هذا ؟ خارطة فلسطين .
— اجل . انا من نابلس . من جبل النار .
— ماذا تفعل هنا ؟ لم سجنوك ؟
— لا أذهب إلى أي بلد إلا واسجن . ذنبي الوحيد اني فلسطيني . لقد عرفت أكثر لسجون الأجنبية ، والعربية أيضاً . تعلمت الالمانية في سجني بميونيخ ، وتعلمت

الانكليزية في سجني بلندن . تعلمت الشطرنج أيضاً في السجن . اذا تركوك معي غداً في هذه الزنزانة سأعلمك الشطرنج . سنرسم على الأرض مربعاته ، وسنقتل بعض الصراصير لنجعل منها ملوكاً وجنوداً ورجال دين .. لعبة الشطرنج رائعة جداً .. ولكنني أفضل الحرب الحقيقية .

كان واضحاً ان أبا ثائر في حالة شوق إلى الحوار . كان يتحدث باستمرار دونما تنسيق : عندي خمسة اولاد . زوجتي هي ابنة عمي ولم ار ساقيها طوال عشر سنوات من زواجنا .. اعرف ملمسها في الظلام فقط .

اخي يقول : قرروا نقلي إلى السجن الانفرادي لانني ضربت احد السجناء هذا الصباح لسبب لم أعد أذكره . هذه أول مرة في حياتي اضرب فيها شخصاً ما . قرر السجان (الذي يتقاسم الحشيش والسجين المضروب) معاقبتي بسجني في الانفراد . لم يجدوا أماكن شاغرة فقرروا ان أقضي الليلة عندك .

قالوا انك ستضربني . وانك تضرب كل من يدخل إلى هذه الغرفة .

ـ هذا ليس صحيحاً . ان مجرد كوني « فلسطينياً » يجعلهم يلصقون بي أبشع الجرائم أو أعظم الفضائل ... انهم يؤلهونني ، او يحولونني إلى مجرم ... لا أحد يهمه ان يرى وجهي الحقيقي كبشر .. كإنسان متألم وغاضب ومشرد بلا وطن . يقاطعه أخي : لم أكن أدري ان السجن يحتوي هذه الفظاعات . كنت فعلاً أتوهم ان بلدنا بلد الاشعاع وادهش من رفاقي الذين يحملون السلاح ...

ابو ثائر لا يرد . انه يتابع حديثه كما لو كان مناجاة ذاتية وكذلك أخي . يتحدثان في وقت واحد . لا حوار بينهما وانما مجرد استئناس بالأصوات .

ابو ثائر : انني لا اقرأ ولا أكتب لكنني تعلمت اللغات في السجون الأوروبية كما تعلمت فيها لعبة الشطرنج أما في أغلب السجون العربية فقد كان الأمر مختلفاً . في سجن عربي علقوني بالسقف وضربوني طويلاً ، وفي يدي الآن كسور عديدة ، وفي ظهري سيخ من الحديد عوضاً عن عموذي الفقري المهشم .

شادي : لم أكن أدري اي بؤس يعيشه هذا الشعب إلا حين سمعت حكايا رفاقي السجناء في « القاووش » . الأمر مرعب حقاً ... كنت فيما مضى اشمئز من السلاح ، واليوم اشمئز ممن لا يفكر بحمل السلاح ..

ابو ثائر : ومرة ذهبنا في وفد وهبطت بنا طائرة الهيليكوبتر على سطح الأمم المتحدة وأحاط بنا رجال المخابرات الأميركية حرصاً على حياتنا (!) كما أحطنا نحن بأحد الرفاق حرصاً على حياته . ثم قلت لاحد الحراس : أريد ان تشتروا لنا شيئاً من الحشيش .

انتهرني أحد الرفاق ، وصرخت به : لماذا لا ؟ أليست هذه أكبر (محششة) في الدنيـــا .

ـ في القاووش التقيت بصحفي اسمه سامي . لقد سجنوه لمجرد انه يكتب دونما مواربة مطالباً بالعدالة لشعبه اللبناني البائس ! ..

ـ في معسكر الزرقاء للتدريب كانت الطائرات الاسرائيلية تغير علينا .. وكنت افجر القذائف برشاشي قبل وصولها إلى الأرض ... كنت أفجرها بالدوشكا .. وذات يوم فجرت أكثر من عشر قذائف والطائرة تحوم فوقي ، وفجأة سمعت طفلي يناديني من الخندق ودهشت : ما الذي جاء بطفلي إلى هنا ... وركضت إلى الخندق ، ولم أكد أصل حتى انفجرت بسيارتي قذيفة مزقتها والدوشكا ... ولم يكن ابني في الخندق ، لكنني نجوت ..

ـ ... حتى ولو خرجت من السجن فلن أنسى . لقد تبدلت نهائياً وإلى الأبد . كانوا يقولون : من فتح مدرسة أغلق سجناً . وأنا نادم لانهم كانوا يلهونني في المدرسة عن حقيقة ما يدور في هذا الوطن اللبناني البائس ، السجن هو مدرستي الحقيقية لا الجامعة ! .

ـ وعملية الحزام الأخضر .. انها لا تنسى .. الكمائن المتقدمة بشكل دائري ... والالتحام بيننا وبين الاسرائيليين .. كنت جريحاً وفي طور النقاهة لذا ارغمت على البقاء في برج المراقبة ... من هناك شاهدت الجميع يموتون .... الفلسطينيين والاسرائيليين .

بقي واحد من كل جانب .

ظلا لمدة ساعة يتراشقان . جرح الفلسطيني ، ونفدت ذخيرة الاسرائيلي . فالتحما معاً في قتال شرس وخنقه رفيقي بالرغم من جراحه ..

ـ نحن أبناء الطبقة المتوسطة لا نعرف اي هول تعاني منه الأكثرية الساحقة ... هنالك تعتيم اعلامي مروع على بؤس الشعب اللبناني .. وكل ذنب سامي هو انه اشار إلى ذلك .. لقد لفقوا له تهمة ورموا به في السجن .

ـ في المناطق المتقدمة في الأرض المحتلة . بالضبط في « الوادي اليابس » بالاغوار

عند « قناية المي » ، كان الاسرائيليون يحفرون الخنادق بشكل دائري ، ويضعون فيها آلات تسجيل مع رشاشات تعمل بالراديو على البطارية والكومبيوتر ، التسجيل يكرر عبارة : قف . وغيرها ... كانوا بحاجة إلى أجهزتهم الالكترونية (التي طنطنت لها أجهزة اعلامهم وبعض أجهزة الاعلام العربية) لخوفهم منا .. ولان جنودهم كانوا يفرون من هذه المواقع المتقدمة .. وكانت رشاشاتهم تطلق النار اتوماتيكياً وتلف بشكل آلي مسافة ١٨٠ درجة .

كنت مكلفاً بالرصد ، لاحظت ان ما يدور متقن إلى حد الخلل . ودقيق إلى حد الغباء . اكتشفت الخدعة وهاجمناهم ذات ليلة فدمرنا أجهزة التسجيل واستولينا على الرشاشات .. ثم ..

ــ ولن أغادر هذا الوطن الحزين .. كلانا معذب .. شقائي وشقاؤك واحد ... سجاني حليف مع عدوك ... اننا في خندق واحد ولا مفر من أن نقاتل معاً ...

ــ آه كم قاتلت .. كل ما في جسدي الآن معطل ومهترىء ما عدا عضواً واحداً .

ــ انه ليس رأسك طبعاً ! ..

ضحكـــا ...

فرحت حين شاهدت أخي يضحك .

صرخت به : شادي ...

صرخ أبو ثائر : انظر إلى هذه البومة .. انني اتفاءل بالبوم . انها أقل شؤماً من أكثر الزعماء العرب .. ربما كان قدومها نذيراً بتدمير السجن .

* * *

السجن يحترق ...

أخي يركض مع أبو ثائر هاربين في قافلة كبيرة من السجناء .. الرصاص يطلق عليهما لكنهما يركضان .. ابو ثائر يحمل خارطة فلسطين الموشومة على صدره ، وأخي لا يحمل في يديه شيئاً .. ترى ما هو موشوم الآن داخل صدره ؟ ..

يركض ويداه تلوحان في الريح مثل جناحين لطائر بدأ يكتشف الدرب إلى مرافىء الشمس .

* * *

اخي يحمل في يديه رشاشاً ... يقف في أحد مع مكرات التدريب ..
ابو ثائر واقف إلى جانبه ..
ـــ اطلق . ما بك . هل هي المرة الأولى حقاً ؟
ـــ أجل . أنها المرة الأولى ، ولكنني صرت متيقناً من أنها الوسيلة الوحيدة .
يطلق الرصاص .
لا استطيع ان أحدق كثيراً . فالشمس ساطعة وانا بومة .

* * *

كابوس ١٧٣

ما زلت ممددة على الأرض وقد اسندت ظهري إلى الجدار وتوسدت الحقيبة البرتقالية ... والمسدس في يدي الملقاة على الأرض واصبعي على الزناد . شخير أمين يقطع الهدوء ، ضائعاً بين وقت وآخر وسط زعيق المتفجرات والقنابل ... (اتمنى لو اطلق الرصاص على صوته) ...

أما أنا ، فكنت أعرف سلفاً أنني لن أنام الليلة حقاً ولن أبقى صاحية حقاً وانما سأظل فريسة للكوابيس ، وسأظل انتظر اشروق الشمس ثم « شروق المصفحة » التي يفترض ان تأتي لانقاذي فقد تأتي غداً ...

ربما قالت آمال « غداً » ولم انتبه جيداً للعبارة . ربما لم تقلها باعتبار أنها مفهومة بدهياً . قالت في السابعة ؟ .. لماذا ليس في السادسة أو الخامسة مثلاً . في الخامسة يكون الظلام ما يزال مخيماً . من أية طريق ستأتي المصفحة ؟ من شارع الحوراني ام شارع المخفر أم من الشارع الرئيسي أمام « الهوليداي إن » ؟ هل سأستطيع الركض اليها تحت أمطار الرصاص دون ان أجرح ؟ واذا جرحت هل سينقلونني بالمصفحة ام سيتركونني على الأرض وينسحبون ؟ واذا نقلوني إلى المصفحة ، هل يطلقون علينا قذائف تعطلها ؟ هل تصيبنا ام لا ؟ تشتعل ام لا تشتعل ؟ نحترق في داخلها ام نتمكن من الهرب ؟ هل يأتون غداً أم بعد شهر ام بعد عام ؟ هل يأتون في الموعد المحدد تماماً ؟ هل انتظرهم في الخارج معرضة نفسي لمزيد من أخطار القنص ، ام انتظرهم في الداخل ويأتون ولا يجدونني بانتظارهم فيظنون انني عدلت عن الخروج خوفاً على كنوزي دون ان يدروا انني فقيرة ويمضون ؟ هل سيعرفون اين بيتي ام سيضيعونه وينتظرون قليلاً أمام بيت

آخر ثم يمضون ؟ هل سيسمحون لي بحمل حقيبتي البرتقالية ام يأمرونني برميها لان المصفحة لا تتسع لنا معاً ؟ هل سيكون بداخلها عشرات من المعذبين الهاربين من النار أمثالي ، وسنختنق في الزحام أم سأكون وحدي ؟ ما شكل المصفحة من الداخل ؟ من اين بابها ؟ هل تسلقها صعب بحيث أعجز عن ذلك اذا جرحت ؟ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ ..

* * *

كابوس ١٧٤

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار .

آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتقلص رقعة الطموح فلا تغطي أكثر من نصف ليلة انتظار ...

آه ما أقسى وحشة الأعزل ، حين تصير مخالب النار وسيلة البقاء الوحيدة ...

وفوق ذلك كله ، علي أن استمع إلى شخير أمين ! ..

ولكن ، لماذا لا أنهض وأفعل شيئاً .. الحركة تقتل الاحساس بحركة الزمن البطيئة على الجسد .. لماذا لا أحمل جسدي واتحرك به ؟ .. ذلك سيحميني من البرد بأنواعه كلها : برد البرد . وبرد الوحشة وبرد انزلاق قوقعة الزمن البطيئة على لحمي ...

الجوع والبرد ، كأنهما كلابان لسلطعون واحد ، يعضني بهما في كل موضع من جسدي في آن واحد ...

من الخير لي ان أفعل شيئاً ما . ان انهض . ان احرك جسدي المثقل بأكداس الجوع والصقيع والعتمة .. ولكن ، إلى أين ؟

فكرت بالذهاب إلى مخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ...

من مكاني في العتمة ، اسمع أصوات صرخاتها ، واستطيع ان أرى سمكة كبيرة تشبه الثور انتهت تواً من التهام سمكة ملونة الزعانف كفراشة ... استطيع ان أرى القطط تنتظر موت قط جريح لتلتهمه ... الببغاء مغمى عليه .. الأرانب تقفز بجنون في أرجاء القفص الضيق وربما تضرب رؤوسها بحديده ...

لماذا لا أطلق سراحها ؟ ...

ذلك سيعرضها للموت رصاصاً وجوعاً في مدينة تحترق .. لا .. من الأفضل تركها حيث هي بأمان نسبي ، فقد يأتي من ينقذها في اللحظة الأخيرة .

ولكن ، لماذا لا أعترف بانني خائفة ؟ وأن السبب الوحيد الذي يمنعني من اطلاق سراحها هو خوفي من انقضاضها علي ؟ .. صحيح ان أكثرها قوة وبأساً قد غادر سجنه بعد أن افتتح وجبة الحرية بالتهام سجانه ، ولكن ، ما الذي أعرفه عن سلوك القطط والأرانب والطيور والسلاحف والفئران بعد تجويعها ؟ ألا يمكن أن يتحول القط الجائع إلى نمر ، والأرنب الجائع إلى فهد ، الطائر الجائع إلى رخ ، والسلحفاة إلى ديناصور ، والفأر إلى ثعلب ؟ .

ومغارة النواح والعذاب التي كانتها الدكان في الليالي الأولى ، ألا يمكن أن تكون استحالت إلى مغارة من الانياب والغضب بعد أن مستها يد الجوع السحرية ؟ ...

تخيلت نفسي افتح أقفاص السلاحف فتأكل أقدامي ثم افتح مزلاج أقفاص الأرانب فتلتهمني حتى صدري ثم افتح أقفاص القطط فتلتهمني حتى رقبتي ، ثم اخرج الفئران فتلتهم خدودي وتقفز داخل جمجمتي خارجة من اذني ثم افتح قفص الطيور فتنقر عيني وتمضي كلها .. وتخلفني للكلاب تقرض عظامي ..

وسرت في جسدي رعدة كأن ذلك حدث بالفعل ! آه ما أقسى خواطر الأرق حين تكون المسافة بين الحياة والموت ليلة انتظار.. !

ليتني أغفو قليلاً ولتأت الكوابيس .. اي شيء هو خير من هذا الانتظار الموجع ...

* * *

كابوس ١٧٥

عاد الموتى إلى المقبرة بعد أن أوصلوا الشاب الحي إلى المستشفى في جنازة مهيبة وبكوه وهم يوارونه ثرى الأحياء وأرصفتهم ..

الليل ما زال في أوله .. وكثير من السكان الجدد قد تدفقوا اليوم عليهم .. وهم لما يسمعوا حكاياهم بعد ...

قال كبيرهم : تعالوا نقرع أبواب بيوتهم ...

قرعوا أول قبر . خرج الجار الجديد واستقبلوه بالترحاب .

سألوه : من أنت ؟

قال : أنا موظف قضى عمره يخدم الناس .. قتلتني رصاصة قناص . أطلق علي الرصاص لمجرد انني أحيا ..

رددوا : هذا شيء جميل . جزاه الله خيراً .. اولئك القناصون يمنحون الناس السلام مجاناً .. ان عالمكم لم يخل بعد من صانعي الخير ..

قال الميت الجديد ، وكان هيكله العظمي ما يزال يحتفظ بلحمه الذي بدأ لونه يميل إلى زرقة رمادية : وأنا أيضاً كنت من صانعي الخير ... يوم جنت بيروت بموجة القتل (على الهوية) على الحواجز المسلحة . قتل اي انسان لمجرد انه ولد لأب مسلم أو لأب مسيحي . طلعت أنا بفكرة حواجز الزهور .. حيث يوقفك حاجز من الفتيات والفتيان يحملون الزهور ، وبدلاً من سؤالك عن دينك وقتلك وفقاً لقانون الصدفة ، فانهم كانوا يمنحونك زهرة لمجرد أنك حي ومواطن ... بل انهم كانوا يزرعون الزهور في فوهات بنادق المسلحين على أمل أن تتحول إلى شجرة من خير . لا إلى شجرة من نار .. ولكنني قتلت بشجرة من نار دونما ذنب .. كان يتوقع ان يرى من رفاقه الموتى شيئاً من التعاطف لحكايته ... كان ما يزال غريباً عنهم ، لم يكن قد تعلم بعد دساتيرهم . . ولكنه فوجيء بهم يشيحون عنه بوجوههم دونما أعجاب .. كرر سؤاله : بالله عليكم ما ذنبي ؟ ما جريمتي ؟

رد حكيمهم : جريمتك هي التعامي عن الواقع . هل كنت تصدق حقاً انك تستطيع مداواة الجرح بغرس وردة فيه ؟ ..

* * *

كابوس ١٧٦

استيقظت ماري انطوانيت على أصوات المتفجرات . بحثت عن صديقها اللبناني فلم تجده في الفراش إلى جانبها . يوقظها على طريقته (الخاصة) المدهشة .

تناديه « كوكي » ... « كوكي » ... وهي لا تعرف ما اذا كان اسمه كريكور أم كامل . وهي أيضاً لا تدري ما اذا كان لبنان ما يزال تحت حكم بلدها « فرنسا » أم لا . اولئك اللبنانيون غريبو الأطوار .

إلى ما قبل أيام ثلاثة كان يغمرها بنقوده وقبلاته وجسده المترهل قليلاً .. ثم اختفى فجأة .. ولم يكن الأمر ليضايقها لو انه كان قد اشترى لها بطاقة سفر قبل اختفائه .

أما الآن فسيكون عليها ان تشتري بطاقة من مدخراتها التي جمعتها من عشاقها اللبنانيين (دوطة) لزواجها من حبيبها وابن قريتها جان جاك ...

تناديه من جديد « كوكي » ... « كوكي » ... لا جواب ... تشتم بالفرنسية (ميرد)..
تنادي كلبها : كوكو ... كوكو ... الكلب أيضاً لا يجيب .
تقفز من فراشها ملسوعة ...
... « إلا الكلب » ... فليختف الجميع « إلا الكلب » .. فليمت الجميع « إلا الكلب » ..
تبحث عنه في الغرف كلها . في الحمام . المطبخ . الشرفات . تناديه بحرقة . لا جواب ... تدور وتكرر بهستيرية « إلا الكلب » ... « إلا الكلب » ...
لا ريب في أنهم اولئك الهمج الذين يسكنون في بيوت التنك إلى جوارها ... هم الذين اختطفوه طمعاً في فدية او مكافأة ... لن تدفع قرشاً واحداً وستنقذ كلبها . ترتدي ثيابها بسرعة راكض إلى حرب مقدسة ، وتهبط نحو المخيم المجاور ...
المصعد معطل ... عليها اللعنة هذه المدينة ، ماذا دهاها فجأة ، كانت إلى ما قبل أيام قليلة جنة العاهرات الأوربيات ، فمن هو المجرم الذي يخرب لهن هذا المناخ الساحر ؟ ..
تركض على الدرج مرتاعة . ترى هل قتلوه ؟ هل طبخوه ؟ هل أكلوه كلبها الجميل المدلل الذي تفضل (رجولته) في الفراش على كل الرجال الشرقيين الذين تعرف؟ .
ولكن لا . لقد طمأنها كوكي إلى أنهم في لبنان لا يعرفون العنف ولا القسوة ولا الدم ولا القتل وانه لا أحد يموت في لبنان وان « عزرائيل » لا يتوقف أبداً في محطتها ...
ركضت ماري انطوانيت إلى المخيم شبه عارية . سألت أول شخص لقيته عن كلبها. لم يكن يفهم الفرنسية . (سوفاج) .
لقد كذب عليها كوكي حين قال لها انه ليس في لبنان شخص واحد لا يتحدث اللغة الفرنسية قبل العربية . ركضت إلى شخص آخر .
دخلت المخيم فجأة احدى الشاحنات . توقفت أمامها وكادت تدهسها ، ثم هبطت منها مجموعة من القتلى ... لا ... لم يهبطوا .. لقد حملوهم وكانت أجسادهم ممزقة وثيابهم ممزقة وأكثرهم عراة تظهر على أجسادهم أثار التعذيب ...
وقفت مذهولة ترقب المطر يغسل جراحهم المفتوحة التي لم تجف بعد ..
احست بخوف مروع .. كانت وجوه جميع الذين أحاطوا بالسيارة قاسية كالصخر ،

صلدة كالصخر ... وكان الصمت المتوتر سيداً . لم يصرخ أحد لم يبك أحد . سمعت (خرطشة) الأسلحة البـــاردة الحديدية الصوت شاهدت في العيـــون نظرة مليئة بالعنفوان حادة خرافية سوداء كلون الزيتون الاسطوري في ليلة مقدسة ، وزيته يكاد يضيء ..

أدركت للمرة الأولى ان لبنان ليس حقاً جنة للعاهرات الأوربيات فقط لا غير كما كان يؤكد لها « كوكي » ورفاقه ..

وانه تحت هذا الجبل الجميل المكسو بالارز هنالك بركان يغلي ويفور ..

وخرجت هاربة ... وهي تصرخ وتبكي .. ولم تجرؤ على السؤال عن كلبها ...

تقدمت منها امرأة فلسطينية فارعة الطول كسنديانة ، عتيقة الأحزان والصلابة كسنديانة ، وضمتها إلى صدرها ..

وفي لحظة فهمت ماري انطوانيت .. فالانثى تفهم الانثى ...

(اذن هذه المرأة تظنها صديقة لاحد اولئك المقاتلين المقتولين . ربما صديقة لابنها ، وها هي تطير فوق احزانها ، وتطير عبر احزانها لتعزيها بمصرع الحبيب المشترك !)

شعرت بخجل عميق .. للمرة الأولى منذ أعوام — لم تعد تذكرها — تدفق إلى وجهها دم الخجل .

وحين أقلعت بها الطائرة إلى بلدها ذلك المساء ، لم تفكر بكلبها المفقود ولا بعشيقها المفقود ... فكرت بذراعي تلك المرأة القوية ، ودموعها المتحجرة ، والحنان الذي تدفق منها رغم جراحها ..

آه اولئك الذين يسكنون بيوت التنك ، والذين كان يتشدق كوكي برغبته في طردهم واقتلاع بيوتهم بالجرافة (لانها تشوه المنظر السياحي لبيروت) اولئك البشر ، أية عوالم من الحنان والصلابة تعشش في صدورهم النازفة ...

انها لا تفهمهم ، لا تفهم شيئاً مما يدور ، كل ما تفهمه بعد ان عاشت أشهراً في بيروت هو : انها فعلاً تجهل بيروت .. كاكثر أبنائها .

* * *

كابوس ١٧٧

عرق بارد يتصبب من جبين مارون .

يقود سيارته وهو يرتجف . يجد صعوبة في تثبيت قدمه على دواسة البنزين .
هنريت تقول بصوت جهدت ان يبدو هادئاً : توقف ودعني اتولى القيادة عنك ...
قال لها دون ان يلتفت : لا ضرورة لذلك . أنا بخير .
صمتت . كانت تعرف انه يكذب . وكان يعرف انها تعرف انه يكذب ... كانت تفهمه جيداً . ذلك لا يضايقه . وبالرغم من انها زوجته ، فأنه ما يزال يحبها ...
الشوارع شبه خاوية ... اين ذهب الناس جميعاً ؟ كيف تزدحم الشوارع بهم فجأة ثم تخلو منهم فجأة ، كما لو تسربوا مع ماء المطر إلى المجارير ؟ . وهذا الصباح حين غادرا البيت إلى عملهما ، كان زحام السير شبه عادي ولم يكن هنالك ما ينبىء بان هذا السبت سيصير سبتاً وحشياً مرصوداً للموت .
سألها : كم الساعة .
. لم يكن يهمه فعلاً أن يعرف الوقت . كان مرهقاً ومتوتراً وبحاجة إلى أن يقول اي شيء ، ويسمع اي صوت .
لم تجب . كان يعرف انها تعرف انه لا يريد حقاً ان يعرف كم الساعة ! . ما الفرق؟...سواء أكانت الخامسة فجراً أم الثالثة ظهراً..المهم ان يصلا حيين إلىبيتهما..
حين غادرا البيت إلى عملهما هذا الصباح ، كان زحام السير شبه عادي ، ولم يكن هنالك ما ينبىء بأن هذا السبت سيتحول إلى يوم تاريخي يحتفل به فرانكشتاين ودراكولا والمركيز دي ساد وهولاكو وجنكيز خان وتيمورلنك كل عام كمولد جديد لهم .
انه لم يشم رائحة الدم وهو في مكتبه بالمجلة (الثورية) التي يرئس تحريرها ... ولكنه أحس كهارب غير مريحة في مناخ المدينة ، وحين سمع بالنبأ يحمله زميل له ، لم يبد كما لو انه سمع شيئاً جديداً ، وانما كانت عباراته مجرد قوالب لغوية لمشاعره الغامضة بالضيق والقلق والتحفز الخائف ..
وقبل ان يهتف لهنريت ، جاء صوتها : ستجيء اليه بتاكسي ليمضيا إلى البيت . في البلد اطلاق رصاص عشوائي وحواجز للقتل على (الهوية) ... والوضع سيء جداً ...
وها هما ما يزالان حيين بالرغم من أنها مرت بدرب الموت من الحازمية إلى مكتبه بشارع الشيخ بشاره الخوري ، وها هما الآن في دربهما إلى بيتهما عند مفرق نهر الموت ! ...

نهر الموت ....

يوم اشتريا بيتهما الجديد عند مفرق « نهر الموت » ، وابلغا الاصدقاء بعنوانهما الجديد ، ظن أكثرهم ان في الأمر نكتة سوداوية من تلك التي قد يحلو للمثقفين تبنيها ... بيت عند مفرق « نهر الموت » .. تماماً كما في الروايات البوليسية الرديئة ! ..

ولكن ما ذنبهما اذا كانا لا يتشاءمان ولا يتفاءلان ولا يتطيران ، وكان البيت جميلاً يطل على حقل من البرتقال وخلفه البحر ، وثمنه معقول ، واسم المكان الذي يقع فيه « مفرق نهر الموت » ؟ ..

وصلا إلى مفرق نهر الموت .

وعند المفرق لمحا مجموعة من المسلحين . فكر مارون بالعودة لكنه كان واثقاً من انهم سيطلقون عليه النار لمجرد انه هرب .

كان لا مفر من ان تحدث المواجهة بين تذكرة هويته ، وبين الحاجز (الروليت) ... وهو لا يعرف ما اذا كان سيربح ام سيخسر ولكنه يعرف ان الخسارة تعني الموت الفوري او البطيء ، والربح يعني البقاء حياً ، حتى اشعار آخر ..

هذه الروليت الطائفية اللعينة ... روليت القمار بالكازينو أكثر عدالة ، انه هناك يختار على الأقل رقمه بنفسه فيربح او يخسر ، أما الآن فلا دور له حتى في اختيار الرقم الذي يقامر به ..

لقد تم اختياره له سلفاً حتى قبل ولادته بتسعة أشهر ، والأمر كله يتوقف على اختيار والدته للرجل الذي ضاجعته ليلة حملت به ، مسلماً كان ام مسيحياً . والنتيجة ، يجدها مكتوبة في خانة المذهب بهويته وكانت النتيجة كما قرأها : « مسيحي » ، كأنه (رقم) في لعبة مقامرة ارغامية شارعية عشوائية ...

واذا تطابق هذا الرقم مع (الرقم) المكتوب في خانة المسلحين الذين تصادف وقوفهم الآن هناك سيربح . واذا لم يحدث التطابق ، سيربح رصاصة في رأسه ... لعبة ساذجة كلعب الأطفال في الأزقة .

لم يفكر بينتيه كما في أكثر الروايات التي قرأها . لم يفكر بمصير حبيبته هنرييت كما في قصص الحب كلها ... ولم ينزلق شريط حياته أمام عينيه كما في أفلام المغامرات .

استحال ذهنه إلى سبورة ممسوحة تطفو فوقها لمبات مجنونة تضيء وتنطفيء دون ان

تكتب كلمة محددة . وجسده تدفق فيه دم حار جداً .

توقف أمام الرجال ، واستطاع ان يرى ان ثياب أكثرهم ملطخة بالدم ... لم ينتظر حتى يقولوا له شيئاً . أخرج لهم تذكرة هويته ، وتناول من يد زوجته تذكرتها أيضاً ! ... قرأ المسلح بصوت عال دون ان ينظر في وجهيهما .

مارون . هنرييت . مع السلامة يا اصدقاء ...

كان من المفروض ان يطمئن ويمضي .

ولكنه ظل خائفاً . انه ليس (مارون) . وهي ليست (هنرييت) ، واذا اكتشفوا ذلك فان العقاب سيكون عظيماً ...

لا ... ليست بطاقات التذكرة مزورة ، كل ما في الأمر انها لا ترسم (ا لحقيقة) ... حقيقتهما من الداخل ..

ولكن ، ما له ولحقيقته من الباطن الآن ؟ ..

وهذا العرق اللعين الذي يتصبب من داخله كأنه يريد ان يغسل عن وجهه قناع الاسم ...

التفت إلى هنرييت . كعادتها كانت هادئة وصلبة كحجارة حلب ، مسقط رأسها ... وجفناها كانا منسدلين بطمأنينة كما المجدلية في الايقونات ..

اما هو فيعرف ان عينيه تفضحان اعماقه باستمرار ، كما لو كانتا نافذتين شفافتين مفتوحتين على دخيلة نفسه .

انه مارون .. لكنه ليس مارون الذي يتوهمون ...

مارون الظاهر في الهوية هو غير مارون الباطن ...

هذا ليس وقت الظاهر والباطن يا مارون ... لماذا ترتجف يدك هكذا وانت تتمسك بمفتاح (الكونتاكت) وتحاول ادارة محرك السيارة اللعين الذي انطفأ فجأة ؟ ... انه لم ينطفىء فجأة . انت تعرف أن قدمك اليسرى لم تتجاوب مع اليمنى التي داست الكابح لحظة توقفك ، ولم تضغط على دواسة الدبرياج ... فانطفأت السيارة ... كأن قدمك (اليسرى) تقوم بعمل احتجاج ... وتعلن العصيان ... قلبك أيضاً سبق له ان أعلن العصيان ، بالضبط في الجزء (المنحرف) منه ناحية (اليسار) ...

المسلح يلحظ ارتباكك ... ينظر داخل عينيك للمرة الأولى ... لقد انكشف أمرك

وأمر هنرييت وانتهى أمركما ...

والسبب عجزك .. عجزك عن ارتداء القناع فوق بؤبؤ عينيك وإخفاء لون الشعاع المنبثق منهما حاملاً حقيقتك الباطنية .. ربما كان ذلك سبب ولعك بالفلسفة والصوفية وحكاية الخارج والباطن ومحاولة خلق انسجام وتطابق بينهما ...

ولكن هذا ليس وقت الخارج والباطن يا مارون .. وها هي هنرييت ترفع نظراتها اليك في ما يشبه التوسل ... محرك السيارة يستجيب لنظراتها اكثر منك ويدور .. تتهيأ للمسير والخروج من الكابوس ... وحتى قدمك (اليسرى) تستجيب ، وتتأهب للاقلاع بسيارتك . ما تكاد تفعل حتى يصرخ بك المسلح : قف .

اذن قرأها . نظرة الخوف في عينيك قرأها . نظرة الكذب في عينيك قرأها . لا . ليس الخوف . من الطبيعي ان تكون خائفاً . انه لا يتوقع منك ان لا تكون كذلك . لكنه شعاع الكذب الذي فشلت طوال حياتك في اطفائه حينما يطل من عينيك ... انه يعرف انك خائف خوفين : خوف الموقف ، وخوف الكذب ... تماسك يا مارون .. هذا المسلح التافه الذي يعيش بغريزته ، ماذا يعرف عن الظاهر والباطن والخوف والخوفين ؟ ربما لا يعرف . ربما يعرف . ربما كان هذا النوع من الناس البهيميين مسلحين بغريزة غامضة هي نفسها غريزة الفأر أمام المصيدة ... تسأله بصوت راعش : ماذا تريد ؟ ...

هو نفسه لا يعرف ماذا يريد . انه يشعر بانك تكذب . هذا كل ما في الأمر ... انه واثق من انك تخفي شيئاً ....

من جديد يأخذ تذكرة هويتك وزوجتك . هذه المرة يحدق جيداً في الاسم . يحدق جيداً في الوجه . الاسم : مارون . والوجه وجهك . تقفز نظراته عن وجهك إلى صندوق السيارة ، وفي عينيه نظرة انتصار . الاحمق . ان ما تخفيه هو في صندوق صدرك لا في صندوق سيارتك . لقد بدأت تنتصر . يطلب منك ان تفتح صندوق السيارة . تتطوع هنرييت للنزول . انها تعرف أنك قد تكون عاجزاً عن الوقوف على قدميك .

تقول له : الصندوق مفتوح ...

يمضي اليه وفي عينيه نظرة انتصار . يعود بنظرة خيبة . يدقق من جديد في اسمك وفي وجهك وفي مذهبك : مارون . مسيحي .

يقول لك شبه معتذر : مع السلامة . ورفاقه مشغولون باطلاق النار على رجل تصادف

ان اسمه محمد .

ها انت الآن في البيت وقد نجوت .

تتمدد على أريكة .

تتمدد هنرييت على الأريكة المواجهة لك المشابهة تماماً لاريكتك ، وكمرآة ترى فيها صورتك : الباطن منها لا الخارج ...

بعد قليل تنهض هي .

تقرر انت ايضاً ان تنهض لاجراء تعديل أساسي في بيتك ، بالضبط في مكتبتك : هويتك الحقيقية ، هوية الباطن ...

فقد يداهم البيت المسلحون ...

في المكتبة ، تعملان بسرعة لتزوير الهوية الحقيقية ..

بعض الكتب العاطفية والشعرية والرومانسيات يتم ابرازها ... اي الكتب التي كنتما تفكران بالتخلص منها ، ثم قررتما عدم اهدائها لاية مكتبة لان ذلك يساهم في نشر تزييفها للحياة ، واحراقها بدلاً من ذلك ... لكن قلبكما لا يطاوعكما على اضرام النار في كتاب لمجرد انه كتاب ...

بعد نصف ساعة ، كان العمل قد تم على تزوير هويتكما الحقيقية ...

الكتب التي تحبانها تم اخفاؤها خلف الكتب التقليدية (الواجهة) ... في الباطن ترقد كتب ماركس وانجلز واعداد المجلة (الثورية) التي تشرف على اصدارها ...

وها هي هنرييت تقوم بوضع اللمسات الأخيرة (الانثوية) على عملية التزوير :

فتنقل صورة العذراء التي أصرت والدتك على تعليقها في غرفة نوم الأطفال لتتصدر مكاناً بارزاً عند مدخل البيت ! ...

تعود لتتمدد على الأريكة ...

تحلم بالمكتبات السرية التي خارجها جدار وباطنها كتب ، وحين تضغط على زر سري في الجدار ينفتح دائراً حول مفصل في المنتصف ، وتخرج اليك المكتبة ...

انها الحكاية نفسها دائماً ... الخارج والباطن ... على الأريكة المقابلة لك ، تتمدد هنرييت ، كصورتك في مرآة ! ...

* * *

كابوس ١٧٨

كانت الانفجارات لا تهدأ .

غمرها حس بالخديعة : ها هو يهرب ويخلفها وحيدة .

اطفأت الأنوار .

خافت ان يظنوا البيت فارغاً فعادت واشعلتها . انها تخاف من السارقين .

خافت ان يعرفوا ان في البيت شخصاً حياً فيصوبوا رشاشاتهم إلى نافذتها ويقتلوها فعادت واطفأت النور .

أفزعتها الظلمة ، وذكرتها به ، بملمس جسده الافريقي الخالي من الشعر ، الرشيق العضلات والممشوق ... جسده الافريقي الذي يتدفق منه سحر رجولي يختلف كثيراً عن أجساد الرجال الاسيويين الغزيري الشعر حتى على اكتافهم وظهورهم ... في الظلمة لا تملك إلا أن تتذكر ملمس جسده . رائحته . رقصة عضلاته فوق جسدها ، وقرع الطبول في اذنيها حينما تغمض عينيها وتحس بأنها في غابة من الرجال العراة الذين يرقصون برماحهم الصلبة الملونة وهم يقتربون منها ويلتصقون بهـا وتلتصق اصواتهم بمسامها كقطر الجمر .. لا .. انها تخاف الظلمة . تضيء النـور في الغرفة المجاورة .. هذا أفضل حل : هكذا سيعرفون ان في المنزل شخصاً لكنهم لن يعرفوا انه جالس في غرفة أخرى ، واذا صوبوا رصاصهم إلى الغرفة المضاءة فلن تقتل .

لقد جاء بثرائه وسحره وقال انه يحبها ، والتصق بها طوال عام ، لقد جاء وضحكا وعبثا ، وها هو يخلفها للدمار دون ان يكلف نفسه عناء السؤال عن مصيرها . واذا نجت فلا مانع عنده من انتظارها في فراشه . واذا قتلت فسيستمع إلى الخبر بأسف ، وسيسره ان يحاول رفاقه التخفيف عنه !! ... سيشترون له أجمل المومسات الأجنبيات .

هي كانت تحبه وتمنحه الكثير من ذاتها ، لكن ذنبها الأساسي لدى رفاقه هو انها ليست أجنبية ... اولئك العرب الأثرياء ما زالوا يشعرون بالنقص أمام العيون الزرق ويمتعهم شراؤها واذلالها واستهلاكها ... ما زالوا عاجزين عن تفهم معنى الحب الحقيقي المجاني غير المقطوع عن تربة الواقع والتاريخ والحياة المشتركة والمصير الواحد ...

ها هو قد هرب وخلفها وحيدة . شعرت بغربة حقيقية عنه وبان آخر خيط كان يشدها اليه قد قطعته رصاصة ...

قال لها : سأعود ...

سيعود ، لكنه لن يجدها ...

لن يجدها أحد بعد اليوم ...

صحيح انها أحبت عدداً لا بأس به من الرجال ، لكنها أحبت كل رجل باخلاص كما لو لم يكن على وجه الكرة الأرضية سواهما . مع كل رجل كانت هي حواء ، انثى الكرة الأرضية الأولى والوحيدة ، وكان هو آدم ... لا رجل سواه لها ...

احبتهم جميعاً بصدق ، واحداً بعد الآخر ... تألمت من أجلهم بصدق ، واحداً بعد الآخر ... أقسمت لهم بصدق أنها لن تحب أحداً آخر ، وكانت صادقة لحظة قسمها ... منحتهم جسدها بصدق ، ومجاناً واستمتعت باجسادهم بقدر ما استمتعوا بها واحداً بعد الآخر ، واقسمت لكل منهم انها لم تعرف لذة كالتي عرفتها معه ، ولم تكن تكذب ... كأن الحب يصقل في الجسد القدرة على الوصول إلى النشوة ... كأن كل حب ليس نقيضاً للآخر بل مكمل للآخر ... كأن رجالها كلهم ليسوا رجالاً مختلفين بل أعضاء متناثرة لـ « رجل » الوحيد الذي هو الحب والخير واللا نهاية ...

وها هم جميعاً قد رحلوا .. تتذكرهم واحداً بعد الآخر ... تحصيهم واحداً بعد الآخر ... تتخيل أنها قد افتتحت نادياً تسميه : « نادي عشاق ناديا » يأتي اليه جميع الرجال الذين أحبت وعرفت وضاجعت .. آه سيكون هنالك زحام ... ستوسع النادي .. سيأتون في ثيابهم المعتادة : الارستقراطي والفلاح والسباح والضابط والصحفي ورئيس الجمهورية وسائق التاكسي والسكير والفيلسوف والشاعر والحداد وبوليس السير والتلميذ ورئيس الجامعة وقاطع التذاكر ...

ستقول لهم انه مهرجان لعشاقها لا كرنفال دولي تاريخي . ستطلب منهم خلع ثيابهم والدخول عراة إلى ناديها ... سيدخلون باجسادهم المشدودة او كروشهم المترهلة ، برجولتهم الفاضحة أو الخجول ، بعضلاتهم المتورمة الشهية أو عظامهم المنخورة ...

ستقف عارية وستخطب فيهم : ايها الرجال الذين يجمعهم شيء واحد ، لا علاقة له بالثأر او الفكر أو الدين او العشائرية أو العبقرية أو الصفقات التجارية .. ايها الرجال الذين يربطهم شيء واحد هو أنا . ... اين انتم الآن مني وأنا أموت وحيدة هكذا ببطء هكذا ؟ ... لقد كنتم كاذبين ، كل منكم على حدة حين اقسمتم أن شيئاً لن يفرقنا سوى

الموت وكان العرق يقطر من وجوهكم فوق جسدي ...

ها أنا لم أمت بعد ، وكل ما في جسدي متفجر وحار وحي ومهيأ لاحتضان حبكم وبذورکم وشهواتكم ، فاين انتم من وحدتي الآن في ليل الرصاص والمتفجرات ؟

وبما ان العواطف البشرية عابرة وهشة وكاذبة ، والجسد البشري مذبح لأكاذيب وجودية مهولة تحت قناع الحب ، لذا قررت اغتيالكم واغتيالي والحكم عليكم وعلي بالموت لاننا لا نستحق الحياة ما دمنا نعجز عن احتضان الحب ...

ثم تسحب من تحتها رشاشاً خبأته باتقان تحت جذعها الضخم كجذع شجرة ، وتطلق النار عليهم في موضع (رجولتهم) بالذات ، فيسقطون على الأرض ويحتضرون... لكنها لا تنتحر ...

تتسلق النافذة وقد غسلت عنها ذكراهم وجثثهم ، وتخرج إلى الليل الشتائي لتغتسل بالمطر ، ولتبحث عن رجل (حقيقي) تروي له مأساة انوثتها (الحقيقية) ، ويفهمها ... ويحبها ... ويضمها إلى دفئه ...

لتكرر الحكاية من جديد ... يعشقان ... يفترقان ... يبكيان .. ينسيان ..

وتتكرر الحكاية من جديد مع رجل جديد ! .. يا للجحيم اللامتناهي ! ...

* * *

كابوس ١٧٩

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار .. آه ما ابطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتحول كل ذرة رمل إلى كابوس ..

آه كوابيس كوابيس تجرفني إلى شطآنها .. ولا أملك إلا الاستسلام لموجاتها العجيبة المروعـــة .

* * *

كابوس ١٨٠

لم يكن منصور يعتزم حقاً الاقدام على ما فعله ... لكن (القدر) تعمد ان يساعده على ارتكابه . ولم يعد بوسعه مقاومة الاغراء ...

لقد قضى عشر سنوات وهو يحلم كل ليلة بأنه يقدم على (ما فعله) .. لكنه لم يكن ينوي ارتكابه حقاً . وكانت أحلام اليقظة كافية لتنفس بعضاً من مرارته .

لــو ...

لو لم يحتضر عابر السبيل صدفة بين يديه ... لو لم يكن خارجاً من البنك كعادته ذلك الظهر ، ويحاصره القناص في الزقاق ، فيصرع عابر السبيل الذي كان يمشي بالصدفة أمامه ...

سقط فوقه ... ليس بالضبط فوقه بل أمام قدميه ، فتعثر به وسقطا ... كانت الرصاصة قد استقرت في رأس الغريب تماماً . لم يصرخ . لم يتوجع . لم يغمض حتى عينيه . لا يذكر بالضبط ما اذا كان ينوي اسعافه حين احتضنه ، أم ينوي الاحتماء بجسده كدرع من رصاص القناص ... لا يدري ما اذا كان حقاً يحاول فك ازرار سترة الغريب لمساعدته على التنفس — فقد يكون مغمى عليه فقط لا مقتولاً — أم تعمد ان يبحث عن (تذكرة هويته) ...

لا يدري بالضبط ، ولا يريد ان يدري ... كل ما يدريه انه قضى عشرة أعوام يحلم بان يحمل (تذكرة هوية) رجل سواه وشجاعة رجل سواه ليقوم بما ارتكبه اليوم ...

عشرة أعوام والحلم نفسه يراوده .. منذ عمل موظفاً في البنك والحلم نفسه يراوده...

في البداية كانت عملية عد النقود تسبب له ألماً خفياً ...

فقد كان فقيراً معدماً ... ومرض أمه الخبيث بحاجة إلى نفقات مروعة لتسكين آلامها فقط ... وكانت نقوده تذهب إلى جيب الطبيب وكان يحب ذلك الطبيب ويشكره بصدق بينما هو يودع بين يديه في نهاية كل شهر راتبه المتواضع بأكمله ...

كان محروماً من النساء لان النساء — عشيقات كن ام زوجات — يتطلبن النقود أولاً ثم الرجل ...

وكان محروماً من متابعة الدراسة لان الاساتذة يتطلبون (الاقساط) أولاً ثم العلم ...

كان محروماً من الضحك والفرح والرفاق والمعطف الدافىء شتاء والقميص الناعم صيفاً ، وعليه ان يرتدي الثياب نفسها صيفاً وشتاء ريثما تبلى على جسده الواهن ...

ولكنه كان لا ينسى شكر الطبيب كلما دفع له راتبه بأكمله آخر كل شهر ...

حتى جاء يوم ...

كان واقفاً في موضعه بالغرفة الزجاجية خلف الصندوق ، يحصي النقود حينما فوجىء برزمة ضخمة جداً من الأوراق الزرقاء توضع أمامه ..

رفع رأسه فوجد نفسه أمام الطبيب . حياه بحكم العادة . قال الكلمات التقليدية : أهلاً يا بيك . أمرك يا بيك . أمرك (يا حكيم) ...

(الحكيم) يريد ان يودع مئة الف ليرة في حسابه ... مئة ألف ورقة زرقاء جاء بها في خمس رزم ضخمة ...

بدأ يحصي النقود ، ويقلبها ورقة ورقة بسرعته التي اشتهر بها ... وفي أصابعه ذلك الألم الغامض كلما عد مبلغاً كبيراً ليس له هو ، وانما هي نقود ستعبر يده مجرد عبور كأنما لتدغدغ أحلامه وتنكأ جراح خيباته كلها ...

وفجأة شاهده ...

شاهد توقيعه هو على أربع ورقات تشكل ثلثي راتبه الشهري ... لقد اعتاد أن يوقع على الأوراق النقدية التي يقبضها ، كأنه يريد ان يطيل من امتلاكه لها أطول وقت ممكن ، كأنه يدمغها كما تدمغ المواشي ، وحتى إذا ذهبت لسواه فستظل بطريقة ما ملكاً له وتحمل توقيعه ...

أجل انه توقيعه . وانها أوراقه النقدية ، التي لو لم يبتلعها الطبيب لاستطاع ان يشتري بها معطفاً لهذا الشتاء البارد ولقمة لحم يشتهيها أكثر من مرة في الأسبوع ، وكتاباً يراه كل صباح في واجهة المكتبة المجاورة ، وربما زوجة تدفىء صقيع لياليه المغمسة بأنين أمه العجوز ...

ذلك اليوم تحول الألم في أصابعه إلى حقد شرس ... تسارع احضناؤه لنقود الطبيب .. صارت أصابعه مثل ماكينة تسارعت فجأة حتى الانفجار ...

منذ ذلك اليوم صار يحس بألم شرس في أصابعه كلما جاء شخص حاملاً رزمة هائلة من النقود ليودعها في حسابه ... كان يفكر بما يمكن لهذه النقود ان تصنعه له ولآلاف البائسين مثله ...

ولكن الحلم المجنون بدأ يوم (رفعوه) مكافأة له على (أمانته) فنقلوه ليصير مسؤولاً عن الخزائن الحديدية . صارت مهمته تنحصر في استقبال الزبائن . وفتح الأقفال لهم ومرافقتهم في سراديب البنك للوصول إلى الغرفة المصفحة . في الغرفة المصفحة عشرات الصناديق الحديدية التي لا تحتاج معالجة إقفالها إلى أكثر من خمس دقائق ، لكنها كلها موجودة ضمن غرفة مصفحة هي بمثابة خزانة حديدية عملاقة واحدة ...

كان عليه ان يرافقهم . ان يمشي خلفهم بكل احترام لان مستأجري الصناديق الحديدية (لايداع المجوهرات وأوراق الصفقات الكبيرة) هم طبعاً من الأثرياء جداً ... اي من الحكام الفعليين لهذا البلد البائس .. كان عليه ان يفتح الباب المصفح ثم ينحني قليلاً ليدخل (العميل) . هو يحمل مفتاحاً والعميل يحمل مفتاحه والصندوق لا يفتح إلا بالمفتاحين والعملية بأكملها هزلية ورمزية لكن الطقوس هي الطقوس في أماكن العبادة وفي البنوك . عليه ان يفتح الخزانة ثم يسحب الدرج المسجى في قعرها والمغطى جيداً بشكل علبة حرصاً على أسرار المودع . يضعها على رف خاص . يقدم للزبون كرسياً موضوعة أمام الرف زيادة في التكريم (وربما لان أكثر مالكي الصناديق هم من العجائز نساء أو رجالا) ثم يظل واقفاً مديراً ظهره في حركة مسرحية تعبر عن (غض الطرف) حرصاً على أسرار العميل . وباستطاعة الزبون ان يضع في صندوقه ما يشاء ... مجوهرات أو قطعة ذهب أو علبة صابون مبروش أو ... قنبلة موقوتة !

بعد ذلك تتم إعادة الصندوق إلى مكانه . يقفل بالمفتاحين . يخرجان من الغرفة المصفحة . يحكم إقفالها . يخرجان من السراديب . يحكم إقفال المدخل . يودع (العميل) حتى باب البنك ...وهكذا ..

لا بد له من الاعتراف بانه كان يسترق النظر إلى ما يتم ايداعه في الصناديق ... وكانت المجوهرات تخطف بصره حتى ليخيل اليه (لضخامتها) انها من زجاج ...

حتى جاء الطبيب ...

هذه المرة لم يسترق النظر ، بل انه حدق دونما مبالاة بضيق الطبيب .. حدق جيداً فشاهد الحلي المعتقة الفاخرة تلتمع في ضوء النيون وقال له الطبيب بفخر سري مغلف بنبرة شكوى : انها مجوهرات الوالدة ... التي توفاها الله منذ أسبوع ...

فرد عليه بلهجة آلية : عليها رحمات الله ... صبرك الله على مصابك ..

مصابه ؟ ..

وماذا عن نواح أمه هو في ليالي (آخر الشهر) حين ينتهي راتبه تماماً ويعجز عن شراء الدواء المخدر والمسكن لاوجاعها ؟ ..

تلك الليلة جاءه الحلم ...

حلم بانه يرتدي ثياباً فاخرة ويستأجر صندوقاً في البنك . بالضبط ، الصندوق المجاور

لصندوق الطبيب . يضع فيه قنبلة ويخرج . يرافقه الموظف باحترام وينحني له متوهماً انه ثري اودع ثروة من المجوهرات . ما يكاد يغادر البنك حتى تنفجر القنبلة وتفسد كل ما حولها من مجوهرات واوراق (هامة) وسندات ... وتحرق كل ما حولها من (عهر) ثري .. وهو يجلس على الرصيف بحذائه المثقوب وثيابه الرثة الممزقة ويضحك ويضحك حتى يصاب بنشوة (جسدية) ثم يصحو مستمتعاً .

حتى مات ذلك الغريب بين ذراعيه ...

حتى سقطت (تذكرته) بين أصابعه ... وصار تحقيق الحلم ممكناً عملياً .

كانت هذه أول مرة يخون فيها المنظمة التي انضم اليها ... لا يخون بالضبط ، وانما يستعمل بعض الأسلحة الموضوعة بين يديه لغرض (شخصي) ...

لنقل (يختلسها) . لا . لم يختلسها . كل ما في الأمر هو أن الحلم كان أكثر كثافة من أن يشرحه لهم ، واعمق صدقاً من ان يعتذر عنه .

ذهب إلى بنك آخر . كان يتمنى ان يحقق الحلم بحرفيته ، لكن (للواقع) أحكامه . أعطاهم تذكرة الرجل القتيل متنحلاً صفته . كان من أسرة بيروتية عريقة فاستقبله الموظف باحترام (تماماً كما كان يفعل هو مع زبائنه) .. وقع الأوراق اللازمة . دفع رسم الايجار السنوي اللازم . هبط إلى القبور ... السراديب .. الغرفة المصفحة .. فتح الصندوق وطلب من الموظف بلهجة طيبة ومباشرة — لا يستعملها الأثرياء حقاً — ان يدير وجهه حقاً ! ..

وفي الصندوق ، خلّف القنبلة ، وخيل اليه ان ضربات ساعتها الموقوتة تنافس ضربات قلبه ... وغادر البنك .. وجلس على الرصيف ... صحيح انه لم يسمع صوت الانفجار عالياً بقدر ما كان يسمعه في الحلم ، لكنه ضحك طويلاً طويلاً وعليه أن يغسل الليلة ثيابه الداخلية ...

* * *

كابوس ١٨١

حدث الأمر دونما تخطيط ... وصار بطلاً ... كان يبحث تلك الليلة عن امرأة يشتريها آخر الليل ... يعري جسدها في الظلام ويناديها باسم ابنة (القرية) التي كان يحب ، ويدفع ثمنها قرشا ويمتلكها ، ويتخيل أنه يمتلك تلك الرائعة في قريته التي كان

يشتهي ، وبما انه (مقاتل محترف) فانه سيرد على طريقة نابليون « جميع نساء العالم متشابهات في الظلمة » ، وسيغير على جسدهـا كما لو كانت كل النساء اللواتي تمنى لو امتلك وفشل ، وسيمتلكها وسينجح ...

تلك الليلة خرج إلى الليل بحثاً عن امرأة ...

حمل عدة (الجهاد) بحثاً عن امرأة .. وعدة الجهاد هذه الأيام أسلحة .. أو جرح ...

اسلحة من الأنواع كلها : خنجر ، عصا ، رشاش ، مسدس ، (وعيون شرسة بالطبع مع شارب وقح) ، أو جرح : أي ضمادة فوق جرح وهمي .يعلن عنه بربطه بشاش أبيض شاسع على طول الأفق ...

تلك الليلة ، خرج بعد ان ضمد ذراعه غير المجروحة وساقه السليمة وحمل (العدة) : قنبلة اينيرجا — رشاش يسميه أميرة ... خنجر غير حاد ولا مسموم يحلو له ان يؤكد للنساء انه مسموم حين يطلعهن عليه.... ويبدو في عيونهن الانبهار والاعجاب كما في عيون كليوباترة حين ضمت اليها أفعاها ...

لكنه الآن جريح حقاً وبطل باطلاً .. الذين جرحوا معه كانوا أبطالاً حقاً ، أما هو فيعرف انه مندس بين صفوفهم يرتزق من ثورتهم لكن ذلك هو سره وحده .

المرأة التي اشتهى مؤخراً تقطن حياً غير (آمن) ... ومحاولته التصفير (بدلاً من عزف القيثارة) تحت شرفتها كانت نتيجتها إصابة طفيفة ، حولها ذعره إلى إغماء ، فنزيف فاصابة خطرة ...

والمهم انه الآن بطل ، فقد نقله بعض المقاتلين الفعليين في تلك المنطقة إلى المستشفى ، والسرير ، والرعاية الطبية ، والزائرات ،.والصحفيات والأضواء ولمبات الفلاش ...

وعلى ذراعه ضماد ، وعلى ساقه ضماد ، وحول السرير نساء جميلات كلهن من خريجات الجامعات . ذلك الصباح ، قال له الطبيب : شفيت .

أية كارثة . ان يرفع عن يده الضماد . أن يسير دون عرج وبالتالي دون نظرات إعجاب وحنان — أن يتحرك دونما شهقات لهفة !

قال له الطبيب : تستطيع أن تغادر المستشفى . لكنه لا يستطيع حقاً .

لا يريد ان يفقد ذلك كله ..

ارغموه على الرحيل ، رغم (عطف) رئيسة الممرضات عليه، ارغموه على الرحيل ومنحوا سريره لجريح ينزف حقاً ...

ها هو في بيته وحيد ...

لقد اشترى مئات الامتار من الضمادات ... وعشرات الامتار من البلاستيك اللاصق .. لا .. لن يفقد جرحه حتى ولو اندمل .. لن يفقد إعجاب الفتيات بأوجاعه حتى لو شفيت ...

أمام المرآة وقف يضمد جرحه الملثم كغانية تلصق أهدابها الاصطناعية ، ويجرب مشية الأعرج كراقصة تراجع بروفة رقصة (السّربتيز) القادمة ..

وخرج .. إلى الشارع .. فالبار .. وبدأ يعرج ..

عكازه عصا طرفاها من رصاص الرشاشات ...

انه يعرج والنظرات تلاحقه ... يتأوه من أوجاع موهومة في ذراعه والنساء يتأملنه ... الضماد هو « موضة » الحرب الأهلية للرجال ، كما كانت الموضة شارب فالنتينو وبنطال البيتلز الضيق منذ أعوام ...

وهكــــذا ...

يوماً بعد يوم يضمد ذراعه المعافاة ... ويجبر الكسور الموهومة لساقه .. ويمتلك النساء المعجبات (بعاهته) الثورية الكاذبة ...

حتى كان ذات فجر ... صحا ، وذراعه تؤلمه حقاً ... « حقاً » اي .. « فعلاً » اي «دونما زيف»...لم يكن الألم مكياجاً مسرحياً وانما ألم حقيقي كالذي قرأ عنه في القصص ...

قال له الطبيب : انها الغرغرينا في ذراعك . انه تأثير (البلاستر) طوال اشهر والجوع إلى الشمس . انا مضطر لقطع يدك ...

هذه المرة ، تأوه بصدق ، عرج بصدق ، عوى بصدق ، وهذه المرة تحاشته النساء لان الصدق الصادق يروع هذا النوع منهن الذي يفضل الأقنعة ...

* * *

كابوس ١٨٢

استيقظت خاتون العرافة مذعورة .

كان هنالك من يهز سريرها بعنف حتى لتكاد تسقط عنه . تراه أحد الجان الذين

تنطق باسمهم ولا تؤمن شخصياً بوجودهم ؟ام انه زلزال ؟ ام قذيفة في البناء المجاور ؟ ..

سمعت انفجارات متلاحقة هائلة الدوي . خيل اليها انها تنبعث من الغرفة التي تمارس فيها سحرها ...

ركضت اليها . فوجئت بمشهد لا يصدق ... كرتها الزجاجية كانت تضيء وتنطفيء وبداخلها انفجارات متلاحقة حمراء زرقاء خضراء رمادية .. كان الدوي هائلاً ، والكرة بأكملها ترتجف فوق منضدتها ... حاولت الهرب ، لكن كهارب غامضة كانت تنبعث من الكرة ، وتسمر نظراتها عليها كمغناطيس خارج من عمق الأساطير .. بدلاً من الهرب ، وجدت نفسها تقترب من الكرة الزجاجية وتحدق ...

شاهدت أرض الجبال المكللة بالأرز والثلج والشواطيء الزرق والذهبية القريبة ما تزال تلتهب ... لكن النار تمتد إلى أمكنة أخرى ... الشرخ يكبر ويرتسم فوق أصقاع جديدة .. والزلزال يجتاح الكرة بأكملها . ازدادت اقتراباً من الكرة وتحديقاً فيها رغم الشرر الذي بدأ يتطاير منها حارقاً أطراف وجهها وشعرها ... ظلت تحدق محاولة تحديد المكان الذي بدأ الزلزال انتقاله اليه ... والشرخ ، إلى أي بلد شقيق انتقل بالضبط..

شاهدت ذلك بوضوح ، وقبل ان تفتح فمها لتصرخ ناطقة اسم المكان ، ازداد الزلزال والشرر المتطاير واندلعت النار بها وتدحرجت الكرة الزجاجية مثقلة بما فيها من غليان مروع ثم انفجرت دفعة واحدة ...

في الصباح ، وجدوا خاتون البصارة مقتولة داخل غرفة السحر وقد انفجر في الغرفة شيء ما أحرقها وحطم كرتها .. قال الشبان إن شخصاً ما قد ترك لها قنبلة موقوتة في الغرفة لسبب مجهول ... اكدت العجائز أن أحد الجان (الاسياد) غضب عليها وأحرقها لانها كشفت من الأسرار أكثر مما سمحوا به لها ...

شيء واحد مؤكد ... وهو ان قذيفة لم تدخل إلى الغرفة من الخارج فقد كانت الجدران والنوافذ ما تزال موصدة ! ...

* * *

كابوس ١٨٣

آه كوابيس .. كوابيس ...

آه ما أطول الليل ، حين تكون المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار ...

آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود حين تتحول كل ذرة رمل الى كابوس .

آه بيروت ، كيف صدقت انك تستطيعين الاختيال بفستان العرس في مخيمات البؤس التي كانت تحيط بك ، وفي خيام أعمامك وأخوالك الذين يمزقهم التشرد والفقـــر ...

كيف صدقت أنك تستطيعين التزين أمام مرآة البحر المتوسط ، كما لو أنك ولدت من صدفة قذفت بها الأمواج ، متجاهلة أسرتك الكبيرة المحيطة بك الغاضبة لكرامتها وكرامتك ؟ ..

آه بيروت ، أيتها الغانية الجميلة ، كيف صدقت انك تستطيعين أن تتابعي دورك في الكباريه ، بينما أفراد أسرتك بأكلهم يتابعون دورهم المحتوم في الحرب والصراع الشريف لأجل بقاء شريف ؟ وها أنت اليوم تزفين الى عرس النار في أتون قوامـــه البشر ... والكتب ... والبيوت .. والكتب ... والشوارع ... والكتب ... والأمواج .. والكتب .. والطيور ... والكتب والكتب والكتب ...

آه مكتبتي ! ...

لا أستطيع أن أصدق أنني لو تسلقت الآن درجات السلم الى بيتي ، لما وجدت باباً لمكتبتي ، ولو مددت يدي الى أحد الرفوف لأتناول أحد كتبي التي أعرف موضعها جيداً ، لما خرجت يدي بغير الهباب و الماء الأسود ..

غمرتني من جديد غصة عميقة .

لقد حدث ما أخشاه . لقد احترقت كتبي . شعرت بالدموع تنحدر على وجهي وفكرت . لا ريب في أن دموعي الآن سوداء ، كلون الماء الذي يقطر الآن فوق بقايا الأوراق المحترقة ... بكيت قليلاً ... بكيت كثيراً ..

لا أدري .

لكنني أحسست بذلك المحرك الغامض في داخلي يعمل ، بعد أن يتوقف كل شيء عن العمل ... أحسست بذلك الصوت الشفاف الفرح في أعماقي ينطلق ، كما قد تنطلق صفارة غواصة في « الساعة الخامسة والعشرون » ... وكان يقول : أيتها الحمقاء ، لماذا تبكين ؟ كل ثلاث دقائق يصدر كتاب جديد في العالم ، ماذا تندبين ؟ ...

وتذكرت ان ذلك صحيح . وان امتلاك مكتبة ، يعني امتلاك برقع يحدد انطلاقة

العيون عند الأفق ... ها أنا من جديد لا أمتلك كتاباً واحداً من كتبي الألف ... ذلك يعني أن علي أن أقرأ ألف كتاب جديد ...

عاد الصوت يردد ، تذكري أنه كل ثلاث دقائق يصدر كتاب جديد في العالم ...

ووجدتني أهمس : هذا صحيح . ولكنها مكتبتي . وصحيح أن عدد سكان العالم ثلاثة بلايين ، وان يوسف هو واحد من ثلاثة بليون انسان ، لكنه أيضاً كان ... حبيبي ...

وتذكرت يوسف ... كل ذلك السحر المتدفق من لقائنا في الغابات والشواطىء .. تلك الشرنقة من الحس بالسلام والأمان تلفنا حين يضم كل منا صاحبه الى صدره ، وحين يخلع كل منا قوقعته للقاء رفيقه عارياً من أسلحته ومخاوفه وشكوكه اليومية العادية والمتأزمة ...

ها قد احترق كل ما أحببت ... يوسف ... وكتبي ... ومحاولتي للتعزي بعدد الكتب الصادرة كل دقيقة في العالم ، هي كمحاولة تعزية ثكلى فقدت وحيدها بالقول لها : لا تحزني لموت طفلك ، فكل يوم يولد ٨٠ ألف طفل في العالم ! ...

شيء واحد يعزيني : هو أن تكون النار التي أحرقت بيتي من بعض النار التي ستطهر هذا الوطن من أوجاعه .

* * *

كابوس ١٨٤

شعرت بألم مرير يطير بي ، ويقذفني عن كوكب الحزن الاعتيادي ...

شعرت بأنني أخطو فوق كوكب زجاجي ، بارد ، ومليء بالمزالق ، لكنني أتقن المشي فوقه ... هنا الجاذبية أقل . لا أحد سواي على الكوكب ، لكنني أشعر بحرية مذهلة ... لقد فقدت كل شيء .. وها أنا بالتالي عدت لأمتلك حريتي كلها ...

كلما امتلك الانسان شيئاً ثقل وزنه ... ها أنا شفافة كدمعة ، حرة كسحابة ، احترق بيتي وانهارت نوافذه ، فعاد الأفق ليصير نافذتي ... وعاد جسدي ليصير مقر إقامتي وشعري وسادتي ، ودروب الليل اللامتناهية طرقاتي ... عادت الاحتمالات كلها لتنبت فوق عشب دماغي ...

كل شيء نفقده ، يعيد الينا في الوقت نفسه جزءاً من ذاتنا كنا نستهلكه في محاولة

الحفاظ على الأشياء ...

وها أنا لم أعد أمتلك شيئاً ، ولم يعد هنالك جزء من ذاتي مشغول بمحاولة الامساك بيوسف أو دفع الحريق عن رفوف كتبي ...

ها أنا كما أحبها ...

حرة حرة تستطيع أن تعاود اختياراتها من جديد ..

(... ومرة ذهبت ويوسف بحثاً عن بيت نقطنه ونتزوج . كان شرطنا الوحيد هو ان يكون على شاطىء البحر . وجدنا بيتاً خرباً عتيقاً يحتاج الى ترميم . احببنا موقعه المشرف على البحر من فوق صخرة ...

وفجأة تعلقت نظراتي ببقايا جدار ... كانت بقية جدران الغرفة كلها متداعية والسقف على الارض ، ووحدها بقايا الجدار منتصبة تحجب جزءاً كبيراً من البحر والافق ، وتتوسطها نافذة ... وبدت النافذة كما لو كانت إطاراً مربعاً ، منصوباً في وجه الافق كي نتطلع اليه عبر مربعها فقط ...

شعرت بالهلع ... سأعيش في هذا البيت نهائياً ؟ أي سأطل على العالم من خلال نوافذ البيت شئت أم أبيت .. ها انا افقد جزءاً من الافق ومن ذاتي ومن حريتي ... وهو ايضاً ...

لا ...

لن احب هذا . ولن يحبه هو . ربما كان من الافضل ألا نقضي نصف عمرنا في بناء جدران ونوافذ كي لا نقضي نصفه الآخر في هدمها ...

وقررت لحظتها بما يشبه القسم : لن اتزوج منه ، ولن ادعه يتزوج مني كي لا نفترق ويخسر كل منا الآخر ... سيراني دوماً بمثابة المقصلة التي اجهزت على حريته ... وسأراه كذلك ...

سألني : لماذا انت صامتة ؟

— لاشيء .

— هل احببت البيت ؟

— احببت الغرفة المطلة على البحر ...

ضحك : — تعنين الغرفة المهدمة ، الغرفة الوهمية ؟

وصمت . ولم اقل له أعني غرفة عرسنا التي لن تكون ابداً ... وأنا وانت يجب ان نظل منفصلين كي يختار كل منا صاحبه في كل لحظة لقاء .. كي نظل اختياراً ، لا الزاماً . كلانا عاجز عن الالتزام ... او .. احدنا !)

* * *

كابوس ١٨٥

تابع الموتى الخارجون من قبورهم جولتهم الليلية على الجيران الجدد ... قرعوا باب قبر آخر حديث ...

أطلت امرأة صبية ، ترتدي ثياب عرس ... سوداء ... الثوب أسود .. (الطرحة) على رأسها سوداء ، مطرزة بالأزهار واللآلىء السود ...

عيناها حزينتان وشاسعتان .. ووجهها لم يزرق بعد تماماً ، وفي منتصف جبينها ثقب من الدماء المتجمدة ...

قال لها (المستنطق) المقابري : أيتها العروس .. نرحب بك في مدينة السلام ونهنئك بسلامة الوصول من مدينة الجنون عبر درب العذاب .. والآن ، أروي لنا حكايتك .

لم تجب . ولم تهرب . ظلت جامدة كوزير أمام الكاميرا . دهشوا . . فالنساء غالباً يبدين شهية الى فتح صدورهن فور فتح توابيتهن وقبورهن ... وهذه تبدو متحفظة . قرر المستنطق اعتماد الأسلوب الآخر في مخاطبتها الأسلوب الذي يحدث به المثقفين والمجانين والمعقدين .

قال لها : جئنا لنرحب بك فقط . اذا احتجت الى أي شيء ستجدينا في الطرف الآخر من المقبرة . لن نزعجك الآن . سنتركك وحدك تألفين بيتك الجديد . وداعاً ...

همست : انتظر ... سأمشي معكم ...

سارت أمامهم والريح الشتائية تنفخ ثوب عرسها الأسود ، ولم تتمالك جمجمة عجوز نفسها فهمست : ما أجملها ...

وسمعته ، فساهم الإطراء في فك عقدة لسانها ... قالت : اسمعوا حكايتي ...

وبدأت تخلع ثوب عرسها ... قطعة بعد الأخرى وبرشاقة كما لو كانت راقصة في ملهى للتعرية بشارع فنقيا البيروتي ...

وفوجئوا بأنها ترتدي تحت ثوب العرس قميصاً من المعدن ..

قالت : من منكم يستطيع مساعدتي على خلعه ...

تقدم منها هيكل عظمي ، حاول قليلاً وفشل ... كان القميص المعدني يغطي جسدها حتى أعلى الركبتين ، وبدا كما لو كان ملتصقاً بجلدها ...

وهنا تقدم هيكل عظمي آخر لمصارع قتل في حلبة الملاكمة ، وحاول انتزاعه عن جسدها ، وفشل أيضاً ...

ردت ببرود : لا أستطيع خلعه لأنه لم يعد قميصاً ، صار جلدي ، صار عضواً من أعضاء جسدي ! ...

كنت فتاة مدللة لأسرة ثرية . كان والدي تاجراً ماهراً ذا حدس خاص بالأسواق التجارية . وقد وجد في الحرب فرصة لتجارة من نوع خاص وهي بيع القمصان الواقية من الرصاص بالاضافة الى استيراد مزيد من السلاح وبيعه . وهكذا كانت تجارة السلاح تروج لتجارة القمصان الواقية منه .

وازدهرت أعماله وازداد ثراء مع ازدياد عدد الناس الذين يموتون . لكنه خاف علي وأخوتي من رصاص الطرفين بعد أن أعلن أننا أسرة محايدة ، ومنعني وأخوتي من متابعة الأحداث أو اتخاذ موقف أو الانضمام الى أية فئة ، وأصر على أن أولاده (محايدون) ... وهكذا أرغمني وإخوتي على ارتداء هذا القميص باستمرار فارتديته . ومنع عني الأخبار فشعرت بأنني أرتدي قميصاً آخر تحت جلدي كهذا القميص ... ومرت الأيام ، وأنا أعتقد أنني (فوق) الطرفين المتنازعين ، وان الحرب لا بد أن تتوقف ليعود كل شيء كما كان ... وبعدها أخلع القميص الحديدي المضاد للرصاص ، وأعود كما كنت ...

وليلة عرسي ، اكتشف عريسي أنني عاجزة عن خلع قميصي كأنني حرذون معدني ... عبثاً حاولت خلعه لأن القميص صار أنا ... فاتهمني بأنني من ساحرات الشيطان ... وأردت أن أفسر له حكايتي .

واكتشفت أنني فقدت القدرة أيضاً على خلع حتى قميصي الداخلي أي لم يكن لدي ما أرغب في قوله لأحد ، ربما لأنه لم يكن لدي ما أقوله على الاطلاق ! ...

ورغم القميص المضاد للرصاص قتلني برصاصة واحدة ... في جبيني .. دونما

أي ذنب ... قال لها المستنطق : جريمتك هي اللاانتماء .. والتوهم بأنك باللاانتماء تعفين نفسك من مسؤولية المشاركة فيما يدور ...

سألته مقاطعة : ما معنى « اللا انتماء » ... وما معنى « الانتماء » ..

رد عليها : سيدتي ، فات الأوان ، وحين لا يبقى منك غير هيكل عظمي ، وتسقط سترتك ضد الرصاص ، وعن داخلك أيضاً ، حينئذ قد تجد الحقيقة منفذاً الى نفسك ...

ومضوا عنها لقرع قبر ساكن جديد ... وسماع حكايته ... بينما كانت أصداء المدافع ت وي قادمة من بيروت ...

* * *

كابوس ١٨٦

آه ما أطول الليل ، حين تصير المسافة بين الموت والحياة ليلة انتظار . آه ما أبطأ انزلاق رمل العتمة الأسود ، حين تتحول كل ذرة رمل الى كابوس .

المطر ما يزال ينهمر ... ليت الغد يكون عاصفاً وممطراً مما يخفف فرص القناصين في صيدي . ليت المصفحة تجيء ... ليت آمال قالت غداً بوضوح .. ليتني أنام قليلاً وأكف عن حث رمل الزمن الأسود على الانزلاق ... ليتني أرحل قليلاً الى مدينة النوم والنسيان بدلاً من قضاء الليل في محاولة دفع الكرة الأرضية كي تدور أسرع بقليل ...

المطر ما يزال ينهمر ... تذكرت كيف اغتسلت تحته . ما يزال الهباب يغطي يدي رغم غسلي المتواصل له ... تروعني آثار الهباب كما لو كانت دماء الأشياء .. أقرر أن أنهض لغسل يدي ... الماء ما يزال مقطوعاً . الحنفيات لم تعد تصدر صوتاً كالشهيق حين أفتحها . كأنها ماتت وانتهى الأمر ، وها هي ممددة على طول الجدران كالجثث ...

إذا لم أخرج غداً من هذا الجحيم ، سأعطش أيضاً . سيكون عليّ أن أجمع ماء المطر في أوان وأشربه ... لن أتمكن من غليه ، فقد انتهى الغاز أيضاً ... سيكون علي احضار أية أخشاب من الحديقة لإحراقها وغلي الماء ... لكن الأخشاب كلها مبتلة ، والخروج الى الحديقة يعرضني لرصاص القناصين . إذن ، عليّ ادخال الأخشاب ليلاً ،

وتركها ريثما تجف ... وعلي أن أفعل ذلك الآن ... فقد لا تمطر غداً .. وقد لا تحضر المصفحـــة .

ونفخت الريح ، فأطفأت الشمعة في يدي ... ولم أخرج لجمع ماء المطر وإحضار أخشاب لتجفيفها ، كأنني أرفض أن أصدق أن المصفحة لن تحضر عند الصبـــاح لانقاذي ...

في الظلام ، شربت قليلاً من الماء ، ورغم العتمة شعرت بالكلس اللامرئي يلتصق بلساني .. لم أعاود اشعال شمعتي . كنت قد ألفت التحرك في هذا البيت وسط الظلمة الدامسة كما يتقن ذلك العميان بمرور الزمن ، ولا يصطدمون بأثاث البيت ...

أصل الى ركني المقابل للنافذة ...

ألصق ظهري الى الحقيبة البرتقالية ... أسند يدي الى المسدس وأتحسسه في الظلام كامرأة تكتشف جسد عريسها للمرة الأولى . فيه عدد كبير من النتوءات والصمامات لم أكن ألحظها في أفلام المغامرات والصور ، وصحيح أنني لم أعد أراه مجرد بقعة من السواد البشع واني أكاد أراه على ضوء جديد ، لكنني أعجز عن مقاومة رعدة تتمشى في أوصالي وأنا أتحسسه .. كأن علاقتي به نوع من الزواج الارغامي من أجل لقمة الطعام . اني أحتاجه ، لكنني ما زلت أمقته ! ...

* * *

كابوس ١٨٧

لست نائمة . لست صاحية . انني أنتظر .

أهذا هو الفجر قد بدأ ينثر رماده فوق سواد الليل ، أم تراني واهمة ، استعجل قدومه ، وأراه كرؤية العطشى للسراب ؟ ...

بلى ... انه الفجر ..

الفجر . واهمة . الفجر . واهمة ...

لا ... انني واهمة .

أياً كان الأمر ، فلا بد أن الفجر أوشك على الوصول ... فالارهاق الذي أحسه هو إرهاق من قضى الليل بأكمله ساهراً ... بل انني أحس بالنعاس الذي يداهم الأرقين عند الفجر ...

أجل ... أحس بالنعاس . أبذل مجهوداً خارقاً كي لا يسقط جفناي فوق عيني . جفناي أحسهما ثقيلين وحملهما يتطلب مجهوداً عظيماً خارقاً ... يجب ألا أنام ، فقد تأتي المصفحة بينما أنا أغط في النوم ، وأضيع بذلك فرصتي الوحيدة للنجاة ... يجب ألا أنـــام ... ويجب أن أنجو .. وتذكرت القتلـــة اللذين تفور بهم شوارع الموت ، والذين ضيعوا الفرق الحاسم بين المناضل والسارق ، وبين المقاتل والقاتل ، وبين صاحب القضية واللص ، ووجدت يدي تشدد قبضتها على المسدس ... وسط هذه الغابة من الرعب ، تصير هذه البشاعة المسماة سلاحاً وسيلة البقاء الوحيدة .. ولكن ،، ترانى أقوى على القتل ، أنا التي يحز في نفسها قتل طائر ! ...

* * *

كابوس ١٨٨

لعلي سقطت في فخ النوم ... لعلي غفوت لثانية ، ولعلي غفوت لعام ..

لكني استيقظت فجأة على حركة مريبة خلف النافذة ، كأن هنالك من يحاول أن يفتحها ... وغمرني خوف مسعور كتيار كهربائي جبار ...

وقبل أن أعي تماماً ما أفعله ، فوجئت بأنني أرفع المسدس في الظلام وأطلق النار باتجاه النافذة ! ...

وسمعت شهقة احتضار خافتة ، وصوت سقوط شيء على الأرض ...

كان الصوتان على درجة عظيمة من الوضوح ، أو أن حواسي كانت على درجة غير عادية من الارهاف .. وصرخ أمين في الوقت ذاته تقريباً ...

أشعلت الشمعة . أمين يرتجف : ماذا حدث ؟ سمعت صوتي بارداً : لقد قتلت شخصاً ما كان يحاول التسلل من النافذة ...

صرخ : يا الهي ... ربما كانوا أكثر من واحد ...

وفكرت بهلع : انه على حق . والآن لن يكتفوا بالسرقة ، بل سيلجأون الى القتل انتقاماً لشريكهم ... وشعرت بأن السلاح لا يمكن أن يحل المشكلة ... بل انه يعقدها ، وانه لا بد من البحث عن وسائل أخرى للبقاء ، لكنني أيضاً لم أكن قادرة على التفكير طويلاً بهذه القضية ...

كانت هنالك حقيقة مروعة ارتسمت أمام عيني : وهي أنني قادرة على القتل .

حسناً ليس على القتل تماماً ، فانا لحظة أطلقت النار كنت أطلق النار ولا أقتل ، كنت أدافع ولا أهاجم ، كنت أحافظ على حياتي ، ولا أسعى لسرقة حياة أخرى ...

ولكن النتيجة واحدة .. وهي أنني أطلقت النار ! ...

ركضت وأمين نحو النافذة . كان الفجر الرمادي يغمر العالم بضياء كئيب وتحت النافذة وجدت جثة قتيلي : كلب ! ...

وضحك أمين بعصبية هستيرية ، ووجدتني أردد : ولكنني أطلقت الرصاص ! .. أي أن النتيجة واحدة ... بالنسبة اليّ ! ..

وطبعاً لم يفهم ما أعنيه ...

* * *

كابوس ١٨٩

ظل صدى الطلقة يرن طويلاً في أذني ... وما يزال ... رائحة البارود ما تزال تملأ أنفي .. وربما كانت الساعة تقارب السادسة أو تزيد قليلاً ... وأنا أرهف السمع لصوت المصفحة ...

القصف شبه هادىء منذ ساعات ، أما اطلاق رصاص الرشاشات فلم أعد أبالي به كثيراً .. ثم انه لن يعيق المصفحة عن الوصول ... وحدها القنابل بل صواريخ غراد وكاتيوشا هي التي قد تعوق فراري ... ومنذ حوالي منتصف الليل والقصف هادىء ... يا الهي ! دع المحاربين يغرقوا في النوم قليلاً ريثما أتسلل من ساحة حربهم ، أنا التي لا تملك غير مسدس دونكيشوتي هزلي في طوفان النار ... دعهم يستريحوا ويريحوا ! ...

ولم أكد أتم دعائي ، حتى بدأ قصف المدفعية الثقيل ! ...

* * *

كابوس ١٩٠

مع انفجار كل قنبلة ، كان حبل الأمل بالخروج من هذا الجحيم ينقطع .. ويتناثر خيطاناً رفيعة لا تقوى على رفع نملة ..

لكنني أعددت نفسي على أية حال ... حملت حقيبتي البرتقالية وجلست خلف نافذة تطل على الحديقة الأمامية أنتظر .

أنتظـــر .

أحاول أن ألتقط هدير المصفحة الذي حفظت صوته جيداً. أحاول أن أمشط شعري الذي نسيت أنه موجود منذ أيام ... أحاول أن أرى وجهي في مرآة صغيرة ، في الضوء الشتائي الفقير القادم عبر النافذة شبه المغلقة ...

حين شاهدني أمين أنظر الى وجهي في المرآة ، تنبه – لربما للمرة الأولى – الى أنني أستعد للقاء العالم الخارجي .

وعى للمرة الأولى لإمكانية خروجي ، وبقاءه وحيداً .. فقال بصوت مرتجف : ستذهبين ؟

قلت : طبعاً . لماذا لا تخرج معي من هذا الجحيم ؟

– والبيت . سينهبونه ...

– سينهبونه سواء خرجت أم بقيت ..

– هذا بيتي . وسوف أموت فيه . لن أعيش لاجئاً متشرداً ..

– ولكنك لاجىء ومتشرد حتى وأنت فيه . لا استقرار في وطن متشرد .

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر .

– حتى ولو لم يحترق فأنا لست على استعداد لأن أموت من أجل جدران أستطيع استبدالها بجدران أخرى . كل ما يستطيع المال شراءه لا يستحق الموت لأجله . انك تستطيع شراء بيت لكنك لا تستطيع شراء وطن ! .. يجب أن تظل حياً كي تناضل لأجل امتلاك وطن لا قبر .

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر ..

– هذا غير صحيح ... مكتبتي التي تعتبرها تحفي ، لا تستطيع أن تعوضني عن البحر والغابات والسماء والعشب وشروق الشمس وبريق النجوم وأسراب الطيور والمطر والثلج والسفر والدهشة والحب والحياة والدفء والسباحة وكوب القهوة الحار في المطر والموسيقى والتفكير والبكاء وركوب الدراجة والعمل وانجاز كتاب جديد ... ان الحياة شيء ثمين ورائع ، وكي أتخلى عنها لأجل شيء ما ، يجب أن يكون ذلك شيئاً يستحق هذا العطاء العظيم .. وأنت تعرض حياتك للخطر من أجل تحفك ، وتسميها خطأ بالوطن ...

– تتكلمين هكذا لأن بيتك احترق وانتهى الأمر ..

ـ ربمـــا ...

* * *

كابوس ١٩١

سمعت صوت مصفحة حين كدت أقطع الأمل من وصولها ، تماماً كما في أفلام المغامرات ! ... وحملت حقيبتي البرتقالية ، وركضت .. لم أودع أمين كما يحدث في أفلام المغامرات ، لأنني لم أكن واثقة من أنني سأغادر المكان حية تحت وابل الرصاص والقصف .. ثم أنه سبق لأكثر من مصفحة أن جاءت لالتقاطي ومضت قبل أن تقدر على ذلك .. وخلفتني كالمتسولة على أبواب الأمل الموصدة ....

خرجت الى الحديقة ، وركضت صوب الباب وكدت أتعثر بجثة الكلب الذي قتلته ، فلم أجد أحداً علي الرصيف بانتظاري ... كنت أسمع صوتها ، ولا أراها ، وخيل الي أنني بدأت أفقد عقلي ، وأسمع فقط ما أشتهي سماعه ...

رفعت رأسي أتأمل النوافذ المحيطة بي . كانت النار مندلعة في الطابق العلوي من فندق « الهوليداي إن » المقابل لبيتي (المرحوم) ... أما النوافذ المقابلة لي على الرصيف الثاني فقد كان أكثرها موصداً ...

في الطابق الثالث من البناء المواجه لي ، انشقت النافذة قليلاً ولمحت رأس امرأة تحدق في شيء ما ناحية آخر الطريق ، أي ناحية مبنى آل جنبلاط ... ثم بدأت المرأة تشير لي صوب ذلك المكان ..

وفهمت ...

انها تعني أن المصفحة هناك ... لكن أسوار الحديقة تحجبها عن ناظري .

لم أعد أشعر بشيء إلا بالرغبة في اللحاق بها ... غادرني خوفي وحذري وخرجت من خلف عارضة الباب الحجرية الى رصيف الشارع لأول مرة منذ عشرة أيام على الأقل ...

وكانت هناك ... المصفحة ...

وكان علي أن أصدق ! للمرة الأولى فهمت مدلول عبارة « لم تصدق ما تراه أمام عينيها » ...

في مثل هذه اللحظات تذوب الحدود بين قارة الحلم الفضية وقارة الواقع السوداء ...

وتبدو المرئيات سائبة داخل الرأس ، لا يدري تماماً كيف يصنفها ، ليست فضية ولا سوداء ، لكنها بلون هذا الصباح الشتائي المتقلب على أسياخ النار والبرد ، بلون نشوة الحس بالتضخم الحياتي المنتعظ في كل خلية من خلايا جسدي وذروة الحس بالخطر والموت الذي يحاصرني مع كل طلقة داخل ماسورة حديدية لم تطلق بعد ، واذا أطلقت فقد يكون رأسي هدفها .

وكانت هنالك ... المصفحة ...

وغادرني كل حس بالحذر ... وصرت أركض خلفها كما لو كانت القطار الأخير الخارج من مدينة الموت ...

* * *

كابوس ٢٠١

كم هو غريب شكل العالم حين تحدق فيه من فوهة مصفحة ... كم هو مختلف ...

لا نوافذ في المصفحة ، وانما كوة واسعة مفتوحة في أعلاها ... وترى العالم ينزلق بسرعة فوق هذه الكوة ، بالأحرى الجزء المرتفع فقط من الأبنية أو الأشجار ...

لقد اعتدنا على رؤية العالم من زاوية أخرى ...

من نوافذ البيوت أو السيارات العمودية التي تسمح برؤية كل ما في الطريق أو على الأقل الجزء الأسفل منه الأقرب الى الأرض .. أو النظر اليه ونحن في وضعية الوقوف أو السير في الشارع بحيث تطال عيوننا أي مكان بحرية .

من داخل المصفحة ، لا تستطيع أن ترى إلا الجزء الذي تفرضه عليك الفتحة العليا الضيقة ... وأعلى الأبنية في شريط راكض على سطح السماء .. ومرت المصفحة من تحت فندق « الهوليداي إن » وكان صمت متوتر يسود داخلها ثم تجاوزته دون أن تطلق علينا قذيفة ... وحاولت بعدها أن أحدد الشارع الذي تمشي فيه المصفحة فعجزت ... كل هذه الدروب المحيطة ببيتي والتي يفترض أن أعرفها جيداً ، لم أعد أميزها من نافذة المصفحة في الأعلى ... وخيل الي أنني أمضي الى مصير مجهول في شوارع مجهولة غريبة ، وكلما حدقت عبر النافذة المفتوحة في سقف المصفحة ، ازداد شعوري بأنني مثل مشلول ممدد على ظهره ، يجرون سريره في دهاليز مستشفى غامضة مرعبة ..

وكففت عن محاولة حدس الطريق التي تمضي بها .

وبدأت أنظر الى من حولي ...

قدم أحدهم نفسه لي : سليم منصور . الآخر : الملازم اسماعيل ياسين من احدى المنظمات .. الضابط الذي يقود المصفحة : الملازم ملاعب ...

وكانت هذه أول مرة أرى فيها بشراً (غير جيران العذاب) منذ حوالي نصف شهر ... شعرت بالحاجة الى طرح أسئلة كثيرة عما يدور في العالم الخارجي بعد انقطاعي الطويل ، وتزاحمت الأسئلة ، وتصارعت داخل حنجرتي ، كل منها يريد الوصول الى لساني قبل الآخر ، وأباد بعضها بعضاً في مجزرة دفق حيوي مؤلم ... ولم يبق غير الصمت على لساني ...

وسقطت فريسة شعور غريب بالرهبة والحيرة ، والسماء تنزلق في الأعلى حيادية ولا مبالية .. وقبل أن يقول أحد شيئاً توقفت المصفحة .. وفتح أحدهم بابها . تفضلي ...

وعبر المستطيل الضيق لباب المصفحة ، قذفت بنفسي الى العالم في ولادة جديدة ...

وخرجت منها كما يولد الأطفال وأيديهم لا تقبض على أي شيء .. وأصابعهم العشر مفتوحة لتمسك بالمفاجأة والدهشة والمجهول ...

... ونشوة الفرح تغمرني ، رافقت الأخ سليم والملازم اسماعيل الى احدى السيارات. ركضت بنا قليلاً قبل أن يسألني أحدهم : الى أين ترغبين في الذهاب ؟ .. قلت بحيرة : لا أدري ! وعندها فقط تذكرت أنه لم يكن قد خطر ببالي قط من قبل أن أخطط : الى أين أذهب بعد نجاتي ! ..

لقد كان احتمال النجاة ضئيلاً الى حد أنني لم أفكر لثانية واحدة أن لحظة ما ستجيء وسيكون علي حينئذ أن أقرر : الى أين أذهب ؟ ..

لم أشعر بشوق الى جدتي أو أي فرد من بقية أسرتي . كنا دوماً غرباء .. وأنا النعجة السوداء في الأسرة .. وهم الآن – دونما ريب – قد رحلوا الى بيت أخوالي السوريين باللاذقية .

ظللت صامتة وقد أذهلني اليسر الذي تم به خروجي . بل انني لم أسمع طلقة واحدة منذ غادرت بيتي ..

قال السيد سليم : (الريس) يريد أن يراك على أية حال .
ولم أجب . وتوقفت السيارة أمام أحد البيوت ، وحين ترجلت منها فقط ، وعيت الكارثة : لقد نسيت حقيبتي البرتقالية داخل المصفحة حين غادرتها كطفل ولد حديثاً ، بذراعين لا تقبضان على أي شيء غير المجهول ! ...

* * *

كابوس ١٩٣

يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن ! ...
قال لي الملازم اسماعيل : ادخلي وسنحاول الاتصال هاتفياً لاستعادتها .
دخلت . كانت غرفة عارية من الأثاث ، الا من منضدة عليها هاتف ، وأريكة نام فوقها مقاتل طويل اللحية . فتح عينيه قليلاً حين دخلت . رفعت سماعة الهاتف . لا خطوط . على أية حال لم أكن أدري أي رقم أدير ومع من أتكلم لاستعادة الحقيبة . الحقيبة التي تضم جواز سفري ونقودي القليلة وبعضاً من مذكراتي و (نوطات) « كوابيس بيروت » .. و .. وأوراق يوسف ..
وشعرت ببعض الخجل حين أحسست أن أوراق يوسف لم تعد تعني لي شيئاً أكثر مما تعنيه جثة العم فؤاد في برميل القمامة . آه يوسف . هل كان من الضروري أن تقع حرب أهلية كي أفقدك ؟ . وهل كان ضرورياً أن تستمر كي أنساك ؟ هل كان ضرورياً أن أكاد أموت كي أكف عن المبالاة بموتك ؟
يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن .
ركضت الى السيارة . توسلت اليه أن يعيدني الى حيث أنزلتني المصفحة في شارع سبيرس على حدود القنطاري أمام مركز الصليب الأحمر ...
ولعل الجنون مرض من الأمراض السارية ، فقد وافق على ذلك .
حواجز مسلحة . شوارع خاوية . بدت درب العودة أطول بكثير مما كانت عليه ...
وأخيراً لاح برج المر ، فانعطفنا الى اليسار في شارع سبيرس (عكس السير) ولم يكن هنالك أي سير . ولم أجد المصفحة في الموضع الذي أنزلتني فيه ، لكنها بدت لي في آخر الشارع أمام حديقة الصنائع . قلت ذلك لجندي الحاجز فرفض السماح لنا بالاقتراب من المصفحة بالسيارة وقال انه يسمح لي بالذهاب الى هناك ... وحدي .

ونزلت من السيارة ... وقلت لرفيقي أن ينتظرني وركضت نحو المصفحة في حقل من الرشاشات المتأهبة للانطلاق في أية لحظة .. وكان الجنود يحدقون بي بدهشة كما لو كنت (ماتا هاري) في مهمة غير سرية ! .. ولم أكن أحس بالخوف ولا بالخجل ولا بالبرد ولا بالألم ... كان كياني كله مركزاً على هدف واحد : يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن .. وبعدها أبحث فيما اذا كنت أرغب في الاحتفاظ بمحتوياتها أو قذفها الى الريح ! ..

وكان في ذلك الاصرار ما يلغي أي حس آخر كما تفعل اليوغا ... ولو اخترقني سيف لتابعت ركضي بحثاً عن الحقيبة .

في منتصف الطريق الى المصفحة فوجئت بسيارة عسكرية تستوقفني .

سألني جندي عن غايتي وهدفي من التجول في منطقة عسكرية ، وكان رشاشه مصوباً نحوي . أزحت الرشاش عني ، وصعدت في السيارة الى جانبه وطلبت منه ايصالي الى المصفحة لأنه لا وقت للكلام .

والغريب أنه فعل ! ...

وأخيراً وصلت .

هبطت من (الجيب) العسكري ، وتسلقت باب المصفحة المفتوح وأنا أسأل : أين الحقيبة البرتقالية .

وفوجئت بأن وجوه سبعة من الجنود تحدق بي في ذهول ، وبأنني لم أر هذه الوجوه قط من قبل ... وبأنني في مصفحة أخرى ! ...

* * *

كابوس ١٩٤

لم يصدق أحد حكايتي ...

بعضهم صدق نصفها ، وهو أنني أضعت حقيبة برتقالية ، لكنه لم يصدق نصفها الباقي وهو أن الحقيبة لا تحوي مجوهرات أو نقوداً وانما ... تحوي أوراقاً : ... مجرد أوراق .. كان من غير المعقول بالنسبة اليهم أن تعرض امرأة حياتها للخطر بعد انقاذها بنصف ساعة لمجرد أنها أضاعت بعض ... الأوراق . بالنسبة اليهم ، الورق الوحيد الذي يستحق عناء التضحية هو الورق الملون الذي تطبعه الدولة ويسمى « النقود » .

وحين كنت أروي حكايتي للمرة الخامسة ، مضيفة اليها اعترافاً خطيراً وهو أن الحقيبة تحوي ملحوظات (ونوطات) لكتابة رواية اسمها « كوابيس بيروت » ، لاحظت أن قائد المصفحة الرقيب زين يفهم جيداً ما أعنيه ..

قال لي مفسراً : المصفحة التي أخرجتك هي مصفحة أخرى ، فنحن نقف هنا منذ ساعات ، ولم يتغير (طاقمنا) .. ما رقم المصفحة التي خرجت بها ؟

قلت : لا أعرف .

قال : هل تستطيعين وصف قائدها ؟

قلت : ضابط على كتفه نجمة أو نجمتان ، أسمر وفوق شفتيه شاربان . ضحك الجنود ، وقال الرقيب زين بتهذيب ورقة : ولكن هذا الوصف ينطبق على نصف ضباط الجيش اللبناني ! .. ألا تذكرين اسمه ؟ ...

وعبثاً حاولت . كان الاسم ينزلق من خاطري مثل حروف من زئبق ... كنت أعرفه ولا أعرفه . اذا ذكره شخص أمامي ... سأعرف انه هو .

قلت ذلك للرقيب زين . فبدأ يعدد لي مجموعة من الأسماء ، وذكر اسم الملازم ملاعب .. وصرخت : انه هو ..

قال : لقد كان يقود المصفحة ١٩ .

وتناول جهاز اللاسلكي وبدأ يخاطب شخصاً لامرئياً ويبلغه حكايتي وحكاية الحقيبة والملالة .. ورد الصوت بكثير من اللامبالاة : أخذنا علماً بذلك .. بدل ! .. وانتهى الأمر ...

طبعاً لا .

يجب أن أستعيد الحقيبة بأي ثمن . تلك السطور التي كتبتها في دهاليز الرعب على ضوء الشموع وأنقذتها وحدها من النـــار لن أسمح لها بأن تضيع . هي وحدها ما يهمني أمره حقاً .. ومذكراتي .. لا أريد أن يطلع عليها أحد ، داخلاً الى أعماقي ، مستمتعاً بمشهد (الستربتيز الفكري) الذي تقدمهسطوري ... أما أشياؤه .. أشياء يوسف فإنها لم تعد تهمني كثيراً أحسها مجرد كوم من رماد ..

قلت للرقيب زين : أين المصفحة ؟ سألحق بها .

جاءوا بفطور الصباح عجينة مخبوزة بالزعتر والزيت « مناقيش » . قاسمني الجنود لقمتهم وسجائرهم . بعدها بقليل سألني الرقيب زين : الى أين ستذهبين ؟ سنحاول أن

تتدبر لك تاكسياً ما ...

قلت : لست ذاهبة الى أي مكان .. سأنتظر .

اتصل للمرة الثانية لاسلكياً .. سمعته ينادي : ٢١ بدل . ٢١ بدل ... ماذا حدث بشأن حقيبة السيدة . رد الصوت المجهول اللامبالي : أية حقيبة ؟ .

والتهبت جنوناً .

سألته مع من يتحدث . قال : مع « مركز الارتباط » .

قلت : سأذهب الى هناك .

قال في محاولة لتخويفي (أم تراها الحقيقة ؟) : انه يقع في ساحة الشهداء ' أحد مراكز القتال الملتهبة !) .

قلت : سأذهب .

وكنت أعني ما أقول . وأدرك هو ذلك ، وأشفق علي من قذيفة أو رصاصة قناص ، لأنه أردف قائلاً : انتظري قليلاً فقد يردنا جواب .

وانتظرت .

ومر صبي على دراجة نارية . استوقفته . أردت اقناعه بأن يؤجرني دراجته ريثما أذهب الى مركز الارتباط وأعود . كنت أعرف أنه كلما مر الزمن ، تناقصت فرص حصولي على الحقيبة .. واستعادتها .

رفض الصبي ، وقال الرقيب لي: المصفحة الآن في ثكنة الحلو . والضابط الذي حملك فيها قد يكون ذهب لشأنه بعد ليلة من السهر . استسلمي للهدوء ، واعطني عنوانك وأنا أعدك بالاهتمام بالأمر ...

ومرت مصفحة أخرى ... ركضت خلفها وأنا أشير اليها بعلامة أتوستوب ... ولم تتوقف ...

لكن الرقيب زين بذل جهداً كبيراً لإقناع أحد رؤسائه بابقائي في المصفحة ريثما تتم دوريتها وتصل بي الى ثكنة الحلو .. كان يساعدني بكل ما يملك من طاقة ... وفكرت : لم تمت الطيبة من هذا العالم القبيح .

وجلست داخل المصفحة بانتظار الدورية ...

ولاحظت ، للمرة الأولى أن جندياً تمدد على المقعد الحديدي الطويل المقابل لي ،

وكان يفتح عينيه بصعوبة ويحدق بي مدهوشاً . قلت له : صباح الخير !

فتحسس ذقنه الطويلة ثم سأل الرقيب زين : ماذا يحدث في المصفحة ..

قال الرقيب ضاحكاً : سنقوم بمهمة تاكسي للسيدة ! .. وبالأحرى ... بمهمة المصفحة – ستوب ! ...

* * *

كابوس ١٩٥

الرقيب زين يتحدث باللاسلكي . أنصت الى الحوار ، وأتذكر انني كنت أنصت إلى هذه الأحاديث بواسطة جهازي الخاص بالالتقاط (الذي سرقته من أمين) ... كنت أنصت والقنابل تمطرني .. ولعل امرأة أخرى تنصت الآن الى هذا الحوار على الموجة المحرمة . وتتساءل عن سر الحقيبة ، وتشتم ، لأنها تكاد تموت بالقصف – والمصفحات مشغولة بالبحث عن الحقائب بـــدلاً من انقاذ البشر .. ولكن ، كيف أقنعها بأن (مخطوطة الرواية) هي كالطفل : كائن حي ! ..

الزمن يمر ببطء مروع . أشعر بالندم لأنني لم أمسك بالحقيبة في يدي .. ولكن الندم لا يجدي . سأفعل كل ما بوسعي لاستعادتها .. هذا كل ما أملكه الآن ...

وأخيراً ... تحركت المصفحة ..

ووجدتني أحشر نفسي بين عدد من الجنود الحاملين بنادقهم ، والمصفحة تتحرك بسرعة وتقذف بنا في كل جانب فيصطدم جسدنا بباطنها الحديدي كأننا في أحشاء حوت معدني ضخم .. (كنت ممتلئة بالحياة وتخيلتهم يمتلكونني واحداً بعد الآخر فوق حديد المصفحة القذر بينما هي ترتجف وتهتز بعنف راكضة في الشوارع) ..

وتمسكت بحلقة جلدية تتدلى من جدار المصفحة ، وكانت أسلحة الجنود الجالسين على المقعد المواجه لي موجهة نحو صدري ... وكان بعضهم متعباً يغط في لحظة نوم يسقط رأسه خلالها على عنقه كما لو أن رصاصة أصابته ، ثم يصحو نصف صحو ...

بدوا لي قبيلة من المتعبين المدججين بالسلاح . وتذكرت أنه لم يسبق لي أن احتككت جسدياً مع هذا العدد الهائل من الأسلحة ... وتذكرت المسدس الـــذي حملته معي في قـــاع حقيبتي ... وتذكرت ، انني ارتكبت جريمة قتل .. صحيح أنه تصادف ان

كان هدف رصاصيّ كلباً .. لكنني أطلقت الرصاص دون أن أدري ما اذا كان بشراً أو وحشاً .. ودون أن أدري ما اذا كنت بشراً أو وحشاً .. وقررت : العنف يمارس ولكنه لا يفلسف . انه يمارس .. وكفى ! .

وكانت السماء وأعالي الأبنية تنزلق في الفجوة الضيقة بأعلى المصفحة .. وشاهدت مبنى « الهوليداي إن » من الكوة للمرة الثانية هـذا الصباح وكانت النار ما تزال تتصاعد منه وأصابتني رعدة خوف .. ها هي المصفحة تقوم بدوريتها ، وها هي تعيدني الى المكان الذي غادرته منذ ساعات ... ترى هل كتب علي أن أموت في هذا الشارع ، وقد هربت من قدري ، وها هي المصفحة تعيدني لأموت فيه كما هو (مقدر) لي و (مكتوب) ؟ .. وقررت أنه اذا انفجرت الآن بالمصفحة قذيفة ما ، فذلك لأن شخصاً ما أطلق النار عليها ، لا لأن رصداً ما كتب عليّ أنا ...

ومع ذلك شعرت بخوف مبهم ... وجلست على المقعد الحديدي محشورة بين الجنود ، أتحاور والجندي ابراهيم وأسأله عن أحواله وأنا أتمنى لو أحدثه عن (أحوالي) ..

وأخيراً وصلنا الى ثكنة الحلو .. توقفت المصفحة .

من الخارج فتح جندي بابها ، وحين شاهدني بشعري الأسود جداً وملامحي العربية جداً قال معلقاً بعفوية : كيف أنقذتم هذه المرة « عربية » لا « أجنبية » !

وشعرت بغصة . لا ريب وأن بعض (كبار) هذا البلد يستخدمون المصفحات لنقل عشيقاتهم الأجنبيات .

* * *

كابوس ١٩٦

أين أنا ؟ في ثكنة الحلو ...

وكما في الأفلام الرديئة ، حين تأتي الخاتمة السعيدة ، تأتي بسرعة ...

دقائق ، وانتصب أمامي الملازم ملاعب وهو يرتدي (بيجامة) ثياب النوم . كان واضحاً أنهم أيقظوه من نومه .. ووجدتني أصرخ به : وهل كتب علي أن أركض خلفك بالمصفحات ؟ كان بعض الجنود قد تجمعوا حولنا ، وحين سمعوا عبارتي الأخيرة ظنوا أنني زوجة غاضبة فتغامزوا وضحكوا وغضوا الطرف والأذن .. أما هو فضحك ،

وقدم لي حقيبتي ...

الحقيبة البرتقالية ...

وفتحتها أمام الجميع ، وشاهدوا جميعاً مظروفاً كبيراً أصفر ، كتب عليه بخط واضح : « مخطوطة كوابيس بيروت » ...

قال لي الملازم ملاعب : قرأت لك مرة في احدى المجلات تحقيقاً من السجن مع مجند اسرائيلي هارب من اسرائيل الى لبنان ..

وبدأ بعض الجنود ينظرون الي من جديد كما لو كنت (ماتا هاري) التي تقتحم السجون والثكنات وتستخدم المصفحات كتاكسيات من أجل انقاذ أوراق هامة غامضة أو سرقتها ...

وتحركت بي المصفحة من جديد ... ولا أدري لماذا وجدتني أوجه اللكمات الى الحقيبة كما لو كانت شخصاً تخلى عني ! ..

وسألني الرقيب زين والمصفحة منطلقة : الى أين ترغبين في الذهاب ؟

قلت : الى أي مكان ... أين نحن الآن ؟

قال : أمام فندق كارلتون من ناحية البحر .

قلت له : انزلوني هنا .

توقفت المصفحة . ودعته وأنا أعرف أنني مدينة له ... وانني لن أنسى ما حدث .. وان الطيبة لم تمت في هذا العالم القبيح ..

قلت له : شكراً لك . ولن أنسى فضلك ...

أجاب دونما حماس : لا شكر على واجب ..

وفكرت بحزن :

(انه يعتقد أنني سأنسى ، كما ينسى باستمرار جميع الذين سبق له ان قدم لهم الخدمات. الجميع يتحمسون في لحظات (اليوفوريا) ، لحظات تلقي الجميل ، ومع الزمن تفتر العواطف ، وتشحب الوعود ، وتمحي الكتابات عن شطآن نفوسهم الرملية ...

انه لايعرف أنني امرأة من الصوان ... وما ينجح في ان ينقش باعماقي ، يظل أبداً حاراً وجديداً لا ينتقص منه الزمن) ...

كانت المصفحة ما تزال تهدر ، ولم يكن بوسعي أن أشرح له ذلك ... فقلت له

بصوت خافت لم يسمعه : لن أنسى لك جميلك أبداً ... أرجو منك أن تصدق ذلك ..
وانطبق باب المصفحة الحديدي ... ومضت ... ووجدت نفسي وحيدة على الرصيف ...

* * *

كابوس ١٩٧

أقف وحيدة على الرصيف ، وعلى كتفي حقيبة صغيرة ...
وحيدة ... وحيدة ...
كما كنت أبداً ... والكرة الأرضية صفر كبير «0» . وأنا أقف على الصفر من جـــديد ...
على تراس (شرفة) الفندق مجموعة من الناس ، تنتظر صعودي . لقد شاهدوني أهبط من المصفحة ، وهم ينتظرون سماع حكايتي ، ولعلهم جهزوا لي علبة مناديل (كلينكس) لمسح دموعي .. انني جائعة ، جائعة للأكل ، جائعة للماء ، جائعة للنوم ، جائعة للسلام ، ومفتوحة الجراح ، ولكن ليست لدي حكاية ! .
ليس لدي ما أرويه لأحد . لا أحس بالدهشة . ولا بالخوف . ولا بالغربة .
ما زلت أقف على أول السلم . لا أتسلقه الى الفندق .
أحس بأنني أنا ، وبأنني وحيدة ، وبأنني بالتالي على أفضل حال ..
أقف على الصفر من جديد ... الكرة الأرضية شارة استفهام كبيرة وأنا أقف على نقطتها .. على صفرها .. أعتلي ميزاناً فيدل مؤشره على نقطة الصفر .. لقد احترق كل شيء وأنا في نقطة انعدام الوزن ، وفي حقيبتي البرتقالية أختزن ما اخترت حمله من عالمي العتيق المحترق : أشياء يوسف . (لماذا لا أقولها ببساطة : جثة يوسف) . المسدس . أوراقي . أقف على الصفر من جديد .
علمتني الأيام أن الصفر أكبر رقم في حياتي . الصفر ليس خسارة بالنسبة الي ، إنه دوماً بداية لقفزة أبعد مدى ولسقوط أكثر إيلاماً لكنني دومـــاً أنهض من رمادي بعد أن يبكيني الفرح ويرفعني فوق سحابة عن مستنقع الرمال المتحركة ، ويرقيني صائحاً في وجـــه الليل : رقيتك يا طفلتي ضد الانهيار لا الحزن . رقيتك يا طفلتي ضد السقوط لا الخيبة . رقيتك يا طفلتي ضد الاستسلام لا الهزيمة . رقيتك يا طفلتي ضد السلبية لا الخطأ . رقيتك يا طفلتي ضد السلام اذا كان استسلاماً ... ويرقيني الفرح وهو

يدور حولي ويقرع بطبلته طوال الليل ، وحين يطلع الفجر ، تشرق الشمس داخل أفق صدري ... وأنهض من تابوتي لأنشر شعري في الريح كشراع خرافي لقارب مسحور ...

ما زلت أقف وحيدة .

أقف على الصفر من جديد . انها نقطة البداية . وكل ما حولي يشاركني ذلك بطريقة ما . الغيوم لا تمطر لكنها توشك أن تفعل . الشمس لا تشرق لكنها قد تفعل . الريح لا تعصف لكنه النسيم يبشر بها . السلم لا يصعد درجاته . كل ما حولي في حالة وقوف على الصفر ، وقوف ما قبل المخاض والولادة .. كل ما حولي كصبيحة ليلة الخلق ، وعرس الأرض في الكون ..

وأنا ما زلت أقف مسمرة على الدرجة الأولى لسلم الفندق الحجري ..

يسألني شاب وهو يمد يده ليحمل حقيبتي عني : هل أنت بخير ؟ شاهدناك تهبطين من المصفحة .

أسمع صوتي يرد : أنا بخير .

— هل أساعدك على صعود السلم .

— أنا بخير .

يمر بنا باص مليء بالركاب لاحدى شركات الطيران ، كأنه اقتراح جواب .

الرحيل ؟ لا .

لقد جربت الرحيل من قبل ، ولم يفدني .

هنا ، أو لا شيء . هنا البداية ، والنهاية .

هنا أول الخيط ، وهنا آخره ...

الرحيل ؟ لا .

لن أكرر الغلطة . لن أدور حول دائرة الصفر «0» والا عدت مهدودة الى حيث انطلقت ...

هنا ... أو لا شيء ...

الفعل لا الهرب والانتظار ..

وشعرت بأنني في محطة للرحيل لا أمام فندق ...

وقررت الهرب منه ..

لم تكن لدي أية فكرة عما اذا كانت تاكسيات بيروت ما تزال تعمل أم لا ..

(كنت قد اعتدت على المصفحة لتنقلاتي في الآونة الأخيرة) .. ولكن الى أين أذهب ؟ ومن أين أبدأ ؟ ...

وظللت حيث أنا . مسمرة . وبحاجة الى أن أكون وحيدة . في أعلى السلم أراهم ، ينتظرون حكاية تسليهم قليلاً ريثما تقلهم طائراتهم الى مهجر اختاروه .

لكنني بحاجة الى أن أخلو بنفسي .

في نقطة الصفر ، الزحام لا يجدي .

على الرصيف الآخر ، فندق البحر ...

يمتد الى ما لا نهاية ، لا سلالم فوق سطحه ولا زحام .. (فرحت لأن الناس لا يستطيعون المشي فوق الماء والا لوسخوه بسهراتهم وتجمعاتهم الفضولية) ...

يكرر الشاب : دعيني أسندك وأساعدك على الصعود . هل أنت واثقة من أنك بخـــير ؟

اذن فأنا أبدو من الخارج نازفة ومرهقة ومجروحة اليد والاذن ...

في الداخل أقف على نقطة الصفر ، حيث الأفق من جديد بلا حدود ، والاحتمالات كلها ممكنة ، والرغبات الحقيقية مطلقة السراح من جديد .

قلت له : شكراً . سأتمشى قليلاً باتجاه البحر ...

أصر على لعب دور (الفارس) . تمسك بحقيبتي وحاول جذبي نحو الفندق .

قلت : اسمع . لست ذاهبة لأنتحر في البحر . لدي موعد هناك .

لم أكن أكذب .

على الرصيف الآخر وجدت نفسي في انتظاري . قفزت عن الحاجز الحديدي الذي يسوّر (الكورنيش) وبدأت أسير في الأرض الوعرة التي تقود الى البحر ...

أسير بحرية للمرة الأولى منذ دهور .. وكما تحصي أم أطفالها العائدين من الغابة ، أحصي أعضائي التي استطاعت أن تنجو من مطر الرصاص ، — حتى الآن — وأشعر بأن كلاً منها يرحب بلقاء الآخر ..

على الصخرة نفسها ، حيث كنت أجلس أنا ويوسف ، أجلس .. زجاجات الكولا

ما تزال هناك ، فارغة ومغبرة ... الأشياء الفارغة تظل على حالها ..
لا تمتلىء ولا تتحطم ...
أتمدد فوق الصخرة ، وأحسها قارباً حجرياً يمخر بي عباب البحر ..
ينزلق شريط مشحون بالأصوات والوجوه أمام عيني .. أتذكر وأنسى .. أتذكر وأنسى .. ذاكرتي لا تتنكر لشيء ، اللواتي والذين أحببت ، وأفراحي وخيباتي ...
أتذكر وأنسى ...
أتذكر وأنسى .. ففي قاع ذلك كله ، هنالك « أنا » .. شاسعة أحتوي الحزن والفرح ، السقوط والوقوف من جديد .. أتذكر وأنسى .. أسكب عمري في غربال الزمن ، وأترك ثقوب الحقيقة تفصل قمحه عن شعيره ...
أتذكر وأنسى ...
وأحدق جيداً ..
أتذكر كل ما احترق ، كل ذلك العمر الذي خلفته خلفي ، كل تلك الأصوات التي احترقت ، والصور والأوراق والرسائل والكتب ... كل ذلك هضمته وتمثلته . وكان علي أن ألفظه منذ زمن بعيد .. كل ذلك صار خارج نفسي ...
أفتح الحقيبة البرتقالية ...
أسكب محتوياتها على الصخرة ...
ترتمي الى جانبي جثة يوسف الممزقة ...
والمسدس ...
وأوراقي داخل المظروف الأصفر ، وعلى غلافه عبارة : « مخطوطة كوابيس بيروت » ..
أتابع ابحاري في مركبي الحجري على خط طول صفر وعلى خط عرض صفر ، وبوصلتي لا تشير الى الجهات الأربع ، بل الى الجهة الخامسة : جهة العمق ...
أرمي بجثة يوسف الى البحر ، وأتأمل الموج كيف يطبق على أوراقنا وصورنا وموسيقانا ...
ثم أضع المسدس ، وأوراقي جنباً الى جنب ..
أحدق قليلاً .

على الطرف الآخر من صخرتنا – مركبنا الحجري – يجلس يوسف ... يحرك شفتيه كأنه يناديني ..

دونما تردد ، أمسك بالمسدس وأطلق الرصاص عليه ...

أرى الرصاصة تخترق جسد يوسف الشفاف ، ويتحول بسرعة خرافية الى تل هزيل من الرماد تنثره الرياح ، وخيط من الدخان سرعان ما يتلاشى .

انتهت مهزلة السقوط في غرام جثة ، والتلهي بها عن آلاف من جثث الأبرياء يزرعون تربة هذا الوطن بها ...

لا أرمي بالمسدس الى البحر... (لا مفر من الرصاصة حين لا يتركون أمامك أي حل آخر) .. أوسّده صدر أوراقي وأتركها تحيط به كما يحيط الرحم بالطفل ، وأحكم اغلاق مظروف (مشروع رواية كوابيس بيروت) . أعيدها الى الحقيبة والمسدس يتوسطها .

الشمس تشرق قليلاً عبر الغيوم . غيمة واحدة تمطر . انها تمطر والشمس مشرقة .. وشعاعها النفاذ يمتد كدرب مضيئة ..

وأشعر أنني أضع قدمي على أول هذه الدرب ..

* * *

أستسلم للشمس والمطر .. ألصق وجهي بالتراب والحصى والأشواك لأستريح قليلاً قبل أن أمضي من جديد ..

ما يزال درب الضوء يزداد كثافة ووضوحاً ... أغمض عيني فأراه بمزيد من الوضوح ...

* * *

حلم ١

ارتدت الجدة أسنانها الاصطناعية . وجلست الى سرير حفيدها تروي له الحكايات قبل أن ينام ..

لاحظت الجيتار الذي يحرص على ابقائه قريباً من فراشه . لكنها لم تلحظ الرشاش الممدد الى جانبه تحت الغطاء كصديق حميم .

لم تلحظ نظرة الرجولة المبكرة المطلة من عينيه .

كانت ما تزال تعتقد أنه مجرد صبي صغير ، ولا تذكر بالضبط ما اذا كان في التاسعة أو الثالثة عشرة من عمره ... أو السابعة عشرة من العمر ..

قالت الجدة : كان يا ما كان في قديم الزمان لحتّى كان .. كان للملك الزمان بنت حلوة عيونها ذهب وشعرها ذهب وأسنانها ذهب ولها أيضاً جنية من ذهب تحرسها وتسهر على مستقبلها ، و ... و ... ثم ... وطبعاً .... وتزوجت الأميرة من ابن الملك الجار وكان بالطبع أميراً من ذهب شعره وعيناه وأسنانه من ذهب .. وعاشا في ثبات ونبات .. وخلفوا البنين والبنات .. وتوتة توتة خلصت الحدوتة ..

لكن الحفيد لم ينم ، اتسعت عيناه .

قالت الجدة : هل أروي لك حكاية ثانية ؟

لم يجب .

وروت له حكاية ثانية عن ابنة الملك الثانية وابن الملك الثاني وكيف تزوجا في حفل مهيب أكلا فيه الماس بدلاً من الخبز . لكن الحفيد لم ينم . ازدادت عيناه اتساعاً .

قالت الجدة : هل أروي لك حكاية رابعة ؟

لم يجب .

وروت له حكاية رابعة عن ابنة الملك الرابعة .

لكن الحفيد لم ينم . ازدادت عيناه اتساعاً .

سألته وهي تتثاءب : هل أروي لك حكاية خامسة عن ابنة الملك الخامسة كي تنـــام ؟

قال لها : بل سأروي لك أنا حكاية كي ستيقظي !

* * *

قال الحفيد وهو يروي لجدته حكاية كي تستيقظ : كان يا ما كان في حـــاضر الزمان ..

كانت هنالك امرأة ينادونها لولو ... ذهبت الى الملك سليمان تسأله عن هوية والدها الحقيقي . قال لها : والدك بحار أميركي من الأسطول السادس مر ببيروت . قالت له : غير معقول ، أمي قالت شيئاً آخر .

فجمع الملك سليمان مجلس السحر عند البحر ، فضربوا في رمل الشاطىء .

وقال ساحر مقاطعة الشمال : والدها محارب من آخر كتيبة في الجيش الصليبي ، بقي في هذا الشاطىء لأنه ظن أن الحرب الصليبية لم تنته بعد ، وكان يقاتل حيناً ، ويختبيء في الجبال حيناً آخر ...

ووافقه السحرة على ذلك . وانتهى المؤتمر ، وعاد كل ساحر الى بلده .

وذهبت لولو من جديد الى أمها وكانت أعرابية عمرها أكثر من ألف عام ولها ٢١ ولداً ما عدا لولو .

سألت أمها : من هو أبي ؟

قالت لها أمها : يوم تصيرين أماً ستفهمين ! .

— هل هو بحار أميركي من الأسطول السادس .

— لا . ليس بحاراً أميركياً .

— هل هو صاحب كازينو للقمار ؟

— لا .. ليس بصاحب كازينو للقمار .

— هل هو شاعر أو مجنون ؟

— لا .. ليس بشاعر ولا مجنون .

— هل أولادك « الـ ٢١ » هم أخوتي ؟ هل نحن من أب واحد ؟ ..

— نعم أنت وبقية أولادي من أب واحد .. ولكنكم مشتتون ! ..

والتقت لولو بشاب « غريب » أهملته أسرته منذ طفولته فنما في الغابات وتألم طويلاً وعلمته الطبيعة كيف يدافع عن نفسه بجسده الشاب القوي ...

أحبته لولو ، وكان فقيراً مثلها ، مشرداً مثلها ، لكنه لم يكن حائراً مثلها . كان يعرف جيداً أسماء آبائه وأجداده ، وفرحت حين أكد لها أنها من قبيلته الكبيرة المتفرقة البالغة ٢٢ بطناً ، وانه لا يحب أن يناديها باسم الدلع لولو ، وانما يفضل عليه اسمها الحقيقي الكامل .

وفي نيسان حملت لولو ...

شهقت الجدة وكانت تنصت بغضب وذهول الى حكاية حفيدها — وصرخت : حملت لولو بدون زواج شرعي ؟

تابع الحفيد : وغضب الملك سليمان لأن لولو تعهدت يوم عقد القران مع الغريب

في احدى العواصم العربية بعدم الانجاب ...

وقرر الملك اجهاض لولو وقتل زوجها ، وأقره على رأيه وزير الميمنة ومجلس السحر في المملكة ... كي يستقر الحال .. أما وزير (الميسرة) فكان له رأي آخر فتقرر اغتياله وأكل لحمه وشرب دمه .

وأعلنت لولو العصيان على الملك سليمان في شهر نيسان (أبريل) ١٩٧٥ ... واعتصمت لولو بجنينها ، وصارت وزوجها يقاتلان رجال الملك الذين حاولوا عبثاً اختطافها وغسل دماغها ورحمها .. ووقف الى جانبهما الأطفال والبسطاء والشعراء الجوالون في المملكة .. كانت ظروف حياتها وسط الرصاص والقنابل والكلاب البوليسية التي تتعقبها قاسية ..

وقد أصيبت أكثر من مرة ... وبترت يدها اليمنى واحترق شعرها الجميل ... لكن الطفل كان يكبر في أحشائها ولم يكن طفلاً عادياً ..

فقد كانت حركاته في بطنها تشبه حركات قذيفة من نار .. لم يكن يسبح في كيسه المائي كبقية الأطفال ، وانما كان يركض كعداء يسابق أعداء مجهولين ... كأنه هارب من أولئك المتحالفين لاجهاضه ... وكانت تحس بأن له ساقي رجل ناضج يعرف طريقه .

وفي الشهر التاسع ، شهر كانون الثاني (يناير) لم تضع لولو طفلها .. وخافت خوفاً عظيمـــاً ..

الا أن زوجها طمأنها : طفلك ليس عادياً ... وحملك له قد يستمر تسعة شهور أو أو تسعة أعوام ... المهم ألا يجهض ... وهو لن يولد مرة ، بل سيولد أكثر من مرة في أكثر من مكان واحد .. وسيولد بالذات حيث لا يتوقعون مولده ...

كانت الجدة قد غرقت في نوم عميق ،

وختم الصبي الحكاية : توته توتة لم تنته الحدوتة بعد .. ولن تنتهي قبل زمن طويل طويل ...

وترك جدته غارقة في شخيرها ، وحمل رشاشه وجيتاره ، وانطلق في الليل كي يساهم في شروق الشمس .

« تمت » ؟

مشاريع كوابيس
وملاحظات لاضافتها او الاستفادة منها
وقت كتابة الرواية

ملاحظة — ١ — عن (المثقفين) — بالضبط طبقة (مثقفي المقاهي) المتفشية في بيروت خاصة والعواصم العربية الأخرى عامة .

التقيت بفئة منهم . كانوا يستعدون للهرب الى أوربا ، ويقومون بجولة (وداعية) لبيروتهم ! ..

بدوا لي وهم ما زالوا يتفلسفون أمام مشهد المساكين الواقفين في صف طويل أمام بئر ينتظرون دورهم لملء الماء ، و (يتفرجون) على دنيا الناس — الأقل مرتبة منهم — وفي عيونهم كثير من الاغتراب والتسلية في آن معاً ، تعبير شبيه بالذي نراه في وجوه زوار حدائق الحيوانات ووقفتهم أمام أقفاص الكائنات الحيوانية المسلية . كان في وجوههم شعور نازي بالتفوق والتمييز .

أراهم في كابوس على الشكل التالي :

مقهى رصيف « كالدولشي فيتا » بالروشة مثلاً حيث يمارسون صيد السمك الوهمي ، حاملين قصبات الصيد وصناراتهم متدلية في الفراغ على الرصيف لا في البحر .. هنالك مقاعد مريحة وذات مساند مصفوفة على طول الافريز الحجري الواطىء الذي يفصل رصيف المقهى عن رصيف الشارع . الضوء رمادي شاحب وليس واضحاً فيما اذا كان الوقت فجراً أم غروباً . في المقاعد المصفوفة كما في دور السينما تماماً (وقد نزعت من المقهى الطاولات) يجلس المثقفون والمثقفات ويمسكون بأيديهم قصبات صيد السمك الطويلة جداً والطعم في كل صنارة حرف من حروف الأبجدية .

الجميع يضعون على عيونهم حجباً سوداء كتلك التي توضع للأحصنة وبقية البهائم حين تربط الى محور تدور حوله باستمرار (حول البئر مثلاً) ، وتستمر في الدوران حتى ولو كانت البئر فارغة من الماء .

الرجال (المثقفون) يضعون باروكات شعر طويلة على رؤوسهم مثل التي يضعها القضاة الانكليز ، أما النساء فحواجبهن محلوقة تماماً وقد رسمن في موضعها خطاً رفيعاً

بالحبر الصيني . شعور رؤوسهن حليقة تماماً ويرتدين قبعات الممرضات البيض والمنشاة .
الطقس حار والكل يرتدون معاطف الفراء . (المثقفات) يدخن الغليون . الرجال يمضغون الشيكلس .
الجميع ، من مثقفين ومثقفات ، يحملون في أيديهم اليمنى صنارات صيد — كما ذكرت — فهم جالسون في المقهى للصيد . البحر بعيد ، وصناراتهم لا تصل الى مدى أبعد من الرصيف الملاصق لهم لكنهم يتوهمون أن صناراتهم مغموسة في البحر . الناس يتجنبون رصيفهم . من آن الى آخر يتحدث مثقف عن السمكة التي اصطادها أو الحوت أو القرش أو حصان الماء أو نجمة البحر أو الصدفة المليئة باللؤلؤ أو السردين أو المرجان واصفاً صيده بأبيات من الشعر الموزونة والمقفاة بالعربية مثلاً أو بألفاظ فرنسية أو انكليزية شديدة الحذلقة .
كتابة الكابوس بلهجة محايدة .

* * *

ملاحظة — ٢ — مناخ الثورة يفسد « فرصة التنفس » و « أعمال » طبقة (سيدات المجتمع) العاطلات بالوراثة و « نجماته » المستجدات ، المرتزقات من السهرات والمناسبات الاجتماعية التي تعقد خلالها الصفقات حيث يمتزج العهر المالي والاحتكاري مع العهر الجنسي في بوتقة مناخ فاسد انسانياً ... هذه الطبقة تفسد الثورة مصالحها ومزاجها خصوصاً المرتزقات بصورهن في (صفحات المجتمع) ببعض المجلات ، تلك الصور التي هي في جوهرها اعلانات مجانية عن عاهرات لا ميزة لهن سوى أن « قواديهن » هم من بعض حكام هذا الوطن البائس . كابوس يرسم هذا المناخ من خلال صقيع علاقة زوجية لاثنين من هذه الطبقة . زوجان لم يألفا الحياة (معاً) كانسانين ، وانما ألفا لعب دور اجتماعي متناسق ومن هنا كان زواجهما — المدعوم (بالأصدقاء) والصفقات — ناجحاً .

الحرب الأهلية تضعهما وحيدين وجهاً لوجه كل منهما مع الآخر ومع نفسه وهي مواجهة تحدث للمرة الأولى . فأكثر (الأصدقاء) رحل أو قتل أو انعزل في قصره مع مخاوفه وحيداً مثلهم أو استأجر بعض المرتزقة لحمايته .

لم يعد تبادل الزوجات ممكناً ولا تبادل الأزواج . والأثرياء العرب لم يعودوا يشرفون

البلد بزياراتهم وسهراتهم وهداياهم والعشيقات الأجنبيات اللواتي كن يرفهن عن الأزواج الضجرين ويتحركن في مسبح « السان جورج » وقد خلعن القطعة العليا من (المايوه) – راميات في مستنقع حياة أولئك الرجال حجر إثارة – ، كلهن قد رحلن .

الكابوس : يصور زوجين في قصر كبير مبني بأكمله من ألواح الثلج .

القصر فارغ من الأثاث تماماً ومن الأطفال والصمت المخيم لا تقطعه سوى طلقات الرصاص .

الزوجة جالسة على مقعد هزاز في غرفة . الزوج في غرفة أخرى على مقعد مشابه .

لا أثاث في القصر بأكمله سوى المقعدين الهزازين وجهازي هاتف أحدهما على البلاط العاري أمام الزوجة والآخر أمام الزوج ... الهاتف بلا أشرطة ولا تمديدات .

كل من الزوج والزوجة ممسك بالهاتف ويتحدث محاولاً الاتصال بالآخر ، ومحاولاً الاتصال بالعالم الخارجي .

كل منهما لا يسمع غير صوته . الزوجة تترك سماعة الهاتف – من آن الى آخر لتتحسس شعرها الملفوف حول الأسطوانات الحديدية الخاصة بذلك . كلاهما عار تماماً ، وهي قد ألصقت علي صدرها (المترهل بدون حمالات) قطعة قماش عليها اسم « بيير كاردان » (Tag) منتزعة من فستان ما ، والرجل تتدلى من عنقه قطعة مشابهة عليها اسم « تيد لابيدوس » منتزعة عن بيجامة لها هذه الماركة ، وقد اكتفى بالصاق (الماركة) دون ارتداء الباقي .

تحاول هي الاتصال بعشاقها وتفشل .

يحاول هو الاتصال بعشيقاته وزوجات أصدقائه ويفشل . يحاول كل منهما الاتصال بالآخر في الغرفة المجاورة ويفشل . يتعالى صوت الرصاص ثم تكسر ألواح الثلج ويدخل مئات الأطفال وهم يجرون مكنسة كهربائية عملاقة ويسارعون بها نحو الزوجة (فتشفطها المكنسة) ، و (تشفط) الزوج أيضاً والهاتفين الميتين والكرسيين العتيقين وتحملهما الأرجاني العتيق .

* * *

ملاحظة ٣ – الحب هو العمل معاً والكفاح معاً وتوافق الكهارب وتناغم النظرة الى الوجود . أي زواج مبني على حب (آخر) ينهار على محك الحرب الأهلية .

كابوس عن ارتفاع نسبة الطلاق لا (ضجراً) كما يتوهم البعض ولكن لأن الحرب الأهلية تعري العلاقات .

الكابوس : العروس تدخل الى البيت الجديد محاطة بأمها وعمتها وخالتها وبقية عجائز الأسرة ، ولهن جميعاً أجساد بدينة ورؤوس غربان .

يكشف العريس ستارة . تبدو خلفها سيارة فخمة . تشهق الغربان . يقول بلهجة مسرحية كمن يقدم راقصة لجمهور كاباريه من الدرجة الخامسة .. السيارة ...

وتصفق غربان الأسرة بمناقيرها ، وتتعالى (زلاغيط) أم العروس وخالتها وعمتها .

يكشف ستارة أخرى بالحركة المسرحية ذاتها . يبدو خلفها براد فخم . يقول بصوت مذيع في السيرك : البراد .

يتعالى التصفيق ممتزجاً (بالزلاغيط) .

ستارة أخرى : المكنسة الكهربائية . تصفيق حاد بالمناقير .

ستارة أخرى : العصارة الكهربائية ماركة مولينكس . تصفيق شديد .

ستارة أخرى : غرفة طعام لوي كاتورز . تصفيق .

يكشف ستارة أخرى . تبدو فتاتان كل منهما داخل علبة شفافة كالتي تهدى بها الزهور ومربوطة بشريط وردي كبير . يقدمهما العريس : خادمتان واحدة للمطبخ وأخرى لبقية أشغال البيت . تصفيق شديد وهتاف بحياة العريس .

ستارة أخرى تكشف عن ملاءات للسرير من الحرير المطرز .

تصفيق وهتاف : يعيش العريس . يحيا الزواج .

العريس يحمل العروس ويمددها على السرير . يكشف ثيابها حتى الخصر . يفك أزرار بنطلونه السموكن ، ووسط تصفيق الغربان يمتلكها فوراً دون أن يخلع أحدهما ثيابه أو ينظر أحدهما الى الآخر . تصفيق حاد ...

تخرج غربان الأسرة حاملات معهن خرقة غير ملطخة بدم أحمر بما فيه الكفاية ، ويتم بسرعة استبدالها بخرقة مدهونة (بالميركركروم) بالدواء الأحمر كانت معدة سلفاً لهذه الغاية ، وترفع كعلم ويخرجن بها في مظاهرة نسائية تحمل اليافطات التي تنادي بسقوط حقوق المرأة والرجل معاً .

المشهد الثاني من الكابوس نفسه : البيت ذاته . العريس والعروس ما زالا في ثياب العرس وقد ضم كل منهما الآخر في خوف .

تأتي القذيفة الأولى : تطيح بالسيارة . تتراخى يد العروس الممسكة بالعريس ، وكذلك يده .

القذيفة الثانية تطيح بالبراد . العروس والعريس ، يفلت كل منهما الآخر .

القذيفة الثالثة تطيح بالمكنسة . العروس تبتعد وتغطي ساقيها تماماً بالثوب الذي كان ما يزال يكشف عنهما .

القذيفة الرابعة تطيح بالتلفزيون .

العريس يعيد إحكام أزرار بنطلونه التي كانت ما تزال سائبة . قذيفة تطيح بفضية كريستوفل وأواني الكريستال . العروس تقف وقد أدارت ظهرها للعريس وهو أيضاً ، قذيفة تطيح بغرفة الطعام . كل منهما يمشي بعيداً عن الآخر وباتجاه معاكس . قذيفة تطيح بغرفة النوم ، وكل منهما خرج الى شارع مختلف وافترقا دونما وداع ودون أن يلتفت أحدهما الى الوراء نحو الآخر .

عند المنعطف يلتقيان صدفة . ينظر كل منهما الى الآخر نظرة عابرة دون أن يعرفه أو يتذكره .

* * *

ملاحظة ٤ — حرائق بيروت تلتهم المقاهي والمطاعم القديمة كلها ، وتلتهم الذكريات معها بوحشية لا متناهية . هكذا يبدو الأمر بالنسبة (لأصحاب الذكريات) .

كابوس : الأم تقرأ في احدى الصحف عن احتراق مطعم (السويس ريفيوج) . هناك كانت تلتقي بعشيقها الضابط الفرنسي الوسيم أيام الانتداب . تتذكر النبيذ والموسيقى وفستانها المخمل الأسود والوردة الحمراء الاصطناعية على ياقته ، وشبابها وملمس شفتي حبيبها في ظلال الشموع وتبكي وتشتم المتوحشين الذين يحرقون (بيروت الذكريات) . ابنها لا يقول شيئاً . لا يقول لأمه انه هو الذي وضع العبوة الناسفة في المطعم بعد أن استطاع القناص المحتمي في سطحه قتل اثنين من رفاقه الثوار . انه لا يقول لأمه انه بحاجة الى بناء بيروت ليست كباريهات للوطن العربي ولا بيت دعارة للزبائن القادمين من المحيط الى الخليج ولا مدينة لذكريات العجائز والمتصابين المصرين

على تعاطي المقويات الجنسية التي تملأ الصحف الاعلانات عنها . ويترك أمه تبكي وتنبش في صناديقها بحثاً عن فستان المخمل الأسود والوردة الحمراء الاصطناعية ويحمل رشاشه ويخرج من البيت .

تجد هي الفستان . الوردة صارت صفراء داكنة بلون الصدأ . الفستان صار وكراً لديدان العتق . تحمله وتنفضه فتخرج منه سحابة من العث والحشرات وتحيط السحابة برأسها مثل عش نحل مسعور وتبدأ بأكلها بشهية وبعد دقائق لا يبقى من رأسها سوى الجمجمة . حين يعود ابنها مساء تفتح له الباب برأسها الجمجمة ، والحشرات تفور من ثقوب عينيها وأنفها وأذنيها . لا يلحظ هو أن شيئاً قد تبدل في أمه . لقد كان دوماً يراها هكذا . يرمي برشاشه على السرير وينام فوقه بثيابه دون أن يأكل .

الأم تتابع بكاءها بقية الليل حزناً على حريق مطعم الـ (سويس ريفيوج) !

* * *

ملاحظة ٥ — الحرب الأهلية تمزق العلاقات البشرية التي لا جذور حقيقية لها .

الرجال يتخلون عن عشيقاتهم — ليلاً على الأقل — ويلازمون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم ويفضلون الانفاق على بيت الزوجية بدلاً من الانفاق على (الجرسونييرة) .

كابوس عن زوجة تشعر بأن الحرب الأهلية قد أعادت اليها زوجها .. صار يلازم البيت ولا يغادره بعد أن كانت لا تراه الا صدفة . الجنون ، جنون القصف ، والهاتف المعطل قطع عنه حتى فرصة الحوار مع عشيقاته .. انها تنظر بهلع الى انتهاء الحرب الأهلية ، وستخسر الرجل الذي تحب حتى الجنون ...

ذات ليلة ، تسمع في الراديو خبر هدنة ووقوف اطلاق نار ، وان الأمور ستعود كما كانت والحرب ستتوقف . تخفي النبأ عن زوجها . تدعي أن بطاريات الراديو قد نفدت كي لا يسمع الأخبار . ترسل بأولادها الى بيت أمها المجاور ليناموا عندها . تجره الى الفراش كي لا يتحدث والجيران . يغفو وتظل هي مستيقظة وخائفة تفكر بمرارة وخوف ... لا . لن تفقده ثانية . لن تتركه يعود الى عشيقاته . تأخذ مسدسه وتطلق على رأسه طلقة واحدة .

لا أحد يهتم بصوت الطلقة لأنه من روتينيات ليالي بيروت .

تضم اليها جسده الذي ما زال حاراً وتنام . عند الفجر يندلع القتال ثانية . يندلع

بشدة لا حد لها وتشعر بندم مرير . ليتها لم تتسرع . ليتها تيقنت من توقف القتال نهائياً قبل قتله . القتال يشتد ويتعذر عليها حتى مغادرة باب دارها . جثته تتعفن . تهترىء أمام عينيها . تفوح رائحتها ويخرج منها الدود ولكنها تظل تضمها الى صدرها حين تنام ليلاً .. تنام ولا تنام ، وتبكي وتضحك في آن معاً ...

حين تهدأ الجولة بعد أسبوع وتأتي أمها لتفقدها يجدونها وقد ماتت جوعاً وعطشاً بينما قتل زوجها برصاصة (طائشة) في رأسه .

* * *

ملاحظة ٦ – عن المعركة التي دارت في مطعم « ميرتوم هاوس » بالقنطاري وكيف روتها لي أطراف مختلفة لها علاقة بها ، وكل شخص يرويها لي كما لو كانت حكايـة مختلفة .

ايرين التي تقطن منزلاً ملاصقاً للمطعم روتها لي . ثم رواها شاب من المرابطين الذين اشتركوا بالمعركة . ثم رواها لي خليل نقلاً عن هيلين ، الجارة الأخرى للمطعم .. وكانت الروايات كلها مختلفة ومتباينة ..

ذلك لا يعني بالضرورة أن أحداً كان يكذب . فأداة الانسان لمعرفة الحقيقة قاصرة جداً تعتمد على حواس خمس وتنقل هذه المعرفة عادة بواسطة أداة أخرى قاصرة جداً جداً هي اللغة .. والنتيجة الاستماع الى عدة روايات مختلفة عن حادثة واحدة دون أن يكون هنالك من تعمد الكذب .

الكابوس – أنا معصوبة العينين . جني الحقيقة يقول لي : احزري أين أنت مسجونة لنطلق سراحك .

تهاجمني الأمواج فأصرخ : أنا مرمية في البحر .

يقول : لا . ليس تماماً .

ألمس جداراً صلداً أملس فأصرخ : أنا في قاع بئر .

يقول : ليس تماماً .

أتحسس الجدار فأجد صخوراً شاهقة وبلا نهاية .

أقول : أنا على شاطىء نهر طويل .

يضحك : ليس تماماً .

يرفعون العصابة عن عيني . أجد أنني في قاع زجاجة نبيذ ! ... لا بحر . لا نهر . لا صخور شاهقة . مجرد دائرة أسبح حولها دون أن أدري .

كابوس – أنا واحدة من قافلة العميان : يطلقوننا حول فيل ويقولون لنا آن من يعرف ماذا يلمس تعود اليه نعمة البصر .

أمسك أذن الفيل وأقسم أن الجسم المطلوب معرفته هو مروحة .

ثم أمسك بذنب الفيل وأقسم أنه سوط لا مروحة .

ثم أتحسس جسد الفيل وأقسم أنه جدار . مجرد جدار لا أكثر .

ثم أمسك خرطوم الفيل وأقسم انه (نربيش) مطافيء .

ثم يضحك جني الحقيقة ويقول لي انه فيل ! ... ويتركني عمياء ... فالحقيقة متعددة الوجوه.المهم أن نتقبل ذلك الواقع ،لا أن نصر على أنها أحادية فقط لاغير ! ... ويتركني عمياء .

* * *

ملاحظة ٧ – (مثقفة) . زوجها يعمل في بلد عربي شقيق ويحول اليها النقود كل شهر بصفتها (مربية) لأطفالهما .

علاقتها بالأطفال والخادمة شبه متلاشية . تقضي أوقاتها في شرب الكحول والجلوس في مقاهي الرصيف وهي تتحدث عن الأدب العربي وتنتقد الكتاب جميعاً ، وفي التمدد في غرف نوم أصحاب الأسماء اللامعة من شعراء ، وصحفيين .

الزواج بالنسبة إليها هو تحويل يصلها أول كل شهر الى البنك ، وهي تتحدث باستمرار عن تحرر المرأة وتمارس استعباد الرجل .

فكرة الكابوس : تذهب أول الشهر الى البنك لقبض التحويل . شربت كثيراً من الكحول في الشهر السابق وأنفقت الكثير على شراء (الحشيش) وهي بحاجة ماسة الى التحويل .

تصل الى البنك . تجده مغلقاً بسبب الأحداث والقنابل . هكذا يقول لها البواب الذي لا يسمح لها بالدخول . كعادتها ، تمارس أسلوبها الوحيد للعيش . تضاجع البواب على العتبة فيسمح لها بمقابلة البواب الثاني تضاجع البواب الثاني فيسمح لها بمقابلة مدير البنك .

تضاجع مدير البنك بعد أن يعدها باعطائها التحويل الذي وصلهم باسمها . وبعد أن تنهض عن الأريكة وبيدها علبة (الكلينكس) يناولها مدير البنك التحويل الذي ورد باسمها . تفاجأ بأنه صندوق كبير . أهو يا ترى مليء بالذهب ؟ تفتحه .. تجد بداخله جثة زوجها الذي قتل في طريق المطار أثناء محاولة العودة .

يقول لها مدير البنك : هذا آخر تحويل يبلغك بواسطتنا .

* * *

ملاحظة ٨ — كانت تماطل في أمر زواجها منه . كانت القضية بالنسبة اليها اجتماعية بالدرجة الأولى وهنالك بنود كثيرة عليه تحقيقها قبل أن يضم بين ذراعيه (لوح الثلج) الذي هو (الآنسة الوارثة) ..

الحرب الأهلية تدمر المجتمع المهترىء وتقاليده المترهلة التي تطبق على الروح الانسانية كما كان يطبق الحذاء الحديدي على أقدام البنات الصينيات لمنعها من النمو .

مع الحرب الأهلية يصير المساء حجراً ثقيلاً عبئاً تدفعه عن صدرها ، وتصير ثروتها أمراً مشكوكاً به ، فأملاكها تقع بالصدفة في القسم الآخر من المدينة ، الذي يهيمن عليه أشخاص من دين آخر .. يرحل أكثر أفراد أسرتها أو يقتلون أو يموتون .

مشروع كابوس : يرافقها في السيارة لتعزية ابنة عمها بمقتل زوجها . تقبل أن يوصلها الى هناك بعد أن تعددت حوادث خطف الفتيات أو السيارات أو الفتيات والسيارات معاً .

يجدون أنفسهم فجأة وسط زحام غير عادي من السيارات . اطلاق رصاص يصم الآذان . تتوقف السيارات . يهبط الجميع ويباشرون اطلاق الرصاص . يكفي أن ترتجف يد أحد أولئك الشبان لتصيبها رصاصة ما خطأ وينتهي كل شيء .

تشم رائحة الموت . تتفتح حواسها ... ترى رجلها . تراه للمرة الأولى كرجل لا كمجرد رمز اجتماعي . يستيقظ فيها شيء غامض نائم . حين ينجوان من الجنازة تمنحه جسدها بكل ما فيه من رغبة في الحياة والعطاء .

يحدثها عن الزواج . هذه المرة هي التي تتهرب . تجره للمرة الخامسة ذلك المساء الى الفراش . الورقة لا تهم . حين يكون الموت واقفاً بالانتظار خلف الباب ، تصير الورقة الاجتماعية بلا أي معنى ... مجرد ورقة خريف أخرى ..

ملاحظة ٩ – الفنان يصاب أحياناً بالبكم الفني المؤقت أمام فظاعة ما يدور ..

ملحن موهوب ، ينجو من مجزرة مروعة . لقد اقتادوه مع بقية ركاب التاكسي الى المقبرة وأطلقوا عليهم الرصاص هناك . ظن أنه مات . حين استيقظ اكتشف أنه كان قد أغمي عليه فقط وظنه (الأعداء) قد مات كالباقين . نهض من تحت كوم الجثث . كانت قد بردت فوقه وتصلبت . وكان عليه أن يشق طريقه وسط كوم من الأعضاء التي مزقها الدم والوجوه ذات العيون المفغورة ببرود ، الزجاجية النظرات في ضوء القمر الزجاجي الصقيع ...

من يومها وهو جالس الى البيانو يحاول عبثاً أن يصرخ عبر أصابعه ... دونما جدوى . والجيران يتضايقون من ضرباته العشوائية الصاخبة على البيانو رغم القصف .

ينتهز فرصة هدوء القصف . يخرج الى السوق . يبتاع علبة من المسامير .

يحاول للمرة الأخيرة أن يسكب أحاسيسه الغامضة داخل بناء السلم الموسيقي . يفشل . يشعر بأنه يسقط على درجات السلم الموسيقي . الدرجات من رخام أصم ورأسه يرتطم بها مصدراً صوتاً أجوف ...

يأتي بعلبة المسامير والمطرقة . يدق مسماراً في كل إصبع بيانو . يثبت أصابع البيانو كلها .

الجيران ينصتون تلك الليلة الى سيمفونية عجيبة .: سيمفونية المسامير والمطرقة وأصابع البيانو .

ينهار بعدها على الأرض ويبكي . فهو يعرف أنه أيضاً لا يتقن استعمال السلاح ، ويعجز عن استعماله حتى في حال الدفاع عن النفس . .

يظل يبكي حتى ينام ...

كابوس آخر واختيار أحدهما :

كاتب . طاولته شاسعة . كتب مئات الصفحات عن الحرب الأهلية لكنه غير راض عنها ... كتب كثيراً ومع كل صفحة يزداد حسه بالخيبة والمرارة . يمزق كثيراً من الورق ويكومه حول الطاولة ، والخادمة القذرة البدينة تأتي مرة في الأسبوع لتنظف المكان ...

ذلك النهار يشعر بأنه عنين فكرياً أمام ما يدور من أحداث ، وفي أعماقه تمتزج

الخيبة والبؤس والمرارة والشعور بالعقم ... يهاجم الخادمة العجوز البدينة . يطرحها على الطاولة فوق أوراقه وكتاباته ... يغتصبها وهي مدهوشة لأن ذلك لم يحدث لها منذ ربع قرن على الأقل ...

بعد ذلك ، يستعمل أوراق مخطوطة روايته كأوراق (كلينكس) له ولها ! ...

* * *

ملاحظة ١٠ — عن الأبرياء والحمقى الكثر الذين تحصدهم الحرب الأهلية ...

كابوس : صياد يجوع فيضطر للخروج الى الصيد رغم مخاطر الدرب . تخرج شباكه مليئة فيفرح ، ثم يلحظ أن ما تحتويه ليس أسماكاً بل أطفال مقتولون .

يحملهم الى البيت وتطبخهم زوجته لأن أطفالهم الـ ١٢ يتضورون جوعاً ..

تحصد أطفاله قذيفة ، وهو لا يملك نفقات دفنهم فيرمي بهم الى البحر .

في اليوم التالي تخرج شباك صياد جائع مليئة بصيد وفير ، فيفرح ، ثم يكتشف أن ما تحويه شباكه ليس أسماكاً بل أطفال مقتولون ، لكنه يحملهم الى البيت لأن أطفاله الـ ١٢ في حالة جوع وتطبخهم زوجته ...

وهكذا ...

كابوس آخر يعبر عن الفكرة ذاتها وأفضله حتى الآن : امرأة ترتدي السواد تبكي طوال وقت وقوفها أمام الفرن بانتظار دورها لشراء الخبز . بعد ساعات يحين دورها — وحين يسألها الفران كم رغيفاً تريد لا تقول شيئاً وتمضي دون أن تشتري الخبز . وحين يوقفها مسلح ويسألها عن هويتها تبصق في وجهه وتتابع سيرها دون أن تقول كلمة واحدة .

* * *

ملاحظة ١١ — البؤس الذي عاشته الأكثرية الساحقة من الأطفال العرب ، جعلهم ينضجون قبل الأوان . وجعلت أكاذيب العالم القديم ورموزه وزيفه تنكشف لعيونهم .

فكرة كابوس : أطفال يقررون اختطاف بابا نويل . ذلك الظهر غادر بابا نويل مقر عمله في مخزن كبير لبيع الأحذية متعباً ..

أولئك الصغار الملاعين ... كم تبدلوا ... انه يلعب دور بابا نويل منذ ربع قرن تقريباً لكن الأطفال تبدلوا حقاً في السنوات العشر الأخيرة ... كانوا فيما مضى يرمقونه

باحترام ... ويلمسون لحيته الاصطناعية البيضاء مبهورين بها ... ويتحسسون قبعته بخشوع ... ويأخذون نصيبهم من الألعاب راضين مكتفين بهدية السماء اليهم ...

كانوا جميعاً يصدقون أنه قد وصل لتوه من السماء وبعضهم كان يسأل بخشوع عن صحة الرب وعن الطريق وعن النجوم والثلج والغيوم ... وليس بينهم من يخطر بباله ولو لثانية واحدة أنه لا يحضر كل صباح من السماء وانما يحضر من بيته الفقير البائس في حي برج البراجنة بضاحية بيروت ، وانه لا يأتي في عربة تجرها الملائكة وانما يأتي في سيارة تاكسي.(سرفيس) تكاد رائحة مازوتها تخنقه ... ويسارع الى الغرفة الخلفية بالدكان ، فينفض الصراصير عن ثوبه التنكري العتيق ويرتديه محاولاً اخفاء اهترائه ويلصق اللحية البيضاء التي تخفي قليلاً تعبير البؤس المرير الذي يزداد عمقاً عاماً بعد آخر حول شفتيه كأنه أخدود مزروع بالشوك ...

أما أطفال الأعوام الأخيرة فمن طينة أخرى ...

انهم يجذبون له لحيته ويسألونه ما اذا كانت من الشعر الطبيعي أم الاصطناعي . ويسألونه ساخرين عن المدخنة التي هبط منها ، وهل ساعدته الجرذان على تسلقها أم أنه فعل ذلك بنفسه ! .. أولئك الشياطين الصغار ... بل انهم صاروا في العام الأخير يصرون على الحصول على نوع واحد من اللعب : الأسلحة .

وصاحب الدكان لا يحب الأسلحة . والنتيجة أن الركلات تنهال على قدميه من أقدام الأطفال الملاعين .

حين خرج ذلك المساء فوجىء بعشرة من الأطفال يقتادونه بعد أن بلّغوه أنــه مخطوف . كانوا يحملون المسدسات في أيديهم وخيل اليه انها حقيقية . خاف قليلاً ، بالضبط ، شعر بأنه يواجه خطراً غامضاً لا يعرف كنهه . يقتادونه الى جدار .

يتلو أحدهم قرار الحكم باعدامه رمياً بالرصاص .

يسأل : لماذا ؟

يقول الأول : لأنك قناع ونحن نكره الأقنعة .

يقول الثاني : لأنك صديق الأغنياء فقط .

يقول الثالث : لأن ألعابك مخدرة ومن نوع الكماليات .

يقول الرابع : هداياك مكرسة لترسيخ قيم عالم غير عادل .

يقول خامس : وتفعل ذلك تحت ستار ارادة الله ... فتساهم بذلك في تزييف حقيقة ارادته .

يقول سادس: لأنه لم تعد هنالك مدخنة تهبط منها. إننا نختبيء من أعدائنا في المداخن.

يقول سابع : انهم يحرقون جثث آبائنا ومرورك يعترض طريق دخانهم ولا نريدك أن تدوس على رمادهم ...

ويصرخون جميعاً : ولأنك صديق الأغنياء فقط لا صديقنا نحن ...

فيصرخ فيهم : ولكنني فقير ... فقير.. اقتلوا صاحب الدكان لا أنا ...

ويقتنع الأطفال .

يتركونه مطلق السراح ، ودون أن يسألوه كالكبار ما اذا كان مسلماً أم مسيحياً . يقررون الذهاب لاستجواب صاحب الدكان .

يطلب بابا نويل الانضمام اليهم فبينه وبين صاحب الدكان حساب عمره نصف قرن...

يرفض الأطفال أم يقبلون ؟

لا أدري . لم أعد أسمع أصواتهم الآن .

سأقرر ذلك وقت كتابة الرواية .

* * *

ملاحظة ١٢ — الأثرياء يحاولون شراء النجاة من غضب الشعب بالمال . بعضهم استطاع الهرب مع أمواله الى أوروبا حيث ينتظره جحيم من نوع خاص .

البعض قرر (الاحتيال) على البقاء أملاً في مزيد من الاثراء عن طريق الحرب الأهلية ، واستمراراً في منطلقاته العتيقة القائمة على التوهم بأنه بالامكان شراء أي شيء بالمال : حتى النجاة .

فكرة كابوس : ثري اقطاعي لا يقض مضجعه غير كابوس الخطف ، وما أكثر الراغبين باختطافه ومحاكمته في محكمة الليل والحقيقة وتنفيذ الحكم به في ساحة الثورة .

يقرر أن يكون له بديل (ككل الممثلين الكبار) . ومهمة هذا البديل ستكون تماماً كمهمة البديل في السينما . أي أنه سيقوم بتمثيل « الأدوار الخطرة » عنه . سيذهب عوضاً عنه الى اقطاعيته ، وسيلقي الخطب بالنيابة عنه ، وسيقوم بكل تلك الزيارات البغيضة الى بيوت الناس الذين ورث ولاءهم ورقابهم .

يسر الى زوجته بالفكرة . زوجته التي تكرهه — والتي كان زواجها منه مجرد صفقة انتخابية بين والدها ووالده — لا تعجبها الفكرة ، فقد كانت تطمح في أن تخلصها الحرب الأهلية منه وتخلف لها ثروته أو بعضها . وهذه الفكرة قد تنقذه . سيأتي بشخص فقير يشبهه ، وان كان أصغر منه بعشرة أعوام . سيجري له عدة عمليات تجميل في وجهه ليبدو أكثر سناً ، وليصير نسخة عنه . وسيبدل هو ملامحه اتقاء للخطف ، وفي حالات الطوارىء يقتل بديله .

تنفذ العملية بنجاح .

البديل الفقير يحمل وجهه ، ويلعب دوره ، وقد تعرض حتى الآن لعدة محاولات اغتيال بينما كان هو راقداً في فراشه الوثير يضحك سعيداً باللعبة .

تتفق الزوجة والبديل .

يقتلانه ويشوهان جثته . يرميان بها تحت أحد الجسور فلا يميزها أحد .

يتابع البديل لعب دوره فلا يلحظ أحد أنه قد مات . كل ما يلحظونه هو أنه صار أكثر اهتماماً مما مضى بزوجته الحسناء وأنه يجمع ما يستطيع جمعه من النقود بالعملة الصعبة ويبيع أراضيه بأثمان بخسة ..

وذات صباح يفاجأون به وقد غادر المدينة مع (زوجته) دون أن يبلغا أحداً بعنوانهما أو الى أين ...

* * *

ملاحظة ١٣ — عن المحاولات التوفيقية السخيفة التي قام بها بعض البورجوازيين والتي كشفت سطحية نظرتهم الى ما يدور ومدلول ما يدور .. أبرز مظاهر هذه المحاولات التوفيقية والطوبائية المنطلقات هي المظاهرات التي كانت تخرج في شارع الحمراء حاملات لافتات الدفاع عن البروليتاريا باللغتين الانكليزية والفرنسية حتى دونما لافتة بالعربية .

كابوس : مظاهرة من هذا النوع . كل شخص يجر معه كلبه أو قطته المدللة ، أو يحمل قفصاً ذهبياً فيه فأره الأبيض أو عصفوره المغرد . النساء يرتدين أحذية عالية الكعوب جداً والرجال يرتدون بدلات السموكن .

كل من في المظاهرة يركض بجنون ، تقترب طفلة من احدى النساء وتسألها لماذا

تركض المظاهرة . تجيب المرأة ذات الشعر المصبوغ بلون أزرق : كي لا يفوتنا موعد شاي بعد الظهر .

* * *

ملاحظة ١٤ — اللامبالاة بما يدور هو جريمة . ليس هنالك محايد . لا أحد بريء في مجتمع ظالم ، فالسكوت بحد ذاته تشجيع على استمرار الظلم وهو بالتالي مشاركة لا مباشرة في ارتكاب الجرم . (المحايدون) يشجعون الظالم بسكوتهم — فهم لا ينطقون الا بعد أن تمس مصالحهم مباشرة — وهذا السكوت هو نوع من التواطؤ الضمني ومعاهدة (حسن جوار) بين الظالم والذي لم يُظلم بعد أو المظلوم أقل من سواه ، أو المظلوم الى حد لم يدفع به بعد للانفجار .

نواة الكابوس : أنطوان يسكن في بيت بمنطقة رأس بيروت تطل على ملعب للتنس .

كان سعيداً بذلك يقضي بعضاً من أوقاته يرقبُ سيقان لاعبات التنس الجميلات من خلف منظار مكبر اشتراه خصيصاً لذلك .

حين شبت الحرب الأهلية باع المنظار فقد فرغ الملعب تماماً من اللاعبين جميعاً واشترى بثمنه رشاشاً وتمرن جيداً على استعماله لكنه قرر أنه لن يستعمله الا في حالة واحدة هي : حالة الدفاع عن النفس . أي أنه لن يطلق النار أبداً إلا اذا اقتحم بيته مسلـــح .

ولم يحنث بقسمه لنفسه . وحتى حينما (شاهدهم) يسرقون سيارته من أمام البيت في احدى الليالي لم يطلق رصاصة واحدة . تأملهم في الظلام وهم يعالجون أقفالها ويسرقون أمام عينيه ثمرة كدح خمسة أعوام ولكنه عض على شفته حتى سال الدم منها . انه لن يقتل دفاعاً عن أي شيء الا دفاعاً عن حياته ...

ذات يوم فوجىء ببعض الرجال في الثياب البيض (الشورت) الخاصة بلعب التنس وهم يطاردون الكرة بمضارب التنس .

اذن هنالك من استطاع أن يظل (حيادياً) . أن لا يبالي . أن يهتم بالمحافظة على (لياقته) .

تذكر المدفع الذي كان منصوباً في الملعب منذ أسابيع ... كانوا يقصفون منه الى

الناحية الأخرى .. وكان بيته بأكمله يرتجف خوفاً — كركبتيه — وانكسر بعض زجاج غرفه لعنف الضغط الذي كان القصف يولده .. ثم جاءت قذيفة عطلت المدفع والرجال معاً ، وكان بوسعه أن يسمع صرخاتهم المنبعثة من أجسادهم الممزقة ..

وجاء من لملم الجرحى والجثث والمدفع ... وها هم الآن يأتون من جديد للعب التنس فوق رمل الملعب الذي لا بد وأن الدم ما زال يصبغه ...

لا يدري لماذا . وجد نفسه يأتي برشاشه .. يضع صمامه على المكان الخاص باطلاق رصاصات منفردة (لا رشاً) ... يقف الى النافذة ويصوب جيداً ... يطلق الرصاصة الأولى فيسقط الأول . يركض الثاني . يطلق رصاصة ثانية فيخطئه . ثالثة ، فيسقط .

يشعر براحة عميقة .

لسبب مجهول يحس بأنه لم يحنث بقسمه .

بطريقة ما ، يحس بأنه قد قتل دفاعاً عن النفس .

* * *

ملاحظة ١٥ — امكانية كابوس آخر موضوع ملاحظة ١٤ نفسه .

الكابوس : أحدهم أراد أن يرفه عن (الأكثرية الصامتة !) وعن (الأبرياء العزل) وعن (المحايدين) ...

قرر افتتاح مدينة الملاهي واحضار سيرك للترفيه عن أهل بيروت الذين يعيشون منذ أشهر والكهرباء مقطوعة عنهم وكذلك الماء . يأتي بمولد كهربائي وينصب خيام السيرك معلناً افتتاحه .

يأتي بعض الناس . ليسوا (أكثرية) كما يتوهم البعض . تدور العجلات وتعلو الموسيقى وصرخات اللعب ويتراكض الناس وتومض اللمبات الملونة . بدأت جيوب قاطعي التذاكر تمتلىء بالنقود ..

وفجأة حدث شيء مفاجيء ..

الراكبون في الدولاب العملاق لمدينة الملاهي بدأوا بالصراخ ... لقد تكهربت مقاعد الدولاب بأكمله ، ثم صار يدور بسرعة جنونية والناس يتناثرون عنه في الفضاء ثم يهوون محطمي الرؤوس ومن لم يمت منهم مصعوقاً مات محطم الأعضاء ..

الحيوانات كسرت أقفاصها وهجمت على الناس تأكلهم .. حتى الحيوانات

الأليفة كالعصافير والبط والطواويس والأرانب استحالت مفترسة كالنمور وهجمت على الناس تفقأ عيونهم وتأكل لحمهم ..

الأشباح في (ممر الرعب) صاروا حقيقيين لا مجرد ظلال تلقيها آلات خاصة .

السيارات التي تركض في دروب وهمية الأخطار صارت تنقلب براكبيها والأخطار صارت حقيقية ...

أما أحدب السيرك المفروض أنه مكلف باضحاك الأطفال ، فقد انقض على صاحب الفكرة وظل (يدغدغ) صاحب السيرك بسكينه حتى مات من الضحك .. والنزف .

* * *

ملاحظة ١٦ — عن استخفاف عدد كبير من المسؤولين العرب بما يحدث لشعوبهم . المسؤولية لديهم وسيلة للثراء والسلطة لا لخدمة الناس . كل ما يعنيهم من أحداث لبنان هو ألا تؤثر على مصالحهم وأن لا تحدث (لهم) ، أما الذين يموتون من لبنانيين وفلسطينيين فمجرد أرقام . أما (العروبة) بالنسبة اليهم ، فهي موضوع (خطابي) جيد لابتزاز مزيد من صمت البسطاء ، ولتأليف الأناشيد الحماسية والبرامج التلفزيونية .

هذا النوع من المسؤولين تجدهم غالباً في كازينوهات أوربا الغربية والأجنحة الخاصة في أفخم فنادقها .

كابوس : ذلك الثري العربي الواسع النفوذ في احدى رحلاته (الاستجمامية) الى أوربا . يشتري له سماسرته أجمل الأوربيات ويأتون بهن الى جناحه الخاص في الفندق الكبير . يحب امتلاكهن واذلالهن في آن واحد ، لذا فانه يمارس (ذلك) بينما يرقب برنامجه التلفزيوني المفضل...ذلك المساء كانت الغانية أكثر مهارة مما يجب واستطاعت أن تنسيه شاشة التلفزيون ، وأخيراً حينما استوى جالساً في فراشه وأشعل لفافته فوجىء « بأكره » البرامج الى قلبه : الأخبار . وكانت الشاشة مليئة بالحرائق والخرائب والمذيع يتحدث عن مذابح بيروت ودمارها ... حدق في الشاشة قليلاً ثم تذكر أنه نسي الاتصال بأحد أصدقائه الحميمين الهامين . أدار قرص الهاتف وقال : مبروك يا شريك . الشحنة ممتازة ، وقد شاهدت الآن في التلفزيون مدى فعاليتها . ما رأيك بشحنة أخرى من الأسلحة ذاتها ؟ .

نواة كابوس : الثري نفسه يقامر في الكازينو . خسر الليلة كثيراً .. أكثر مما كان يتوقع . الى جانبه خارطة العالم العربي بشكل نموذج شبه حي ، فيه أشجار وبحار وأنهار ومئات الملايين من الناس .

يستل سكينه ويقسم قطعة من الأرض العربية ، ويضعها على طاولة المقامرة ويلعب بها . يخسر .

يستل سكينه ويقتطع قطعة أخرى من الأرض . يعطونه بدلاً عنها كوماً من (الفيشات) . يلعب . يخسر .

حين يمد يده ليقص لبنان ، تحترق أصابعه بالبركان الملتهب فيها وتندلع النار فيه . يقفز الى طاولة اللعب كتلة من النار ليقامر بنفسه لكنهم يرفضون اعطاءه (فيشاً) واحداً مقابل كومة الرماد التي تحول اليها والتي غطت طاولة الميسر الخضراء .

يأتي خادم حاملاً مكنسته . يكنسون رماده عن الطاولة ثم يسارعون الى الباب لاستقبال ثري عربي آخر نافذ له وجهه نفسه وجسده نفسه وتتكرر الحكاية من جديد .

منشورات غادة السمان

□ انا معجب جداً بما تكتبه غادة السمان. قرأت لها فدهشت، وافتخرت بنفسي، وافتخرت بأن تكون للأمة العربية كاتبة بهذا المستوى. قرأت لكاتبات وكتاب من الغرب ولم اجد أن ما كتبوه أفضل مما كتبته غادة السمان.

الشاعر العربي محمد مهدي الجواهري

١٩٧٩/١/٣٠

الأعمال غير الكاملة لغادة السمان

صدر منها:

١ ـ زمن الحب الآخر (الطبعة الرابعة)
٢ ـ الجسد حقيبة سفر (الطبعة الثالثة)
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الرابعة)
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الرابعة)
٥ ـ اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الثالثة)
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)
٨ ـ ع غ تتفرس (الطبعة الرابعة)
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)
١١ ـ الحب من الوريد الى الوريد (الطبعة الثالثة)
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة

تحت الطبع:

١٤ ـ قراءات لحفلي التأبيني

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان ص.ب: ١١١٨١٣
[illegible] ٣١٤٦[illegible]/ ٣٠٩٤٧٠





يقفز لطول الكتاب هذا الثراء الفاحش المتجلي في كل صفحة ولا سيما في الصفحات الخمسة والعشرين الأخيرة حيث قدمت غادة السمان في «مشاريعها الكابوسية» بعض أجمل وأقوى ما كتب في اللغة العربية خلال السنوات الأخيرة.

ابراهيم العريس – جريدة «السفير» اللبنانية

«كوابيس بيروت» عمل أدبي شامخ.

محمود أمين العالم – مجلة «آفاق عربية» العراقية

هذه الرواية عمل أدبي طليعي بكل ما في الكلمة من معنى وكنز ثمين أضافته غادة السمان إلى أدبنا العربي الحديث

محي الدين صبحي – جريدة «تشرين» السورية

الجميل. والجديد. والجيّد هو الإصرار ببساطة عادية طبيعية على وضع المرأة الند. هذه علامة على طريق.

د. ناديا خوست – «الموقف الأدبي» السورية

غادة السمان. شكراً باسم الحب ولبنان

هنري زغيب – «الحوادث» اللبنانية

